

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة الجزائر 3

كلية العلوم السياسية و العلاقات الدولية

الظاهرة العرقية و الأمن في آسيا الوسطى

الأزمة العرقية في كازاخستان نموذجاً

رسالة لنيل شهادة دكتوراه علوم في العلوم السياسية و العلاقات الدولية.

تخصص: علاقات الدولية.

تحت إشراف:

من إعداد الطالب:

د. مصطفى عبد العزيز

علي لُراري

|                        |                        |                |
|------------------------|------------------------|----------------|
| أ.د عبد الوهاب بن خليف | جامعة الجزائر 3        | رئيساً         |
| د. مصطفى بن عبد العزيز | جامعة الجزائر 3        | مشرفاً و مقررأ |
| د. سفيان صخري          | جامعة الجزائر 3        | عضواً و مناقشأ |
| د. نور الدين دخان      | جامعة المسيلة          | عضواً و مناقشأ |
| د. محمد سي بشير        | جامعة تيزي وزو         | عضواً و مناقشأ |
| د. شريف دريس           | المدرسة العليا للصحافة | عضواً و مناقشأ |

السنة الجامعية: 2015-2016م / 1436-1437هـ

## مقدمة.

تشكّل منطقة آسيا الوسطى مجالا خصبا لدراسة الكثير من القضايا التي استرعت اهتمام الدارسين للعلوم السياسية، في العقدين الأخيرين، بحكم حداثة الكيانات السياسية المنبثقة عن انهيار الاتحاد السوفييتي، و بحكم مركزية المنطقة و توسطها الجغرافي.

فلقد برز للوجود، و بطريقة مفاجئة، خمس دول جديدة، تنتمي إلى فضاء جغرافي عرف أكبر عزلة سياسية و إنسانية عن محيطه القريب الذي شكّل معه في فترات سابقة واحدا من أنشط مراكز الإشعاع الحضاري و كانت هذه المنطقة الحاضنة الأساسية له بفضل إقليمها الذي سمّاه العرب إقليم ماوراء النهر . فيكفي فقط أن تذكر أسماء حواضرها التاريخية كسمرقند و بخارى و ترمذ و بكند و خوارزم ..الخ. ليتضح للقارئ ثقل هذه المنطقة و مركزيتها الحضارية.

بيد أن مركزية هذه المنطقة حضاريا، و مركزيتها جغرافيا، بوصفها إحدى أهم محطات التجارة البرية، التي كانت تتوسط طريق الحرير التاريخي، ما لبثت أن تحولّت إلى هامشية و طرفية ، بفعل تضافر العديد من العوامل ، بعضها هيكلي تقني كاستبدال الطرق التجارية البرية (القارية) بطرق أخرى بحرية بفضل الكشوفات الجغرافية و تطور الملاحة البحرية، و بعضها الآخر ظرفي سياسي بدأ مع بروز الدولة الصفوية في بلاد فارس، و تواصل مع التوسّع الاستعماري الروسي القيصري، و انتهى بتجربة فريدة من نوعها، هي التجربة السوفييتية حيث أدمجت المنطقة برمتها في كيان سياسي كبير، حرمت بسببها من جميع المنافذ الموصلة للعالم الخارجي ، و فرض عليها تبعية مطلقة لمركز الدولة طيلة سبعة عقود طويلة، حيث عرف هذا المركز كيف يشبّت هذا المجال الحضاري الموحد إلى كيانات متفرقة و منفصلة عن بعضها البعض، و يجعلها خاضعة لمنطقه و إرادته.

و لم تكن التجربة التي طبّقت على هذه الدول مشابهة لكثير من التجارب السابقة و اللاحقة، فهي تجربة صُبغت بصبغة علمية إيديولوجية، لا يمكننا فهمها و فهم آثارها دون الرجوع الى أصولها

و مبرراتها، و من تمّ إدراك نتائجها. خاصة أن استقلال هذه الدول تزامن مع بروز المسائل المرتبطة بالهوية بعد عقود من حرب باردة، استطاعت أن تحجبها أو تجمدها.

إنّ بروز هذه المتغيرات الجديدة التي أهملت الدراسات السياسية، لعقود طويلة، كالعوامل المرتبطة بالعرق و الهوية العرقية، لم تحتلّ مكانا خاصا بها، بوصفها موضوعا تحليليا مستقلا و متميزا إلا بعد نهاية الحرب الباردة، فلقد شهدت تسعينيات القرن العشرين بالفعل زيادة هائلة في الاهتمام بهذا النوع من القضايا. و ذلك جزاء تفكك يوغسلافيا والاتحاد السوفييتي، و نتيجة لفشل التحول الديمقراطي في إفريقيا بعدما فشلت نماذج التحديث و التنمية السياسية، و ما صاحبها من بروز الولاءات العرقية على حساب الولاء للدولة. و من دلالات الأهمية التي أصبحت تمثلها هذه القضايا، هو زيادة النزاعات العرقية في عالمنا المعاصر، و زيادة التدخلات الدولية لحفظ الأمن و السلام، و هو ما يجعل الباحث في العلاقات الدولية أول من يعنى بدراسة هذه المسائل المعقّدة.

إنّ التعقيد الذي تعرفه هذه المسائل، لم يكن بسبب طبيعتها المبهمة أصلا، كسائر القضايا المرتبطة بالهوية من دين و ثقافة و لغة، بل لارتباطها بالظواهر و الصراعات السياسية. فما كان للظاهرة العرقية أن تكون محلاً لهذا الاجتهاد و البحث لولا ارتباطها بالرهانات السلطوية و ما ينضوي تحتها من موارد مادية و رمزية.

### أولا: إشكالية الموضوع

تعرف جمهوريات آسيا الوسطى تنوعا عرقيا معقّدا و هو وضع تشكّل بسبب السياسات الاستعمارية السابقة سواء أكان ذلك في الفترة القيصريّة أو في الفترة الشيوعية، مما جعلها رهينة للإرث الاستعماري وعدم القدرة على تجاوزه، خاصة إذا علمنا أن النخب التي استولت على الحكم غداة استقلال هذه الجمهوريات هي نخب حاكمة أفرزتها التجربة السياسية السوفييتية التي حاولت تفتيت المنطقة و خلق

كيانات مصطنعة غير قادرة على البقاء دون اللجوء إلى مركز الدولة الاستعمارية. و بما أنّ جذور المشكلة العرقية عميقة و تجاوزها من قبل دول فنية صعب للغاية، فلا بد إذا أن تتمحور إشكالية بحثنا حول العوامل المؤسسية للمعضلة العرقية و تبعاتها على استقرار و أمن المنطقة. و اختصارا سنطرح الإشكالية الآتية للإحاطة بمختلف متغيرات الظاهرة :

- ما هي العوامل التي أسست للمعضلة العرقية في آسيا الوسطى ، و ما هي انعكاساتها على أمن المنطقة و استقرارها؟

و يندرج ضمن هذه الإشكالية الأسئلة الفرعية الآتية:

- هل الظاهرة العرقية ظاهرة طبيعية أم هي ظاهرة اجتماعية و سياسية؟
- ما هو دور السياسات العرقية الروسية في تجزئة منطقة آسيا الوسطى؟
- ماهي الأساليب الموظفة لعرقنة العلاقات السياسية في المنطقة في الفترة السوفيتية؟
- كيف تعاملت جمهوريات آسيا الوسطى مع المسألة العرقية غداة استقلالها؟
- ما هي السياسات الموظفة من قبل كازاخستان لحلّ معضلة التنوع العرقي؟

#### ثانيا:الفرضيات

وللإجابة عن هذه الإشكالية و الأسئلة الفرعية، و ضعنا الفرضيات الآتية:

- كلما نظرنا إلى الظاهرة العرقية على أنها ظاهرة سياسية و اجتماعية أكثر منها طبيعية، كلما كان فهمنا لها أفضل.

- ثمة ارتباط وثيق بين الاستعمار الروسي الذي قسّم المنطقة من خلال محاربته للانتماءات فوق-العرقية و نمو الظاهرة العرقية في المنطقة.
- هناك ارتباط بين المشروع السوفييتي و توظيف مختلف الأساليب الممكنة منها إذكاء النعرات العرقية.
- كلما بقي التعامل بالمتغير العرقي، كلما برز عامل عدم استطاعة جمهوريات آسيا الوسطى التخلّص من الإرث السوفييتي.
- ثمة ارتباط بين محاولات كازاخستان تجاوز الاستقطاب العرقي من خلال بدائل فوق-قومية و درجة تأثير العامل العرقي في رسم السياسات الأمنية في المنطقة.

### ثالثاً: مجالات الدراسة

بما أن المشروع الاستعماري الروسي و من بعده السوفييتي، مشروع معقّد للغاية و البحث فيه أصبح فرعاً مستقلاً في الدراسات السياسية ( العلم السوفييتي)، و لهذا فدراستنا لن تتعمّق في مختلف جوانبه، بل ستقتصر على مجال ضيق و لكنّه متأثر بغيره من العوامل.

- المجال الموضوعي للدراسة: سيقترن بحثنا على عامل العرق ، و السياسات المتبعة من قبل دولة واحدة هي روسيا القيصرية و من بعدها الاتحاد السوفييتي ، كمرحلة أولى ، ثمّ سنتناول هذا العامل من خلال سياسات جمهوريات آسيا الوسطى بعد استقلالها. غير أن القصد من دراسة هذا العامل هي دراسة سياسية بالدرجة الأولى تبتغي فهم مبررات توظيف هذا العامل و تبعاتها على أمن و استقرار المنطقة.
- المجال المكاني للدراسة: سنركّز على الجمهوريات الخمسة المكوّنة لآسيا الوسطى، أي كازاخستان، أوزبكستان، تركمنستان، طاجاكستان و كيرغيزستان، و هي الدول التي استقلت عن الاتحاد السوفييتي ، بالرغم من أن هناك من يدمج أقاليم أخرى في هذا الفضاء، و بخاصة إقليم سينكيانج الصيني ( تركستان الشرقية)، غير أن ذلك سيزيد من تعقيد مجال الدراسة ، كون هذا الإقليم لا يزال مستعمراً و يخضع لسياسات مختلفة عن تلك التي عرفتتها الدول الخمسة.

- المجال الزمني للدراسة: بما أن المعضلة العرقية في آسيا الوسطى هي من المخلفات الواضحة للفترة الاستعمارية ، فمن الضروري العودة إلى جذور المشكلة ، للكشف عن السياسات و الأساليب التي أعدت في هذا الشأن ، غير أن ذلك مرتبط بفهم الواقع الجديد، أي الفترة التي تلت استقلال جمهوريات آسيا الوسطى.

#### رابعاً: الدراسات السابقة

اهتم بعض الباحثين في الشؤون السوفييتية بالمسألة العرقية و القومية، في فترة انصب اهتمام جل الباحثين على الصراع الإيديولوجي و العسكري ، و من أشهرهم المتخصصة في الشؤون السوفييتية "هيلين كارير دانكوس" Hélène Carrere d'Encausse التي ألقت العديد من الكتب حول دور القوميات في الاتحاد السوفييتي، ككتابها L'Empire d'Eurasie, Paris, Fayard, 2011. و هو كتاب يبرز تاريخ التوسّع الروسي في الفترة القيصريّة و التصور البلشفي للظاهرة القومية و العرقية و يوضح الصعوبة التي وجدها القادة السوفييت في التعاطي مع الظواهر القومية و العرقية لأنهم ورثوا إمبراطورية متعدّدة الأعراق و كان من الضروري بالنسبة لهم تسيير هذا التنوّع بما يضمن استقرار الدولة و المحافظة على نهجها الماركسي اللينيني. و هنا تبرز الكاتبة صعوبة التوفيق بين الإيديولوجية الماركسية ذات الطابع الأممي مع متطلّبات الحفاظ على وحدة الدولة، مركّزة على الأدبيات العلمية لفلاديمير لينين و جوزيف ستالين المخصّصة لدراسة الظاهرة العرقية و القومية و تطورها في مرحلة بناء الاتحاد السوفييتي .

في حين تناول Olivier Roy في كتابه: La nouvelle Asie centrale ou la fabrication des nations, Paris, Seuil, 1997. السياسات العرقية السوفييتية و تأثيرها على الدول المستقلة و هو في هذا الكتاب يركّز على مختلف السياسات المطبّقة من قبل السوفييت في منطقة مختلفة عن بقية المناطق السوفييتية، و لهذا فلقد كانت متميّزة عن مثيلاتها في الجمهوريات السوفييتية الأخرى. و أهم ما نستخلصه من هذا الكتاب هو قدرة الإدارة السوفييتية على تقسيم و تجزئة المنطقة و خلق كيانات قومية جديدة تقوم على أسس عرقية من خلال توظيف التمايزات البسيطة و استغلالها بشكل جعل هذه الكيانات

تكتسب مؤسسات و هوية مستقلة ساهمت في تعزيز توجهاتها الاستقلالية بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، كما يؤكد على أنّ الجمهوريات الجديدة تخلّت عن المنظور الإيديولوجي السوفييتي أي الماركسية و لكنّها لم تستطع التخلّي عن نمط التسيير السوفييتي. و هو الموضوع نفسه الذي تناولته كاتلين كولينز Kathleen Collins في كتابها: Clan, Politics, and Regime Transition in Central Asia, Ney York, Cambridge University Press, 2006. حيث تطرّقت فيه إلى بقاء الإرث السياسي السوفييتي في المرحلة الانتقالية لأن الإدارة السوفييتية و من خلال اعتمادها على الولاءات العصبية المحليّة الضيقة استطاعت أن تخضع كل العلاقات السياسية للبنى العصبية و العشائرية الضيقة، و أنّ هذا الإرث ظل فاعلا و مؤثرا في فترة بناء مؤسسات الدولة الجديدة .

بينما تناولت الكاتبة Marth Brill Olcott في دراسة معمّقة تجربة تسيير التعدّدية و التّوّع في آسيا الوسطى من خلال نموذج كازاخستان في كتابها: Kazakhstan: The Unfulfilled Promise, Washington D.C, The Brookings Institution Press, 2002. و هنا حاولت الكاتبة إبراز التحدّيات التي واجهتها كازاخستان بسبب الإرث الثقيل للسياسة العرقية السوفييتية ، و صعوبة إيجاد سياسة تستطيع التوفيق بين متطلبات السياسة الداخلية و ضغوطات البيئة الخارجية.

كما يعدّ كتاب أحمد وهبان: الصراعات العرقية و استقرار العالم المعاصر ( الأسكندرية، الحضري للطباعة، 2007) من أهمّ الدراسات المكتوبة باللغة العربية في موضوع الأقليات و الجماعات و الحركات العرقية، خاصة أنّه أفرد فصولا كاملة لدراسة تطوّر الحركات العرقية في آسيا الوسطى في الفترة السوفييتية.

و إن حاولت هذه الكتب تحليل الظواهر العرقية و القومية في الفضاء السوفييتي عامة و في آسيا الوسطى على وجه الخصوص إلّا أنّها ركّزت على العوامل التاريخية و السوسيولوجية، و لهذا كان من الأفضل أن تتسع هذه الدراسة لبحث هذه القضايا سياسيا و أمنيا، لفهم المبررات و الرهانات المرتبطة

بالعلاقات العرقية و القومية و هو ما سأحاول إبرازه في هذا العمل مستعينا بأهم الأدبيات التي استطعت الحصول عليها و دراستها.

#### خامسا: الإطار المنهجي للدراسة.

استعملنا منهج دراسة الحالة لاحتجتنا إلى التركيز على نماذج أكثر وجهة لفهم خلفيات و تعقيدات السياسات العرقية ، و هو ما جعلنا نركّز على جمهورية كازاخستان بدلا من السقوط في فخ التعميمات النظرية المجردة.

و استعملنا المنهج التاريخي لاحتجتنا الملحة لفهم مختلف المسارات التي عرفها الاستعمار الروسي في آسيا الوسطى مستفيدين بالتراث الضخم الذي خلفه المؤرخون المختصون في التاريخ الروسي، و الأدبيات الكثيرة لخبراء الشؤون السوفييتية، و التركيز على الجوانب التاريخية كان ضروريا لفهم تطور مختلف التجارب التي عرفتھا السياسات العرقية الروسية و السوفييتية.

و استعملنا أسلوب المقارنة لتوضيح الفوارق الموجودة في السياسات العرقية من مرحلة تاريخية إلى أخرى و من منطقة إلى أخرى و من جمهورية إلى أخرى، و المقارنة هنا جاءت لفهم التميّز الذي عرفه الاستعمار الروسي، القيصري و من بعده السوفييتي، في آسيا الوسطى عن بقية أشكال الاستعمار في الأقاليم السوفييتية الأخرى.

كما استعنا بالتحليل الجيوسياسي لوجهته في دراسة منطقة آسيا الوسطى، لأنها فضاء يتمتّع بمزايا جيوسياسية عديدة، كالتوسط و المركزية الجغرافية، و لأنّ آسيا الوسطى مجال خصب لدراسة قضايا جيوسياسية أساسية، كالصراعات الحدودية ( الحدود المصطنعة) و التداخل العرقي و المناطق الحبيسة

و المكتتفة (enclavement et semi- enclavement)، و الصراع على الموارد و المياه، و هي القضايا التي لا يمكن فصلها عن السياسة العرقية السوفييتية.

#### سادسا: الإطار النظري للدراسة:

أما من حيث المقاربات، اخترنا مقاربات ملائمة للدراسات التي تعنى بمسائل الهوية، علما أن جلّ المدارس الخاصة بالعلاقات الدولية، لم تعر اهتماما كبيرا للدراسات العرقية، قبل نهاية الحرب الباردة، لأنها تنتمي في مجملها لتيار الحداثة الذي يرى في الظواهر العرقية ظواهر هامشية و عرضية، و تفقد بذلك كل الاهتمام و المتابعة، فالمدرسة الليبرالية ترى أن العرق ما هو إلا راسب من رواسب العصور الماضية و مصيره الانقراض لتبرز على أنقاضه انتماءات أخرى أكبر و أشمل و أكثر ملاءمة للمرحلة الراهنة، بينما ترى الواقعية أنّ الدولة كيان مطلق يطغى على جميع الفواعل الأخرى، و هو إلى جانب ذلك فاعل عقلائي لا تتأثر قراراته بنزعات عرقية أو قبلية، بل إن الدولة القومية جاءت أصلا لتجاوز الكيانات الضيقة. بينما اعتبرت الماركسية الهوية العرقية بأنها هوية زائفة تضرّ بالوعي الطبقي و تخفي الرهانات الحقيقية للعلاقات السياسية و هي الصراع الطبقي.

لهذا تبذروا لنا المدرسة البنائية أفضل مقارنة لدراسة المسائل العرقية و ذلك لثلاثة أسباب رئيسية و هي، أولاً: تماثل البنائية مع فلسفة ما بعد الحداثة التي أعادت الاعتبار لقضايا العرق، الثقافة و الهوية و ثانيا: اعتمادها على الدراسات الاجتماعية و الأنثروبولوجية بدرجة أكبر، و هو ما تتطلبه مثل هذه الدراسات بالدرجة الأولى، ثالثاً: تعتبر البنائية الواقع الدولي محصلة لأفعال واعية يقوم بها الأفراد داخل المجتمع ( الدولة و المجتمع الدولي) و هو ما يميزها عن المدرسة الواقعية الجديدة التي تقلّص من حجم التدخل الإنساني الواعي و تجعل الواقع نتيجة لمنظومة دولية فوضوية. فالبنائية هي الأكثر استجابة لمتطلبات هذه الدراسة التي تحاول التأكيد على دور السياسات في تشكيل الهويات و تأجيج النزاعات.

## سابعا: صعوبات البحث

تكمّن صعوبة البحث الأساسية في طبيعة موضوعه ، فمن الصعب التعامل مع الظواهر العرقية لأنها في كثير من الأحيان تتبع من علاقات وشائج عاطفية غير عقلانية ، و بالتالي فهي غير قابلة للقياس الدقيق، و لكنّها في أحيانٍ أخرى تكون وليدة لاعتبارات سياسية مصلحة دقيقة ، و هنا يبرز دور التوظيف السياسي للعرق.

و الصعوبة الثانية تكمن في أنّ الهويّات العرقية المتأسّسة في جمهوريات آسيا الوسطى هي وليدة عقود طويلة من السياسات العرقية الروسية ( القيصريّة و السوفييتيّة) و بالتالي يصبح تحديد العناصر الأصلية و تمييزها عن العناصر الوافدة أمرا في منتهى الصعوبة، فالهويّة العرقية ليست معطى ثابتا، فهي تخضع لعوامل الضمّ و العزل كباقي أشكال الهويّة.

أمّا الصعوبة الثالثة فتتمثّل في طبيعة الكيانات المدروسة، التي تقوم على حجب المعطيات و البيانات العرقية (statistiques ethniques) ممّا يجعل الباحث يلجأ إلى استنتاجات و إسقاطات نظرية أكثر منها تطبيقية، فهذه الكيانات - سواءً تحدثنا عن الاتحاد السوفييتي أو الجمهوريات المستقلّة - حافظت على الذهنية السوفييتية المنغلقة، و لهذا فالمعطيات الرياضية التي وظّفت في هذا العمل كانت مقتصرة على البيانات الرسمية التي كانت الإدارة السوفييتية تطرحها من خلال الإحصاءات الرسمية التي تقام مرّة واحدة في كلّ عشرة أعوام، و الأمر استمرّ إلى غاية اليوم لأنّ الجمهوريات المستقلّة قامت أساسا على إيديولوجية عرقية تمجّد العرق السائد ( القومية العرقية ) و بالتالي فهي ليست مستعدة لنشر بيانات تظهر تنوعها العرقي.

أمّا الصعوبة الرابعة فهي ندرة المراجع باللغة العربية، و بالتالي فمعظم أسماء المدن و الشخصيات المذكورة في هذه الأطروحة تمثّل اجتهدا شخصيا في التعريب أو الترجمة، و لهذا السبب فلقد أرفقت

المعرَّب منها بما يوافقه من الاصطلاح اللاتيني ، و هذه العملية بالذات تطلَّبت مني الرجوع للمصادر العربية و لو كانت قديمة للتثبت من صحتِّها.

### ثامنا: مفاهيم و مصطلحات البحث

تمّ توظيف جملة من المفاهيم المفسّرة للظاهرة العرقية و ترتبط بالبعد الأمني و السياسي لها. و هو ما يهّم الباحث في حقل العلوم السياسية، على عكس الباحث في الإثنولوجيا أو الأنثروبولوجيا أو علم الاجتماع، مع التذكير أنّ أغلب الباحثين في حقل الدراسات العرقية و القومية ليسوا علماء سياسة بالدرجة الأولى ، على غرار إرنست جلنر، أنثوني سميث، إريك هوبسباوم، بنديكت أندرسون و أنثوني ريشموند. و عليه كان من الضروري الاستفادة بإسهامات الحقول الأخرى في بلورة المفاهيم الأساسية لهذا الفرع من الدراسات. و أهمّ هذه المفاهيم من حيث التوظيف:

- **القومية العرقية:** و نقصد بها القومية التي تستند في تأسيسها على الدور الذي يلعبه العرق السائد في بناء الأمة، و خطورة هذا الشكل من القومية تكمن في تجاهلها لمكونات الدولة الأخرى أي أقليّاتها التي تجد نفسها ملزمة بالذوبان في هويّة لا تمثّلها أو الدخول في صراع عنيف قد يصل إلى الحرب الأهلية الانفصالية.
- **الاستعمار الداخلي:** و هو مفهوم صاغه ميخائيل هكتر M.Hechter في أواسط السبعينيات من القرن العشرين لتصنيف بعض السياسات التي ينتهجها المركز تجاه أقاليمه الطرفية، و هو ما ينطبق في أوجه كثيرة على العلاقة التي كانت تربط موسكو بجمهوريات الاتحاد الوسط-آسيوية.
- **تسييس العرقية:** و هو مفهوم يدلّ على أحد المسارات التي يمكن أن تتخذها الجماعة العرقية وهنا يتجلّى توظيف العرق من قبل النخب كمورد من الموارد يتمّ تعبئته في التنافس السياسي و هو المفهوم الذي تبلور عند أتباع المقاربة التوظيفية و التعبئة في تفسير الظاهرة العرقية، و يعتبر كارستن فيلاند واحدا من الباحثين الذين استخدموا هذا المفهوم و فسّروا به الصراع السياسي في البوسنة و الهرسك، باكستان و الهند.

- **التعددية الثقافية:** هو مفهوم طرحته فلسفة ما بعد الحداثة للتأكيد على ضرورة تكريس الحقوق الثقافية للأقليات بما فيها الجماعات العرقية، بنفس الطريقة التي كرّست بها الحريات و الحقوق الفردية في دساتير الدول الديمقراطية، و هو مفهوم يمكن الباحث من قياس توجهات الدول في تسيير التنوع و الاختلاف أو ما يسميه الفيلسوف Charles Taylor بسياسة الاعتراف Politics of Recognition.

- **النزاع العرقي:** و هو آخر مراحل الخلافات العرقية، و يرجع أصل هذا التصنيف إلى وجود صراع عنيف يجمع مجموعتين عريقتين متباينتين، أي لا يتم توصيف النزاع بالعرقي إلا في حالة وجود استقطاب عرقي ظاهر، قد يكون هذا النزاع صفريا في حالة النزاعات الانفصالية أو يكون غير صفري في الحالات التي يرتبط بها النزاع بوجود إمكانية لإعادة الاعتبار للأقليات و منحها بعضا من حقوقها أو جميعها.

#### تاسعا: تقسيم البحث

و للتفصيل أكثر قسّمنا بحثنا إلى خمسة فصول، يعنى كل فصل بمسألة خاصة أو مرحلة من مراحل تطور السياسات العرقية، ففي الفصل الأول تناولنا بالدراسة مختلف المفاهيم و المقاربات النظرية المفسرة للظاهرة العرقية كما تناولنا علاقة العرق بالدولة و التوظيف السياسي للعوامل العرقية. أما في الفصل الثاني فقد تناولنا المرحلة القيصرية و بدايات تشكل إستراتيجية استعمارية تقوم على تجزئة إقليم آسيا الوسطى وفق اعتبارات عرقية، و أما في الفصل الثالث فقد تناولنا السياسة العرقية السوفييتية و الأساليب الموظفة لتحقيق أكبر قدر من التمايز بين الجمهوريات الإسلامية، و في الفصل الرابع تناولنا تأثير السياسات السابقة على الوضع الجديد و عدم قدرة النخب الحاكمة الجديدة على تجاوز المرحلة السابقة، بالرغم من اعتمادها على القومية العرقية و ما تبعها من صراعات عرقية عنيفة و الفصل الأخير خصصناه لدراسة حالة نموذجية هي كازاخستان للتعرف على الاستراتيجيات الموظفة من قبل دولة متعددة العرقيات لتجاوز مخاوف الصراعات العرقية الانفصالية. و خطة البحث جاءت وفق هذه المراحل:

## مقدمة:

### الفصل الأول: تأصيل مفاهيمي و نظري للظاهرة العرقية.

المبحث الأول: صياغة مصطلح العرق و تعريفه

المبحث الثاني: تفسير الظاهرة العرقية

المبحث الثالث: الظاهرة العرقية واستقرار الدول.

### الفصل الثاني: الاستعمار الروسي و المسألة القومية و العرقية.

المبحث الأول: التوسع الروسي في منطقة آسيا الوسطى.

المبحث الثاني: المقاربة البلشفية للمسألة القومية ( جذورها و تطورها).

المبحث الثالث: الثورة البلشفية و تحديات المسألة القومية.

### الفصل الثالث: السياسة العرقية السوفييتية ( محدّداتها و نتائجها).

المبحث الأول: التأسيس للقوميات في الفترة السوفييتية.

المبحث الثاني: تكريس التمايز و الانقسام.

المبحث الثالث: تعزيز الارتباطات الجهوية و المحليّة.

### الفصل الرابع: الاستقلال و تسيير التركة السوفييتية.

المبحث الأول: القومية العرقية و تكريس التمايز العرقية

المبحث الثاني: تعقيدات المسألة العرقية و تبعاتها الأمنية.

المبحث الثالث: الحدود و الأقليات كمعضلة أمنية ( وادي فرغانة مثالا).

### الفصل الخامس: المعضلة العرقية في كازاخستان.

المبحث الأول: التنوع العرقي في كازاخستان ( أسبابه و تبعاته )

المبحث الثاني: المعضلة العرقية في مرحلة ما بعد الاستقلال.

الخاتمة.

## الفصل الأول: الإطار المفاهيمي و النظري للظاهرة العرقية.

تعددت المقاربات المفسرة للظاهرة العرقية، واتخذت في أغلب الأحيان اتجاهات متعارضة ، فمنها ما ينظر إلى العرق كظاهرة طبيعية، و منها ما ينظر إليه كبناء اجتماعي ، و منها ما ينظر إليه كظاهرة هامشية أو عرضية طارئة ، ستزول بزوال مسبباتها وولج جميع المجتمعات البشرية إلى طور الحداثة و التقدّم المطرد.

بيد أنّ العديد من المقاربات المفسرة للظاهرة العرقية، اصطدمت مع الواقع الدولي الجديد و الذي بدلا من أن يسهم في إضعاف الظواهر العرقية و تأثيراتها، شهد تزايدا خطيرا للنعرات و النزاعات العرقية. فمنذ انهيار المنظومة السوفييتية و زوال المعسكر الاشتراكي و المجتمع الدولي منغمس في حروب و نزاعات عرقية ، استطاعت الحرب الباردة لجمها و تجميدها، فرأت بعض المقاربات المتفائلة أننا بصدد الدخول في عصر جديد لا يعرف و لا يعترف بهذه الأنماط القديمة من الروابط الوشائجية و العصبية المسيبة للصراع و التنازع ، بينما رأت مقاربات أخرى أنّ الظاهرة العرقية متأصلة في المجتمعات الحديثة تماما كما كانت في المجتمعات التقليدية.

و استمرّ الجدل كذلك حول تحديد مفهوم جامع مانع للعرق أو للمجموعة العرقية ، و لعل ذلك كان السبب في اختلاف المقاربات التفسيرية و تعارضها ، و لهذا بات من الأولى توضيح طبيعة العرق و تعريفه ، و من تمّ تمييزه عن المفاهيم المشابهة له أو المرتبطة به كمرحلة ضرورية، قبل المرور إلى المرحلة اللاحقة أي محاولات التفسير و التنظير للظاهرة العرقية و تأثيرها على استقرار الدول.

## المبحث الأول: صياغة مصطلح العرق و تعريفه.

تعتبر عملية تحديد المفاهيم وتعريفها مرحلة تابعة ولاحقة تسبقها عمليات معقدة، فالباحث يصل إلى التعريف بعد مراحل أولية تتوضح فيها المعاني الحقيقية للمفاهيم ، و التعريف يصبح أكثر صعوبة عندما يختلف الباحثون في تحديد معانيه الدقيقة، وهو ما ينطبق خاصة على بعض المفاهيم كالعرق أو المجموعة العرقية.

فوظيفة تعريف العرق هنا هي الوصول إلى إيجاد الحدود التي تفصله و تميزه عن مفاهيم أخرى، ولهذا السبب كان من الضروري البحث أولاً في جذور و تطور مصطلح العرق لمعرفة مختلف استعمالاته و تطور معانيها عبر الزمن و من تمّ محاولة التمييز بينه و بين مفاهيم تقترب من معناه أي لها دلالات مشابهة و خصائص مشتركة كثيرة. ليأتي التعريف كمرحلة أخيرة في هذا المسار الممهد للمباحث القادمة.

## المطلب الأول: حول مصطلح العرق.

العرق هو المرادف الأقرب و الأكثر استعمالاً لمصطلح الإثنية في اللغة اللاتينية لتمييزه عن مصطلحات أخرى مشابهة كالسلالة و العنصر..الخ.

حمل مصطلح العرق أو الإثنية معان مختلفة، و لعل البحث عن دلالاته اللغوية و تطوره عبر الزمن كفيل بفك اللبس الذي ينشأ من الاستعمالات المختلفة لهذا المصطلح، بحيث تحمل في كثير من الأحيان معان مرادفة للعنصر و السلالة و القبيلة، و غير ذلك من المفاهيم التي تدل على معنى النسب و القرابة و الأصل . أو تحمل معان أخرى دينية أو سياسية.

الإثنية أو l'ethnie باللغة الفرنسية مصطلح مشتق من الكلمة الإغريقية (Ethnos) و جمعها (ethnè) التي كانت في الأصل تدل على الشعوب التي لم تتبنّ النموذج السياسي الإغريقي أي نموذج دولة المدينة (Polis) و عليه تصبح العرقية أو الإثنية بالمنظور الإغريقي دالة على الشعوب المتخلفة غير المتحضرة، فهي تحمل دلالة سلبية تقترب من المعنى الروماني في التمييز بين الشعوب المتحضرة و الشعوب البربرية. مع التأكيد أنّ الإغريق لم يميزوا في تصنيفهم للشعوب بين الإغريق و غير الإغريق، فالشعوب الإغريقية التي لم تصل إلى مرحلة الاجتماع السياسي المدني كان ينطبق عليها ما ينطبق على الآخرين أي صفة الإثنية (ethnè) <sup>1</sup>.

استمر المعنى السلبي لمصطلح الإثنية في النصوص الكنسية فأصبحت إسمًا دالا على المجتمعات غير المسيحية أو الكفرة و هنا انتقلنا من المستوى الحضاري و السياسي في تصنيف الشعوب إلى المستوى الديني فأصبح العرق مرادفا في الأدبيات المسيحية لمفاهيم لاتينية أخرى تستعمل للدلالة على نفس المسميات كالكلمتين الآتيتين: (gentils- païens).

و لهذا نجد الاستعمالات الأولى للإثنية في الأدبيات الانجليزية مرادفة للكفرة أي غير المسيحيين حيث استعمل توماس هوبز هذا المصطلح ليحث الذين يعتنقون المسيحية على طاعة الحكام الإثنيين les (gouvernants ethniques) أي على طاعة الحكام و لو كانوا كفرة. <sup>2</sup>

و من خلال المعاني التي كان يأخذها مصطلح الإثنية في السابق نلاحظ أنّه لم يكن يدل على العنصر أو السلالة بل كان يعبر عن تمايزات سياسية (مجتمعات سياسية مدنية - مجتمعات غير مدنية) أو كان يُعبر عن تمايزات دينية (مجتمعات يهودية مسيحية /مجتمعات كافرة).

<sup>1</sup> Martinello, M., *L'ethnicité dans les sciences sociales*, Paris: PUf, 1995, p.14.

<sup>2</sup> Amselle J.-L. et M'bokolo E. ( sous la dir.de), *Au cœur de l'ethnie. Ethnie, tribalisme et Etat en Afrique*, La Découverte, 1985, p.15.

ظل مصطلح الإثنية يحمل دلالات غير عنصرية أو سلالية (raciale) في مختلف اللغات الأوروبية إلى غاية القرن التاسع عشر، ليصبح مصطلحا يعبر عن الخصوصيات السلالية و العنصرية لمختلف الجماعات البشرية و هو ما كان نتيجة للنقاشات العلمية حول أسباب الاجتماع الإنساني و أسباب التمايز و الاختلاف بين الجماعات البشرية، و عليه ظهر مصطلح العرق أو الإثنية كواحد من المفاهيم للتمييز بين الجماعات المختلفة .

و عند الكلام عن توظيف مفهوم العرق في العلوم الاجتماعية لا بد أن نرجع إلى شخصية علمية تعرضت لكثير من الانتقادات -و لا تزال- من قبل الذين يرفضون الطرح العنصري السلافي في تفسير ديناميكية المجتمعات البشرية و هو الفرنسي Vacher de Lapouge صاحب الكتابين الأساسيين في هذا المجال و هما: Race et milieu social : essai d'anthroposociologie و كتاب: les sélections sociales.<sup>1</sup>

يعتبر دو لابوج الذي بلور مصطلح الإثنية كمفهوم علمي دال على خصائص جديدة تختلف عن الطرح السابق، اعتقد دو لابوج أنّ الإنسان ليس كائنًا منفصلاً عن الحيوانات الأخرى ( مع العلم أنّه كان في الأصل عالم حيوانات zoologist ) لكن ما يميزه هو خضوعه إلى الانتقاء الاجتماعي ( la sélection sociale ) أكثر من الانتقاء الطبيعي، و حتى و إن أعطى للإثنية بعدا اجتماعيا أكثر منه طبيعيا و حاول أن يميّز بينها و بين السلالة ( la race ) غير أنّ منطلقاته الأنثروبولوجية و الطبيعية جعلت مفهوم العرق عنده يقترب من مفهوم السلالة.

فالإثنية حسب دو لابوج هي مجموعة نتجت من عناصر تنتمي إلى سلالات مختلفة وجدت نفسها بفعل أحداث تاريخية معينة، خاضعة لمؤسسات و تنظيم سياسي و لأعراف و قيم مشتركة<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> مهنا حداد، الفكر العنصري العربي، من المنطلق الديني إلى مفاهيم العرق و الأقليات، بيروت: دار الانتشار العربي، 2008، ص. 50.

<sup>2</sup> Philippe Poutignat, Jocelyne Streiff-Fenart, *Théorie de l'ethnicité*, Paris : PUF, 1995, p.35.

و هو ما يسميه علماء الأعراق اليوم ( l'ethnogenèse ) أو التكوّن العرقي. أي البحث عن العناصر المكونة للعرق وكيف تتفاعل فيما بينها عبر مسار زمني معين.

احتفظ علماء الأعراق الأوائل بالمدلول السلبي لمصطلح الإثنية عند دراستهم للشعوب المستعمرة أو الشعوب المكتشفة حديثا ( الشعوب البدائية ) ، و نحن نعلم اليوم أنّ الأوروبيين عندما اكتشفوا شعوبا جديدة ظهر رهان السيطرة على الأقاليم المستعمرة و هو ما دفعهم إلى احتقارها و اعتبارها مجتمعات بدائية، لا لسبب إلا لاختلافها عن الأوروبيين.

ففي بداية الحركة الاستعمارية كان هناك إرادة في تمييز المسيحي عن الكفار، فمنذ البداية كانت الهوية العرقية مرتبطة بإيديولوجية عنصرية (ethnocentrique)، لمجموعة ما ، تريد أن تجعل نفسها متميزة عن الآخرين، فعند اكتشاف شعوب المستعمرات الجديدة رأى André Bourgeot أنّ المستعمرين les colons و علماء الأعراق وجدوا أنفسهم أمام مشكل اصطلاحي، فالإشكال كان متمثلا في تصنيف هذه الشعوب و حرمانها من بعض الخصائص، حيث يقول: " إن مصطلح الأمة (nation) كان مخصّصا ( réservé ) للدول المتحضرة في الغرب و مصطلح الشعب كان مصطلحا نبيلًا ( jugé très noble ) لتصنيف هذه الشعوب (المتوحشة) و عليه فالخصائص الأولى لمصطلح الإثنية كانت خصائص سلبية تظهر نزعة استعلائية أوروبية على سائر الشعوب..."<sup>1</sup>

و يصل الباحث الفرنسي J-L Amselle المختص في الدراسات الإثنية في إفريقيا إلى استنتاج مشابه للاستنتاج الذي وصل إليه A. Bourgeot. فاستعمال مصطلح الإثنية في بعض الحالات بدلا عن مصطلح الأمة (nation) يخضع لاعتبارات محدّدة وهي:

<sup>1</sup> André, Bourgeot, " Les peuples heureux n'ont pas d'ethnie!", in *Pays du Sahel, du Tchad au Sénégal, du Mali au Niger*, Série Monde, n72, Paris: Autrement, 1994, p.86.

" تمييز الشعوب المتحضرة ( les peuples civilisés ) عن الشعوب غير المتحضرة التي كانت تعتبر شعوبا مجردة من التاريخ، و من أجل التفريق بينها و بين الشعوب المتحضرة كان يتوجب على الباحثين الأوروبيين استعمال مصطلح قادر على تحديد الفوارق الموجودة بين هذه الجماعات (communautés) عن المجتمعات (sociétés) الغربية ، فالميزة التي تجعلها مختلفين و تجعل الأولى أدنى من الثانية هو افتقاد الأولى للتاريخية (l'historicité) و عليه أصبحت مصطلحات مثل العرق و القبيلة مرتبطة بالتقسيم الذي كان قائما بين علم الأنثروبولوجيا و علم الاجتماع: ( مجتمعات بلا تاريخ/ مجتمعات بتاريخ)، ( مجتمعات قبل صناعية/ مجتمعات صناعية)، ( مجتمعات بدون كتابة/ مجتمعات بكتابة)، ( جماعات محلية communautés / مجتمعات sociétés)." <sup>1</sup>

و عليه فالمدلول السلافي العنصري (raciale) لمصطلح الإثنية هو وليد القرن التاسع عشر، بينما كان في السابق مرتبطا بمعانٍ دينية و سياسية، و بالرغم من محاولة علماء الاجتماع اليوم نزع المعنى العنصري السلافي من مصطلح الإثنية ، إلا أنهم لم يوفقوا بالكامل لأنّ الإثنية لا تزال تحتفظ بالدلالة التي أعطيت لها في السابق و لهذا فليس من الغريب أن نجد مراكز بحث ترفق مصطلح العرق بالسلالة، بالرغم من الانتقادات التي وجهت للدراسات الاجتماعية و الانثروبولوجية التي قامت بتبرير السياسات العنصرية.

بل إنّ الكثير من البلدان مازالت تنتظر بتحفظ للدراسات العرقية ( الإثنية) على غرار فرنسا، حيث وضّح Jean William Lapierre في تقديمه لكتاب "النظريات العرقية" لفيليب بوتينيا و جوسلين ستاريف-فنارت هذه الحقيقة، فبيّن فيها بما لا يدع مجالا للشك بقاء المدلول العنصري لمفهوم العرق أو الإثنية حيث يقول: " الإيديولوجية اليقوبية ( jacobine ) لجمهوريةنا و باسم مبدأ وحدة الدولة - الأمة، أنكرت دائما التنوع العرقي للشعب الفرنسي، و كان من نتائج ذلك أنّ البحث في الاجتماعية القائم أساسا على التمويل الحكومي كان اهتمامه بالدراسات بين العرقية (interethnique) ضعيفا

<sup>1</sup> Amselle J-L., *op.cit.*, p.15.

جدا. فمصطلحا العرق والمجموعة العرقية مصطلحان مشبوهان (suspectes) إما بالتساهل أو بالتواطؤ مع الإيديولوجية العنصرية".<sup>1</sup>

و منه نستنتج أن العرق أو الإثنية يظل مصطلحا يثير الكثير من الجدل بسبب المعنى الذي يفهم به أو بسبب السياقات التي يتم استعماله فيها، ففي كثير من الأحيان يكون مبهما بسبب اقترانه أو تشابهه مع مفاهيم أخرى تقترب من معنى العرق، كالقبيلة و العنصر و السلالة و الشعب و الأمة... الخ. وعلى هذا الأساس يتوجب علينا أن نقوم بفك هذا الالتباس من خلال تمييز مصطلح "العرق" عن المصطلحات القريبة أو المشابهة لمعناه.

### المطلب الثاني: تمييز العرق عن المفاهيم الأخرى

يرتبط معنى العرق بظاهرة القرابة و الأصول المشتركة، سواء كانت هذه الأصول وهمية متخيلة أو حقيقية، و هذا ما يجعله من المصطلحات التي يصعب تعريفها تعريفا جامعا مانعا، الأمر الذي يجعل بعض الباحثين في مسائل الهوية يصطدمون أمام الكم الهائل من المصطلحات المتشابهة و التي تستعمل في أغلب الأحيان للدلالة على مسميات مختلفة، حيث عبّر توماس إريكسن عن هذا الموقف الصعب الذي يواجهه الباحث في المسائل العرقية حيث يقول:

" كل ما نقوله عن العرقية و الهوية و القبائلية (القبلية) هو قول جدلي و في الوقت ذاته هو تعبير زئبقي مراوغ، و سنظل هكذا مع كل المصطلحات، و لذا يظل الجدل حولها، و هناك من الباحثين من اختار عدم الخوض في تعريف المصطلحات، و منهم عدد ليس بالقليل من المفكرين الأنثروبولوجيين الذين اقتحموا مجالات البحث عن العرقية دون الالتفات أو الانشغال بتعريفها".<sup>2</sup>

<sup>1</sup> Philippe Poutignat, *op.cit.*, p.9.

<sup>2</sup> Thomas Eriksen, *Ethnicity and Nationalism*, Pluto Press, London: 2002, p.37.

يستعمل مصطلح العرق في كثير من الأحيان كمترادف لمصطلحي العنصر أو السلالة (race) و هنا يرتبط هذا الاستخدام بالتصور البيولوجي الطبيعي للعرق، و هنا يظهر التأثير الواضح للمدارس الاجتماعية و الأنثروبولوجية التي تأثرت بالطرح التطوري الطبيعي، و نقصد بها على وجه الخصوص الداروينية الاجتماعية. و بالرغم من انحصار هذه المدرسة في القرن العشرين من جهة و نفور علماء الاجتماع من النزعة التطورية - باعتبارها مسؤولة في بعض الأحيان عن التوجهات العنصرية المتطرفة و مسببة لكثير من الحروب و النزاعات- من جهة أخرى، إلا أنّ بعض أطروحاتها لا تزال تضيء الصفة البيولوجية على الظواهر الاجتماعية، و هو ما سنتوسع في الكلام عنه في موضع آخر عند التطرق للنظريات المفسرة للظواهر العرقية.

يعتبر ماكس فيبر الوحيد من بين علماء الاجتماع الأوائل الذين أفردوا حيزاً واسعاً في كتاباتهم لدراسة المسائل العرقية، فلقد خصص فصلاً هاماً في كتابه المعنون "الاقتصاد و المجتمع" للمسائل العرقية، حيث ميّز فيه بين العرق أو الإثنية و بين مفاهيم أخرى مشابهة هي السلالة و الأمة، فهو يعتقد أنّ العرق أو الإثنية يرتبط بالعقائد و الأحاسيس و التمثيلات الجماعية ( *représentations collectives* ) عكس العنصر الذي يعبر فعلاً عن القرابة البيولوجية، و هنا يمكننا اعتبار ماكس فيبر استثناءً فريداً في الدراسات العرقية و القومية الألمانية.<sup>1</sup>

إنّ ما يميّز الانتماء السلالي أو العنصري (*appartenance raciale*) عن الانتماء العرقي أو الإثني حسب ماكس فيبر هو أنّ الأول يقوم "حقيقة" على عامل الانتماء إلى أصول مشتركة ( *communauté d'origine* ) بينما في الثاني فيقوم على اعتقاد ذاتي في الانتماء إلى أصول مشتركة، بينما الأمة عند ماكس فيبر تشبه الإثنية في الإيمان و الاعتقاد في العيش المشترك و لكنها

<sup>1</sup> Max Weber, *Economie et Société*, Paris: Plon, 1971, p.356.

تتميز عن الإثنية بوجود ما يسمّيه الباثوس (pathos) أو الشغف المرتبط بالمطالبة بالقوة السياسية و هذا ليس غريبا عن المدرسة الألمانية في تحليلها للمسألة القومية<sup>1</sup>.

إن ماكس فيبر يرى أنّ عاملي اللغة و الدين يكتسيان أهمية بالغة في تأسيس الجماعة العرقية و بقاء روح الانتماء العرقي لأن اللغة هي أداة الاتصال المشتركة فهي بذلك أداة للفهم (la compréhension) بين أبناء المجموعة العرقية الواحدة ، أمّا الدين فهو الذي يؤسس المنظومة القيمية المشتركة و يجمع بين الأفراد من خلال الطقوس و العبادات.

فإسهام ماكس فيبر في تفسير المسائل العرقية يسمح لنا باستخلاص مجموعة من الاستنتاجات التي نراها ضرورية في فهم خصائص العلاقات العرقية و أهم هذه الاستنتاجات:

- تعريف المجموعة العرقية انطلاقا من العوامل الذاتية أي الاعتقاد الذاتي لدى أفراد المجموعة بالانتماء إلى أصول مشتركة من شأنه أن يقلّل من أهمية دور السمات الموضوعية أو المادية في تشكيل الجماعة العرقية نافيا بذلك العوامل الطبيعية أو الوراثية فهي بذلك بناء اجتماعي ناتج عن علاقات اجتماعية معينة و أفراد هذه الجماعة هم الذين يصفون عليها معنى ما.

- تبنى الجماعة العرقية على وجود إيمان بضرورة العيش المشترك، و الهوية العرقية هي نتاج وجود اختلاف بين الجماعات العرقية أي ناتجة عن انجذاب الأفراد نحو مجموعتهم العرقية و نفورهم عن أفراد المجموعات الأخرى الذين يعتبرونهم أجانب، و هذه الفكرة لا تعني أنّ العزلة هي التي تغذي الشعور بالانتماء إلى الجماعة و لكن العكس هو الصحيح فالإتصال هو الذي يجعل أفراد الجماعة العرقية يدركون الاختلاف، (و هو ينشئ ما يسمّيه فريدريك بارث Frederik Barth الحدود العرقية. ethnic boundaries).

<sup>1</sup> Philippe Poutignat, *op.cit.*, p.40.

- جوهر الجماعة العرقية هو الاعتقاد بوجود " شرف خاص " أو شرف عرقي ( honneur ethnique ) يتم بواسطته شحن أنماط الحياة الخاصة بقيم يتأسس عليها التمييز بين الأشخاص داخل المجموعة العرقية أي العزة (la dignité) لمن يحترمون ميثاق الشرف العرقي و المذلة (le mépris) لمن يخالفون هذا الميثاق.<sup>1</sup>

و على العكس من ذلك اعتبر ارنست رينان E. Renan أن العرق عامل موضوعي وبالتالي فهو لا يعبر عن الذاتية و الإرادة، العاملين الأساسيين في تشكيل الأمة، فمفهوم الأمة عند رينان مفهوم حديث لا يرتبط بالعامل الاثنوغرافي -على حد تعبيره- بل إنه يعتبر اقتران القومية بالاثنية و العرق كما هو موجود عند مفكرى القومية الألمان عاملا مهددا للحضارة الأوروبية حيث يقول: " حسب النظرية التي أعرضها تدعى النزعة الجرمانية (le germanisme) الحق في استرداد أعضاء الجنس الجرمانى المبعثرين هنا و هناك، الالتقاء حتى و لو لم يطلب هؤلاء الأعضاء الالتقاء مع بعضهم البعض، و بذلك يكون حق الرابطة الجرمانية على هذه المنطقة أو تلك أقوى من حق سكان هذه المنطقة تجاه أنفسهم بالذات، و بهذه الطريقة ينشأ نوع من الحق الأولي (droit primordial) مشابه لذلك الذي يستمدّه الملوك من الحق الإلهي (droit divin) يستبدل مبدأ الأمم بمبدأ الاثنوغرافيا. إن هذا الخطر كبير، و إذا ما قيض لهذا المبدأ أن يصبح مسيطرا على لأوضاع الحضارة الأوروبية، إذ بقدر ما يكون مبدأ الأمم عادلا و شرعيا بقدر ما يكون الحق الأولي للأعراق ضيقا و حافلا بالمخاطر على التقدّم الحقيقي"<sup>2</sup>.

إنّ التأثير الذي تركته هذه النظرة في الفلسفة السياسية الفرنسية لا يزال قويا و كان من نتائجه أن أصبح مفهوما الأمة و العرق في الأدبيات العلمية الفرنسية مفهوميين متعارضين تمام التعارض، فإضافة قيمة ما على أحدهما هو إنكار لقيمة الثاني، حيث تلخّص Dominique Schnapper هذه النزعة الفرنسية كالتّالي: " و وفقا لهذا المنظور تصبح الأمة إيجابية، محررة تتوافق مع التاريخ بينما يدل العرق

<sup>1</sup> Ibid. p.41.

<sup>2</sup> Ernest Renan, "Qu'est ce qu'une nation?", (conférence prononcé le 11 mars 1882 à la Sorbonne) , in [www.classiques.ugac.ca/classiques/renan/quest-ce-une-nation.pdf](http://www.classiques.ugac.ca/classiques/renan/quest-ce-une-nation.pdf). consulté le 12/11/2011.

على الرجعية، التقادم و الاستلاب، بل إنّ التنظيم العرقي للمجتمع يتطابق مع حالة الطبيعة الهوبزية – نسبة لتوماس هوبز – بينما الأمة هي وليدة التنوير و دستور 1791 الذي استبدل وهم الأمة الطبيعية بمبدأ التعاقد الاجتماعي و كرّس مبدأ الرابطة السياسية على حساب رابطة الدم<sup>1</sup>

إنّ اختلاف رواد علم الاجتماع في تحديد دلالات محددة لهذه المصطلحات كان من شأنه استمرار هذا الإشكال، و هو الأمر الذي نلحظه إلى اليوم.

و من أوجه الغموض التي تكتنف هذه المصطلحات هو صعوبة تحديد معنى دقيق لمصطلح الأمة عند الباحثين المتأخرين، بالرغم من أنّ أهم الأعمال العلمية في حقل الدراسات القومية هي أعمال حديثة للغاية، فاعلمها ظهر في الربع الأخير من القرن العشرين ( و نقصد بها على وجه الخصوص مساهمات علماء اجتماع و مؤرخين غربيين نذكر من بينهم كونور اريك هوبسباوم، ارنست جلنر، بندكت أندرسن و أنثوني سميث) و يمكن اعتبار أعمالهم ثورة معرفية حقيقية في هذا المجال.

يعتقد كونور أنّ الأمة هي المجموعة الأوسع أو الأكبر التي يعتقد الأفراد فيها أنهم ينحدرون من أصول مشتركة ، حتى و إن كان هذا الاعتقاد غير مؤسس أي ذاتي، فالهوية القومية لا تحتاج أن يكون الأصل المشترك واقعياً لتحديد الانتماء القومي، و منه يعتقد كونور أنّ الحديث عن العرق أو الإثنية هو كلام عن شعوب يعتبرها أمما كامنة ( nations potentielles ) و عليه فيمكننا اعتبارها مرشحة لتصبح أمما، أي أنّ الأمة تختلف عن العرق نتيجة اختلاف مستوى الهوية و الوعي، فالوعي أو التضامن العرقي (solidarité ethnique) هي مرحلة ابتدائية أو تمهيدية تسبق تشكّل الوعي القومي، فالخطأ الشائع عند كثير من الباحثين هو اعتبارهم الأمة حقيقة محسوسة réalité tangible و بالتالي ربطها بالدولة، فكونور يرى أنّ غالبية الدول التي نسميها دولا قومية (Etat-nations) هي ليست كذلك.<sup>2</sup>

<sup>1</sup> Dominique Schnapper, *La communauté des citoyens, sur l'idée moderne de Nation*, Paris: Gallimard, 1994, p. 115.

<sup>2</sup> Philippe Poutignat, Jocelyne Streiff-Fenart , *op.cit.*, p.47.

أما إريك هوبسباوم فيعتقد أنّ كل محاولة لتحديد أو تعريف الأمة بمعايير موضوعية ستبوء بالفشل و مرد ذلك لسببين؛ الأول: لأنه مهما كان المعيار أو مجموعة المعايير المشكلة للأمة ( اللغة، العرق، الثقافة، التاريخ المشترك، الإقليم، الدين...الخ) فهي معايير غامضة و مبهمة في حد ذاتها و لا يمكننا تفسير الغامض بما هو أشدّ غموضا. الثاني: هناك دائما إمكانية لوجود استثناءات فالمرشحون المختارون حسب هذا التعريف أو ذاك ليكونوا أمما لا تظهر عندهم طموحات قومية أو أن تكون هناك أمم فعلية و لكنّها لا تتناسب مع هذا التعريف أو ذاك و هو ما جعل إريك هوبسباوم يطرح هذا التساؤل: " كيف يمكننا أن لا نكون حذرين من هذه التعريفات ؟ عندما نلاحظ محاولات إدخال كيانات -جديدة تاريخيا لا تزال في مرحلة النمو و في حالة تغير مستمر - في إطار عام و جامد.<sup>1</sup>

بالنسبة لهوبسباوم الميزة الأساسية للأمم هي "حداثتها" أي أنها وليدة تحولات عرفتتها البشرية في القرنين الماضيين فقط. و بالتالي ففهم القومية خارج إطار التاريخ هو فهم خاطئ بالنسبة لهوبسباوم .

تعتبر محاولة هوبسباوم للتمييز بين الروح القومية و الظاهرة العرقية ( l'ethnicité ) في اعتقادنا إحدى المحاولات القوية في تمييز الأمة عن العرق، فهو يعتبر القومية ظاهرة سياسية يحمل مطلبا وبرنامجا محددا و هو ما قد تفنقده العرقية ، حتى و لو تمّ التسليم بالاستغلال السياسي للانتماء العرقي، ستبقى العرقية مبحثا حسب هوبسباوم سوسيولوجيا أنثربولوجيا و ليس سياسيا.

### المطلب الثالث: تعريف العرق.

تختلف محاولات تعريف العرق لدى الباحثين الذين قاموا بدراسة الظواهر العرقية، و سنقتصر في هذا المطلب على تقديم بعض أشهر المحاولات.

<sup>1</sup> Eric Hobsbawm, *Nation et nationalisme depuis 1780*, Paris: Gallimard, 1992, p.122.

وصل ماكس فيبر إلى تعريف للمجموعة العرقية يلقي إلى غاية اليوم استحسانا و قبولا مميزين باعتبار التعريف الذي وضعه فيبر جاء خاتمةً لبحثه المتعلق بالدراسات العرقية ، فالمجموعة العرقية حسبه هي: " تلك المجموعة التي ينمي أفرادها اعتقادا ذاتيا حيال جماعة أصلية (communauté d'origine) و هذا الاعتقاد يقوم على وجود تشابه في الطباع الخارجية أو العادات أو الاثنين أو على ذكريات الاستعمار أو الهجرة الجماعية بحيث تكون هذه الاعتقادات أساسية في خلق روح الانتماء إلى الجماعة و لا يهم هنا إن كانت هذه الجماعة مؤسسة على رابطة الدم فعلا أولا"<sup>1</sup>

كما يعرف الكاتبين Michel Panoff و Michel Perrin المجموعة العرقية بكونها " تجمع للأفراد ينتمون لنفس الثقافة ( نفس اللغة، نفس العادات، الخ) و لهم إدراك بانتمائهم"<sup>2</sup>

إنّ الباحث فريدريك بارث يعتقد أنّه على الباحث أن يبدأ من اكتشاف مختلف المسارات المؤدية إلى تشكّل (la genèse) و بقاء المجموعات العرقية، و بهذه الطريقة فقط يمكننا حصر مختلف أبعاد هذا المفهوم الذي يعتقد بارث أنه لم يتم تعريفه تعريفا صحيحا في السابق. كما يرى أنّ: " المجموعة العرقية تستخدم من قبل الأنثروبولوجيين لتحديد المجموعة التي تتميز بما يلي:- لها استقلالية كبيرة من حيث التزاوج (endogamie) - تتقاسم قيما ثقافية أساسية مشتركة يتم المحافظة عليها بواسطة أشكال و أنماط ثقافية واضحة- تشكّل مجالا للاتصال و التفاعل - لها نمط للانتماء يجعلها تشكّل صنف (catégorie) مستقلا و مميزا عن الأصناف الأخرى المماثلة ( تعي تميّزها عن الآخرين و يعي الآخرون تميّزها عنهم)"<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> Max Weber, *op.cit.*, p.130.

<sup>2</sup> Michel Panoff et Michel Perrin, *Dictionnaire de l'ethnologie*, Paris: Payot, 1973, p.96.

<sup>3</sup> Fredrik Barth, *Les groupes ethniques et leurs frontières*, la traduction du texte introductif de l'ouvrage collectif paru en 1969 sous la direction de F. Barth et publié comme une deuxième partie du livre de F. Poutignat et J. Streif Fennart. p.206.

و تعتبر الخاصية الرابعة بالنسبة لبارث أهمّ خاصية في تحديد المجموعة العرقية، أي أنّ خاصية التمايز و الاختلاف هي التي تعطي للمجموعة جوهرها و حقيقتها، فهذا المنطلق يسمح لنا بفهم الهوية العرقية (l'identité ethnique) من خلال تحديد الأصناف على أساس تحديد الأنا و الآخر أو أننا ندرك الهوية من خلال إدراكنا للغيرية (l'altérité).

و على هذا الأساس يؤكّد فريدريك بارث أنّ الهوية العرقية هي الهوية الأساسية و الأكثر عمومية لأنها المجموعة أو الصنف الأكبر من حيث العدد الذي يعتمد على عامل الأصول في تحديد انتمائه و بالتالي تميّزه عن الآخرين.

تأثر كثير من الباحثين في المسائل العرقية بالتعريف الذي صاغه فريدريك بارث فنجد الكاتب سعد الدين إبراهيم يضع تعريفاً مشابهاً لتعريف بارث فالمجموعة العرقية عنده هي: " جماعة بشرية يشترك أفرادها في العادات و التقاليد أو اللغة أو الدين أو أي سمات أخرى مميزة بما في ذلك الأصل و الملامح الفيزيائية الجسمانية ، كما يكون هؤلاء الأفراد - و كذا أفراد الجماعات الأخرى القريبة - مدركين لتباين الجماعة عن غيرها في أي من هذه السمات، على نحو يخلق لديهم الشعور بالانتماء كل لجماعته"<sup>1</sup>

أمّا إريك هوبسباوم فيعرّف المجموعة العرقية على النحو التالي: " كل مجموعة - إذا أخذناها ككل - تتميز عن المجموعات الأخرى التي تعيش في إقليم ما، و هذا الاختلاف أو التميّز يتمّ التأكيد عليه عن طريق التسمية و عن طريق الصفات المشتركة التي تميّز المجموعة العرقية عن المجموعات الأخرى، بغض النظر عن كون هذه الميزات واقعية أو حقيقية أو يفترض فيها الحقيقة"<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> سعد الدين إبراهيم، *تأملات في مسألة الأقليات*، درا الصباح، القاهرة - الكويت: 1992، ص.32.

<sup>2</sup> Eric Hobsbawm, *op.cit.*, p.133.

و نستنتج من هذا التعريف أنّ مسألة التميّز هي مسألة إدراك قبل كل شيء، قد يكون هذا الإدراك ناتجا عن وجود صفات تميّز مشتركة واقعية أي موجودة فعلا، كما قد تكون مفترضة و هنا يقترب فهم هويسباوم للمجموعة العرقية من فهمه للظاهرة القومية باعتبار مسألة الهوية هي المؤسس للمجموعة العرقية، فالهوية العرقية قد تنشأ من افتراضات غير مؤسسة ، و هو التصرّ الذي يقترب من المفهوم الذي أعطاه بندكت أندرسون للأمة باعتبارها مبنية على مخيلة جماعية أو مشتركة تؤسس فعلا لهوية مشتركة.<sup>1</sup>

بينما يعتقد بعض العلماء أنّ الجماعة العرقية هي جماعة فرعية أو تحتية على غرار Walker connor الذي عرّفها كالآتي " جماعة ذات أعراف ثقافية و حضارية مشتركة يسود أفرادها الشعور بالهوية الواحدة، و هذه الجماعة تعيش كجماعة فرعية (subgroup) داخل مجتمع أوسع".<sup>2</sup>

و يشارك Cohen Abner الطرح الذي وضعه كونور في تعريف المجموعة العرقية بحيث يعرفها كالتالي: " تجمع بشري يشترك أفراداه في أنماط معايير السلوك المتعلقة بشتى الأنشطة الحياتية كالزواج، المصاهرة ، و الصداقة و ممارسة الطقوس و الشعائر و غيرها من أنماط و معايير السلوك التي تنطوي عليها ثقافة الجماعة و يمثل هذا التجمع جزءا من تجمع بشري أكبر، كما أنّه يتفاعل مع غيره من التجمعات البشرية التي يشملها النسق الاجتماعي".<sup>3</sup>

أمّا رولان بروتون فيشير إلى وجود نوعين من التعريف للعرق أحدهما ضيق أو حصري (stricto sensu) و الثاني تعريف أوسع . بالنسبة للعرق بالمنظور الحصري أو الضيق هو " هو المجموعة التي تتقاسم لغة أم واحدة " ووفق هذا المعنى -حسب الكاتب دائما- نعتبر العرقية الكتالونية مجمل السكّان الذين يقطنون مقاطعة كتالونيا و حافظوا على استعمال اللغة الكتالونية.

<sup>1</sup> Ibid, p.134.

<sup>2</sup> Walker Connor, "A nation is a nation, is a state, is an ethnic group", in John Hutchinson and Anthony D.Smith, *Nationalism*, Oxford University Press, 1994, p.43.

<sup>3</sup> Abner Cohen, *Urban Ethnicity*, London: Tavistock Publication ,194,p.p. IX-XII.

أما بالنسبة للتعريف الأوسع فيرى رولان بروتون أنّ العرق يعرف " بمجموعة من الأفراد يرتبطون فيما بينهم بمجموعة مركبة من الصفات المشتركة - أنثربولوجية، لغوية، سياسيو-تاريخية، الخ يؤدي اجتماعها إلى تأسيس منظومة خاصة أو بنية يكون جوهرها ثقافيا"<sup>1</sup>.

و من خلال هذا التعريف يظهر تركيز رولان بروتون على الطبيعة الثقافية للعرق و هنا نقصد المعنى الأنثربولوجي للثقافة، فالمجموعة العرقية هي جماعة ( communauté ) توحدّها الثقافة المشتركة ، و إذا أخذنا بعين الاعتبار هذا المفهوم الأوسع تصبح اللغة عنصرا من العناصر و ليست الميزة الوحيدة لتأسيس المجموعة العرقية، و هنا يؤكد الكاتب على ملاحظة مهمة و هو كون هذه العناصر لا يطوّرها الأفراد المنتمون إلى هذه المنظومة أو البنية ( المجموعة العرقية ) أو لا يتمثلونها بنفس القوة و الشدة، فهناك اختلاف بين الأفراد و هنا يضرب الكاتب مثلا بإمكانية فقدان أحد الأفراد للغته الأم بفعل الهجرة دون أن يفقد انتماءه للمجموعة. كالمجموعة العرقية الايرلندية حيث نجد نسبة استعمال اللغة السلتنية (لغة الايرلنديين الأوائل أو اللغة الأم) لا تتعدى 2% و بالرغم من ذلك فهم واعون بانتمائهم و اختلافهم عن بقية البريطانيين.<sup>2</sup>

و من مختلف التعريفات التي أوردناها نستنتج أنّ معظم الباحثين يؤكّدون على دور العامل الثقافي في تشكيل المجموعات العرقية و يهتمون إلى أبعد الحدود العوامل البيولوجية، غير أنّ تأكيدهم على العامل الثقافي على حساب العامل البيولوجي لم يجعلهم يرفضون فكرة الأصول المشتركة، و لكنهم يرون فيها أصولا متخيلة (imaginée) أي أنّ الاعتقاد بوجود فكرة النسب هو أمر يصعب تأكيده واقعا و لكنّ قوة هذه الفكرة تنبعث من اعتقاد الناس و إيمانهم بها.

<sup>1</sup> Roland Breton, *Les ethnies*, Paris: PUF, 1992, p.8.

<sup>2</sup> *Ibid*, p.09.

## المبحث الثاني: النظريات المفسرة للظاهرة العرقية.

تناولنا في المبحث الأول مفهوم العرق اصطلاحاً و تعريفاً و حاولنا تمييزه عن المفاهيم الأخرى المشابهة، لنصل إلى مجموعة من الاستنتاجات الأساسية، غير أنّ هذه الخطوة ما هي إلاّ تمهيد ضروري للمرور إلى جوهر الدراسات العرقية وهنا نقصد بها العلاقات المترتبة عن اتصال المجموعات العرقية فيما بينها، على اعتبار الهوية العرقية في نظرنا هي نتاج لإدراك أفراد المجموعات العرقية لتمييزها و اختلافها عن بعضها البعض.

إنّ دراسة الظواهر العرقية عرفت تطوراً كبيراً في النصف الثاني من القرن العشرين لدى مجموعة كبيرة من الباحثين في اختصاصات متعددة لارتباطها بمسائل سياسية واجتماعية معقدة كمسألة الاندماج و وضعية المهاجرين و قضايا العنصرية. الخ. و لكنّ هذه الدراسات انقسمت إلى مجموعات من الاتجاهات العلمية تختلف في تفسيرها للظاهرة العرقية باختلاف منطلقاتها و مسلماتها الفكرية. فهناك من كان يعتقد أنّ الظواهر العرقية و القومية هي نتاج لمرحلة تاريخية انتقالية ( تيار الحداثة ) و هناك من اعتبرها ظاهرة متأصلة في المجتمعات الحديثة بل يزداد تأثيرها مع مرور الوقت ( تيار ما بعد الحداثة ).

و بالنظر لتعدد الأطروحات التي حاولت تفسير الظاهرة العرقية من خلال اعتبارات محدّدة كان لزاماً علينا أن نصنّفها و ندرجها في اتجاهات كبرى، و من ثمّ ننطلق في شرحها و تفصيلها.

## المطلب الأول: التفسير الحدائي للظاهرة العرقية.

تعتبر الحداثة مسارا يتضمن مجموعة من التحولات المتزامنة كما يرى A.Richmond تمثلت في: ظهور تقنيات زراعية جديدة، حركة واسعة للمدن، توسع التصنيع، تعميم التعليم و القضاء على الأمية، و أخيرا التعبئة السياسية المتمثلة في بناء الأمة<sup>1</sup>.

تصورت نظرية الحداثة أنّ مجمل هذه التحولات المتزامنة هي مسارات سيكون من شأنها قطع الصلة مع الأشكال القديمة للاجتماع البشري أي الانتقال من المستويات المحليّة و الانتماءات القبلية إلى مستويات جديدة أوسع، بحيث يصبح الولاء للأمة بديلا حتميا للانتماءات السابقة باعتبارها ولاءات متهالكة (archaïque) . فحركة التمدين (l'urbanisation) تؤدي إلى التماثل و تطور التكنولوجيا يؤدي إلى تقريب النظم الاقتصادية و الاجتماعية و ينتج عنه نظام عالمي يتشكّل من عدد قليل من " الدول القومية" المتجانسة نسبيا.

درس كارل دويتش K.Deutsch العلاقة الموجودة بين القومية و الاتصال الاجتماعي، و ذهب إلى أنّ عقلنة (rationalisation) طرق المواصلات و ظهور نماذج جديدة للاتصال ( التلغراف، التلفون ووسائل الاتصال المعمّم الأخرى) ساهمت في تعبئة السكّان و شجّعت على تبني لغة اتصال موحدة أو ما نسمّيه باللغة اللاتينية (lingua franca) ، و سهّلت الحركية الجغرافية و الاجتماعية، و في الأخير ( و هذا ما يهمّ في بحثنا) جعلت الأفراد يتماهون (s'identifiant) مع منظومات اجتماعية أوسع.<sup>2</sup>

و من هذا المنطلق يعتقد دويتش أنّ الحداثة أفرزت هويّات جديدة بدلا عن الهويّات التقليدية، فالقومية حسبه هي تعبير عن إرادة عامة جديدة تعلو على الانتماءات الضيقة التي عرفتھا

<sup>1</sup> Anthony Richmond, " Le nationalisme ethnique et les paradigmes des sciences sociales", Revue *Internationales des Sciences Sociales*, Février 1987, p.8.

<sup>2</sup> Karl Deutsch, *Nationalism and Social Communication*, 2ed, Cambridge: Mass, MIT Press, 1966, p.106.

مجتمعات ما قبل الحداثة، كما أنّ ما يسمّيه الاتصال الاجتماعي مرتبط بأهداف عملية و عقلانية ( في حين كان الاتصال الاجتماعي في الماضي بسيطاً و تلقائياً ) .

لكنّ دويتش يعترف فيما بعد أنّ التعبئة الاجتماعية و الاندماج كمظاهر للمجتمعات الحديثة لا تكون متزامنة في كل المجتمعات، فهناك مجتمعات انخرطت في الحداثة و مجتمعات أخرى لا تزال تنتظر، و هذا التخلف عن ركب الحداثة - إن صحّ التعبير - هو الذي يولّد النزاعات و عليه يمكننا القول حسبّه أنّ تطوّر و توسّع الاتصال هو عامل موحد (unificateur)<sup>1</sup>.

غير أنّ هذه النظرة المتفائلة من جهة، و المتجاهلة لقوة الانتماءات و الولاءات التقليدية لم تلق إجماعاً من قبل الباحثين و تمّ انتقادها من قبل بعض علماء الاناسة على غرار ووكر كونور.

يعتقد والكر كونور أنّ عاملي الاتصال و التعبئة الاجتماعية - المفهومين المستعملين من قبل كارل دويتش) هما عاملان لا يمكن تجاهل أهميتهما، غير أنّه في المقابل يؤكّد على أنّ الحداثة ( و هنا لا بد أن نفرّق بين الحداثة كمرحلة من مراحل تقدّم الإنسانية و الحداثة كتيار أو نظرية وضعية) ساهمت في إذكاء النزاعات العرقية و ليس العكس، فمفهوم أو مبدأ " تقرير المصير " (l'autodétermination) أصبح منتشرًا بشكل كبير بحيث أصبح كل شكل من أشكال السلطة الخارجية أو الأجنبية مرفوضاً<sup>2</sup>.

بينما يرى باحثون آخرون أنّ الحداثة باعتبارها نتيجة للتطور التقني لا يمكننا أن ننظر إليها بنظرة أحادية ضيقة أي بوصفها تعبيراً عن التقدّم المطرد في كلّ النواحي ، ويستشهد بعضهم بعامل الاتصال، فوسائل الإعلام قد تلعب دوراً سلبياً يمكنه تعزيز الهوية العرقية على حساب الحس القومي، فالمجموعات المقهورة قد تجد نفسها مبعدة أو مقصاة من الدوائر و القنوات الإعلامية، و عدم القدرة على الولوج إليها سيرهن حظوظها في تقاسم السلطة أو الوصول إليها، و لهذا السبب فعامل الاتصال هو سلاح ذو حدين

<sup>1</sup> Idem, p. 106.

<sup>2</sup> Walker Connor, *op.cit.*, p.244.

فقد يكون وسيلة للاندماج و التوحيد عندما تكون الدوائر الإعلامية مفتوحة و لكنّه قد يصبح مصدرا للتفاوتات المؤدية للصراع عندما تستحوذ عليه مجموعة دون المجموعات الأخرى.<sup>1</sup>

طوّر ارنست جلنر الطرح الحداثي القائم على فكرة التوحيد و التجانس و الذي يلغي فكرة التمايز و الاختلاف ( باعتبار العرقية هوية تفرّق أكثر مما تجمع ) ، حيث يربط بين القومية و مسار التصنيع و ما يصاحبه من تقسيم واضح للعمل و عقلنة (rationalisation) تشمل كل مناحي الحياة.<sup>2</sup>

فبالنسبة للدولة الحديثة يعتبر ارنست جلنر أنّ " احتكار التربية المشروع أصبح اليوم أهم و أكثر مركزية من احتكار العنف المشروع" و هو هنا يؤكّد على فكرة الدولة المركزية الموحّدة التي تتلاءم أكثر مع متطلبات الحداثة و العصرية، فالقومية حسب جلنر لا تكتسب ماهيتها من الطبيعة الإنسانية ( la nature humaine ) و لكن من النظام الاجتماعي الذي فرضه التصنيع، و هو ما أدى حسبّه إلى تعميم التعليم و تطور التقنية و هي شروط موضوعية لبروز ما يسمّيه ثقافة عليا معمّمة (haute culture généralisée).<sup>3</sup>

إنّ التعدّدية الثقافية حسب جلنر غير قابلة للاستمرار و لا تتلاءم مع المجتمعات الحديثة حيث تقاربت أنماط الحياة و تقلّصت المسافات التي كانت تفصل المجتمعات.

و لكي نفهم مسوغات نظرية الحداثة لا بد أن نعود إلى الفترة التي ظهرت فيها و الرهانات الدولية التي كانت مطروحة آنذاك، ففي الخمسينيات من القرن العشرين برزت نظرية الحداثة و توافق ذلك مع بداية مرحلة جديدة من السياسة الدولية و هي مرحلة استقلال الدول المستعمرة و ظهور مفهوم العالم الثالث كتجمّع للدول الفقيرة و المستقلة حديثا.

<sup>1</sup> Anthony Richmond, *op.cit.*, p.8.

<sup>2</sup> Ernest Gellner, *Nation and Nationalism* , Oxford: Basil Blackwell, 1983, p.34.

<sup>3</sup> *Ibid*, p.94.

و تعتبر القارة الإفريقية أحسن مثال للنقاشات العلمية التي طرحت من قبل أصحاب نظرية الحداثة باعتبارها القارة الوحيدة التي تمّ استعمارها كلياً من قبل دول أوروبية، بالنظر لخصوصية التاريخ الإفريقي، و بخاصة إفريقيا السوداء.

نظر الباحثون الأوروبيون إلى إفريقيا ما قبل الاستعمار كتجمّع (agrégat) لأعراق و قبائل مختلفة و متصارعة، و ذهبوا إلى كون الاستعمار الأوروبي سيكون له دور كبير في نقل القارة الإفريقية من التخلف إلى الحداثة و العصرية، بحيث يمكّن الأفارقة من التخلّص من القيم البالية - ما قبل الحداثيّة- و ستستبدل إفريقيا هويّتها العرقية القبلية بهويّة قومية جامعة، فتصبح الأمة بدلا عن القبيلة و العرق.

انطلقت نظرية الحداثة في تفسيرها للظاهرة العرقية في إفريقيا من مسلّمة بسيطة تعتبر الهويّة العرقية قويّة و واضحة التأثير في المجتمعات المتخلّفة بينما هي ضعيفة أو منعدمة في المجتمعات المتطوّرة، كما نظروا إلى القيم السابقة للحداثة باعتبارها قيما سلبية دائما، ففي كينيا على سبيل المثال لا الحصر ركّز المؤرخون البريطانيون على النزاعات التي سادت في الفترة التي سبقت الاستعمار البريطاني بين قبائل الكيوكي ( Kikuyus ) و قبائل الماساي ( Massais ) بينما تجاهلوا تماما- كما يشير الى ذلك جون لوندسال John Lonsdale - التبادلات التجارية التي كانت تحصل بين المجموعتين، وهنا نلمس التبرير الذي يصبغه الأوروبيون على الاستعمار الغربي باعتباره كان دافعا للأفارقة للمرور من حالة ما قبل-الحداثة إلى حالة الحداثة، و من الهويّة العرقية و القبلية إلى المواطنة<sup>1</sup>.

طعن بعض الباحثين الأوروبيين في وجهة الطرح الحداثي في تفسير الظواهر العرقية، كما رفضوا أن يسلّموا بفكرة الدور الايجابي للاستعمار الأوروبي - في إفريقيا على وجه الخصوص- فجورج بالانديي Georges Balandier رفض الفكرة القائلة بالدور الذي يلعبه اقتصاد السوق في إفريقيا كمحرّر و باعث لعلاقات اقتصادية تتجاوز الأطر التقليدية، بل اعتبر العرقية و القبلية شكلين من أشكال مواجهة

<sup>1</sup> John Lonsdale, " *Ethnicité morale et tribalisme politique*", ( [www.politique-africaine.com/numero/PDF/061098.pdf](http://www.politique-africaine.com/numero/PDF/061098.pdf) ). pdf. (consulté le 15/06/2011).

الاستغلال الرأسمالي و مقاومة الدولة التي تشكّل الجهاز القمعي العنيف، و بيّن بالانديي أنّه بدل الحادثة التي وعد بها المستعمر إفريقيا، قام على عكس ذلك بتوظيف و استغلال البنى الاجتماعية التقليدية لحماية مصالحه و إدامة سيطرته، لكنّ الغريب هو استعمال الأفارقة لنفس الأطر كرد فعل لمواجهة السياسة الاستعمارية.<sup>1</sup>

تولى مشروع الحادثة مسؤولية إزالة الكثير من الهويات السابقة و المرور بالإنسانية إلى مرحلة جديدة غير أنّ الواقع كان مختلفا تمام الاختلاف، بدليل أنّ تيار ما بعد الحادثة جاء ليؤسّس تصوّرا جديدا يرفض مسلّمات الحادثة و ينتقدها كما يرى عبد الله الغدامي:

" كان مشروع الحادثة مشروعا عقلانيا ليبراليا و في مطمحه أن يزيل الفروق العرقية ليؤسّس لنموذج كلّّي تمثله أوروبا و أمريكا في تجسيد تام لقيمهم الحضارية و الفلسفية، و منها جاءت فكرة البوتقة الصاهرة (melting pot) التي تعني تذويب الأعراق و الثقافات و الفلسفات في صيغة كلية واحدة، ذاك مطمح الحادثة ، غير أنّ مرحلة ( ما بعد الحادثة) جاءت لتفجّر الهوامش و تكشف عن عجز الوعد العقلاني الليبرالي في تحقيق العدالة و الحرية و تضع الكل أمام الحقيقة القائمة التي لم تستطع العقلانية الأوروبية معها منع الحروب و الكوارث الاقتصادية و الأخلاقية و كان هذا إخفاقا لكل وعود الحادثة، و منذ زمن الحروب في القرن العشرين قتل هتلر و ستالين و كذا الحريان العالميتان عشرات الملايين من البشر و لم ينته القرن إلا بتصفيات عرقية في البوسنة و في البلقان وسط القلب الأوروبي و حادثة القرن العشرين"<sup>2</sup>

<sup>1</sup>Ibidem.

<sup>2</sup> عبد الله الغدامي، القبيلة و القبائلية أو هويات ما بعد الحادثة، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2009، ص.43.

## المطلب الثاني: الاتجاه الطبيعي في تفسير الظاهرة العرقية.

يعتبر الاتجاه الطبيعي من بين الاتجاهات التي كانت رائجة في تفسير الظواهر العرقية، و بالرغم من تخليّ الدوائر العلمية عن الأطروحات البيولوجية باعتبارها مؤسسة أو مبررة للسياسات العنصرية في بداية القرن العشرين ( النازية كأحسن مثال)، غير أنّ هذا الاتجاه لا يزال موجودا إما بالشكل الصريح أو الضمني.

إنّ الظاهرة العرقية من خلال هذا الاتجاه ما هي في حقيقة الأمر إلاّ مسألة متعلقة برابطة الدم و بالجينات و الوراثة و عليه يصبح الانتماء إلى المجموعة العرقية ضرورة غريزية ( *besoin inné*) فتصبح بذلك ظاهرة موضوعية، طبيعية و ملموسة تتولّد عنها بالضرورة مطالب مرتبطة برابطة الدم.

و ينقسم الاتجاه الطبيعي إلى اتجاهين فرعيين، الاتجاه الأول يمكننا توصيفه بالاتجاه الطبيعي الخالص أمّا الثاني فنطلق عليه تسمية الاتجاه الطبيعي - الثقافي.

### - الاتجاه الطبيعي الخالص:

تطورت النزعة الطبيعية أو البيولوجية في القرن التاسع عشر على يد جوزيف آرثر دو غوبينو ( Joseph Arthur DE Gobineau ) و دو لا بوج De Lapouge الذي تكلمنا عنه سابقا، فقد ربطا مفهوم العرق أو الإثنية بمفهوم السلالة ( *la race* ) . كما لقي هذا الاتجاه دفعة قويّة من خلال أعمال الجيوسياسيين الألمانين فريدريك راتزل Friedrich Ratzel و كارل هاوشوفر Karl Haushofer.

غابت النظريات الطبيعية العنصرية من الدراسات الجامعية و ذلك بفعل الاتهامات التي وجهت لأصحابها و خاصة كارل هاوشوفر الذي اتهم بنشره لأفكاره العنصرية التي انطلق منها أدولف هتلر في كتابة مؤلفه " كفاحي" و خاصة فكرة المجال الحيوي (l'espace vital) و بالفعل فلقد استمعت محكمة نورمبرغ لشهادة كارل هاوشوفر في قضية ريدولف هاس Rudolph Hess و تمّ منعه من مزاولة التدريس لينتحر بعدها سنة 1946 .

لهذه الأسباب كانت عودة الاتجاه الطبيعي إلى حقل الدراسات الاجتماعية بصفة عامة و السياسية بصفة خاصة عودةً محتشمة، و انتظرنا إلى غاية منتصف السبعينيات لتظهر أول الأعمال التي تبنت هذا الاتجاه عن طريق ادوارد ويلسن Edward Wilson وبخاصة أعمال بيير فان دان بيرغ Pierre Van Den Berghe<sup>1</sup>.

اختزل هذا التيار مختلف العلاقات الاجتماعية في بعدها البيولوجي، بل ذهب بعض رواد هذا التيار إلى القول بوجود تطابق في الدوافع العامة للسلوك عند الإنسان و الحيوان، إذ يعتقد Van Den Berghe أن المجتمعات البشرية توحدّها و تجمعها المصالح الخاصة لأفرادها، على غرار المجتمعات الحيوانية، فغريزة البقاء هي التي تجعل الأفراد يجتمعون، و السلوك الإيثاري (L'altruisme) عند الإنسان ما هو في حقيقة الأمر إلا تعبير عن الأنانية الطبيعية في الإنسان، و يسلّم Van Den Berghe أن البشر مثلهم مثل المجتمعات الحيوانية هي مبرمجة جينيا لحفظ النوع و التناسل و هو ما يساهم ليس فقط في إعادة إنتاج جينات الفرد و لكن جينات أقرائه<sup>2</sup>.

و وفقا للتصور العام الذي صاغه Van Den Berghe تصبح الظاهرة العرقية امتدادا طبيعيا لمبدأ القرابة (la parenté) ، بل إنه يرى الانتماء العرقي وسيلةً من وسائل الانتقاء الطبيعي التي يتّم من خلالها تقوية قدرات الفرد على البقاء و التكيف، و فق التصوّر الدارويني لفكرة الصراع من أجل البقاء،

<sup>1</sup> Anthony Richmond, *op.cit.*, p.8.

<sup>2</sup> Pierre Van Der Bergh, *Man in Society: a Biosocial View*, New York: Elsevier, 1975, p.19.

لكنّ المسألة تصبح أكثر تعقّداً عندما يقرّ أنّ ظاهرة محاباة الأقارب le népotisme تمنح للجماعات التي تعتمد امتيازاً *avantage sélectif* على الجماعات التي لا تعتمد على المحاباة ، فالهوية العرقية و السلوكات التي تحدّدتها تتجذّر عند الإنسان ببرمجة جينية ( *programmée génétiquement* ) بصورة تجعل الفرد يميل للأقارب على حساب الأجانب.<sup>1</sup> و على هذا الأساس تصبح ظاهرة التمرکز العرقي (l'ethnocentrisme) ظاهرة تأسليّة (atavique) و لا شعورية، أي إنّ الإنسان حسب متمرکز عرقياً دون أن يشعر بذلك.<sup>2</sup>

### الاتجاه الطبيعي الثقافي (le primordialisme)

يتشابه الاتجاه الطبيعي البيولوجي الذي ينطلق من النظريات السوسيو بيولوجية من اتجاه آخر لا يقلّ أهمية و هو الاتجاه الأصلي أو البريمورديالي، الذي يمكننا تصنيفه في خانة الاتجاهات الطبيعية الثقافية أو الاتجاهات الطبيعية غير الخالصة، و لكي نفهم طبيعة هذا الاتجاه لا بد أن ننطلق من شرح مصطلح البريمورديالية (Primordial).

يُنسب مصطلح (primordial) إلى إدوارد شيلز Edward Shils الذي استعمله أول مرة في كتابه الذي نشر سنة 1957 "Primordial, personal, sacred and civil ties" ليدعم أطروحته حول أهميّة الجماعات الأوليّة (les groupes primaires) في عملية الاندماج و إنشاء المجتمعات الكبرى، فحسب شيلز إنّ ما يسمح للمجتمعات من الاشتغال و الاستمرار في الأوقات العادية أي خارج أوقات الأزمات هو انجاز الأفراد العاديين لمهامهم ضمن بيئتهم المباشرة ( محيطهم الاجتماعي الضيق)، ففي سلوكه اليومي، لا يكون الإنسان موجّهاً بإيديولوجية مجردة أو بتصور واضح للعالم و للمجتمع و لكن بانخراطه في علاقات شخصية طبيعية يصبغ عليها شيلز صفة الأصليّة أو الأساسية.

<sup>1</sup> Ibid, p.61.

<sup>2</sup> Ibidem.

و هذه الروابط حسبها غير قابلة للوصف كرابطة القرابة و هي روابط تتميز بمستوى عال من التضامن الذي تولده.<sup>1</sup>

و هنا يقترب شيلز من تصوّر إميل دوركايم الذي يرى في هذا الشكل من الروابط القاعدة الأساسية التي تتشكّل منها الروابط الاجتماعية الأولية ، و هو التصوّر نفسه الذي جعله ينتقد الطرح النفعي للتضامن. ففي كتابه حول تقسيم العمل الاجتماعي يرى دوركايم أنّ ما يخلق التضامن ليس التعاون (la coopération) كما يرى هيربرت سبنسر Spencer و لكن ذلك " يرجع لقوى دافعة لا يتحكّم فيها الأفراد كرابطة الدم (affinité du sang) ، الارتباط بنفس الحيّز المكاني ( الأرض)، تقديس الأجداد و تطابق العادات، و لا ينتظم التعاون بين الأفراد إلا بعد تشكّل هذه المجموعة وفق هذه الأسس"<sup>2</sup>.

سار Clifford Geertz في المسار نفسه الذي ابتدأه ادوارد شيلز باعتقاده بوجود صنف من الروابط الاجتماعية يخضع للانجذاب أو الاستئناس الطبيعي (affinité naturelle) أكثر من خضوعه للتفاعل الاجتماعي و هو صنف يعبر عن روابط أولية طبيعية ( attachements primordiaux naturels ) يمكن أن ندرج ضمنها روابط الدم، الطباع الوراثية ، الدين، اللغة، الانتماء الجهوي و العادات. و يعتقد Geertz أنّ هذه الروابط الأولية يمكنها أن تتخذ طابعا جهويا، قبليا أو عرقيا ، و هي روابط أقوى من الروابط الطبقيّة، الحزبية، المهنية و النقابية، لأنها قادرة على منافسة الأمة كوحدة اجتماعية جامعة و شاملة لأنها تنطلق من اعتبارات مماثلة للقومية.

و ترجع أهميّة الأبحاث التي قام بها Geertz في كونها تسمح للباحثين في حقل الدراسات العرقية من فهم بعض خصائصها التي تجعل من الهوية العرقية باعتبارها هوية أساسية و أولية منافسة للروابط

<sup>1</sup>Philippe Poutignat, Jocelyne Streiff-Fennart, *op-cit*, p.96.

<sup>2</sup> Emile Durkheim, *De la division du travail social*, Paris: PUF, 10 ème édition, 1978, p.262.

المدنية (liens civils) و هو ما تنطلق منه بعض الدراسات العرقية بالرغم من رفضها لهذا الاتجاه الطبيعي.

تتميز الهوية العرقية حسب هذا الاتجاه بما يأتي:

- أولية: باعتبار الفرد يولد ( أو يكتسب منذ ولادته) و معه العناصر المشكلة لهويته العرقية سواء تعلّق الأمر بالخصائص الفيزيائية و الأصول العائلية أو تعلّق الأمر بالعوامل الثقافية كالدين و الاسم، و حسب البريمورداليين ( les primordialistes ) فإنّ تجذّر الهوية العرقية في مجموعات القرابة الموسّعة سواء كانت حقيقية أو متخيلة هو الذي يمنح الانتماءات العرقية قوتها القهرية و يجعل التضامن نحو أفراد المجموعة ( نحن ) واجبا أخلاقيا، كما أنّ رابطة الدم و العائلة تكتسب رمزية كبيرة تؤثر في المستوى الشعوري لأفراد الجماعة، كما يعتقد أصحاب هذا الاتجاه أنّ الاعتقاد بالأصل المشترك هو الذي تنشأ منه الذهنية العامة ( la mentalité commune) لمجموعة من المجموعات.<sup>1</sup>

- أساسية: لأنّ هذا الاتجاه لا يرى في الانتماء إلى المجموعة العرقية واحدا من بين مجموعة من الانتماءات التي تشكّل هوية الأفراد ( مصدرا من بين مصادر أخرى للهوية ) بل المجموعة العرقية هي المجموعة القاعدية ( groupe de base ) أو الأساسية لجميع الأفراد و التي من خلالها تتوارث الغرائز، الأحاسيس، و الذاكرة الجماعية التي تخرج عن نطاق إرادة الفرد أو مشيئته، فاعتبار الهوية العرقية هوية أساسية يستند إلى الاعتقاد بأنّ البشر لديهم حاجات نفسية مشتركة كالحاجة إلى الانتماء، الحاجة إلى أن يتقبلهم الآخرون و الحاجة للتقدير الذاتي، و بين جميع الانتماءات الأخرى تظل الهوية العرقية هي الوحيدة القادرة على الاستجابة لهذه الحاجات النفسية.<sup>2</sup>

عرف هذا التفسير للظاهرة العرقية انتقادات كثيرة، بل إنّ أغلب الباحثين ينطلقون من نقدهم لهذا الاتجاه قبل طرحهم لتصوراتهم الشخصية حول هذه الظاهرة.

<sup>1</sup> Philippe Poutignat, Jocelyne Streiff-fenart, *op-cit*, p.98.

<sup>2</sup> *Ibid*, p.99.

و من بين الانتقادات الموجهة للتيار الأولي هي عدم قدرته على فهم البيئة السياسية و الاقتصادية التي تنشط فيها المجموعات العرقية و تبرز فيها الهوية العرقية، فكيف نفسّر ظاهرة الاستغلال داخل المجموعات العرقية و كيف نفهم ظاهرة الصراعات القومية أو الطبقية داخل المجموعة العرقية في حد ذاتها و الأمثلة حسب منتقدي هذا الاتجاه كثيرة.

أبعد التيار البريمورديالي الهوية العرقية من دائرة التفاعل الاجتماعي و الخبرات الجماعية للأفراد. إنَّ G.Bentley يرى أنَّ الضعف الذي أصاب هذه النظرية كان لاعتبارها أنَّ الهوية العرقية إنّما هي استجابة لحاجات نفسية عاطفية في حين يرجعها هو إلى مسار البناء الرمزي ( processus de construction symbolique ) المنشئ للشعور بالتمائل و الاختلاف ، مستعينا بنظرية الممارسة لبير بورديو Pierre Bourdieu و مفهوم الهابيتوس (l'habitus).<sup>1</sup>

إنَّ الاستعانة بمفهوم الهابيتوس (habitus) يعود بالدرجة الأولى لفهم بورديو لكثير من السلوكات التي قد تبدو طبيعية أو بريمورديالية كالظواهر العرقية، و لكنّها في حقيقة الأمر نتاج لتنشئة اجتماعية فعلية حتى و لو كان الفرد يراها في سلوكه معبرة عن ذاتية خالصة ، فالمفهوم يدل على عملية التلقين (inculcation) التي تمارسها المؤسسات الاجتماعية و التي تجعل الأفراد يتماهون مع ما تلقّته هذه الأخيرة (appropriation et intériorisation) لتتشكّل لديهم استعدادات معينة و دائمة (dispositions durables). و بالتالي فسلوك الأفراد يكون مرتبطا بالقواعد التي ترسمها المجموعة للفرد، لهذا فالفرد قد يعتقد أنّه مستقل في تصرفاته و سلوكاته و حتى أحاسيسه عن الجماعة لكنّ التنشئة تجعله خاضعا لما يعتبره بورديو بالتكييف (le conditionnement).<sup>2</sup>

<sup>1</sup> Carter Bentley, " *Ethnicity and Practice* ", <http://www.jstor.org/stable/178779> .(consulté le 25/12/2010).

<sup>2</sup> Pierre Bourdieu, *Le sens pratique*, Paris: édition Minuit, 1980, pp.88-89.

و هذا ما يبيّن قوّة نظرية الممارسة عند بيير بورديو في دحض تفسير الطرح البريمورديالي للظاهرة العرقية الذي يجعل الهوية العرقية غير قابلة للتفسير موضوعيا أي بالرجوع إلى الأسباب الفعلية التي تجعل الأفراد الذين ينتمون إلى مجموعة عرقية واحدة يتصرفون في الغالب تصرفات متماثلة و متشابهة، فالاستعدادات التي يكتسبها الفرد من المجموعة هي التي تجعله يتكيف مع محيطه الاجتماعي و ليس العكس، فالفرد إذا نزعناه من بيئته الاجتماعية الأصلية أو لنقل من مجموعته العرقية و قمنا بتربيته في بيئة أخرى لن يستطيع تشكيل هوية عرقية مرتبطة بجماعته الأصلية، بل الهوية العرقية التي ستتشكل لديه هي هوية المجموعة التي نشأ فيها.

### المطلب الثالث: الظاهرة العرقية كظاهرة ثقافية.

أدت التحولات التي عرفتھا المجتمعات البشرية في النصف الثاني من القرن العشرين و خاصة حركة النزوح المكثف من الأرياف إلى المدن و ظاهرة الهجرة إلى إعادة تقدير العوامل البيولوجية و الموضوعية ودورها في تشكيل الهوية العرقية كرابطة الدم و اللغة و الأصول المشتركة و أسست لظهور تفسيرات جديدة تنظر للظاهرة العرقية كنتاج لمسارات أكثر تعقيدا.

ومما زاد من أهميّة هذا البعد ظهور دراسات جديدة للظاهرة العرقية بعيدا عن العقلية الاستعمارية التي تميّزت بها كتابات علماء الأجناس و الأنثروبولوجيا السابقين للمجتمعات الإفريقية، بل نبّهوا إلى ضرورة التعامل مع الظاهرة العرقية كموضوع ديناميكي و مرّن بحيث لا نتعامل معها بصفقتها ظاهرة آيلة للزوال أو متقدمة كما اعتقد الحداثيون و لا كظاهرة بيولوجية كما يرى الطبيعيون.

تخروط ضمن هذا المستوى من التفسير مجموعة من النظريات تتفق في تأكيدها على المنطلق الثقافي للظاهرة و تختلف في تصوّرها لديناميكيّتها و دوافعها. إذ تنطلق هذه المقاربة من التسليم أو الاعتماد على العنصر الثقافي كعنصر أساسي في تمييز الجماعات العرقية بعضها عن بعض، و أنّ

الحفاظ على بقاء المجموعة العرقية يرتبط بالحفاظ على هويتها الثقافية، و تنقسم هذه المقاربة الى تيارين أساسيين هما تيار يعتقد بانصهار الثقافات وزوال الثقافات الهامشية أي ثقافات المجموعات العرقية الصغيرة أو المنكشفة و تيار آخر يؤمن بقوتها و قدرتها على التكيف و المحافظة على خصوصياتها.

اعتقد تيار الانصهار و الاندماج أنّ الجماعات العرقية المهاجرة ستذوب و ستتحل في المجتمعات المضيفة (sociétés d'accueil)، فالفرق بين الجماعات العرقية تبدأ في التناقص جيلا بعد جيل لتختفي تماما و تذوب في المجتمعات المضيفة، و هنا تعتبر الاختلافات الثقافية مواصفات فردية ، و أنّ الأفراد سينزعون الى التخلي عن ثقافتهم الأصلية و الذوبان في المجتمع الجديد.<sup>1</sup>

انتشر هذا التيار في الولايات المتحدة الأمريكية و تبنته مدرسة شيكاغو أولا باعتبار أمريكا بلدا متعدّد الأعراق و مستقطبا دائما لموجات واسعة من المهاجرين القادمين من مختلف أرجاء المعمورة ، و الانصهار هنا يعني رفض التصوّر الذي ينظر للولايات المتحدة على أنّها خليط من المجموعات العرقية المتجاورة (mosaïque de groupes juxtaposés).<sup>2</sup>

يعتبر الانصهار المرحلة الرابعة من دورة العلاقات و التفاعلات الاجتماعية كما حدّتها نظرية العلاقات الدورية (théorie des relations cycliques) المبلورة من قبل مدرسة شيكاغو باعتباره المرحلة الأخيرة التي تسبقها مراحل أولية هي التنافس، النزاع ثمّ التكيف و تنتهي هذه الدورة عندما تندمج المجموعات العرقية في حياة ثقافية مشتركة بحيث يصبح المهاجرون و السكّان المولودون في أمريكا (les natifs) يتقاسمون نفس الأحاسيس و نفس الذكريات و نفس التقاليد.<sup>3</sup>

<sup>1</sup> Poglia mileti, *Théorie de l'ethnicité*, in [www.unifr.ch/socsem/cours/compte-rendu/theorie/ethnicite/E9/20site.pdf](http://www.unifr.ch/socsem/cours/compte-rendu/theorie/ethnicite/E9/20site.pdf). (consulté le 20/12/2010).

<sup>2</sup> Ibidem.

<sup>3</sup> Philippe Poutignat et Jocelyne Streiff-Fenart, *Théorie De l'ethnicité*, op.cit, p.70.

غير أنّ دراسات أخرى قام بها كل من Park و Burgess و تمّ نشرها سنة 1921 تُبيّن أنّ المجموعات العرقية المختلفة لا تتخلّى عن ثقافتها الأصلية للذوبان في ثقافة المجتمع المضيف كما اعتقدت مدرسة شيكاغو حيث يرى Burgess أنّ الفصل أو التمييز (la ségrégation) يمكن الجماعات و الأفراد الذين يشكّلونها من اكتساب الدور و المكانة في التنظيم العام للحياة في المدينة كما أنّ التنظيمات ذات الطابع العرقي هي التي تشكّل الجسر (le tremplin) بالنسبة للفرد للانخراط في السياسة و عالم المال.<sup>1</sup>

لم ترفض مدرسة شيكاغو النتائج التي وصلت إليها أبحاث Park و Burgess و لكنّها اعتبرت انخراط الأفراد في التنظيمات ذات الطابع العرقي مرحلة من المراحل التي تسبق الانصهار و ذوبان الفروق العرقية.

أمّا المدرسة الوظيفية و التي كانت من المدارس المسيطرة في الخمسينيات من القرن العشرين فكانت تتطّلع من عامل الاندماج (l'intégration) كعامل أساسي في دراسة الجماعات المهاجرة و الأقليات. فالوظيفيون ينطلقون من كون المجتمع قادر على امتصاص عناصر جديدة دون أن يؤدي ذلك الى تغيير في نسقه الأساسي، علماً أنّ الوظيفية كانت حريصة على دراسة العوامل التي تضمن الانسجام داخل المجتمع الأكبر و بهذا أصبحت أكثر تطرفاً من مدرسة شيكاغو في مسألة التعددية و التمايز العرقي إذ أنّ مدرسة شيكاغو كانت تنظر الى التهجين (le métissage) كعامل يثري و يغني الجماعات المختلفة الذي تدخل في عملية التبادل و التفاعل الثقافي.<sup>2</sup>

أصبح هذا التيار يقترن بمسألة التوحيد الثقافي (l'uniformisation culturelle) و متمثلاً في السعي نحو رفض الخصوصيات الثقافية للمهاجرين و كتيار مضاد للتعددية الثقافية، ففي سنة 1964 نشر عالم الاجتماع الأمريكي Milton Gordon مؤلفه (Assimilation in American life)

<sup>1</sup> Ibid., p.71.

<sup>2</sup> Véronique de Ruder, " De l'urbain au social: Le "cycle des relations raciales", Revue *européenne des Migrations Internationales*, Vol.18, N.03/2002,p.46-48.

الذي أثار فيه مسألة ذوبان الأفراد في الثقافة الأمريكية لكنّ الغريب هو اعتباره الثقافة الأمريكية ثقافة الرجل الأبيض البروتستانتي فقط متجاهلا العناصر الأخرى ، باعتبارها الثقافة التي تعني الحداثة و التقدم، و هنا يعود الى التحديد الضيق للمرجعية الثقافية الأمريكية ( White Anglo Saxon Protestant ) الذي ساهمت المرجعية الليبرالية في انتشاره، وهي المرجعية التي ترى في الفرد القدرة على اختيار الثقافة التي تناسبه متخلصا بذلك عن اكرهات مجتمعه الأصلي و فق المبدأ الليبرالي (liberal) expectancy<sup>1</sup>.

إنّ أهم ملاحظة يمكننا الخروج بها من قراءتنا لهذه المدرسة هي وجود إيديولوجية أو مشروع سياسي يتم التخطيط له، فالاندماج الذي تتكلم عنه يعبر في الحقيقة عن رغبة ملحة من قبل الساسة في توحيد المعايير (l'anglo-conformity) أكثر من كونه نتيجة حتمية طبيعية لعلاقات اجتماعية غير موجّهة، غير أنّ أصحاب هذا الاتجاه ( و من بينهم الموظفون ) حاولوا دائما منح منطلقاتهم الفكرية طابعا علميا بحثا وإخفاء الاعتبارات السياسية الموجّهة.<sup>2</sup>

و مع التحولات التي عرفتها الولايات المتحدة الأمريكية في الستينيات و ظهور الحركات المطالبة التي أفرزتها حرب فيتنام و الحراك المقاوم للتمييز العنصري بشقيه السلمي و العنيف ( مارتن لوثر كينج بمقابل حركة الفهود السوداء black panthers ) و ظهور حركات شبابية (الهيبي) و نسوية، بدأ الاعتقاد السائد و القائل بالتوحيد والاندماج يتحطم، لتظهر فكرة التعددية الثقافية، بل إن البعض اعتبر المسار السابق مناقضا لروح الديمقراطية، و هو ما يظهر صراحة من خلال عنوان المحاضرة الشهيرة لفيلسوف التعددية الثقافية Horace Kallen "الديمقراطية مقابل البوتقة الصاهرة democracy versus melting pot". الذي أقر أنّ المجموعات العرقية و بالرغم من ضغوط البيئة الاجتماعية الأمريكية لا تزال تنزع الى الحفاظ على لغتها، ثقافتها و مؤسساتها الخاصة.<sup>3</sup>

<sup>1</sup> Gordon Milton, *Assimilation in American life*, New York: Oxford University Press, 1964, p.28.

<sup>2</sup> Poglialletti, *Théorie de l'ethnicité*, in [www.unifr.ch/socsem/cours/compte-rendu/theorie/ethnicite/E9/20site.pdf](http://www.unifr.ch/socsem/cours/compte-rendu/theorie/ethnicite/E9/20site.pdf). (consulté le 26/12/2010).

<sup>3</sup> Horace, Kallen, " *Democracy versus melting pot*", The Nation, in, [www.legacy.matrix.msu.edu/expo98/people/kallen.htm](http://www.legacy.matrix.msu.edu/expo98/people/kallen.htm).(consulté le 14/09/2011).

و هو الطرح نفسه الذي نجده عند Bhikhu Berekh إذ اعتبر المجموعات العرقية واحدة من المجتمعات التي تقاوم التماثل و الانصهار في بوتقة المجتمع الواسع حيث تسعى هذه الفئات بطرق شتى حسبها للحصول على اعتراف المجتمع بشرعية اختلافاتها، في الوقت الذي ينظر البعض إلى هذه الاختلافات الطبيعية كأكبر تهديد للمجتمعات الليبرالية بل إن فرانسيس فوكوياما كممثل للتيار الليبرالي المنطوق و المعارض لفكرة التعددية الثقافية يعتقد أنّ ما عرفته الولايات المتحدة و غيرها من الدول الغربية في الستينيات من القرن العشرين هو سبب ما تعيشه أمريكا اليوم، أي أنّ بروز حركة المطالب الفئوية هو المسؤول عن الانحدار الاقتصادي و تبدّد التماسك السياسي<sup>1</sup>

إنّ الرجوع الى الواقع الحي بعيدا عن الافتراضات العلمية التي طرحتها هذه المدرسة يثبت أن الدولة التي تعتبر كنموذج لتعايش الأقليات و استقطاب المهاجرين الجدد- أي الولايات المتحدة الأمريكية- لم تستطع أن تلغي التمايز الذي لا يزال طاغيا و بارزا للعيان في مظاهر كثيرة، لعل أبرزها بقاء التفاوت الاجتماعي و الاقتصادي بين القوميات و النسبة القليلة للزواج المختلط و استمرار التعصّب العرقي.

إن جدلية الاندماج و التعددية هي- في اعتقادنا - أعقد معضلة تواجه المدرسة الليبرالية اليوم، و هذا يرجع لكون الليبرالية ركزت على الفرد (الحرية، الاختيار..الخ) و أهملت الجماعة و الثقافة باعتبارها موجها للفرد. و من هذا المنطلق فالدول الليبرالية لم تصل اليوم الى إجماع واضح حول الطريقة التي تمكّنها من تسيير التنوع الثقافي دون الإضرار بوحدة المجتمع.

ففي حين أعلنت دول كاستراليا و كندا أنّها مجتمعات متعدّدة الثقافات و ملتزمة بالتعددية الثقافية رفضت دول أخرى هذا المبدأ واعتبرته مهدّدا لكيان الدولة حيث يقول Berekh في هذا الشأن:

---

<sup>1</sup> بيخو، باروخ، إعادة النظر في التعددية الثقافية: التنوع الثقافي والنظرية السياسية، (تر: مجاب الإمام)، دمشق: منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، 2007، ص.27.

" في فرنسا تتواجد تقريبا نفس نسبة السكّان من الأقليات الاثنية و تتشابه تركيبتها السكّانية عموما مع التركيبة البريطانية، لكنّ معظم الفرنسيين، محافظين و ليبراليين على حد سواء، يرفضون تسمية فرنسا مجتمعا متعدّد الثقافات، أحد الأسباب في ذلك يرجع الى أنّ التقاليد السياسية الفرنسية تقوم على مفهوم راسخ لفكرة المواطنة، فأن تكون مواطنا فرنسيا يعني الاندماج الطوعي بالأمة الفرنسية و بالتالي التمتع بنفس الحقوق و الواجبات التي يتمتع بها بقية أفراد الأمة، بمعنى آخر، تعترف التقاليد السياسية الفرنسية بالمواطنين الأفراد حصرا، و لا مكان فيها لفكرة الأقلية... فلا وجود لمفهوم الأقلية بحد ذاته و بما يتضمّنه من إحصاءات تسبغ على جماعة ما مكانة متميزة و حصرية و الى حد ما دائمة"<sup>1</sup>.

#### المطلب الرابع: الظاهرة العرقية كظاهرة اجتماعية و سياسية.

مقابل المقاربات الطبيعية و الثقافية للظاهرة العرقية ظهرت مقاربات أخرى تنظر للظاهرة العرقية كتعبير عن التنافس و الصراع، و تنظر للانتماء إلى المجموعات العرقية كمورد من الموارد يمكن توظيفه و كوسيلة لتحقيق غايات اقتصادية أو كسبيل من السبل المثلى للتعبئة السياسية بغية الوصول إلى السلطة وهو الذي جعل الباحثين يطلقون على هذه المقاربات بالمقاربات التوظيفية و التعبوية (approches instrumentalistes et mobilisationnistes).

فانطلاقا من هذه المقاربات يصبح الانتماء إلى مجموعة عرقية إطارا أو عاملا من العوامل القابلة للتوظيف و الاستغلال ، فالانطلاق من التضامن العرقي يسهل هذه العملية. و حتى و إن كانت المصالح الذاتية غير مرئية للوهلة الأولى إلا أنّ التنافس على الموارد الذي يميّز السياق العام الذي تحدث فيه عملية التعبئة و التوظيف يجعل هذه المقاربات قادرة أكثر من غيرها على تفسير الصراعات العرقية.

---

<sup>1</sup> المرجع نفسه، و الصفحة نفسها.

هناك نظريات كثيرة تصنّف ضمن هذه المقاربة العامة يمكننا فرز أهمّها:

**المجموعة العرقية كمجموعة مصالح:** بحيث يعتبر أصحاب هذا الطرح أن الغاية من الانتماءات العرقية هو التأثير على السياسات الاجتماعية و الاقتصادية أو كوسيلة تمكّن الفاعلين العرقيين من الوصول إلى السلطة، وهنا يمكننا اعتبار الانتماء العرقي وسيلة من الوسائل التي تختفي وراءها صراعات ورهانات أخرى حيث أطلق عليه Joan Vincent تسمية "قناع المواجهة" و ذلك في الدراسة التي قام بها حول الصراعات العرقية في أوغندا في أواسط الستينيات من القرن العشرين.<sup>1</sup>

إنّ النظر للانتماءات العرقية من خلال هذا البعد يعني تشبيهها بالانتماءات الطبقية بل إننا نجدها في كثير من الأحيان تتداخل معها الى أبعد الحدود و هو ما جعل Milton Gordon يبتكر مصطلحا جديدا هو "ethclass" و هو مفهوم مركب من مصطلحي العرق و الطبقة و يقصد بها ميلتون جوردون تطابق الانتماء العرقي مع الوضع الطبقي لجماعة ما. (الدافع نفسه لبلورة مفهوم (nation-class) من قبل ارنست جلنر)<sup>2</sup>.

ففي كثير من الحالات هناك تطابق فعلي بين التفاوتات الطبقية و الانتماءات العرقية حيث يرى Abner Cohen أنّ: "الهوية العرقية تكون بارزة تحديدا في الحالات التي تكون فيها التفاوتات الطبقية التي أفرزتها مسارات الحداثة متطابقة مع الانتماءات القبلية القديمة".<sup>3</sup>

بينما ميّز آخرون بين المصالح الطبقية و المصالح الاقتصادية العرقية لأنها تتعلّق بأفراد المجموعة العرقية كلّها بغض النظر عن انتماءاتهم الطبقية على غرار John Thomson الذي ميّز بين عملية التعبئة العرقية (la mobilisation ethnique) و التعبئة الطبقية.<sup>4</sup>

<sup>1</sup> Vincent Joan, *The structuring of ethnicity*, Human organisation, vol.33, n4, 1974, p.376.

<sup>2</sup> Martin Marger, "Areexamination of Gordon's Ethclass", *Sociological Focus*, Vol.11, Issue 1, 1978, p.21-32.

<sup>3</sup> Cohen, Abner, (ed), *Urban ethnicity*, London: Travistock, 1974, p.65.

<sup>4</sup> Thomson, John, "The plural society approach to class and ethnic mobilization", *ethnic and Racial Studies*, vol.6, n2, 1983, p.127.

و يعتقد قسم آخر من الباحثين الذين ينطلقون من هذا المنظور ( أي اعتبار المجموعة العرقية كجماعة مصالحي) أنّ الظواهر العرقية هي شكل من أشكال التعبئة السياسية "المنافسة" للطبقة الاجتماعية و ليست مختلفة عنها فقط، بل إن المجموعات العرقية تحاول إزاحة الطبقة الاجتماعية في عالمنا المعاصر لأنها تتميز عن الطبقة بامتلاكها روابط عاطفية واضحة و قوّة تفتقدها الطبقة الاجتماعية اليوم، فالتمايز الطبقي الذي كان كبيرا من خلال الاختلاف المطلق في سلوكيات و طبائع الأفراد المنتمين لطبقات اجتماعية مختلفة في السابق بدأ اليوم في الزوال بينما التباينات الناتجة عن الانتماءات العرقية لا تزال حاضرة و هو ما يؤهلها لتكون قاعدة قوية للتعبئة السياسية.

و عليه فالفرق بين الانتماءات العرقية والطبقية هو كون الأولى علاقات غير مجردة و قابلة للتمثّل بينما الطبقة الاجتماعية لا تمتلك بالضرورة هذه الموصفات لأنّ الهوية العرقية علاقة قرابة وانتساب يطغى عليها الجانب العاطفي، أمّا الطبقة فهي علاقة مصلحة فقط إذ أنّ ما يربط أصحابها هو تماثل أوضاعهم الاجتماعية و الاقتصادية، و هو ما يسمّيه ماركس بالطبقة بذاتها ( classe en soi ).

و حسب Abner Cohen تحولّت المجموعات العرقية إلى طرائق غير رسمية للتنظيم السياسي أو لنقل موازية للبنى الرسمية، يستغل فيها العامل الرمزي القوي الذي تحمله الهوية العرقية، و يوظّف من أجل غايات محدّدة، و بالتالي تصبح الولاءات العرقية أقوى من الانتماءات الحزبية أو الإيديولوجية<sup>1</sup>.

ويأتي هذا الطرح في سياق التصرّو الجديد لمفهوم "مجموعة المصالح" الذي أصبح أكثر تعقيدا في الولايات المتحدة الأمريكية بحيث بيّنت البحوث التي أجريت لمحاولة فهم طبيعة التنافس الحاصل بين الأقليات العرقية في أمريكا أنّ التوزيع غير المتكافئ للفرص في هذا البلد ( لأنّ الجماعات المهاجرة حديثا تجد أنّ أفضل المواقع العمرانية و أحسن الفرص الاقتصادية قد تمّ احتكارها من قبل المجموعة المسيطرة ( WASP .White Anglo-Saxon Protestant ) يجعل الانتماء العرقي في بعض الأحيان عائقا

<sup>1</sup> Cohen, Abner, *op. cit.*, p.129.

أمام تطلّعات المواطنين المنتمين الى مجموعات عرقية حديثة، فيصبح العمل الجماعي ما بين أفراد المجموعة العرقية إستراتيجية بديلة للحصول على وضع أفضل من ناحية الحقوق السياسية و الاقتصادية، و هو ما يجعل بعض الباحثين يعتقد أنّ الحركة المطلوبة الزنجية في الستينيات هي نتاج لهذه الإستراتيجية.<sup>1</sup>

أكّد بعض الباحثين على دور النخب في استخدام الانتماءات العرقية لتعبئة الأفراد المنتمين إلى المجموعة العرقية، فالنخب السياسية هي الفاعل الأساسي الذي يقوم بعملية التوظيف السياسي للعرقية على غرار Paul Brass حيث يقول: " النخب و النخب المضادة داخل الجماعات العرقية تختار جوانب من ثقافة الجماعة و تربط بها قيمة جديدة و معنى جديدا، و تستخدمها رموزا لتعبئة الجماعة، و للدفاع عن مصالحها و للتنافس مع الجماعات الأخرى"<sup>2</sup>

فمن خلال التصرّ الذي يجعل الظاهرة العرقية وسيلة و عاملا تعبويا تصبح الهوية العرقية مطلبا سياسيا قبل أن تكون نتاجا لتنشئة سياسية واضحة فهي حسب هذا الطرح الذرائعي (pragmatique) رد فعل للتغيّرات في البنى المؤسسية و في علاقات القوى التي أفرزتها الحداثة ( في حين يعتبر الطرح الحداثي كما ذكرنا سالفا العرقية بالهوية المتأكلة و المتقادمة) بل إنّ وظيفة تنظيم المصالح السياسية هي التي تحدّد الظواهر العرقية و ليس العكس ليصبح النظر إليها كظاهرة سياسية صرفة بحيث أصبح الباحثون يستعملون مفهوما جديدا للدلالة عليها هو: العرقية السياسية " political Ethnicity ".<sup>3</sup>

- المجموعة العرقية كتعبير عن خيارات عقلانية: ينطلق هذا التصرّ للظاهرة العرقية من نظرية الخيارات العقلانية (théorie des choix rationnels) و على هذا الأساس فهو يركّز على الطبيعة الفردية للعلاقات العرقية، و يتميز هذا الطرح برفضه المطلق لجعل الظاهرة العرقية ذات منشأ بريمورديالي

<sup>1</sup> Philippe Poutignat, Jocelyne Streiff-Fenart, *Théorie De l'ethnicité, op.,cit*, p.109.

<sup>2</sup> Brass, Paul, "Elite Groups, Symbol Manipulation and Ethnic Identity among the Muslim of South Asia", in D.Taylor et M.Yapp(eds), *Political Identity of South Asia*, London : Curzon Press, 1979, p.36.

<sup>3</sup> Eriksen, Thomas hylland, "ethnicity and Nationalism: Anthropological Perspectives", ([www.Folk.vio.no/geither/ethnicity.html](http://www.Folk.vio.no/geither/ethnicity.html)). (consulté le 3/4/2012).

أو أنها أولية ، فالانتماء العرقي من خلال هذا المنظور ليس انتماء غير إرادي كما يراه الطرح الطبيعي للظاهرة العرقية و ليس ناتجا من استبطان (intériorisation) غير واع لقيم المجموعة العرقية ، بل بالعكس تماما، المجموعات العرقية تتشكّل عندما يرغب الأفراد في الحصول على موارد معينة ( السلطة ، الثروة) يعجزون عن تحقيقها أو الوصول إليها من خلال استراتيجيات انفرادية.

يعتبر Michael Banton أشهر من وظّف نظرية الخيارات العقلانية لدراسة العلاقات العرقية (و يعتبر مؤلفه *Racial and Ethnic Competition* تطبيقا لنظرية الخيارات العقلانية في الدراسات العرقية) فهو ينطلق من المسلّمة التي تقول أنّ الأفراد يسعون في نشاطهم الى تحقيق القدر الأكبر من المنافع ( maximisation des avantages ) و حسب بانتون دائما يستغل الأفراد الفروق الثقافية لخلق مجموعات معينة عبر مسار من الضم و العزل ( processus d'inclusion et d'exclusion ).<sup>1</sup>

ينظر بانتون للتفاعلات العرقية كالمبادلات التنافسية و يشبّنها بحالة السوق حيث يتصرّف الأفراد لتحقيق أكبر قدر من المنافع من خلال حساب دقيق لمقدار الربح و الخسارة.

وفق هذا التصرّو تصبح المجموعة العرقية محصّلة للخيارات الفردية ، أي إنّ الفرد هو أساس المجموعة بينما في الطرح البريمورديالي يرتبط الفرد بالمجموعة ارتباطا عضويا.

كما أنّ تماسك المجموعة مربوط بنوع العلاقة النفعية التي تجمع الأفراد، فإذا اقتضى التنافس أن يكون العمل كمجموعة تصبح المجموعة أقوى و تصبح الحدود التي تفصلها عن المجموعات الأخرى أكثر وضوحا ، و عندما يقتضي التنافس العمل بطريقة انفرادية تضعف المجموعة و تصبح الحدود التي تفصلها عن المجموعات الأخرى واهية و هشّة.<sup>2</sup>

<sup>1</sup> Philippe Poutignat et Jocelyne Streiff-Fenart, *op., cit.* p.111.

<sup>2</sup> *Ibid.*, p.111.

و من بين الانتقادات التي قدّمت لنظرية الخيار العقلاني و تطبيقاتها في دراسة العلاقات العرقية تجاهلها لمسألة الهوية و الثقافة، كما أنّها لم تعر اهتماما لدور القيم في تحديد الخيارات الفردية العقلانية، فمنطلق هذه النظرية منطلق نفعي متطرف لا يمكننا من تفسير سبب بقاء المجموعات العرقية بالرغم من غياب المصالح المادية في بعض الأحيان.<sup>1</sup>

- **نظرية الاستعمار الداخلي Internal colonialism**: استعمل مصطلح الاستعمار الداخلي أول مرة من قبل Robert Blauner ( في كتابه *Internal Colonialism and Ghetto Revolt* ) لدراسة الحركات الاحتجاجية في أحياء المواطنين السود في أمريكا نهاية الستينيات، لكنّ هذا المفهوم تطوّر و نشر على نطاق واسع من قبل Michael Hechter في محاولة لتفسير انتشار ظاهرة القومية العرقية (l'ethno-nationalisme) في المجتمعات الصناعية حيث يرى هكتر أنّ هناك تقسيم ثقافي للعمل (division culturelle de travail) بين المركز و المحيط داخل نفس الفضاء القومي و يعني بذلك أنّ الأفراد توكل إليهم أنواع معينة و محددة من العمل على أساس مميزات ثقافية واضحة للعيان.<sup>2</sup>

لقد أخذت هذه النظرية كما هو ظاهر من نظرية التبعية التي صاغها مجموعة من الباحثين في الستينيات و السبعينيات من القرن العشرين، لكن هكتر ابتعد عن المقاربة الماركسية التي تعتبر الانتماءات العرقية كنوع من الاستلاب (aliénation) وأعطاهها مدلولاً أكثر ايجابية، إذ اعتبرها وسيلة من وسائل الكفاح الجماعي، فالعرقية عند هكتر شكل من أشكال التضامن يظهر كرد فعل واستجابة للتمييز و اللاتكافؤ، و هي مظهر من مظاهر الوعي السياسي عند المجموعة العرقية التي تسعى لتغيير الواقع القائم على سيطرة مجموعة عرقية على المجموعات الأخرى.<sup>3</sup>

<sup>1</sup> *Ibid.*, p112.

<sup>2</sup> Michael Hechter, "Ethnicity and industrialization : in the proliferation of the cultural division of labor", *Ethnicity*, vol.3, Num.3, 1976, p.222.

<sup>3</sup> Michael Hechter, " *From Class to Culture*", [www.yale.edu/macmillan/ocvprogram/lincep/4/hechter/hechter.pdf](http://www.yale.edu/macmillan/ocvprogram/lincep/4/hechter/hechter.pdf). ( consulté le 13/2/2011).

اتخذ هكتر الجزيرة البريطانية نموذجا لدراسته، بحيث اعتبر انجلترا مركزا للعلاقات الاقتصادية و المناطق الأخرى أطرافا، ورأى أنّ الانتماءات العرقية للمناطق الطرفية ( أيرلندا و اسكتلندا ) أي العرق السلتي مكّنتها من تعبئة هذه الخصوصية في صراعها الاقتصادي ضد المركز في حين يعجز الفقراء في انجلترا عن العزف على وتر القومية أو الانتماء العرقي للمطالبة بحقوقهم الاقتصادية.

إنّ هكتر يبيّن هنا أنّ التباين العرقي بين المركز و المحيط يمكّن المجموعات العرقية في الطرف من توظيف انتماءاتهم هذه لخلق التضامن اللازم لإحداث مقاومة منظمة، وهنا تظهر النظرة إلى العرق كوسيلة تعبوية توظّف عند اللزوم، و هو ما جعل الباحثين يصنّفون نظرية الاستعمار الداخلي كواحدة من النظريات الذرائعية ( théories instrumentalistes ) على غرار النظريات السابقة.

تفتقد هذه النظرية إلى القدرة على فهم طبيعة العلاقات العرقية بمعزل عن التنافس و الصراع، فبالرغم من توظيفها لتفسير الكثير من الصراعات العرقية الداخلية إلا أنّ العلاقات العرقية ليست علاقات صراعية دائما.

**التصوّر الماركسي للظاهرة العرقية:** لسنا هنا في مقام عرض مفصّل لفهم الماركسية للظواهر العرقية لأنّ ذلك يتطلّب إسهابا كبيرا و تفصيلا لمختلف المدارس الفكرية الماركسية التي تناولت هذه الظاهرة بالدراسة و لكنّ دراستنا هنا تهدف إلى تمييز التصوّر الماركسي عن التصوّرات الأخرى معتمدين على دراسات الماركسيين الجدد و تمييزهم للمجموعة العرقية عن الفئة الاجتماعية التي تعتمدها الماركسية و هي الطبقة الاجتماعية.

لقد ركّزت الدراسات الماركسية على الصراعات العرقية من خلال الوظيفة التي تؤديها ضمن النظام الرأسمالي، و بخاصة دور التقسيمات العرقية في خلق القوى العاملة الرخيصة الثمن أو تشكيلها للجيش الاحتياطي للعمل ( armée de réserve de travail ) فحسب الباحثين الماركسيين فإنّ الصراع الذي

نجدّه بين العمّال المحليّين و المهاجرين ليس مردّه إلى الأفكار المسبقة العنصرية تجاه الأجانب و على أفراد المجموعات العرقية الضعيفة، و لكن يجب البحث عنه من خلال إدراك الاتجاه العام للرأسمالية في إبقاء أجور العمّال في أدنى مستوياتها، و بما أنّ المجموعات العرقية الممثلة في المهاجرين عادة و بالنظر الى محدودية مواردها الاقتصادية و السياسية ( عوامل موضوعية) و ضعف الحوافز ( عامل ذاتي نفسي) تصبح أكثر تقبلا لعلاقات عمل استغلالية و توقّر لمالكي وسائل الإنتاج فرصا حقيقية لإبقاء الأجور في مستوياتها المتدنية، فإنّ هذا يؤدي إلى تقسيم العمل و ينتج استقطابا عرقيا و يؤدي إلى زيادة الظاهرة العنصرية.<sup>1</sup>

الأمر الثاني الذي طرحه الماركسيون الجدد هو أنّ المجموعة العرقية شكل من أشكال الانتماء الاجتماعي (affiliation social) منافسة للطبقة الاجتماعية و بهذا تصبح وظيفتها الإيديولوجية الأساسية هي حجب المصالح الطبقيّة المتقاطعة بين المجموعات العرقية المستغلة (بفتح الغين) و بين القسم المستغل ( بكسر الغين) من المجموعة العرقية المسيطرة.<sup>2</sup>

تركّز مختلف الدراسات الماركسية المتعلقة بالمسألة العرقية على توظيف مفهوم " الوعي الزائف أو الكاذب (la fausse conscience)"، فالماركسيين يرون أنّ الانتماء العرقي يعبر عن وعي خاطئ أو مزيف يقوم أساسا على حجب الوعي الحقيقي الذي يتمثل في الوعي الطبقي.<sup>3</sup>

و بالرغم من ذلك فإنّهم لا ينكرون وجود مثل هذا النوع من الوعي لأنّه " نتاج لقرون من العلاقات الاجتماعية تبلورت ثقافيا لتصبح وعيا هو اليوم في مواجهة علاقات اجتماعية حديثة"<sup>4</sup>

<sup>1</sup> Danielle Juteau , Danielle Juteau Lee, *Les frontières de l'ethnicité* , Montréal: PUM, 1999, p.12.

<sup>2</sup> Bernard Bernier, Mikhael Elbaz et Gilles Lavigne, " Ethnicité et lutte de classe", *Anthropologie et Sociétés*, vol.2 n.1,1978, pp.1-14.

<sup>3</sup> John Lonsdale, " *Ethnicité, morale et tribalisme politique*" [www.politique-africaine.com/numeros/pdf/061098/pdf](http://www.politique-africaine.com/numeros/pdf/061098/pdf). ( consulté le 3/6/2011).

<sup>4</sup> Cahen, Michel, *Ethnicité politique: Pour une lecture réaliste de l'ethnicité*, Paris: L'Harmattan, 1994, p.48,

ليس من قبيل المبالغة إذا اعتبرنا الوعي العرقي شكلا من أشكال "الاستلاب (aliénation)" مثلها مثل الانتماء إلى روابط اجتماعية و ثقافية تقوم أساسا على تبرير الاستغلال الطبقي.

يعبر مفهوم المجموعة العرقية على ما يسميه رائد الماركسية النمساوية Otto Bauer الجماعة التي تقوم على تاريخ و ثقافة مشتركة "communauté d'histoire et de culture" و يستعمل على وجه الخصوص للدلالة على مثل هذه الجماعات المستغلة (dominées) و التي تتميز بعدم قدرتها على صياغة مشروع سياسي قادر على إعادة تشكيل علاقات متكافئة تجاه المجموعة التي تتحكم في الدولة و في أجهزتها الإيديولوجية.<sup>1</sup>

و ليخلص الماركسيون في الأخير إلى اعتبار بروز الحركات العرقية في المجتمعات الرأسمالية الحالية لا يعبر عن إختلافات لغوية أو إقليمية و لا يعبر عن انتماءات أولية (primordiales) أو خصوصيات ثقافية بل هو ترجمة للتفاوتات الاجتماعية و لواقع الطبقات الاجتماعية و عليه يصبح التعدد العرقي في أغلب الأحيان عرضا من أعراض التفاوت الاجتماعي.

---

<sup>1</sup> Danielle Juteau, "L'ethnicité comme rapport sociale", *Mots*, vol.49, n.49, Automne 1996, p.100.

### المبحث الثالث: الظاهرة العرقية واستقرار الدول.

عرف العقد الأخير من القرن العشرين تحولات جوهريّة، أدّت إلى تغيير نظرتنا للعلاقات الدولية بحيث تحوّلت النزاعات من طابعها الدولي (interétatique) إلى نزاعات داخلية (intra- étatique) و تضاعفت مصادر التهديد فلم تعد المسألة الأمنية ظاهرة عسكرية صرفة بل صارت متعدّدة الأشكال و الأوجه، فقضايا الهجرة، و البيئة و الاعتداء على حقوق الإنسان أصبحت قضايا أمنية لا تقل خطورة عن الظواهر الأخرى.

و تعد النزاعات العرقية واحدة من المصادر الكبرى المهدّدة لأمن الجماعات و الدول، و بما أنّ الخلافات العرقية عموماً هي خلافات داخلية فتتأول ظاهرة النزاعات العرقية يستوجب منّا إعادة النظر في مكانة الدولة من جهة و إعادة النظر في المقاربات التحليلية لظاهرة النزاع للتمكّن من فهمها.

### المطلب الأول: جدلية الدولة و العرق.

الظاهرة العرقية واحدة من المسائل المرتبطة بالهويّة، و هو ما يجعل التعامل معها من قبل النخب السياسية أو لنقل السلطة السياسية واحدة من المسائل الشائكة، فالدولة تهدف دائماً الى بسط سيادتها إلى أبعد الحدود و قد يجعلها ذلك تعتقد أنّ الحلّ الأمثل هو دمج مختلف مكونات المجتمع في كيان منسجم و موحد، و بما أنّ النخب السياسية هي التي تقوم بإنتاج و إعادة إنتاج القيم و المعايير، فهي بذلك الطرف الذي يحدّد هوامش حركة و ديناميكية المجموعات العرقية.

يستعمل مصطلحي العرق و الدولة على العموم كمفهومين متعارضين و متناقضين (antinomiques) على مستوى الإدراك العادي أو حتى لدى الباحثين في حقول الاجتماع و السياسة

حيث يدلّل Vincent Geisser على ذلك بقوله: " في المخيّلة السياسية الفرنسية ( l'imaginaire politique hexagonal ) يستحضر العرق سيادة الخصوصيات و الطائفيات communautarismes بل يستحضر التقسيم و بلقنة الجسد الاجتماعي (balkanisation) و على العكس، يحيلنا مصطلح الدولة إلى العالمية و المواطنة و إلى التجاوز المدني للمصالح الخاصة"<sup>1</sup>.

و نقودنا مباحث الهوية و العرق بالضرورة إلى الخوض في مسألة التعددية الثقافية و الجدل القائم بين مجموعة من المنظرين تتباين تقديراتها ونظرتها للمجموعات العرقية، و السياسات التي يتوجب على الدولة اتخاذها لتسيير الاختلافات الاثنوثقافية.

و على هذا الأساس تصبح إدارة أو تسيير التنوّع العرقي مسألة حيوية من صميم المهام الموكلة للدولة، فعليها يتوقف استقرار الدولة من عدمه، خاصة إذا سلّمنا أنّ الانتماء العرقي يعبر لدى البعض عن هويّات مناقضة للمواطنة و الانتماء المدني.

إنّ الدولة-الأمة بالمفهوم الأوروبي حسب جوزيف يعقوب " تتأسس من خلال التجرد من الجماعات الإثنية (العرقية) وربط كل فرد كمواطن بجماعة مصيرية، و لكن هذا ما يشق على هذا التصوّر أن يقوم خارج الفلك الأوروبي لأنّ الانتماء الإثني يطغى على الانتماء المدني"<sup>2</sup>

فالعلاقة الجدلية بين الدولة القومية و بين المجموعات العرقية لا تخضع لنفس الإدراك و الفهم لأنّ للدولة منطقاً يخضع للمحدّدات العقلانية بينما الانتماء العرقي يخضع لشروط ذاتية و هو ما يبيّنه في مقام آخر جوزيف يعقوب " لقد انطوى بناء الدولة القومية على جماعة مهيمنة مرتبطة بعملية بناء حيّز جيوسياسي مركّز على أسس عقلانية، ادّعت تمثيل كل المجتمع، و أقليّات هامشية متروكة على

<sup>1</sup> Vincent Geisser, " *Ethnicité républicaine versus République ethnique*" [www.cairn.info/revue-mouvement-2005-2-page-19-htm](http://www.cairn.info/revue-mouvement-2005-2-page-19-htm). (consulté le 18/11/2011).

<sup>2</sup> جوزيف، ياكوب، ما بعد الأقليات: بديل عن تكاثر الدول، (تر:حسين عمر)، بيروت: المركز الثقافي العربي، 2004، ص.36.

أطراف الجسد الاجتماعي و السياسي، حيث غالبا ما يكون مصيرها محدداً (لأنه ينظر إليها كتهديد سواء كان عبر التمثيل (الابتلاع) أو عبر الاستبعاد(القمع). بهذا الشكل تكونت العقلانية السياسية الحديثة. و إذ مارس هذا النموذج الأوروبي سحرا حقيقيا على الشعوب، فقد جال حول العالم بفاعليته الأكيدة و بكونه حامل الشمولية.<sup>1</sup>

هناك طرح سائد يؤمن باستحالة وجود كيان سياسي يمكن أن يحظى بالاستقرار و التماسك إلا إذا اشترك أعضاؤه في ثقافة وطنية تشمل القيم المشتركة، و باعتبار الدولة القيم و الحارس لأسلوب حياة المجتمع، فمن المفترض أن يكون من حقها وواجبها ضمان تمثيل الأقليات للثقافة الوطنية السائدة، و عزل كافة مظاهر و ملامح ثقافتها المنفصلة.

ووفقا لوجهة نظر التمثيل الثقافي كما يعرفها بيخو باروخ Bhikhu Parekh " يصبح الخيار متاح أمام الأقليات بسيطا. فإن رغبت بأن تصبح جزءا من المجتمع و أن يعامل أفرادها كباقي إخوانهم المواطنين، ينبغي عليها الاندماج. أما إن أصرت على الاحتفاظ بثقافتها المنفصلة، فينبغي عليها الامتناع عن التشكي إذا اعتبرت أجنبية و دخيلة و لا منتمية، و تعرضت بالتالي للفرقة و التمييز ضدها"<sup>2</sup>

إنّ تعامل الدولة القومية مع الظاهرة العرقية لا تخلو من الإرادة السياسية القائمة على حجب التنوع و الاختلاف كحقيقة مجتمعية واقعية، فكثير من المدارس الليبرالية التي تتبنى الطرح المساواتي للعدالة ترى أنه لا ينبغي تصميم السياسات العامة بحيث تهدف إلى فرض معاملة خاصة لأعضاء الجماعات التي تحددها خصائصها الثقافية"

<sup>1</sup> المرجع نفسه، ص. 272.

<sup>2</sup> بيخو، باروخ، مرجع سبق ذكره، ص. 123

لقد توسّعت صلاحيات الدولة تدريجيا و تعدّدت مجالات تدخلها منذ القرن السابع عشر و جرى الانتقال من الدولة الأدنى (minimal state) إلى دولة العناية (welfare state) و على صعيد الهوية، تمخّض ذلك عن التمثّل و المجانسة، و رفض أي شكل للانتماء الثنائي و رفض الجنسية المزدوجة، مثلما رفضت أيّة سلطة إقليمية أو محلية أن توزّع الصلاحيات أو تتنافس السلطة المطلقة للدولة.<sup>1</sup>

ومن هذا المنطلق تخضع الدّولة الحديثة لمتطلبات يفترض فيها تليبيتها:

أولاً، يجب أن تكون واضحة المعالم و الحدود، و تمتلك مصدرا وحيدا للسيادة، و تتمتع ضمن أراضيها بسلطة قانونية و شرعية غير محدودة.

ثانياً، يجب أن تعتمد على مجموعة واحدة من المبادئ الدستورية، و تعرض هوية واحدة وواضحة لا لبس فيها، أمّا الدولة التي تحتفظ قوانينها الدستورية بمجموعة مختلطة من المبادئ، أو تطبقها بصورة متفاوتة بتفاوت مناطق البلد أو اختلاف شرائح المواطنين، فتعتبر ذات هوية هجينة أو مشوشة، وتشكّل ما دعاه بوفندورف "جسدا مشوها كجسد المسخ"

ثالثاً، ينبغي أن يتمتع مواطنو الدولة بحقوق متساوية. و بالنظر إلى أنّ اختلافاتهم الاجتماعية و الثقافية و غيرها قد أبعدت عن بؤرة الاهتمام، فإنّ المساواة في الحقوق تعني عموماً الحقوق المتماثلة أو الموحدة. فالدولة تمثّل حيزاً قانونياً متجانساً يتحرك مواطنوها بحرية ضمنه، حاملين معه سلّة من الحقوق و الواجبات المتماثلة الى حد ما.

---

<sup>1</sup> المرجع نفسه، ص. 126.

رابعاً، المواطنة هي علاقة موحدة و مباشرة و متجانسة بين الفرد و الدولة. و لأنها تشمل التجرد عن الهويات الثقافية و الاثنية و غيرها، واعتبار سكانها أنفسهم مواطنين فقط، فإنهم يرتبطون بشكل مباشر و متماثل مع الدولة، لا بصورة متميزة أو تفاضلية، ولا من خلال عضويتهم في المنظمات و الجماعات الوسيطة.

خامساً، يشكّل مواطنو الدولة شعباً واحداً. فليما ينقسمون عبر الخطوط الاثنية و الثقافية و سواها، لكن هذه ليست ذات صلة على الصعيد السياسي، ولا تنفي حقيقة أنهم شعب واحد و أنّ غالبيتهم مؤهلين للتحدّث و التصرف باسم الكل.

سادساً، إذا تبنت الدولة الصيغة الفيدرالية، فمن الواجب أن تتمتع وحداتها التكوينية بنفس الحقوق و السلطات على وجه العموم، و إلا فسوف يمتلك المواطنون في مناطقها المختلفة حقوقاً متباينة، الأمر الذي يشنّت الانتباه عن مبادئ المواطنة المتساوية و المجال القانوني و الشرعي المتجانس.<sup>1</sup>

تصطدم فكرة التعددية الثقافية و الاثنية بالنظرة الليبرالية التقليدية لفكرة المواطنة و بخاصة كما طرحت في القرن التاسع عشر، هذه النظرة كانت ترى أنّه يجب أن يكون للمواطن وضع واحد فقط ( فلا توجد منزلة اجتماعية و لا طبقات اجتماعية) بحيث يتمتع الجميع بالحقوق القانونية و السياسية نفسها. و يجب أن تمنح هذه الحقوق للمواطنين كأفراد، من دون أن تكون هناك حقوق خاصة ( أو حالات من عدم الأهلية) يختص بها البعض دون غيرهم على أساس انتمائهم لإحدى الجماعات.

وبالعودة للعصور القديمة سنجد أن الدول كانت في حقيقتها تعبيراً عن واقع حال التباينات الثقافية فيها و تحديداً القبلية الإثنية كما يشير الى ذلك حسام الدين علي مجيد و الدليل على ذلك مسمياتها بذاتها

---

<sup>1</sup> المرجع نفسه، ص. 127.

( السومرية، الآشورية، الفرعونية.. ) فهي إنما تعكس هوية إحدى الجماعات المهيمنة فيها التي تمكّنت من حيازة السلطة و إنشاء الدولة أو السيطرة.<sup>1</sup>

فالدول كانت عبارة عن ممالك أو إمبراطوريات سلالية ( dynasties ) أو لنقل عصبيات متغلّبة ( بالتعبير الخلدوني ) متفوقة عن عصبيات أخرى تتقاسم نفس الإقليم، لكنّ ما يميّز الدول القديمة عن الحديثة هو أنّ الأولى لم تسع إلى تحقيق التجانس الثقافي و العرقي لسكان الدولة، بل تركت جميع هذه التباينات لحالها، و لربّما لم تنتهج سياسة خاصة بالتعامل مع مكوناتها الاجتماعية عدا سياسة التهديد باستخدام القوة لضمان ولائها للمركز.<sup>2</sup>

و في المقابل يؤكّد Anthony Richmond أنّ الدولة - الأمة كانت منذ أولى مراحلها، قوة استيعابية (Assimilating Agency) فالجماعة المهيمنة في المركز لم تكن متسامحة عموماً مع التباين العرقي ضمن نطاق حدود الدولة، بحيث إنّ التماسك الداخلي، أي الاندماج الاجتماعي و الثقافي للدولة - الأمة اعتمد أصلاً على فكرة التخلّص من الانتماءات و الصلات الفرعية كالقبلية و الدينية و المناطقية مثلاً، من أجل خلق الولاء للوحدة الإقليمية الأكبر. و يفسّر ذلك حسب ريشموند.

" لقد احتفظت الدولة العلمانية بالكثير من الخصال المميّزة ذات الصلة بالدولة الشيوقراطية، عدا تحوّل القوة الفاعلة فيها من أيدي الملوك المستبدين إلى مؤسسات برلمانية أكثر ديمقراطية و نظام قضائي مستقل بصفة عامة، وفي الوقت ذاته، فإنّ السيطرة على نظام التعليم انتقلت من الكنيسة إلى الدولة، فضلاً عن قيام عملية التخصّص الوظيفي في مختلف المؤسسات الشرعية، فالذي حدث هو

<sup>1</sup> حسام الدين علي مجيد، إشكالية التعددية الثقافية في الفكر السياسي المعاصر: جدلية الاندماج و التنوع، بيروت مركز دراسات الوحدة العربية، 2010، ص. 74.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص. 75.

أنّ إجماعاً عاماً قد تولّد بشأن نظام القيم السائدة و تجسّد ذلك في القومية التي غدت بمثابة المبدأ الموحد و المركزي لهذا النظام"<sup>1</sup>

إنّ الدولة المركزية هي من الأدوات المحقّقة للتجانس و التماثل القومي، لأنّ الدولة المركزية لا يمكنها أن تتعامل إلا مع وحدات داخلية متماثلة، ومن هنا تأتي ضرورة خضوع كافة مكوّنات الدولة إلى مرجعية أحادية مادية كما يسمّيها عبد الوهاب المسيري، و ذلك لأنّه و مع تزايد هيمنة هذه المرجعية يزداد ارتباط الأطراف بالمركز.<sup>2</sup>

غير أنّ هذه المركزية و النزعة الاستيعابية للدولة-الأمة لم تصلا بعد إلى تحقيق غايتها النهائية، أي تحوّل الأطراف صورة مطابقة عن المركز. فالدولة-الأمة في يومنا الراهن تعد في حكم المعدومة فعليا، إذ لا يقطن في مثل هذا الكيان السياسي سوى ما يناهز 4% من سكّان العالم، و إذا ما استثنينا اليابان، فلا يبقى سوى 1% فقط من النسبة الإجمالية.<sup>3</sup>

و مهما كانت طبيعة الأنظمة السياسية، و مهما كان مقدار الحقوق المدنية والثقافية التي تمنحها الدولة للفرد و الجماعة ، فالمنطق السائد الذي تتعامل به الدولة هو تحقيق قدر كبير من الاندماج و المجانسة (homogénéisation) في حين تنزع الأقليات مهما كانت طبيعتها (عرقية أو دينية) إلى تحقيق أكبر قدر من الاستقلال الذاتي واعترافاً أوسع بخصوصياتها الثقافية.

و في هذا الصدد يؤكّد حسام الدين عليّ مجيد على استمرار هذا التوجه العام الذي يظهر أكثر ما يظهر في السياسات اللغوية التي تنتهجها الدولة-الأمة و التي أدّت في السابق الى اندثار عدد كبير من

<sup>1</sup> Anthony Richmond, " Ethnic Nationalism and Post-Industrialism" , in: *Hutchinson and Smith* ,eds, Nationalism, Oxford: Oxford University Press,1994,p.291.

<sup>2</sup> عبد الوهاب المسيري ، *العلمانية الجزئية و العلمانية الشاملة* ، ط.2، القاهرة: دار الشروق، 2005، ص.80.

<sup>3</sup> حسام الدين عليّ مجيد، *مرجع سبق نكره*، ص.77.

اللغات المحليّة و تؤدي في المستقبل القريب إلى اختفاء المزيد منها حيث يقول: " فبفعل نزوع الدولة نحو الاندماج واستيعاب التباينات الثقافية، تموت لغات العالم بمعدل عال جداً، إذ يوجد في يومنا الراهن ما يزيد عن 6000 لغة في العالم ومن المتوقع أن ينقرض نصفها في القرن الحادي والعشرين، بحيث لا يحظى سوى 10% منها و حسب بمستقبل آمن"<sup>1</sup>

أعاد مشروع ما بعد الحداثة الاعتبار للمكوّن الثقافي أي البعد المجتمعاتي خلافاً للطرح الحداثي الذي لا يسلم إلا بالحقوق الفردية و المدنية متجاهلاً التباينات ذات المنشأ الثقافي كالهويات العرقية و الدينية و هو ما يميّز الطرح الليبرالي المتطرّف ( في مقابل النسبية الثقافية *relativisme culturel*) و لكنّه في مقابل ذلك لم يلغ ( مشروع ما بعد الحداثة) التحوّل من تحوّل المطالبة بالحقوق الثقافية إلى منطلقات للتجزئة و الانفصال وهو ما نلاحظه حتى في الدول الديمقراطية كبلجيكا ( الفلاندرز) و كندا ( مقاطعة كيبيك) و اسبانيا ( إقليم كتالونيا) و خاصة عندما ترتبط المطالب بالعامل اللغوي.

و إذا كانت الدولة-الأمة في الديمقراطيات الأوروبية تجد صعوبة واضحة في تسيير التباينات الثقافية و العرقية فالأمر سيكون أعقد في الدول التي لا تمنح أي مجال أو فضاء للتنوع العرقي و الثقافي فالدولة لازالت تحاول و بطرق مختلفة تحقيق المجانسة و الاندماج مع تباين في الطرق و الأهداف و هو ما سنتناوله في المطلب اللاحق.

### المطلب الثاني: التوظيف السياسي للعرق.

يتعذّر على أي باحث في الدراسات العرقية عامة و في العلاقة بين العرق و السياسة على وجه الخصوص أن يتجاهل الإرث الذي تركه عبد الرحمن بن خلدون في هذا المجال، فمفهوم العصبية

<sup>1</sup> المرجع نفسه، ص.77.

باعتباره شكل من أشكال الروابط الاجتماعية هو مرادف للعرق، فالعصبية كما العرق تتحدّد بعاملَي القرابة و النسب أي الأصول المشتركة.

و ما يهتمنا من فكر بن خلدون في هذا المقام هو العلاقة التي تتحدّد بها السياسة و العصبية، فابن خلدون يعتقد حسبما ورد في مقدّمته أنّ الغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك حيث يقول:

" و ذلك لأننا قدّمنا أنّ العصبية بها تكون الحماية والمدافعة و المطالبة و كل أمر يُجتمع عليه، و قدّمنا أنّ الآدميين بالطبيعة الإنسانية يحتاجون في كل اجتماع إلى وازع و حاكم يزع بعضهم عن بعض، فلا بد أن يكون متغلّبا عليهم بتلك العصبية، و إلا لم تتم قدرته على ذلك، و هذا التغلّب هو الملك و هو أمر زائد على الرئاسة، لأنّ الرئاسة إنّما هي سوّد و صاحبها متبوع، وليس له قهر في أحكامه. و أمّا الملك فهو التغلّب و الحكم بالقهر، و صاحب العصبية إذا بلغ إلى رتبة طلب ما فوقها، فإذا بلغ رتبة السوّد و الإلتباع ووجد السبيل إلى التغلب و القهر لا يتركه لأنّه مطلوب للنفس و لا يتم اقتدارها عليه إلا بالعصبية التي يكون بها متبوعا، فالتغلّب الملكي غاية للعصبية كما رأيت.<sup>1</sup>

و بالرغم من أنّ بن خلدون اعتبر العصبية رابطة طبيعية فطرية كما بيّن في مناسبات عديدة واعتبرها امتدادا لصلة الرحم ( رابطة الدم) غير أنّه لم ينف وجود استغلال أو توظيف سياسي لهذه الرابطة فصاحب العصبية ( الأمير أو القائد السياسي) يدرك جيدا قوة هذه الرابطة في تعبئة و شحذ الأفراد حيث يقول بن خلدون: " و ذلك أنا قررنا أنّ المغالبة و الممانعة إنّما تكون بالعصبية لما فيها من النعرة و التذامر و استماتة كل واحد منهم دون صاحبه، ثمّ إنّ الملك منصب شريف ملذوذ، فيقع فيه التنافس غالبا و قلّ أن يسلمه أحد لصاحبه إلا إذا غلب عليه، فتقع المنازعة و تفضي إلى الحرب و القتال و المغالبة، و شيء منها لا يقع إلا بالعصبية".<sup>2</sup>

<sup>1</sup> عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة بن خلدون، القاهرة: دار ابن الجوزي، 2009، ص.115.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص.127.

لقد استطاع ابن خلدون أن يجمع بين خاصيتين للظاهرة العرقية تناولتهما النظريات التي أشرنا إليها في المبحث الثاني فنجد في النظرية الخلدونية تأكيداً على الأساس الطبيعي الغريزي في تشكيلها تماماً كما فهمها الاتجاه الطبيعي، وبيّن ابن خلدون أيضاً الجانب التعبوي لهذه الظاهرة ووظيفتها في الصراعات السياسية بالطريقة نفسها التي حدّتها النظريات التعبوية (les théories mobilisationnistes). وهو الجانب الذي يهتمنا في هذا المقام أكثر من غيره.

إنّ بن خلدون هو أكثر إن لم نقل أول من بيّن أنّ الرابطة العرقية هي رابطة قد توظف بطريقة براغماتية و ميكافلية في تعبئة الأفراد لتحقيق مشروع سياسي محض (أي الاستيلاء على السلطة) فهو يقر في الفصل الثاني من الباب الثالث من مقدمته أنّ الدولة إذا استقرت و تمهدت قد تستغني عن العصبية، وهو ما يقودنا إلى البحث عن مسألة التوظيف السياسي لهذه الروابط و من هو المنافع من وراء الدعوة إليها.<sup>1</sup>

إن ديمومة الولاءات العرقية مرتبطة بقدرتها على تحقيق مطالب الأفراد و لهذا يسعى متزعمو الحركة العرقية إلى توظيف القوة الرمزية و العاطفية ( باعتبارها رابطة دم و قرابة) لتحويلها إلى قوة مطلية تبلغ أوجها عندما تتحول إلى تنافس سياسي واضح مع الحركات العرقية الأخرى.

و بالرغم من تطور الأنظمة السياسية و ظهور ولاءات، كان يعتقد أنها ستزيح الولاءات العرقية باعتبارها ولاءات بالية و متهاكة (على غرار الطرح الحدائي الذي تناولناه في المبحث الثاني) و نقصد بذلك الحركات القومية التي كانت حاضنة الدول الحديثة، إلّا أنّ نشوب الصراعات العرقية في مختلف أنحاء العالم هو دليل على قدرة الولاءات العرقية على تجاوز مؤسسات و إيديولوجية الدولة القومية الحديثة.

<sup>1</sup> عبد الرحمن بن خلدون، المرجع سبق ذكره، ص.128.

في الواقع لقد فشلت الإيديولوجية القومية في تحقيق التجانس الداخلي و المواطنة و لم تستطع تعويض الهوية العرقية في معظم الدول التي كانت مستعمرة سواء أكان ذلك في القارة الإفريقية أو في العالم العربي على وجه الخصوص. ففي الوطن العربي فشلت الدولة بعد الاستعمار في إقامة مؤسسات اجتماعية حديثة و صلبة يمكن الاعتماد عليها، و هو ما جعل الفرد يلجأ إلى ما يسميه علماء الاجتماع و الأنثروبولوجيا التضامن البريمورديالي أو الأساسي لأنه يمكّن الفرد من الحصول على متطلباته الأساسية، حيث يؤكد رشاد أنطونيوس R.Antonius أن:

" مفهوم المواطنة في الدولة الحديثة يفترض نظريا أنّ سلطة الدولة و خدماتها المختلفة تكون متاحة لكل مواطن، و لكننا نعلم جيدا أنّ الأمور ليست كذلك في الواقع، ولهذا فمتغيرات كالطبقة، الجهة، الأصول الريفية أو الحضرية هي متغيرات مؤثرة في الوصول إلى هذه الخدمات، و لكنّ الأصول العرقية في معظم الدول العربية (ما بعد الاستعمار) و الطائفية هي المتغيرات الأساسية، مزيجة المتغيرات الأخرى(سابقة الذكر). لتصبح نقطة ضعف في النسيج الاجتماعي و السياسي، وتصبح قابلة للاستغلال و التوظيف من قبل مصالح داخلية و أجنبية قادرة على إحداث تغيرات جذرية أو خلق اضطرابات قادرة على خلخلة النظام السياسي".<sup>1</sup>

خلص الباحثون في مسألة التوظيف السياسي للعرقية إلى نتيجة أساسية و هي أنّ العودة إلى العامل العرقي تنطوي على امتياز كبير لا تحققه المرجعيات الأخرى، فالخطاب السياسي القائم على العرق يخاطب العواطف و الأحاسيس بينما الخطابات الأخرى قد تخاطب العقل، بحيث أنّ النخب السياسية الموظفة للخطاب العرقي قد لا تجد صعوبة في نقل رسالتها بينما تجتهد الخطابات الأخرى اجتهادا كبيرا لإقناع العامة و لكنها قد تعجز عن خلق رأي عام مساند لطروحاتها.

<sup>1</sup> Antonius,Rached, "Entre la mosaïque et la vague: L'ethnicité instrumentalisée dans le Machrek arabe", Montréal: *Cahier de Recherche Sociologique*, n20, 1993, p.,148.

و هو ما جعل كارستن فيلاند في دراسته حول التوظيف السياسي للعرق في كل من البوسنة، الهند وباكستان يصرّح: " و من هنا(أي انطلاقاً من طبيعة الخطاب العرقي) يمكن تفسير لماذا يكون من الممكن، في عصور الجدل السياسي المفتقر إلى الديمقراطية و بمساعدة النماذج العرقية (الاثنية)، الوصول إلى قفزة الى الأمام في التعبئة. كما حدث في أول انتخابات حرة في يوغسلافيا ما بعد الشيوعية أو تحت مظلة الاستعمار. و على هذا فالخصائص المميزة الأصلية الإثنية هي المرساة التي يمكن للمشروعات السياسية أن ترسو عندها بسهولة"<sup>1</sup>

و يعتقد كارستن فيلاند أنه ما من شك في أنّ هذه الظاهرة كانت قائمة أيضا في ذهن عزت بيكوفيتش حين قال " حين تنادي إلى مناقشة علنية في الديمقراطية يأتي بضع مئات من المثقفين و عندما تتعلّق المسألة بالقومية تحصل على عشرات الألوف من كل الطبقات الموجودة في الشارع"<sup>2</sup>

و يشترك كارستن فيلاند في طرحه مع بول براس Paul Brass الذي درس هو كذلك المثال الهندي ووصل إلى نتائج مشابهة بحيث اعتبر النخب هي التي تعيد تشكيل الولاءات العرقية بما يخدم مصالحها فبالنسبة إليه: "النخب و النخب المضادة داخل المجموعات العرقية تختار جوانب من ثقافة الجماعة و تربط بها قيمة جديدة و معنى جديدا، و تستخدمها رموزا لتعبئة الجماعة، و للدفاع عن مصالحها و كذا للتنافس مع الجماعات الأخرى"<sup>3</sup>.

إنّ عدم التسليم بقوة الولاءات العرقية و مقاومتها الشديدة لمختلف المؤثرات (القومية، الحداثة.. الخ) هو ما جعل دولا تعرف انقسامات عرقية خطيرة على غرار الهند و يوغسلافيا، فلقد كان نهرو يعتقد أنّه بإمكان الهند أن تتجاوز انقساماتها الطائفية و العرقية بفضل الحداثة و التنمية، بينما كان نيتو يعتقد أنّ الظاهرة العرقية ما هي إلّا وعي زائف (fausse conscience) تنتشره البورجوازية و يتم تسخيرها أداة من

<sup>1</sup> كارستن فيلاند، الدولة القومية خلافا لإرادتها: تسييس الاثنيات و أتننة السياسة ( البوسنة، الهند، باكستان)، (تر: محمد جديد)، دمشق: دار المدى للثقافة و النشر، 2007، ص.44.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص.44.

<sup>3</sup> Paul Brass, *Ethnicity and Nationalism: Theory and Comparison*, London: Sage Publication, 1991, p.75.

أجل مصالحها الرأسمالية و أنه سرعان ما تتلاشى خطوط الانقسام العرقي التي عفا عنها الزمن بفعل التطور الحتمي للمادية التاريخية ( كما تناولناه في التفسير الماركسي للظاهرة العرقية).<sup>1</sup>

و أكثر ما تبرز ظاهرة التوظيف السياسي للعرق في إفريقيا، باعتبارها القارة التي تعرف مستويات كبيرة من التنوع و التعدد العرقي، و لهذا فهي تعيش اليوم تحديات خطيرة تهدد استقرارها و بقاء كياناتها السياسية الموروثة من الاستعمار.

فبالرغم من الآمال التي كانت معقودة على الجيل الأول من النخب السياسية الحاكمة في تحقيق الوحدة الوطنية و تمتين المؤسسات السياسية الحديثة بعيدا عن التجاذبات القبلية و العرقية و المناطقية، إلا أن كل التجارب فشلت في بناء صرح مؤسساتي وتحقيق هوية وطنية جامعة غير مرتبطة بالخصوصيات و التمايزات السابقة، فلم تنفع كاريزما الزعماء الأفارقة و لا تاريخهم النضالي ضد الاستعمار الأوروبي في تجسيد وعود الحداثة، بل إن التنافس السياسي و إن كان يصطبغ في ظاهره بالطابع الإيديولوجي كما هو موجود في البلدان المستعمرة سابقا، فهو في حقيقته أو جوهره صراع قبلي و عرقي و مناطقي أعاق مسيرة التنمية السياسية في إفريقيا.

و مع انحسار المجابهة بين القوتين العظميين أصبح من الواضح أن الكثير من النزاعات التي كان ينظر إليها على أنها نزاعات إيديولوجية، تتنافس فيها منظومتان فكريتان متناقضتان ( أي المنظومة الفكرية الليبرالية و المنظومة الاشتراكية الماركسية ) لم تكن في جوهرها إلا نزاعات عرقية، ففي أنجولا و التي كانت موقعا لمجابهة كلاسيكية في زمن الحرب الباردة بين الحركة الشعبية لتحرير أنجولا ( MPLA ) الماركسية التي كان يدعمها الاتحاد السوفييتي و بين الاتحاد الوطني لاستقلال أنجولا

---

<sup>1</sup> كارستن فيلاند، مرجع سبق ذكره، ص. 38.

(UNITA) و التي تدعمها الولايات المتحدة الأمريكية، كثيرا ما كان يغيب على الأذهان أنّ لهذا النزاع بعدا عرقيا، إذ أنّ الحركة الشعبية كانت تتألف من جماعة أقوام بوندا (Akwambunda) بينما كانت جماعة أوفيم بوندا (Ovimbunda) تدعم الاتحاد الوطني لاستقلال أنجولا.<sup>1</sup>

و لهذا السبب يعتقد ستيفن رايان Stephen Ryan أن "الغرب و الولايات المتحدة الأمريكية على وجه الخصوص قد غاب عنه لفترة طويلة للغاية المدى الذي استخدمت فيه المفاهيم الإيديولوجية لحجب نزاعات كانت عرقية في أساسها، إن عدم إدراك ذلك هو وحده الذي جعل من الممكن الاعتقاد بأنّه مع انهيار الشيوعية، أصبح فجر نظام عالمي جديد يستند إلى قيم الغرب العلمانية و العقلانية و العالمية بوشك البروغ"<sup>2</sup>

لم تستطع الدول الإفريقية تجاوز الولاءات العرقية، لأنّ العرق واقع متأصل في الحياة الاجتماعية الإفريقية، فهو يمثل ما يسمّيه علماء الاجتماع و الأنثروبولوجيا "مجموعة أساسية (groupe de base)" لكنّ جوهر المشكل يكمن في المواقف و البرامج السياسية التي تلتف حول العرق، بالرغم من إدراك النخب المحليّة لتبعات هذه السياسة على التجانس الداخلي، فالخطاب العرقي يخاطب الوجدان و العاطفة مثله مثل كمثل الخطاب العنصري في الإيديولوجيات الفاشية، و هو ما يمنحه قوة خارقة، فهو يرفض التعايش لأنّه يقوم على التمرکز و الانغلاق (ethnocentrisme) بينما خطاب الدولة الوطنية الحديثة كما تصوّرها الآباء المؤسسون وزعماء الحركات التحرّرية كان قائما على أفكار الحداثة و التقدم.

و لا تكاد معظم دول إفريقيا السوداء ،على وجه الخصوص، تخلو من تسييس للعرقية، بحيث يصبح العرق القناة الوحيدة التي تتجمّع فيها المطالب الفئوية، و ذلك في غياب تام لمؤسسات دولتية مدنية

<sup>1</sup> ستيفن رايان، "القومية و النزاع الاثني" عن قضايا في السياسة العالمية ، تحرير برايان وايت، ريتشارد ليتل، مايكل سميث، ترجمة و نشر مركز الخليج للأبحاث، 2004، ص. 189.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، ص. 189.

فاعلة، فالحزب السياسي أصبح في إفريقيا ( في كثير من الأحيان) شكلا صوريا لعلاقات عرقية قبلية (الحزب-القبيلة).

لقد بيّن الباحث الكاميروني Houli Fendjougue هذه الحقيقة من خلال نموذج الصراع السياسي في شمال جمهورية الكاميرون: " إن بروز مسألة المجموعة العرقية المسماة ب (كيردي Kirdi ) في شمال الكاميرون في خضم المسار الديمقراطي يثير على الفور الرهانات المرتبطة بالحياة السياسية في الكاميرون، و يحيلنا بالضرورة الى ديناميكية القضايا المرتبطة بالهوية و تأثيرها على النظام السياسي سواء على المستوى المحلي أو الوطني ، الذي أصبح اللاعبون الأساسيون فيه هم مستثمرو ومقاولو العرقية السياسية، الذين أدركوا أهمية أصوات الأفراد في الانتخابات التعددية، فلجأوا إلى توظيف مرجعية القرابة و النسب و الانتماء العرقي للتموقع في مختلف مستويات المسرح السياسي"<sup>1</sup>

و عندما نتكلّم عن الصراع على السلطة فلا بد أن نبحث كذلك عن رهاناتها الأخرى و هي البحث عن الثروة، فالصراع السياسي بين الجماعات المختلفة تختفي وراءه أطماع اقتصادية كبيرة يتم تبريرها بمطالب مرتبطة بالهوية و الانتماء العرقي، حيث يرى حمدي عبد الرحمن حسن أن :

" نمط الدولة المنهارة الذي ظهر خلال الحقبة الجديدة للعولمة و الذي أطلق عليه ( دولة أمراء الحرب المحليين) مثلما هو عليه الحال في جمهورية الكونغو الديمقراطية، ليبيريا، سيراليون و الصومال، و كنتيجة للصراعات التي يشهدها النسيج الاجتماعي لهذه المجتمعات فإنّ النخب المحليّة و الإقليمية تحصل على أرباح خيالية من خلال عمليات النهب و السلب المنتظمة للموارد الطبيعية التي تتمتع بها هذه الدول، فمن الملاحظ أنّه كلّما ازدادت حدّة الصراعات بين القوات الحكومية و قوات

<sup>1</sup>Fendjougue Houli, " La construction et la politisation de l'ethnicité "Kirdi" au nord du Cameroun", *Polis*, vol.13, numero1-2, 2006, p.81.

المتمردين في الكونغو الديمقراطية كلما ازدادت عائدات تجارة الألماس بشكل خيالي، و بالنظر لغنى هذه المنطقة بالمعادن فإنّ الحافز على إبقاء الصراع لدى هذه النخب المسيطرة يكون ضعيفا" <sup>1</sup>

فالتوظيف السياسي للعرق قد لا يكون في أغلب الحالات سوى محاولة من النخب السياسية لتحقيق مصالحها الضيقة على حساب أفراد الجماعة العرقية، حيث يرى عزمي بشارة أنه في الدول التي تراكم فيها شعور بالحرمان السياسي لدى الأغلبية الطائفية: "تلتقي النزعة نحو الديمقراطية بنزعة الى حكم الأغلبية الطائفية أو الإثنية. و الحقيقة أنّ الأغلبية لن تحكم في مثل هذه الحالة، بل ستحكم نخبها فقط مستترة وراء خطاب يتملّق المشاعر العاطفية للمحكومين. كما أنّه في واقع الدولة التسلّطية لا تتولى الأقلية الحكم، بل نخبها، و هذا هو الفرق بين الدولة التسلّطية و نظام الأبارتهايد حيث تسود علاقات ديمقراطية و تعدّدية حزبية في أوساط الاقلية الحاكمة على الأقل" <sup>2</sup>

### المطلب الثالث: القومية العرقية أو البعد العرقي للقومية.

إن عودة الانتماءات العرقية بقوة و تحولّها في كثير من الأحيان إلى صراعات دموية يدعونا للبحث عن العوامل التي جعلتها تطفو إلى السطح بعدما كانت الحادثة بوعودها تبشّر بمستقبل تتحكّم فيه قيم عالمية بفعل الانتشار المفرط لوسائل الاتصال و تعميم التعليم كما قلنا في السابق.

---

<sup>1</sup> حمدي عبد الرحمن حسن " الصراعات العرقية و السياسية في إفريقيا: الأسباب و الأنماط و آفاق المستقبل"، *قراءات إفريقية*، العدد الأول، أكتوبر 2004 ، ص.47.

<sup>2</sup> عزمي بشارة، *المجتمع المدني:دراسة نقدية*، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1998، ص. 316.

شكلت الوحدة الألمانية و انهيار المعسكر الاشتراكي، بداية لمسار جديد من التحرر القومي ساهم في تشكّل كيانات سياسية جديدة، و إذا كان هذا المسار سلميا في كثير من الحالات ( دول البلطيق، تشيكوسلوفاكيا...الخ) إلا أنّه سلك منعطفًا عنيفا في حالات أخرى على غرار ما حدث في يوغسلافيا.

و على خلاف ما ادعاه فرانسيس فوكوياما Francis Fukuyama فلم تكن نهاية الحرب الباردة " نهاية للتاريخ" و التحوّل إلى القيم الليبرالية العالمية بما تمثّله من تصور وحدوي للإنسانية بل كان بداية لعصر جديد قائم على التنوع الثقافي. و لقد ظهرت تفسيرات كثيرة لشرح أسباب عودة الديناميكية العرقية و القومية في مختلف بقاع العالم.

فلقد اعتبر ارنست جلنر Ernest Gellner نشوء كيانات سياسية جديدة مطلع التسعينيات كنتيجة مباشرة لنهاية الشيوعية، التي استطاعت أن "تخلق أو تكبث تعبئة الغرائز القومية"<sup>1</sup> بينما اعتبرت سوزان وودوارد Susan Woodward أنّ انهيار الشيوعية خلق تفسّخا و انحلالا سياسيا ( désintégration politique ) استغلته نخب محلية في صراعاتها السياسية مستعملة الخطاب القومي و العرقي كأسهل طريقة لتعبئة و حشد الجماهير<sup>2</sup>. و هنا تظهر المقاربات المختلفة لتفسير الظواهر العرقية فبينما يعتبرها بعض المحللين طبيعية غريزية ، يعتبرها محللون آخرون ذات بعد تعبوي براغماتي.

يعتقد معظم مؤرخي العلاقات الدولية أنّ انتهاج سياسة القومية العرقية (ethno-nationalisme) هو الذي كان مسؤولا عن الدمار و الخراب الذي عرفته القارة الأوروبية في القرن العشرين، و بالخصوص الحربين العالميتين، و يدلّون على ذلك بروح العداء الذي أفرزته الخطابات العدائية للأنظمة الفاشية و القومية المتطرفة و تأكيدها على استعداد و رفض الآخر ( القوميات و الأعراق الأخرى) و اعتباره عنصرا دخيلا يحرم المجتمع من تحقيق التجانس و الوحدة الوطنية المنشودة.

<sup>1</sup> Gellner Ernest, *Nationalism*, London: Weindenfeld and Nicholson, 1997, p.162.

<sup>2</sup> Susan Woodward, *Balkan Tragedy: Chaos and Dissolution after Cold War*, Washington DC: The Brook

فالفاشيات باختلاف مشاربها ساهمت حسبهم في تكريس هذا التصوّر القائم على الصدام بين نحن و الهم، و بناء الهوية و الوطنية على معيار رفض الآخر (l'altérité) بل استعدائه إلى أقصى الحدود.

بينما يعتقد باحثون آخرون على غرار Jerry Muller بأنه لا بد و أن نعتزف بأنّ القومية العرقية هي التي مهدت لقيام كيانات سياسية متجانسة، و أنّ ما حدث و بالرغم من حجم الدمار و الخراب الذي ألحقه، كان مرحلة ضرورية في مسار طويل تشكّلت بفضل كيانات مؤهلة أكثر للاستقرار و الديمقراطية.<sup>1</sup>

إنّ إعادة قراءة تطور الأحداث السياسية في النصف الأول من القرن العشرين ( الفترة التي وقعت فيها الحربين العالميتين) ضرورية لفهم تطور الكيانات السياسية في أوروبا، ففي بداية القرن العشرين كانت هناك ثلاث إمبراطوريات متعددة العرقيات في أوروبا: الإمبراطورية العثمانية، الإمبراطورية الروسية و إمبراطورية النمسا-المجر.

لقد ساهمت الصراعات العرقية في إنكاء حرب البلقان (1912- 1913) ضمن الإمبراطورية العثمانية، كما كان الصرب سببا مباشرا في اندلاع الحرب العالمية الأولى بعملهم على فصل البوسنة عن إمبراطورية النمسا-المجر، و هو ما نجحوا في تحقيقه. و من مخلفات الإمبراطورية العثمانية برزت إلى الوجود جمهورية تركيا التي قامت على مبدأ القومية العرقية، فشهدنا مرحلة من الصدام بين تركيا و اليونان انتهت بتبادل للأقليات و هجرة للسكان من و إلى الدولتين، كما شهدت حملة تطهير عرقي مسّ الأقلية الأرمنية على وجه الخصوص.<sup>2</sup>

<sup>1</sup> Jerry Z. Muller, "Us and Them", *Foreign Affairs*, Council On Foreign Relations, Mar.-Apr., 2008, p.10.

<sup>2</sup> *Ibid.*, p.15.

و على إثر تصدّع الإمبراطوريتين الروسية و النمساوية ظهرت كيانات جديدة هي فنلندا، استونيا، ليتوانيا، ليتوانيا، بولونيا، تشكسلوفاكيا و يوغسلافيا. غير أنّ الدول الثلاثة الأخيرة استمرت فيها غلبة مجموعة عرقية على باقي المجموعات التي كانت تهدف الى التحرّر و الانفصال أو الانضمام إلى دول تشترك معها في الانتماء العرقي.

ففي بولونيا كان هناك أوكراينون، ألمان، ليتوانيون، و يهود و في تشكسلوفاكيا نصف السكان كانوا ألمانا، سلوفاكا، مجريون أو يهودا بينما في يوغسلافيا كانت أعراق كثيرة تتقاسم نفس الأرض من سلوفان، كروات، بوسنيين، صرب، مقدونيين و ألبان.

في حين كانت الحرب العالمية الثانية وليدة لرغبة أدولف هتلر في جمع كل الأعراق الجرمانية في وطن قومي واحد و هذا ما كان من خلال ضم النمسا (أو ما كان يسميه الوحدة l'Anschluss) و دعوته للألمان للعودة (السوديت Sudètes) و ضغطه على بولونيا لاستعادة مدينة دانترينغ Danzig و ليتوانيا لاستعادة مدينة ميمال Memel .

لقد كانت الحرب العالمية الثانية كمسرّع لمسار التطهير العرقي و تحقيق التجانس الداخلي حسب Muller بل إن نتائج الحرب العالمية الثانية حقّقت في الأخير بعضا من تطلّعات السياسة النازية بحيث تمّ ترحيل الملايين من الألمان الى دولتهم الأم، و تمّ تأسيس دولة قومية لليهود جعلت ألمانيا الحديثة أكثر تجانسا من الناحية العرقية. و إن كانت النتائج من الناحية الإنسانية و الديمغرافية كارثية، فلقد فقدت ألمانيا ما بين 13 الى 15 مليون فرد ينتمون إلى العرق الجرمني ، كان من بينهم أكثر من مليوني ألماني فقط أثناء عمليات الترحيل القسري.<sup>1</sup>

---

<sup>1</sup> Ibidem.

و تواصل هذا المسار بعد نهاية الحرب الباردة، فالدول المتعددة العرقيات التي نجت في السابق من التقسيمات و عمليات التطهير العرقي، تفككت إلى مجموعة من الدول، بعضها تمت فيها العملية بطريقة سلمية كما حدث بالنسبة لتشكسلوفاكيا ( بسبب تفاهم بين النخبتين السياسيتين الممثلتين للتشيك والسلوفاك) و الاتحاد السوفييتي بدرجة أقل، و الذي نتجت عنه 15 دولة جديدة بعدد جمهوريات الاتحاد السابق، في حين عرفت يوغسلافيا مسارا مختلفا تماما دفعها للدخول في حرب أهلية خطيرة لم تتعاف من نتائجها إلى غاية اليوم.

و ليخلص Muller في الأخير إلى نتيجة مفادها انتشار هذه الظاهرة لتعم مناطق أخرى من العالم مستدلا بما يحدث في الصين ( مسألة الأقليات التبتية، الويغور و المنغوليون) أو ما هو حاصل في روسيا الفيدرالية التي ظنت أنّ تفكك الاتحاد السوفييتي سيخلصها من نزاعات عرقية ظهرت أولى بوادرها في منطقة القوقاز ( إقليم ناجورنو كاراباخ) غير أنّ أخطر النزاعات العرقية حدثت في روسيا الفيدرالية متمثلة في الحرب الشيشانية الأولى و الثانية ، لتتسع نحو جمهوريات غير سلافية كداغستان.

و تظل قارتا إفريقيا و آسيا المؤهلتين لمزيد من الصراعات العرقية بفعل التنوع العرقي الكبير الحاصل فيها و عجز الدول عن تحقيق الاندماج الداخلي، و تجاوز التركة الاستعمارية. و في الواقع فإنّ الطبيعة العرقية غير المتجانسة للمجتمعات الإفريقية كما يرى أحمد وهبان : " ترجع إلى الحدود المصطنعة للأقاليم، وهي الحدود التي خطتها يد المستعمر و التي جاء تعيينها -بطبيعة الحال- مستهدفا مصالحه، حتى و لو كان من ذلك تمزيق كيان تجمعات سكانية كان من الممكن أن تشكل نوعا من التكامل القومي إن أحسن رسم الحدود الجغرافية فيما بينها، أما في ظل ما قام به المستعمر من تعيين للحدود فكثيرا ما تمزقت أوصال الجماعات العرقية، و تناثرت بين عديد من الدول، كما أنّ الأمم التاريخية كثيرا ما تم تقسيمها الى عديد من دويلات تشيع داخلها أسباب الفرقة و الانقسام"<sup>1</sup>

<sup>1</sup> أحمد و هبان، الصراعات العرقية واستقرار العالم المعاصر، الإسكندرية، أليكس لتكنولوجيا المعلومات، 2007، ص.148

تقترن الصراعات العرقية في أغلب الأحيان بمراحل معينة تكون فيها الدولة في أضعف حالاتها، كما يؤكد Jack Snyder ، فالشعب حسبه ينتظر من الدولة أن تحقق له الأمن و الرخاء الاقتصادي، و في أغلب الأحيان تحتدم الصراعات العرقية في الفترات التي تكون فيها مؤسسات الدولة عاجزة أو منهارة (where state structures have weakened or collapsed) كما حصل في الاتحاد السوفييتي و دول أوروبا الشرقية في نهاية الثمانينيات، و تكون الأنظمة الجديدة غير قادرة على بناء منظومة مؤسسية قوية و فعالة.<sup>1</sup>

و في هذه الحالات المضطربة كثيرا ما تلقى الأغلبية (التي تنتمي إلى قومية أو عرق محدّد) اللوم على الأقلية و تجعلها كبش فداء و تتهمها بأنّها المتسببة في الأوضاع الحالية و بخاصة عندما تكون هذه الأقلية أقدر على النجاح و تحقيق الرخاء الاقتصادي من الأغلبية، أو أن تعتبر الأقلية العرقية أنّ الأغلبية تحرمها عمدا من حظوظ الرخاء الاقتصادي مما يجعلها أكثر استعدادا لتبني مطالب أكثر تطرفا قد تصل حدّ المطالبة بالانفصال التام أو الحكم الذاتي.

و يعتقد الكثير من الباحثين (على غرار Donald Horowitz, Arend Lijphart , Renée de Nevers ) أنّ الخلافات العرقية تحتدم في مرحلة بناء الدولة الجديدة في المجتمعات المتعدّدة الأعراق لأنّ الأنظمة السابقة شلّت نشاط الحركات العرقية تماما كما حدث في يوغسلافيا في عهد جوزيب بروز تيتو، فكانت المرحلة الجديدة ( الديمقراطية وبناء الدولة الجديدة) فرصة لظهور مطالب عالية و مرتفعة السقف في حين كانت قدرات الدولة في أدنى مستوياتها بحيث شكّل هذا التفاوت فرصة لتعميق الهوة بين مؤسسات الدولة و المجتمع. و لكن ديفيد ويلش و بالرغم من موافقته لهؤلاء الباحثين رأى أنّ عملية بناء الدولة (state-building) و التي هي مسار مؤسسي بالدرجة الأولى أبسط كثيرا من عملية بناء الأمة (nation-building) و التي عبّرت عنها المقولة الشهيرة للسياسي و مفكّر القومية الايطالي

<sup>1</sup> Jack Snyder, " Nationalism and the Crisis of the Post-soviet State" in Michael E.Brown (ed) , *Ethnic Conflict and International Security*, Prinston: Prinston University Press, 1993, p.79.

Massimo d'Aziglio " لقد صنعنا إيطاليا، الآن يجب علينا صنع الإيطاليين We made Italy, no "we must make Italiens"<sup>1</sup>.

و حسب مؤرخ القومية إريك هوبسباوم ( و استنادا لما أقره قبل ذلك ألكسيس دي توكفيل Alexis de Tocqueville ) فإنّ المجتمع الفرنسي لم يكن متجانسا و موحدا قبل الثورة الفرنسية بحيث كان نصف المواطنين لا يتكلمون اللغة الفرنسية، بل كان معظم سكّان الأرياف يتكلمون لهجات مختلفة عن بعضها البعض، و بالتالي فمسار التوحيد و المجانسة الثقافية و اللغوية هو مسار أعقد و أطول من المسار التنظيمي و الإداري، و حتى جون ستيوارت ميل John Stuart Mill وصل لنتيجة مقارنة لآراء الباحث Muller حيث يعتقد ميل أنّ تطابق حدود الدولة (السياسية) مع القومية من الشروط الضرورية لقيام مؤسسات حرة.<sup>2</sup>

و لكن موقف جون ستيوارت ميل لم يلق إجماعا لدى النخب الفكرية الليبرالية آنذاك حيث برزت ردود تستنكر موقفه و تعتبره منافيا للقيم الليبرالية حيث اعتبر Lord Acton التعددية القومية و العرقية داخل دولة ما دليل على تحضّر المجتمع، و وصف الدولة المرتكزة على قومية واحدة بقوله: " إنّ ألدّ أعداء حقوق القومية هي النظرية الحديثة للقومية في حد ذاتها، حيث إنّ مساواة الدولة بالقومية نظريا يؤدي فعلا إلى اعتبار أفراد الأقليات القومية الأخرى التي توجد في تلك الدولة مجرد رعايا و ليسوا مواطنين كاملي الحقوق، حيث تنكر على أفراد الجماعات العرقية الأقل حجما مساواتهم بالأفراد المنتمين للأغلبية الحاكمة، لأنّها إن فعلت عكس ذلك فمعناه انتفاء قيام الدولة-الأمة في حدّ ذاتها"<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> David Welsh," Domestic Politics and Ethnic Conflict" in Michael Brown (ed), *Ethnic Conflict and International Security*, Princeton: Princeton University Press, 1993, p.45.

<sup>2</sup> Alain Dieckoff, *La Nation dans tous ses états: Les identités nationales en mouvement*, Paris: Flammarion, 2000, p.85.

<sup>3</sup> رونالد فيندلي، "ملاحظات حول الاقتصاد السياسي لظاهرة القومية"، عن *القومية و العرقية* ، تحرير، ألبرت بريتون وبيير سالمون، (تر: أمنية عامر)، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2006، ص. 264.

و إذا عدنا لواقع الكيانات السياسية المعاصرة لوجدناها في معظم الأحيان دولا متنوعة الأعراق، لكنّ ذلك لم يجعلها تدخل بالضرورة في صراعات عرقية كذلك التي تناولناها في المطلب السابق، فعدد الدول التي تعرف تجانسا عرقيا نسبيا لا يتجاوز عشرين دولة ( و هي الدول التي لا تمثل الأقليات العرقية فيها أكثر من 5% من مجموع السكان حسب ديفيد ويلش)<sup>1</sup>.

و ما دامت الدول في معظمها تعرف تنوعا عرقيا واضحا، فمسألة الصراع العرقي مرتبطة بطبيعة السياسات المنتهجة سواء في الماضي أو في الحاضر، و هما مستويان لا بد من إدراك تأثيرهما المتبادل المنطقة و ثقافة شعوبها ممّا أورث القارة إرثا ثقيلًا لم تستطع تجاوزه ، تماما كما حدث لجمهوريات الاتحاد السوفييتي السابقة و من بينها دول آسيا الوسطى التي لا يمكننا عزل ما يحدث فيها اليوم من سياسات قومية و عرقية عن السياسات المنتهجة سابقا من قبل روسيا القيصرية أو من قبل روسيا الشيوعية.

---

<sup>1</sup> David Welsh, *op.cit.*, p.48.

## استنتاجات الفصل الأول:

من خلال ما تمّ تناوله في المباحث و المطالب السابقة نورد أهم الاستنتاجات المستخلصة:

- يعتبر العرق من المفاهيم الأكثر تعقيدا في العلوم الاجتماعية لأنه يحمل مدلولات مختلفة باختلاف المدارس الاجتماعية التي تناولته بالتحليل و التفسير، فالمدارس الطبيعية و البريموردالية منحتة محتوى ضيقا ينحصر في مفهوم الوراثة و تجاهلت دور العوامل الاجتماعية و السياسية في تشكّله و هو ما يظهر في أعمال Van Den Bergh أي لم تميّزه عن الجماعات المحليّة (communautés) التي تتحكّم فيها روابط القرابة، و المجموعة العرقية وفق هذا الطرح هي الجماعة التي لا تخضع إلى تقسيم عمل أو تمايز واضح ، و هذا التماثل هو الذي الذي يؤدي إلى الاستثناس و التضامن بين أفرادها يصبح تضامنا ميكانيكيا كما صوّره دوركايم.

- و لأنّ ما يميّز المجموعة العرقية هو التماثل و التضامن بين أفرادها، فهي مختلفة عن المجتمع الحديث القائم على التمايز و التخصص و الفردية، و محكوم عليها بالاندثار حسب تيار الحداثة لأنّها غير قادرة على التكيف مع متطلبات المجتمع الحديث القائم على المجانسة بين جميع أفرادها دون اعتبار لانتماءاتهم الفرعية.

- يخضع سلوك المجموعة العرقية حسب Weber إلى العاطفة، لأنّها نموذج من الجماعات المبنية على علاقات وشائجية لأنّ ما يربط بين أفرادها هو رابطة الدّم و القرابة، بينما يخضع سلوك المجتمع الحديث للخيار العقلاني متجاوزا الانتماءات المحليّة الضيقة.

- سمح التطور التقني و زيادة نسب الهجرة و ظهور المجتمعات متعدّدة العرقيات ( و في الولايات المتحدة الأمريكية خاصة) بزيادة الاهتمام بموضوع العلاقات العرقية، و ظهر ذلك جلياً ن خلال مدرسة شيكاغو التي قدّمت أعمالا أمبريقية متميّزة ، ساهمت بزيادة فهمنا لمتانة المجموعات العرقية و قدرتها على مقاومة مشاريع التوحيد و المجانسة ( Homogénéisation).

- بما أنّ المجموعة العرقية مجموعة وشائجية تقوم على رابطة الدّم و القرابة، فمن الممكن توظيفها في التنافس السياسي، لتصبح موردا من الموارد يمكن تعبئته من قبل النخب السياسية لكسب تأييد أعضاء المجموعة العرقية، و هو ما أكّدت عليه المقاربة التعبئة (mobilisationnistes).
- بما أنّ الدولة هي الجهاز المسئول عن عملية التوحيد و المجانسة، فإنّ ذلك يزيد من احتمالات دخول الدولة و العرق في صراع جذلي، فبينما تسعى الدولة ( القومية ) إلى تجاوز العرق، يقوم العرق بالعمل على الحفاظ على استقلاله و تميّزه.
- و في حالة استمرار هذا الصراع و تشبث كلّ طرف بمشروعه متجاهلا الآخر، فإنّ احتمال احتدام الصراع تزداد لتصل إلى مرتبة النزاع المسلّح و الحراك الانفصالي. و هو ما رأيناه في تجارب عديدة، ففي إفريقيا اعتقدت النخب السياسية المتزعمة لحركات التحرّر في عقد الستينيات أنّ مسار التحديث مقرون بتجاوز الانتماءات و الولاءات التقليدية ( العرق و القبيلة ) لصنع ولاء جديد، هو الولاء للدولة الوطنية، لكنّ هذه التجارب قد فشلت و لم تستطع مقاومة الخصوصيات و التمايزات.
- بيّن مسار ما بعد الحداثة أنّ وعود الحداثة في القضاء على الانتماءات التقليدية التي تعتبرها رواسب للماضي، كانت مفرطة التفاؤل. فلقد شهدت الفترة التي تلت انهيار المنظومة الاشتراكية بروز الهويّات المقموعة ( الدين و العرق...). فهذه الفترة التي انتشرت فيها ظاهرة العولمة بشكل متسارع، شهدت في نفس الوقت بروز ظاهرة الانكفاء على الذات و مقاومة مسار العولمة، أي بروز صراع واضح بين الكوني و المحلي.
- أصبحت العرقية هي الأساس المعتمد لتأسيس القومية أو ما يسمّيه أنثوني سميث بالقومية العرقية في كثير من النماذج الحديثة، لتبرز المخاوف من عودة العلاقات الدولية إلى حقبة الحروب المدمّرة التي كانت النزعات العرقية سببا أساسيا في نشوبها، و ساهمت في تفكّك الإمبراطوريات متعدّدة الأعراق كالإمبراطورية النمساوية و العثمانية ( البلقنة)، و بالفعل فلقد أدى تفكّك الدول الاشتراكية متعدّدة العرقيات كالاتحاد السوفييتي و الاتحاد اليوغسلافي إلى بداية عهد جديد من النزاعات و الحروب الأهلية لم تتوقّف إلى اليوم.
- و لهذه الأسباب مجتمعة، أصبحت الدول الديمقراطية تسعى جاهدة إلى تصويب دساتيرها و قوانينها بما يتلاءم مع الخصوصيات و التمايزات المحليّة، بحيث تبتعد عن فرض النموذج

الوحدوي، و ذلك بإفساح المجال للتعددية الثقافية و اعتبار الحقوق الثقافية مكملّة للحقوق  
و الحرّيات الفردية.

## الفصل الثاني: الاستعمار الروسي و المسألة القومية و العرقية.

إنّ التنوع العرقي الذي تعرفه منطقة آسيا الوسطى اليوم هو نتيجة لعقود طويلة من السياسات الروسية سواء القيصريّة منها أو السوفييتيّة، فروسيا القيصرية أو السوفييتية هي تجربة إمبراطورية فريدة من نوعها وفق كل المقاييس، فلا يمكننا على رأي هيلين كارير دانكوس Hélène Carrère d'Encausse تجاهل تنوع المجتمعات المستعمرة و التعقيدات التي تولدت بسببها و ضرورة تنظيم و تسيير هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف و بخاصة مسألة التنوع.<sup>1</sup>

فمنطقة آسيا الوسطى تأثرت أكثر من غيرها من مناطق الاتحاد السوفييتي من السياسات المنتهجة في الفترة الاستعمارية، على اعتبار آسيا الوسطى هي الأكثر اختلافاً و تميزاً عن المستعمر الروسي من حيث الأصول القومية، الدين، اللغة و الانتماء الحضاري و عليه فنتائج السياسات الاستعمارية عليها ستكون بالضرورة أخطر و أعقد.

فمن ناحية الأصول القومية و العرقية فساكن آسيا الوسطى الأصليين ينتمون عموماً للعرق التركي، فهذه المنطقة هي الموطن الأصلي للشعوب التركية، ما عدا منطقة ما بين النهرين التاريخية و التي تقطنها شعوب فارسية؛ أما من ناحية الدين فلقد تغلغل الدين الإسلامي في هذه المنطقة في فترات مبكرة من الفتح الإسلامي، و منذ ذلك الحين استقر الإسلام فيها و لم تستطع كل الحملات الأجنبية من تحويل ساكن آسيا الوسطى عن دينهم، أما من ناحية اللغة فلغات شعوبها هي لغات تركية على العموم و فارسية في جمهورية طاجيكستان و الحواضر الكبرى، و إلى جانب هذا كله تعتبر آسيا الوسطى واحدة من أهم مراكز الحضارة العربية الإسلامية و خاصة حواضرها التاريخية كسمرقند و بخاري فهي موطن الإمام البخاري و الرازي و ابن سينا و أبي حنيفة النعمان، بل هي المنطقة التي التقى فيها التأثير العربي و الفارسي و التركي و امتزج في انساق و سلاسة عزّ نظيرها في العالم الإسلامي.

<sup>1</sup> Hélène Carrère, d'Ancauss, L'Empire d'Eurasie, Paris, Fayard, 2005, p.05.

وعليه فدراستنا للسياسات العرقية الاستعمارية لن تركز على السياسات العسكرية و الاقتصادية بقدر تركيزها على الجانب الثقافي و اللغوي و غيرها من العوامل المساعدة في تسيير التنوع و التعدد الذي أفرزته السياسة الاستعمارية الروسية، مركزين على الاعتبارات المصلحية للمستعمر و الأدوات الإيديولوجية المنظمة و المبررة لمثل هذه السياسات.

### المبحث الأول: التوسع الروسي في منطقة آسيا الوسطى.

يعتبر الاستعمار الروسي شكلا فريدا من نوعه فهو مختلف عن غيره، فهناك و حسب المؤرخ البريطاني المختص في التاريخ الروسي Séton Watson " تشابه بين التوسع الروسي في منطقة الفولجا و استعادة الاسبان للأندلس la reconquista، و بين دمج الأراضي الأوكرانية و ابتلاع فرنسا لمنطقة البورجون la Bourgogne و اللورين la Lorraine، و بين عملية الاستيطان الروسي في سيبيريا و بين الاستيطان في أمريكا الشمالية، و بين عملية إخضاع منطقة القوقاز و إخضاع الانجليز للهضبة الاسكتلندية، و بين ضم أراضي آسيا الوسطى و بين تشكيل الإمبراطوريتين البريطانية و الفرنسية، و بين الامبريالية الروسية في الشرق الأقصى و بين عدوان القوى الكبرى على الصين في نهاية القرن التاسع عشر".<sup>1</sup>

فليس من المعقول اختزال التوسع الروسي في بعد أو عامل واحد، فنحن أمام نموذج يتطلب فهم طبيعة و دوافع المشروع الامبريالي الروسي، فالروس هم الشعب الوحيد الذي يعتبر أنّ الاستعمار يمثل جوهر تاريخه كما يرى مارك فيرو Marc Ferro.<sup>2</sup> و لهذا السبب يعتبر النقاش الجيوسياسي في روسيا جزءا لا يتجزأ من مسألة الهوية فهناك صورة تكونت خلال قرون طويلة من تاريخ روسيا

<sup>1</sup> Hugh Séton Watson, *The New Imperialism*, London: The Bodley Head, 1961, pp 22-23.

<sup>2</sup> Marc Ferro, "Colonialisme russo-soviétique et colonialismes occidentaux", *Revue d'études comparatives Est-Ouest*, Vol.26, n.4, Décembre1995, p.76.

التوسعي، لا يمكن لسنوات قصيرة أن تزيلها، فلا يمكننا انطلاقاً من هذه الاعتبارات فصل المسألة القومية الروسية عن مسألة التوسع الاستعماري الروسي.<sup>1</sup>

و لهذا السبب لا بد أن نفهم التوسع الروسي في منطقة آسيا الوسطى كجزء أو كمرحلة من مراحل تشكّل الوعي القومي الروسي أو المخيال الجمعي الروسي (l'imaginaire collectif russe).

### المطلب الأول: خصائص التجربة الاستعمارية الروسية.

عادة ما يطلق لفظ الاستعمار على عملية احتلال الأقاليم الأجنبية البعيدة، والذي يرفق بعملية استيطان نسبي أو شامل، وفي أغلب الأحيان تكون المستعمرات موجودة ما وراء البحار (outr- mer) و هو ما ينطبق على التوسع الاستعماري الأوروبي لكل من بريطانيا، فرنسا، بلجيكا، إسبانيا، البرتغال و هولندا و حتى الاستعمار الياباني لكوريا الجنوبية.

و لكنه و بعكس ذلك فإنّ الاستعمار الروسي يشكل استمراراً إقليمياً (continuité territoriale) و هذا الأمر جعل الروس لا يميزون بين التوسع الإقليمي و الاستعمار.

الأمر الثاني، هو قدم العملية التوسعية الروسية مما يجعل الروس يصفون عليها نوعاً من الشرعية، ففيما يخص بلاد الشيشان (القوقاز الشمالي) لا يزال الروس يرددون أن قدومهم إلى هذه البلاد كان استجابة لنداء الاستغاثة الذي و جهته شعوب المنطقة للإمبراطور الروسي بيير الأكبر (Pierre le Grand) لدفع الظلم الواقع عليهم من قبل أمراء خانية القرم التتارية (Khanat de Crimée) و أن ضمّ هذه الأراضي تم الاعتراف به من خلال ميثاق دولية منذ 1774<sup>2</sup>، و التبرير نفسه نجده عند تناول

<sup>1</sup> Mohammad Reza-Djalili, *Géopolitique de la nouvelle Asie centrale*, Paris: PUF, 2001, p.45.

<sup>2</sup> Marc Ferro, *op.,cit*, p.77.

الروس لتوسّعهم في سهوب كازاخستان ، فهم يبررونه بأنه استجابة لنداء استغاثة و حماية للكاخاخ من هجمات قبائل الكالموك الصينية.

فهذا التصور الروسي للمسألة الاستعمارية، هو تصور مميز يرى في حركية التاريخ استمرارا غير منقطع و غير رجعي كما وصفه مارك فيرو (unilinéaire et irréversible)، فالذي يفرق التصور الروسي لهذه المسألة عن بقية التصورات ( تصورات الدول المستعمرة الأخرى) هو المخيلة المشتركة (l'imaginaire collectif) للأمم.<sup>1</sup>

فبالنسبة للإسبان كان التوسع الاستعماري مظهرا من مظاهر العظمة و القوة ، ونهايته اعتبرت من قبلهم بداية لعصر الانحطاط، و بالنسبة للبرتغاليين يمثل الاستعمار دليلا للإقدام و الشجاعة و يظهر ذلك من خلال ترديدهم لمقولة " لو كانت الأرض أكبر مما هي عليه لكنا قد قمنا بالدوران حولها" كما اعتبر استعمارهم للبرازيل و صناعة أمة جديدة كمصدر للفخر و الاعتزاز، و بالنسبة للانجليز اعتبر الاستعمار و التوسع حلقة من حلقات سياسة التحكم في البحار و المحيطات لتوسيع مبادلاتهم التجارية أكثر من كونها سياسة استيطانية، أما الفرنسيون فلقد كان هناك دائما تمييز مطلق للمستعمرات عن الجمهورية الفرنسية بالرغم من الأفكار التي تبنتها الثورة الفرنسية القائمة على مبدأ المواطنة و الحقوق السياسية غير القابلة للتصرف، فرنسا الاستعمارية لم تنظر إلى شعوب المستعمرات إلا كرعايا من الدرجة الثانية ، و هو ما يظهر واضحا و جليا في الطرح الذي تبناه "منظر الديمقراطية" ألكسيس دي توكفيل A.Tocqueville في الرسالة الثانية حول الجزائر<sup>2</sup>

قد تكون الاعتبارات دينية أو قد تكون اقتصادية، و لكن الأهم هو معرفة الوضع القانوني و السياسي (le statut) للفرد المستعمر كمتغير لمقارنة الاستعمار الروسي بمختلف الاستعمارات، فسيبيريا كانت سجنا كبيرا (bagne) ينفي إليه المعارضون السياسيون و المجرمون منذ القرن الثامن عشر، و بالتحديد

<sup>1</sup> Ibidem.

<sup>2</sup> Alexis de Tocqueville, *Deuxième lettre sur l'Algérie* 1837, ([www.uqac.ubec.ca/zone30/classique-des-sciences-sociales/index.html](http://www.uqac.ubec.ca/zone30/classique-des-sciences-sociales/index.html)). (consulté le 18/5/2013)

سنة 1722 حيث أقر النظام الجنائي الروسي آنذاك، سياسة التهجير إلى المناطق غير المأهولة للعمل في المناجم أو غيرها كنوع من أنواع الأشغال الشاقة، و هذه المعسكرات أو السجون كانت تسمى بالروسية (Katorga) و هي لا تختلف عما كان يفعله النظام الاستعماري الفرنسي بإرساله المجرمين الفرنسيين أو المقاومين للاستعمار إلى المناطق البعيدة في كاليدونيا الجديدة ، و أصبح هذا النظام أشد قسوة في القرن التاسع عشر، ليعوّض بنظام الغولاغ (Le Goulag) في الفترة السوفييتية<sup>1</sup>

بالنسبة للقيصرية الروسية المتميزة بالتسلّط و الاستبداد لم يكن الوضع القانوني و السياسي للرعايا من ذوي الأصول الروسية يختلف كثيرا عن وضع الشعوب و القوميات الأخرى، باعتبار أن روسيا الإقطاعية لم تكن تعترف بحقوق المواطنة كما كان متعارفا عليها في الدول الأوروبية ، بل إن نظام القنانة (le servage) لم يتم التخلي عنه- و لو جزئيا- إلا في الثالث من مارس 1861 في عهد القيصر الكسندر الثاني، ففي هذه الفترة كان حوالي خمسين مليون روسي يعيشون في الريف ( من أصل ستين مليون روسي ) و يعملون في الأرض و يُعتبرون بقوة القانون أقنانا (serfs) .

و المفارقة هو أن نظام القنانة أقر في عهد بيير الأكبر Pierre le Grand و كاثرين الثانية Catherine 2 أي فترة القياصرة المحسوبين على فكر التنوير<sup>2</sup>. فالقيصرة منحوا الأراضي للنبلاء لضمان ولائهم و تقديم خدماتهم للنظام القائم و حدّوا حرية تنقل و مرور الأفراد لكي يضمنوا لمالكي الأراضي الكبار أو الإقطاعيين يدا عاملة رخيصة ، مجبرة على العمل الشاق<sup>3</sup>.

استطاع القيصر ألكسندر الثاني إقناع طبقة النبلاء بضرورة التخلي عن نظام القنانة و لو جزئيا خوفا من اندلاع ثورة شعبية يقودها فقراء الفلاحين، خاصة و أنّ وصوله للحكم كان متزامنا مع اندلاع الثورات الاجتماعية في أوروبا ( ثورات 1848 ) ، و لكن إصلاحات الكسندر الثاني لم تؤد إلى تحسين

<sup>1</sup> Anne Applebaum, *Goulag: Une Histoire*, éditions Bernard Grasset, 2005, p.9.

<sup>2</sup> تم تسميتهم بالقيصرة المستنيرين Tsars éclairés ، خاصة الملكة كاثرين الثانية التي استضافت الفيلسوف الفرنسي ديدرو Diderot صاحب الموسوعة المشهورة و أحد أشهر فلاسفة التنوير.

<sup>3</sup> Michel Laran, "Nobles et paysans en Russie: De "L'Age d'Or" du servage à son abolition, (1762-1861)", *Annales, Économie, Sociétés, Civilisation*, 1966, Vol.21, n.1, pp. 14-15.

الوضع الاجتماعي للفلاح الروسي و كان من نتائج فشل سياساته الإصلاحية اغتياله من قبل جماعة ثورية فوضوية. و انتظر الفلاح الروسي حتى سنة 1906 ( أي بعد الهزيمة التي لحقت بالجيش الروسي في حربه ضد الجيش الياباني في 1905 و قبل أقل من عقد من بداية الحرب العالمية الأولى) للحصول على حقوق الملكية الكلية غير المنقوصة و غير المشروطة للأرض و ذلك من خلال قانون الإصلاح الزراعي الذي أعده الوزير الأول الروسي Piotr Stolypine<sup>1</sup>.

لم يكن القياصرة ينظرون للروس أثناء تشكل الإمبراطورية بنظرة تميزهم عن بقية الشعوب المستعمرة، فالقياصرة " اعتبروا أن رعاياهم بما فيهم الروس لا يستحقون المكانة التي كان يحتلها التتاريون في الخانيات التتارية بل المكانة التي كان يحتلها الروس في ظل الحكم التتري"<sup>2</sup>.

فالقياصر الروسي يعتبر نفسه فاتحا لرعاياه الأصليين أي الروس " comme conquérant de ses propres sujets " حسب تعبير Alain Besançon فبعض القياصرة لم يكن يرى في رعيته إلا عبيدا يتوجب قهرهم و إذلالهم لإخضاعهم و تسهيل السيطرة عليهم و الإمبراطورية الروسية لم تكن مشابهة لبقية القوى الاستعمارية، فلم يكن هناك مركز يتمتع بالحظوة و الامتيازات، و محيط يعاني من الذل و القهر، على غرار ما هو شائع في أماكن أخرى بل كانت البلاد كلها تعاني من نفس السياسات. و لذلك فكل تمييز بين الأهالي الروس و بقية شعوب المستعمرات كان حاصلا في الفترة القيصرية و لم يكن موجودا إلا لتيسير السياسة الاستعمارية ككل.<sup>3</sup>

شكل الوضع الاجتماعي المتدهور للرعايا الروس و الناتج عن نظام القنانة عاملا مشجعا للهجرة نحو الأماكن البعيدة و غير المأهولة في سيبيريا و المناطق الأخرى عليهم يجدون في ذلك ظروفًا أقل قسوة

<sup>1</sup> Gelli Chemelev, "Réforme de la propriété foncière en Russie", *Economie rurale*, 1993, vol.214, n.214-215, p.69.

<sup>2</sup> Mohammad –Reza djalili , Thierry Kellner, *Geopolitique de la nouvelle Asie centrale, op., cit*, p.45.

<sup>3</sup> Alain Besançon, "Comment la Russie à penser au peuple", *Romantisme*, 1975, vol 5, n.9, p.110.

و أكثر حرية، والمميز في الأمر أن هؤلاء المهاجرين الروس الهاربين من نظام القنانة ( الذين لم تخلُ أفعالهم من روح المغامرة، فالكثير منهم امتعن حرفة الصيد و بيع جلود الحيوانات و فرائها التي كثر عليها الطلب في مختلف أرجاء العالم و خاصة الأوربيين و الصينيين) هم المحرك الأول للتوسع الاستعماري الروسي للأقاليم البعيدة.

و لكن تفسير التوسع الاستعماري الروسي الطويل من الناحية الزمنية و الممتد من الناحية الجغرافية يجب أن يبحث عن وظيفة الاستعمار و دوره و إيجاد مبرراته، فما حاجة الإمبراطورية الروسية لكل هذه الأقاليم ؟ و ما هو سر هذا التعطش للأرض (la soif de terre) ؟ و ما هي جدواها و فائدتها من الناحية الاقتصادية؟ و إن كانت هذه التساؤلات قد طرحت فعلا في مراحل حساسة من التاريخ الروسي و بالخصوص في المرحلة التي شهدت تفكك الإمبراطورية السوفييتية و عودة الأطروحة التي ترى في السياسة الاستعمارية عبئا على الاقتصاد و الشعب الروسي ( و أشهر من كان يعبر عن هذه الرؤية هو الكاتب الروسي ألكسندر سولجنستين) بل كانت من بين الأسباب التي جعلت روسيا تتخلى عن إمبراطوريتها سنة 1991 بتلك السهولة.<sup>1</sup>

و في اعتقادنا، لا بد أن ينطلق تفسير السياسة الاستعمارية الروسية من فهم طبيعة الحكم القيصري، فالحملات التوسعية لم تكن مكلفة مقارنة مع التوسع الاستعماري الغربي لأنه لم تستعمل فيها إمكانيات حربية مماثلة للإمكانات الموظفة من قبل الاستعمار الأوروبي، لكنّها في مقابل ذلك منحت للقيصرة سطوة و رهبة منقطعة النظير مماثلة لما منحه الاستعمار البرتغالي لملوك البرتغال في القرن السادس عشر، فسهولة الحصول على ملايين الأميال المربعة بل حتى الوصول إلى القارة الأمريكية و احتلالهم لألاسكا رفع من شهية التوسع عند القيصرة الروس، باعتباره شكلا من أشكال إبراز العظمة و القوة بغض النظر عن الدوافع و التبريرات النفعية و الاقتصادية، هذه الاعتبارات و التي يسميها المؤرخ الفرنسي المتخصص في التاريخ الروسي Albert Mousset بـ "la mystique de

<sup>1</sup> David Teurtrie, *Géopolitique de la Russie: Intégration régionale, enjeux énergétiques, influence culturelle*. Paris: L'Harmattan, 2010, p.21.

(grandeur) أو "روحانية العظمة". أفلم يكن القياصرة يعتبرون روسيا روما الثالثة و اعتبروا أنفسهم خلفاء لملوك الإمبراطورية البيزنطية؟<sup>1</sup>

قد لا نجد للسياسة الاستعمارية الروسية مثيلا في الثقافة الاستعمارية الأوروبية، فالاستعمار الروسي لم يخضع يوما لمحددات الخيار العقلاني و لا لمحددات التقدير الدقيق للأرباح و التكاليف ، تماما كما كانت إمبراطورية الإسكندر المقدوني أو إمبراطورية جنكيز خان. غير أنه لا يمكننا اختصار التوسع كلية في الدوافع الفردية للقياصرة، فللاستعمار مبررات أخرى قد يطول الحديث عنها لكن الرجوع للتاريخ الروسي يسمح لنا بإدراك أهمها.

لقد ارتبط مصير روسيا بالغزو المغولي، إذ أنّ الإمارات الروسية خضعت للهيمنة المغولية و التتارية لمدة قاربت القرنين و النصف و يطلق الروس عليها فترة النير المغولي أو التتري (le joug mongol ou tatar) و التي امتدت من 1238 أي تاريخ غزو الجيش المغولي لمدينة موسكو من قبل حفيد جنكيز خان "باتو خان Batu Khan" إلى غاية 1480 و الذي يصادف قرار إيفان الثالث رفض دفع الجزية للخانية المغولية<sup>2</sup>.

لقد تركت الفترة المغولية أو النير المغولي في المخيلة الشعبية الروسية ذكريات لم تُمَح، فهي مرادفة لتسلط الأجنبي، العبودية و القهر، و لكنّها في نفس الوقت تمثّل محطة تاريخية مهمة فهي التي فرضت التوحد على الإمارات الروسية المتفرقة و المتحاربة بعدما كان أمراؤها يتسابقون إلى الخانيات المغولية و التركية لطلب التزكية و الحماية لبسط أيديهم على رعاياهم.<sup>3</sup>

<sup>1</sup> Albert Mousset, *Histoire De Russie*, Paris: SEFI, 1945, p.9.

<sup>2</sup> *Ibid.* p.34.

<sup>3</sup> Rene ,Grousset, *L'empire des steppes*, Paris: Payot, 2001,4 ed, p.651.

كما أنها شكلت أهم عنصر يحدد علاقة الروس بالعالم الإسلامي، على اعتبار التتار قد تبناوا الدين الإسلامي و شكلوا خانيات كثيرة كانت في احتكاك مستمر مع الشعوب الروسية التي أصبحت تعتبر نفسها ممثلة للعالم المسيحي و حامية له، و هو الدور الذي ما فتئت روسيا تتبناه فيما بعد بحيث قدمت نفسها " متراسا للعالم الغربي ( rempart de l'Occident ) في مواجهة الشرق أو العالم الآسيوي<sup>1</sup>

و هنا استطاع الروس، و انطلاقا من خوفهم من التهديد الذي يأتي من الشرق أو من السهوب الأورو-آسيوية ( les steppes eurasiatiques ) ، حيث لا مانع طبيعي يفصل قارة أوروبا عن السهوب الآسيوية، و حيث أن المخيلة الغربية المشتركة تحتفظ بتصور مماثل عن دور الكونفدراليات القبلية المغولية في إضعاف الإمبراطورية الرومانية في القرن الخامس الميلادي، من خلال غزو قبائل الهون التوتونيين ( les Huns Teutoniques ) بقيادة أتтила Attila للأقاليم الرومانية ودخوله لروما سنة 452 ميلادية بعد عبوره جبال الألب، فالأدبيات الأوروبية المخلدة لهذه الأحداث، تعطي صورة نمطية موحدة لهذه القبائل البدوية، حيث لا تزال اللغات الأوروبية تطلق على الكونفدراليات القبلية تسمية " la horde " و هي تسمية تدل على التوحش و القسوة و الغزو، و تدل كذلك على البداوة بمفهومها السلبي، في حين أنّ المغول و التتار يستعملون لفظ " الجوزة أو ( la jouz ) " للدلالة على تجمعاتهم القبلية ( و هي لفظة قليلة التداول في الأدبيات الغربية ) .

فالمسألة الاستعمارية عند الروس ليست مسألة احتلال لأراض الغير كما هي عند الاستعمار الأوروبي الغربي، بل هي مسألة حيوية مرتبطة بنشوء الدولة و تطورها فروسيا لم تكن إلا إمبراطورية و لم تكن أبدا شيئا آخر كما تذهب الى ذلك Marie Mendras<sup>2</sup>

---

<sup>1</sup> هذه الفكرة تم تبنيها و تطويرها من قبل الأميرال و الجيوسياسي الفرنسي راول كاستكس يعد الحرب العالمية الثانية لكن أجواء الحرب الباردة و التقسيم الجديد للنظام الدولي أفقدها معناها لتعاود الظهور في تسعينيات القرن العشرين على يد التيار التغريبي occidentaliste في حكومة بوريس يلتسين .

<sup>2</sup> Marie Mendras, " *Vie et mort du dernier empire russe* ", l'Express, pub.02/01/1992.

( [www.lexpress.fr/actualite/monde/vie-et-mort-du-dernier-empire-russe\\_591529.html](http://www.lexpress.fr/actualite/monde/vie-et-mort-du-dernier-empire-russe_591529.html) (consulté le 10/3/2013).

لكنّ الاستعمار أصبح مسألة جيوسياسية ترتبط بموقع روسيا بين الأمم، و بضرورة الاعتراف لروسيا بمكانتها كقوة أورو-آسيوية. و ليس من المستغرب أنّ النقاشات السياسية و العلمية لم تستطع إلى غاية اليوم التخلص من إرث التوسع الاستعماري القيصري و السوفييتي، و هذا ما جعل بريزنسكي يؤكد على تعقيد هذه المسألة وصعوبة فهمها: "إنّ هذه الأطروحات ليست مسائل مجردة ، و مهما كانت طبيعتها، فإنّ الإجابة عنها ستكشف أنّ لدى الروس مقاربات جيوسياسية متعددة، و من ضمن هذه الأسئلة، هل روسيا دولة قومية تأسست و فق الهوية العرقية الروسية أو على نموذج بريطانيا العظمى الذي لا يمكننا اختصاره في انجلترا؟ أو أنها تكشف عن فهم أكثر اتساعا يأخذ بعين الاعتبار بعد روسيا الامبريالي؟"<sup>1</sup>

و عليه فإنّ الفترة المغولية قد شكّلت بالنسبة للروس دافعا نحو التوسع شرقا و جنوبا، لمنع و ردع أي شكل من أشكال التهديد القادم من السهوب الأوراسية الواسعة، و التقدم في هذا الاتجاه هو مقدمة للغزو الروسي للأراضي الإسلامية التي انطلقت في القرن الخامس عشر و انتهت سنة 1920 بضم مدينة بخارى التاريخية رمز الحضارة العربية الإسلامية.

### المطلب الثاني: الاستعمار الروسي للأقاليم الإسلامية.

إنّ احتلال روسيا لمنطقة آسيا الوسطى ما هو إلا تنويع لمسار طويل من التوسع الاستعماري في الأراضي الإسلامية، لا تزال آثاره باقية إلى اليوم بحيث تعرف روسيا الفيدرالية ثاني أكبر تجمع للمسلمين في أوروبا بعد جمهورية تركيا، إذ يبلغ عددهم أكثر من أربعة عشر مليونا و هذا فقط بالنسبة للقوميات المسلمة ، حسب إحصاءات سنة 2002 بينما يقدرها البعض بأكثر من 20 مليونا<sup>2</sup>

<sup>1</sup> Zbigniew Brzezinski, *Le Grand échiquier: l'Amérique et le reste de monde*, Paris: Hachette, 1997, p.131.

<sup>2</sup> Akhmet Yarlykapov, "La Russie musulmane", publié le 28 juin 2005([www.voltarnet.org/article/17372.html](http://www.voltarnet.org/article/17372.html)) (consulté le 15/2/2013).

و بداية التوسع الاستعماري الروسي في الأراضي الإسلامية تنطلق من فك الإمارات الروسية و بخاصة إمارة موسكو ارتباطها بالخانيات المغولية-التترية التي تحول أمراؤها الى الإسلام، و بهذا أصبحت العلاقة العدائية بين الروس و المحتلين أكثر شدة. فلم تعد العلاقة بين الطرفين محصورة في بعدها القومي بل جاء التباين الديني ليضفي عليها صبغة روحية، و جاء صعود الإمبراطورية العثمانية التي أصبحت تمثل مركز الخلافة الإسلامية، و ضمها لأقاليم الإمبراطورية البيزنطية و على رأسها القسطنطينية، قلب الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية ليزيد من تعقيد العلاقة القائمة بين الروس و العالم الإسلامي عموما و بين روسيا و رعاياها المسلمين بصفة خاصة.

و كما ذكرنا في السابق فلا يوجد لدى الروس تمييز بين ظاهرتي التوسع الاستعماري و بناء الدولة الروسية، فلقد انطلق التوسع بعد التخلص من "النير المغولي- التتري" مباشرة، و لم يتوقف طيلة القرون التالية. و تعتبر سنة 1552 محطة أساسية في التاريخ الروسي فهي تمثل ذكرى احتلال جيوش إيفان الرهيب Ivan le Terrible مدينة قازان عاصمة الجوزة الذهبية (la Horde d'Or) التي شكلها الإمبراطور المغولي جنكيز خان قبل أكثر من ثلاثة قرون خلت<sup>1</sup>، ثم مدينة استراخان الواقعة على ضفاف بحر قزوين سنة 1556، و بهذا تكون الإمبراطورية قد استطاعت في ظرف قصير ضمّ أقاليم واسعة تقع في حوض الفولجا la Volga وصولا إلى نهر تيريك (Le Terek) على حدود بلاد الشيشان، أي منطقة القوقاز الشمالي<sup>2</sup>.

و على العموم كانت فترة حكم إيفان الرابع (الرهيب)، الفترة الأكثر عنفا و دموية ( كما يدل على ذلك اسمه ) فلقد أخذ التوسع صبغة الحروب الدينية أو الصليبية، فشهدت المنطقة الممتدة من حوض الفولجا إلى بحر قزوين حملات تنصير قسري و نهب لممتلكات الوقف الإسلامي و القضاء على النبالة المسلمة و منعها من حيازة أي ممتلكات عقارية في المدن<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> بحيث لا يوجد في التاريخ الروسي كله حدث له أثر عميق في المخيطة الروسية كغزو الجيوش الروسية لمدينة قازان ما عدا هزيمة الجيوش النابوليونية سنة 1812 أو معركة ستالينغراد سنة 1943.

<sup>2</sup> Hélène Carrère d'Encausse, *L'Empire d'Eurasie: Une Histoire de l'Empire russe de 1552 à nos jours*, Paris: Fayard, 2005, p.27.

<sup>3</sup> أسامة أحمد تركماني، *جولة سريعة في تاريخ الترك و التركمان: ما قبل الإسلام و بعده*، دمشق: دار الإرشاد للنشر، 2007، ص. 192.

و لم تخفّ حدّة التوسع الاستعماري الروسي في القرنين التاليين إلا بسبب دخول الإمبراطورية الروسية في فترة الصراعات و الانشقاقات الداخلية. و في القرن الثامن عشر عاودت روسيا سياستها التوسعية في البلاد الإسلامية بقوة و ذلك على محورين، المحور الأول كان ضد الإمبراطورية العثمانية سواء من الجانب الغربي للبحر الأسود و منطقة البلقان، أو باتجاه الجانب الشرقي أي بلاد القوقاز في شقها الجنوبي، و المحور الثاني كان في اتجاه سهوب كازاخستان الشاسعة.<sup>1</sup>

تزامن تجدد الحملات التوسعية الروسية مع بداية دخول الإمبراطورية العثمانية في مرحلة الضعف و الانهيار إلى حد جعل الأوروبيين يطلقون عليها تسمية " الرجل المريض " و هو ما جعل السياسة الخارجية الروسية أكثر جرأة من ذي قبل، و جعلها تعتقد أنها ستكون الوريثة الشرعية للإمبراطورية البيزنطية و مركز المسيحية الأرثوذكسية، و تزامن ذلك مع رغبة الروس في الوصول إلى المياه الدافئة من خلال ضم المناطق الجنوبية. و باعتبار الوصول إلى البحر المتوسط متعلّقًا بالمضائق الدولية أي مضيق البوسفور و الدردنيل فلقد أصبحت المسألة تتجاوز الإمبراطوريتين الروسية و العثمانية و عليه فقد تدخلت القوى الأوروبية لمنع سيطرة الروس على المضائق. و تمثل حرب القرم إحدى أهم محطات الصراع بين القوى الكبرى.<sup>2</sup>

ضمت الإمبراطورية العثمانية شبه جزيرة القرم سنة 1475 و قبلها كانت تابعة لإمارة جنوة الإيطالية ( احتلالها من قبل إمارة تجارية كجنوة بالرغم من بعدها عن إيطاليا يدل على أهميتها التجارية ) و في سنة 1774 فرضت روسيا القيصرية (في زمن كاترين الثانية ) اعتراف الإمبراطورية العثمانية باستقلال شبه جزيرة القرم، و بعدها بتسع سنوات تمّ ضمها للإمبراطورية الروسية و بدأت معها سياسة توطين الرعايا الروس و الأوكرانيين في أراضي القرم على حساب التتار الذين كانوا يشكلون غالبية سكان المنطقة.<sup>3</sup>

<sup>1</sup> Hélène Carrère d'Encauss, L'Empire d'Eurasie, *op.cit*, pp.73-77.

<sup>2</sup> *Ibid.* p.77.

<sup>3</sup> Albert Mousset, Histoire de Russie, *op.cit*, p.150.

و من ذلك الحين أصبحت مدينة سيباستوبول (Sébastopol) الواقعة على ساحل البحر الأسود من أهم المدن الروسية و نواة لتوطين الروس في كامل المنطقة، و ليصبح ميناء سيباستوبول أهم ميناء عسكري و تجاري روسي ( و هو ما يفسر الصراع الذي احتدم بين روسيا و أوكرانيا حول أسطول البحر الأسود و ميناء سيباستوبول بعد تفكك الاتحاد السوفييتي) باعتبار الحركة التجارية في تلك المرحلة كانت تعتمد على الممرات البحرية لصعوبة و كلفة النقل البري.<sup>1</sup>

إنّ طموح القيصرية الروسية في الوصول إلى المياه الدافئة بدأ مع وصول القيصر بيير الأعظم Pierre Le Grand الذي امتد حكمه من سنة 1682 إلى سنة 1725 و تبلور مع وصول نيكولاس الأول Nicolas 1 سنة 1725 بحيث أصبحت روسيا تطمح فعليا في احتلال القسطنطينية -أو اسطنبول بعد الفتح الإسلامي- للتحكم في مضيق البوسفور و الدردنيل، و لتبرير هذه السياسة وظف الروس مسألة الأقليات المسيحية المتواجدة في تراب الإمبراطورية العثمانية و أصبح مبدأ حمايتهم منطلقا لغزو روسيا لإمارتي مولدافيا (la Moldavie) و فلاشيا (la Valachie) ، و هو ما استدعى أن تطلب كلّ من بريطانيا و فرنسا من روسيا التراجع عن احتلالها، و مع رفض الأخيرة الاستجابة، أعلنت القوتان العظميان الحرب على روسيا في السابع عشر من مارس سنة 1854.<sup>2</sup>

و بعيدا عن الاعتبارات الدينية الموضفة، فإنّ حرب القرم كانت محطة من محطات تسيير المسألة الشرقية و التخوف الأكبر فيها هو أن تتمكن روسيا من تحقيق طموحاتها التوسعية و السيطرة على المضائق الحيوية و بالتالي إعاقة الحركة الملاحية البريطانية و بالخصوص طريق الهند الذي يستعمل ممرات تخترق الإمبراطورية العثمانية أو تقترب منها، و لهذا كانت بريطانيا ترفض أن تصبح روسيا قوة متوسطة تنافسها، مستعملة مبررات دينية (حماية المسيحيين الأورثوذكس) و قومية ( تخليص الرعايا السلافيين les slaves في البلقان من السيطرة العثمانية) قوية و فعالة لتتحداها.<sup>3</sup>

<sup>1</sup> Kevin Limonier, "La flotte russe de mer Noire à Sébastopol: une forteresse impériale" au sud", [www.herodote.org/IMG/pdf/limonier138.pdf](http://www.herodote.org/IMG/pdf/limonier138.pdf).( consulté le 12/04/2014)

<sup>2</sup> Albert Mousset, *op.cit.*, p.152.

<sup>3</sup> Lorraine De Meaux, " Crimée, une guerre de religion à l'âge industriel", [www.laviedesidees.fr/Crimée-une-guerre-de-religion-à-l.html](http://www.laviedesidees.fr/Crimée-une-guerre-de-religion-à-l.html).( consulté le 4/5/2013).

يتمثل الشق الثاني من المحور الأول من السياسة التوسعية الروسية في التوجه جنوبا نحو بلاد القوقاز الذي تقطنه عرقيات مسلمة كثيرة ( تتار، شيشان، داغستانيون، الانغوش، الشركس .. الخ) فحروب القوقاز هي أصعب الحروب التي خاضتها الإمبراطورية الروسية على الإطلاق بسبب تضاريس المنطقة الجبلية و لطبيعة سكانها الثورية الراضة لكل أشكال الهيمنة.

بدأت الحملة الروسية في بلاد القوقاز الشمالي بعد احتلال الروس لجورجيا سنة 1801 لكن الحروب النابليونية، و تقدم الجيوش الفرنسية باتجاه روسيا، جعل الروس يوقفون كل حملاتهم التوسعية و يكرسون كل مجهودهم الحربي لردع التوسع الفرنسي. لكنه وانطلاقا من سنة 1816 أصبح ضم بلاد القوقاز إلى الإمبراطورية أولوية كبرى في السياسة الروسية، و اعتمدت هذه السياسة على بناء التحصينات الدفاعية لتأمين قواتها و تسهيل تقدمها المستمر، وأول حصن تم بناؤه كان في مدينة غروزني (Groznyï) التي أصبحت عاصمة الشيشان فيما بعد.

لقد شكلت شراسة مقاومة سكان القوقاز الشمالي للتوسع الروسي صورة فريدة من نوعها و استمرت لعقود طويلة، دفعت فيها روسيا إلى أرض المعركة أفضل قادتها العسكريين، فلم يكن الروس يعتقدون أن الطرق الصوفية المسالمة المنتشرة في المنطقة و على رأسها الطريقة النقشبندية (التي استطاعت أن تنتشر الدين الإسلامي في المنطقة ابتداء من القرن السادس عشر، علما أن نشأة هذه الطريقة كان في آسيا الوسطى في القرن الرابع عشر ميلادي) قادرة على تحدي الوجود الروسي في المنطقة، فلقد كانوا يظنون أن شيوخ الطريقة و مريديهم مستغرقون في التأمل الروحي و العبادة متجردون عن كل المطالب الدنيوية، غير أن شيوخ الطريقة النقشبندية بدؤوا في المجاهرة بالدعوة للجهاد و طرد الغزاة سنة 1827 و أصبح شيوخها يحملون لقب الغازي بدلا من الشيخ.<sup>1</sup>

فبعد انتصارات روسيا على الإمبراطورية العثمانية و الفارسية مابين سنوات 1825 و 1830 اشتد النزاع في شمال القوقاز و بدأت المعارك العنيفة بين القوات الروسية من جهة و قوات الملا حمزة بك

<sup>1</sup> Hélène Carrère d'Encauss, L'Empire d'Eurasie, *op.cit.*, p.87.

و الحاج مراد من جهة ثانية، و الإمام شامل الداغستاني من بعدهما الذي قاد المقاومة من سنة 1834 الى غاية 1859.<sup>1</sup>

فنهاية حرب القرم و هزيمة روسيا أمام القوى الأوروبية الكبرى ، كانت سببا في مضاعفة المجهود الحربي في بلاد القوقاز، لرد الاعتبار للجيش الروسي و الانتهاء من نزاع طال أمده و استعصى حله، و هكذا استطاعت الحملة الجديدة التي بدأت سنة 1855 من إضعاف المقاومة، خاصة بعد إلقاء القبض على الإمام شامل الداغستاني سنة 1859. و بالرغم من استمرار المقاومة سنوات أخرى إلا أنها لم تستطع الصمود بدون وجود قائد روحي يستطيع لم شمل القبائل المختلفة ، لتنتهي الحرب سنة 1864 ، تبعها هجرة الآلاف من سكان المنطقة الى الدولة العثمانية هربا من الاستعمار الروسي.<sup>2</sup>

### المطلب الثالث: احتلال آسيا الوسطى.

تختلف أقاليم آسيا الوسطى عن بعضها البعض اختلافا واضحا، فهناك مناطق سهبية رعوية شاسعة تشكل الجزء الأكبر من مساحتها و تشكل معظم أراضي كازاخستان في الشمال، و مناطق جبلية محاذية للصين وأفغانستان في الجنوب، و مناطق صحراوية تمثل معظم أراضي تركمانستان و تنتهي جنوبا عند الحدود مع الإمبراطورية الفارسية، أما قلب آسيا الوسطى فهي منطقة ما بين النهرين التي تقع فيها المدن التاريخية العريقة ( سمرقند و بخارى و خوارزم ).

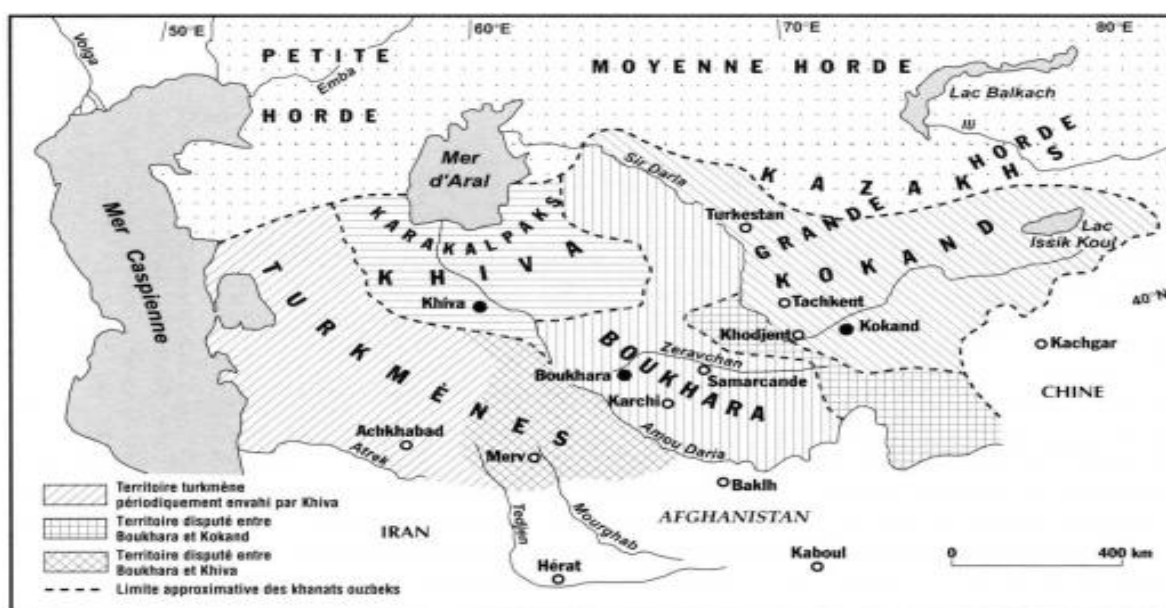
و بسبب الاختلاف الظاهر بين الأقاليم المشكلة لآسيا الوسطى، فقد كانت السياسات الروسية مختلفة هي كذلك، فلقد كانت البداية بمنطقة السهوب الكبرى، أي بلاد الكازاخ ، و على عكس المناطق الأخرى سبق النفوذ الروسي في كازاخستان الأقاليم الأخرى بأكثر من قرن، مستغلا فرصة لجوء الجوزة الصغرى

<sup>1</sup> Ibid. p.89.

<sup>2</sup> Ibid. p.90.

( la Petite Horde ) إلى الروس لمساعدتهم ضد غزو شعوب مغولية آتية من إقليم ( Djoungarie ) الذي يتبع اليوم إقليم سينكيانج الصيني ( تركستان الشرقية )، و في أكتوبر 1731 قدّم زعيم الجوزة الصغرى الولاء للقيصر الروسي ثمّ تبعه زعيم الجوزة الوسطى و قسم من الجوزة الكبرى سنة 1742 ، ليصبح الكازاخ عبارة عن رعايا أجنب داخل الإمبراطورية الروسية " ( Sujets allogènes ) أو inorodsy باللغة الروسية ) و بالتالي فلم يكن وضعهم القانوني أي من الناحية الرسمية مشابها للرعايا الروس.<sup>1</sup> أنظر الشكل رقم 1

الشكل رقم 1: خريطة توضح مواقع الخانيات و الكونفيدراليات القبلية في آسيا الوسطى قبل التوسع الروسي



المصدر: Mohammad Reza Djalili, Thierry Kellner, *Géopolitique de la nouvelle Asie Centrale*, Paris: Puf, 2006, p.32

<sup>1</sup> Pierre Chuvín, "L'Asie centrale, du passage de Nadir Shah à La prise de Tachkent (1740-1865) ", in *Histoire de l'Asie Centrale contemporaine*, Sous la Direction de Pierre Chuvín, Fayard, 2008, p.64.

اعتمدت روسيا لإحكام سيطرتها على أراضي الكازاخ على تحصينات عسكرية وذلك على طول الخط الذي يمثل اليوم عموماً حدود جمهورية كازاخستان مع فيدرالية روسيا، و ذلك انطلاقاً من مدينة أورنبورج (Orenbourg) ، لحراسة حدودها من غزوات البدو الرحل، فلم تكن نوايا الروس واضحة في احتلال هذه الأقاليم السهبية الشاسعة بقدر ما كان همهم الأكبر هو تحييدها، و منع العدوان على الأقاليم الروسية، فلم تكن روسيا في هذه الفترة قد قررت احتلال هذه المنطقة و توطین رعاياها فيها قسراً كما سيحدث لاحقاً، فالاستعمار الفعلي لآسيا الوسطى بدأ في مراحل متأخرة من التوسع الاستعماري الروسي.

ليس من السهل التأكيد على وجود مشروع \_معد سلفاً\_ لاحتلال مجمل منطقة آسيا الوسطى. فلم يكن هناك إجماع واضح لدى الروس حول مسألة التوسع الاستعماري في هذه المنطقة حسب هيلين كارير دانكوس بالرغم من وجود أطماع توسعية و وجود تهديدات مستمرة من منطقة الجنوب، فلم يتفق الساسة الروس على موقف موحد، فبينما سعى كل من حكام الأقاليم و القادة العسكريين للمناطق الروسية المجاورة لآسيا الوسطى لإقناع الحكومة المركزية بضرورة التوسع جنوباً، و كان الناطق باسم هذا الطرح Nicolas Ignatiev الذي دافع بشراسة على خيار التوسع باعتباره خبيراً بالمنطقة ( كونه قاد مهمتين رسميتين إلى إمارتي بخارى و خيوة و قاد الوفد الروسي في محادثات القوى الكبرى الثلاث أي بريطانيا، فرنسا و روسيا القيصرية مع الصين سنة 1860 و التي انتهت بمعاهدة بكين سنة 1860 لإنهاء حرب العفيون الثانية ) .

لقد حاول Ignatiev ، مستغلاً في ذلك منصبه الجديد كمدير للقسم الآسيوي في وزارة الخارجية الروسية، الدفع في هذا الاتجاه، بالرغم من معارضة وزير الخارجية الروسي آنذاك الأمير Gortchakov الذي كان متخوفاً من أن تؤدي حملات التوسع جنوباً إلى تسميم العلاقات الروسية البريطانية أكثر مما هي عليه أصلاً. و وجد وزير الخارجية الروسي الدعم من وزير المالية Reiterن الذي بنى رفضه للتوسع لدواعٍ مصرفية محضة على اعتبار حرب القرم حسبه قد أفرغت الخزينة الروسية و ليس من المعقول الدخول في حملة جديدة سترهق كاهل الاقتصاد الروسي المتأزم.<sup>1</sup>

<sup>1</sup> Ibid .p.65.

و بين هذين الموقفين جاء الموقف الثالث الذي تبناه وزير الدفاع الكومت Dimitri Milioutine ليوازن بينهما، بحيث تكون كل حملة مسبقة بحساب دقيق لحجم الخسائر و الأرباح، و هو الموقف الذي أخذ به ألكسندر الثاني قيصر روسيا، خاصة أنه كان يحتاج إلى انتصارات عسكرية و لو صغيرة لمحو الهزيمة المذلة التي لحقت بالجيش الروسية في حرب القرم، لكن بقية العملية كانت ملقاة على كاهل القادة العسكريين الميدانيين الذين فرضوا منطقتهم و إستراتيجيتهم القائمة على غزو أقاليم الجنوب على مراحل مع تجنب التسرع.<sup>1</sup>

منعت السهوب الأوراسية و الصحراء التركمانية و شعوبها البدوية - و لوقت طويل-من تقدم القوات الروسية نحو مركز آسيا الوسطى أي بلاد ما وراء النهر (la Transoxiane) حيث تتواجد الإمارات أو الخانيات المستقلة أي خانية بخارى ، خانية خوقند و خانية خيوى (أو خوارزم ) التي استطاعت أن تتجنب لوقت طويل الأطماع الروسية. و لكن، يمكننا على العموم، اعتبار منتصف القرن التاسع عشر و نهاية حرب القرم سنة 1854 تحديدا كبداية للاستعمار الفعلي لمنطقة آسيا الوسطى.

و انطلاقا من القواعد الأمامية أو التحصينات العسكرية التي أنشأتها الجيوش الروسية في الأراضي الكازاخية و فرضهم على زعيم الجوزة الكبرى تقديم الولاء لقيصر روسيا، بدأ الروس حملتهم الاستعمارية مستغلين التناحر و التنافس الشديد الواقع بين أمراء الخانيات (Khanats) الكبرى للقضاء عليها واحدة تلو الأخرى.

و كانت البداية باحتلال مدينة بيشكك (Bichkek) ( العاصمة الحالية لجمهورية كيرخيزستان) سنة 1860 ثم تشيمكنت (Tchimkent) سنة 1864 لتليها طشقند ( العاصمة الحالية لجمهورية أوزبكستان) سنة 1865. و لم يستطع أمير بخارى مجابهة الجيوش الروسية بقيادة الجنرال كوفمان Von Kaufman (ذي الأصول الألمانية) و الذي يرجع له الفضل في نجاح الحملة التوسعية الروسية في آسيا الوسطى

<sup>1</sup> Hélène Carrère d'Encauss, *L'Empire d'Eurasie, op.cit.*, p.105.

حيث استطاع أن يحتل مدينة سمرقند سنة 1868 و يفرض على أمير بخارى اتفاقية تتخلى فيها إمارة بخارى عن كل أقاليمها الشرقية الممتدة من سمرقند وصولا الى جبال بامير.<sup>1</sup>

و ساعدت نهاية الحرب في القوقاز على دفع مزيد من الجيوش الروسية الى الجبهة الجديدة أي آسيا الوسطى، حيث نجحت هذه الجيوش في عبور بحر قزوين واحتلال القسم الغربي من تركمنستان سنة 1869 و الوصول الى حدود بلاد فارس، و بهذا تكون روسيا قد استطاعت أن تهزم كل الإمارات المحلية.

بحيث استكملوا ضم خانية خوقند سنة 1876، بينما جعلوا من خوارزم محمية روسية (protectorat) و استحوذوا على كل الساحل الشرقي لبحر قزوين كما فعلوا بالنسبة لبخارى التي جعلوها هي كذلك محمية روسية مع الاحتفاظ بالعائلة المالكة.<sup>2</sup>

لم يكن في نية الروس التوقف عند هذا الحد، بل كانوا يريدون الاستمرار في التوسع جنوبا أي نحو إيران، و أفغانستان و شبه الجزيرة الهندية، بحيث استطاعوا فعلا الوصول إلى الحدود الإيرانية و قهر القبائل التركمانية (قبائل التك tribus Tekke ) سنة 1881 و استطاعوا احتلال واحة بانجده (Oasis de Panjdeh) الواقعة جنوب نهر أمو-داريا (Amou-Daria) ( نهر جيحون في المراجع الإسلامية القديمة و (l'Oxus) في المراجع اللاتينية و الاغريقية) واقتربوا بذلك من معبر ذي الفقار (la passe de Zulficar) الذي تعتبره بريطانيا ممرا رئيسيا يصل غرب آسيا بشبه الجزيرة الهندية. و هي الواقعة التي يسميها المؤرخون الأوروبيون بـ " (l'incident du Panjdeh) لأنها أثارت خلافا دبلوماسيا كبيرا بين بريطانيا العظمى و روسيا القيصرية فيما كان يسمى "اللعبة الكبرى (le Grand Jeu)".<sup>3</sup>

<sup>1</sup> Pierre Chuvin, *op.cit.*, p.70.

<sup>2</sup> Svetlana Gorshenina, *Asie centrale: L'invention des frontières et l'héritage russo-soviétique*, Paris: CNRS editions, 2012, p.43.

<sup>3</sup> Hélène Carrère d'Encauss, *L'Empire d'Eurasie, op.cit.*, p.110.

إنّ وصول روسيا إلى حدود إيران و أفغانستان الشمالية ، شكّل تحدياً لبريطانيا مماثلاً لاحتلال روسيا مولدافيا و فلادافيا سنة 1854، و كان ممهداً لحرب القرم، باعتبار أنّ بريطانيا كانت تتخوف من عودة الطموحات الروسية السابقة. فلقد كان احتلال الهند مشروعاً راود الإمبراطورة كاترين الثانية في نهاية القرن الثامن عشر و القياصرة الذين جاءوا بعدها، لكن الهزيمة في حرب القرم جعلتهم يتراجعون عنه، و تم تعويضه باحتلال آسيا الوسطى.

و بالمقابل، فقد شكّل التواجد البريطاني في أفغانستان و الهند و إيران دافعاً لروسيا لملاً الفراغ الذي كانت تمثله آسيا الوسطى، فتخوف الطرفين من نوايا بعضهما البعض جعلهما تمتدان جغرافياً إلى أقصى حدود ممكنة، و إلى غاية وصولهما إلى نقطة التماس، وبالتالي فالخوف من وقوع صراع شامل في المنطقة، جعلهما يتفقان على الحدود الفاصلة بينهما و اعتبار أفغانستان دولة عازلة (Etat Tampon).<sup>1</sup>

شكلت "اللعبة الكبرى" أوضح صورة للتصورات الجيوسياسية لكل من بريطانيا العظمى و روسيا القيصرية، بل تعتبر أهم نموذج يشرح أطروحة الجيوسياسي البريطاني هالفورد ماكيندر H.Mckinder و التي عرضها في محاضراته أمام الجمعية الملكية للجغرافية في جانفي 1904، موضحاً فيها أهمية العمق الأوروبي و ضرورة التحكم فيه، فبالنسبة لبريطانيا لم يكن من المقبول تماماً السماح لروسيا أن تستمر في حملتها التوسعية بحيث تصبح قادرة على التضييق على الطرق و المعابر التجارية المؤدية إلى شبه الجزيرة الهندية.

فبريطانيا أسست أكبر إمبراطورية تجارية على مر التاريخ بفضل سياستها التوسعية القائمة على السيطرة و التحكم في الطرق التجارية و يظهر ذلك من خلال احتلال منطقة جبل طارق، (إلى غاية

---

<sup>1</sup> Ibid. p.111.

اليوم)، احتلال قبرص و مالطة، فلسطين، الأردن، العراق، إمارات الخليج ( التي شكلها البريطانيون من عدم كالإمارات و الكويت ..الخ) مروراً إلى بلاد فارس و أفغانستان ثم شبه الجزيرة الهندية.<sup>1</sup>

و من هذا المنطلق تصبح "اللعبة الكبرى" إحدى أهم محطات توسع روسيا القيصرية في آسيا الوسطى و مؤشراً للحد المسموح به لها دولياً ، على اعتبار أنّ رفض بريطانيا لوصول القوات الروسية إلى بلاد فارس و أفغانستان هو رفض لبلوغ روسيا لمناطق نفوذها، تماماً مثلما سترفض الولايات المتحدة الأمريكية اجتياح القوات السوفييتية للأراضي الأفغانية و التي كانت بداية لما يسمى الحرب الباردة الثانية التي ساهمت في التعجيل بانتهاء الإمبراطورية الروسية-السوفييتية، و هو ما يؤكد على وجود ثابت جيوسياسي في السياسة الدولية يتجاوز الاعتبارات الإيديولوجية البارزة أثناء الحرب الباردة ( باعتبار أنّ اللعبة الكبرى لم تكن تحتل تفسيراً إيديولوجياً، لأن توازن القوى بين القوى الكبرى الخمسة في القرن التاسع عشر كان بسيطاً جداً أو ألياً بحيث تنشأ التحالفات و تتوقف لمنع هيمنة إحدى القوى على بقية القوى).

#### المطلب الرابع: السياسة العرقية الروسية في الفترة القيصرية.

ارتبط التاريخ الروسي بالعالم الإسلامي منذ قيام الخانيات التترية المغولية ببسط هيمنتها على الإمارات الروسية لقرون طويلة، و لكنه وابتداءً من 1480 ، أي السنة التي رفضت فيها إمارة موسكو دفع الضريبة (أو الجزية) للخانية التترية (المغولية) ، و سنة 1552 ذكرى غزو جيوش إيفان الرابع ( إيفان الرهيب) لمدينة قازان عاصمة الجوزة الذهبية (la Horde d'Or) ، تحولت العلاقة بين الطرفين رأساً على عقب، ليصبح الروس يمثلون الطرف القوي في المعادلة.

<sup>1</sup> Jean-Claude Lambelet, " L'expansion britannique en Inde" [www.hec.unil.ch/jlambelet/groupe10\\_inde.doc](http://www.hec.unil.ch/jlambelet/groupe10_inde.doc). consulté le 12/5/2012.

و كما أنّ الاستعمار الروسي يمثل نموذجا فريدا من نوعه، فإنّ علاقة الروس بالأقوام الأخرى و طريقة تسييرها قد شكّلت نوعا مختلفا هي كذلك، عن بقية السياسات القومية أو العرقية.

أدى التوسع الاستعماري الروسي في الأقاليم الجنوبية إلى ضم مجموعات بشرية جديدة إلى الكيان الضخم الذي تمثله روسيا القيصرية، التي وصلت مساحتها في بداية القرن العشرين إلى ما يقارب مساحة الاتحاد السوفييتي فيما بعد و التي تجاوزت 22 مليون كم مربع.

لكن ما يميز المجموعات البشرية الجديدة، هو اختلافها الجذري عن الشعوب السلافية الأوروبية عامة و الشعب الروسي على وجه التحديد، بحيث مس هذا الاختلاف جميع النواحي، فمن الناحية الدينية كان التباين واضحا بين الروس المسيحيين و المعتزّين بكنيستهم الأرثوذكسية التي تشكّل جوهر هويتهم و بين سكان الجنوب الآسيوي الذين يدينون بالإسلام و يفتخرون بماضيهم العريق و بانتساب كثير من أعظم علماء الإسلام الى هذا الحيز الجغرافي، أما من الناحية الاجتماعية و أنماط الإنتاج فليس هناك ما يجمع شعوب آسيا الوسطى والقوقاز بالشعوب الأوروبية سواء منها الشعوب البدوية في السهوب و الصحاري أو الشعوب الزراعية في قلب آسيا الوسطى.

و في الوقت الذي راح فيه الاستعمار الروسي يضاعف جهوده في ربط مركز الإمبراطورية بأقاليمها الطرفية بشبكة طويلة من السكة الحديد لتسهيل عملية إدارة مستعمراته، برزت لدى الحكومة المركزية قناعة تمثلت في ضرورة أن تكون عملية الإدماج عملية متكاملة لا تقتصر على العنصر العسكري و الاقتصادي، فبدون سياسة محكمة يراعى فيها البعد الثقافي و الحضاري، لن تتمكن روسيا من السيطرة و التحكم في كل هذه الأقاليم الشاسعة.<sup>1</sup>

<sup>1</sup> Hélène Carrère d'Encausse, "La politique culturelle du pouvoir tsariste au Turkestan", *Cahiers du monde russe et soviétique*, vol.3, n.3, 1962, p.375.

قامت السلطة القيصريّة بإخضاع إقليم آسيا الوسطى أو تركستان إلى سياسة استعماريّة قائمة على التقسيم و التفرقة متبنية المبدأ الاستعماري الانجليزي " فرق تسد (divid and rule) " ، لكن هذه السياسة ما كانت لتنجح دون الاستناد إلى جملة من الأدوات و العوامل، فلقد تضافرت جهود العسكر و الساسة بجهود المستشرقين و علماء اللغة و الجغرافيا.<sup>1</sup>

فمن خلال مجموعة من التصريحات و المنشورات الخاصة ببعض القائمين على سياسة الاستعمار الروسي و إدماج الشعوب الجديدة في البوتقة الروسية، تتكشف لنا طبيعة هذه السياسات التي تبعت الحملة العسكريّة، فبالنسبة لفلاديمير لامونسكي V.Lamanskij استطاعت الحملة العسكريّة الروسية من إيصال أنوار الحضارة إلى المنطقة وأنه من وجهة نظر جغرافيّة، اثولوجيّة و تاريخيّة-ثقافيّة لن يكون هناك فرق بين أطراف الإمبراطوريّة (la périphérie) ما دام هناك حضور قوي للمهمة الحضاريّة الروسيّة (présence civilisatrice russe).<sup>2</sup>

و يذهب لامونسكي إلى أنّ إستراتيجيّة الإدماج التدريجي لا بد أن تنطلق من المستوى الاقتصادي ثم الإداري لتصل إلى المستوى الثقافي و الاجتماعي، وذلك بالاستعانة بالخبز المحليّة القابلة و القدرة على استيعاب الثقافة الروسيّة ، و أنه في الأخير ستتبنى شعوب المنطقة الهويّة الروسيّة ( هويّة المسيطر) و أن محصلة هذه السياسة ابتعاد شعوب آسيا الوسطى عن فضائها الحضاري السابق ، أي إنّها ستصبح متميزة عن المجتمعات القاطنة في دول الجوار (إيران ، أفغانستان، الدولة العثمانيّة ) حتى و إن اشتركت معها في اللغة و الدين و القوميّة أحياناً، لأنه لن يتبقى لشعوب آسيا الوسطى في المستقبل (حسب لامونسكي دائماً) إلا ميراث ضئيل من ثقافتهم القديمة.<sup>3</sup>

<sup>1</sup> Sergey Abasin, "Les Sartes ,un peuple d'avenir: L'ethnographie et l'Empire au Turkestan russe", trad: Vanessa Balci, n.17/18,2009, p.353.

<sup>2</sup> Svetlana Gorshenina, *Asie centrale:L'invention des frontières et l'héritage russo-soviétique*, Paris: CNRS Editions, 2012,p.67.

<sup>3</sup> *Ibid.* p.67.

و بالرغم من أنّ علم الأجناس و الانتروبولوجيا كانا في بدايات تأسيسهما في الجامعات الروسية ، إلا أن السلطات القيصريّة استطاعت أن تصوغ سياسة عرقية لا تقل خطورة عن السياسات الاستعمارية الفرنسية و الانجليزية، محاولة البحث في مكان الفروق و التمايزات الموجودة بين مختلف شعوب آسيا الوسطى، وكان الهدف الأول هو تكسير الولاءات و الانتماءات فوق العرقية (supra-ethnique) سواء كانت دينية ( الوحدة الإسلامية panislamisme ) أو قومية جامعة ( و حدة الشعوب التركية panturquisme )<sup>1</sup>.

إن تقسيم المستعمرة الجديدة المسماة محافظة تركستان ( Gouvernorat du Grand Turkestan ) و اعتماد أنماط تسيير مختلفة للأقاليم الحضريّة أي المناطق التي يقطنها سكان المدن و المزارعون ، وهم المستقرون (sédentaires) و بين الأقاليم السهبية التي يقطنها البدو الرحل (nomades) ، و إن كان له اعتبارات تقنية و فنية ترتبط بتهيئة الإقليم و إدارته ، إلا أن الدافع الأكبر هو سياسي إيديولوجي (أنظر الشكل الثاني)

---

<sup>1</sup> Carole Reynaud-Paligot, *De l'Identité Nationale: Science, race et politique en Europe et aux Etats-Unis XIX-XX siècle*, Paris: PUF, 2011, p.48.

## الشكل رقم 2: التقسيم الاستعماري لأقاليم آسيا الوسطى

( الخريطة تضم محافظة تركستان و السهوب و محميات خيوة و بخارى قبل ضمهما الكلي للقيصرية لاحقاً).



المصدر: Julien Thorez, " Les nouvelles frontières de l'Asie centrale", [www.cybergeogeo.revue.org/23707](http://www.cybergeogeo.revue.org/23707) (consulté le 26/04/2012)

و لتمييز سكان المنطقة عن بعضهم البعض قامت الإدارة الاستعمارية باستحداث مسميات جديدة لشعوبها بحيث أصبح يطلق على سكان الحواضر المستقرين تسمية " les Sartes السارت " في حين تم تسمية الشعوب البدوية جميعها بالقرغيز دون أدنى تمييز بين القيرغيز و الكازاخ .

و من خلال هذا التصنيف العرقي (catégorisation ethnique) فقد أراد الروس بناء فضاءين ثقافيين مستقلين و متميزين ، الفضاء الأول خاص بالسارت و الذي يظهر فيه التأثير القوي للدين الإسلامي واضحا باعتباره مركزا للحضارة الإسلامية ، حيث تشهد على ذلك حواضره كبخارى و سمرقند و خوارزم .

أما الفضاء الثاني فهو خاص بالقرغيز (Kirghizes) و هنا تظهر معالم الثقافة البدوية و التقاليد ما قبل الإسلامية بالنظر لحداثة انتشار الديانة الإسلامية في هذه المنطقة .

و لقد أعلن الحاكم العسكري لتركستان V. Kaufmann صراحة أن الهدف من هذا التمييز و الفصل هو تحقيق الاستقرار و الولاء لروسيا القيصرية في الفضاء الأول أي بلاد السارت بينما يتعدى الهدف في الفضاء الثاني هذا المستوى ليكون حسب هذا الحاكم العسكري يصبو إلى تنصير و إدماج البدو في المجتمع الروسي الأرثوذكسي.<sup>1</sup>

استلهم الحكم القيصري سياساته العرقية من النماذج الاستعمارية الغربية ، لتجذير الاختلافات الثقافية التي لمسها في شعوب آسيا الوسطى و قام بتحويلها الى واقع ممأسس (institutionnalisé) حيث يقول في هذا الصدد Sergey Abasin " قام الحكم القيصري باختلاق (de toutes pièces) قبائل و شعوبا و أعطاهم أسماء و ألقابا و منحها شخصية ، و حدد لها لغاتها و تقاليدها مستعلا الإحصاء، الخرائط و المتاحف"<sup>2</sup>.

وعرفت الأنثروبولوجيا صعوبة كبيرة في فرض نفسها كفرع علمي مستقل في الجامعات الروسية بسبب تردد المجتمع الأكاديمي بالاعتراف بهذا العلم الجديد، لأنه لم يكن قادرا أو راغبا، في بادئ

<sup>1</sup> Sergey Abasin, *op.cit.*p. 356.

<sup>2</sup> *Ibidem*.

الأمر، على تحمل تبعات هذا الاعتراف، خاصة إذا نظرنا إلى الأنثروبولوجيا، في ذلك الوقت، كرافد من روافد الداروينية التي فرضت نفسها في تلك الفترة في أوروبا الغربية، بل إن مؤسس الأنثروبولوجيا في روسيا Bogdanov كان داروينيا هو كذلك.<sup>1</sup>

و بالرغم من ذلك فلقد لقي هذا العلم فيما بعد، دعما قويا من قبل السلطات القيصريّة و إن كان تحت مسمى مختلف و هو الاثنوغرافيا (l'ethnographie) ( و هي التسمية التي لازمت هذا العلم في المرحلة السوفييتية) و ذلك لأن السلطات القيصريّة أدركت - و إن كان ذلك متأخرا-أنها لا تستطيع تحقيق سياسة استعمارية ناجحة بدون سياسة عرقية واضحة المعالم و الأهداف.<sup>2</sup>

و جاء الإحصاء العام الذي أجرته السلطات القيصريّة سنة 1897 كمحطة أساسية في مسار تكيف الاستعمار الروسي مع متطلبات العصر الحديث ( أي عدم الاعتماد على القمع و العنف كوسائل وحيدة للسيطرة على شعوب الإمبراطورية الروسية) بحيث ثم استصدار قاموس أبجدي مباشرة بعد الإحصاء يحتوي على 230 مسمى اثني (désignations ethniques) الهدف منه جعل كل شعوب الإمبراطورية ممثلة وفق الاعتبار العرقي و هو ما مس بالضرورة شعوب آسيا الوسطى كذلك.<sup>3</sup>

كما امتدت السياسة العرقية الروسية لمجال التعليم، حيث استغلت السلطات الروسية أحداث بخارى سنة 1910 للتضييق على نشاط المؤسسات التعليمية التي أسسها المدرسون التتار في آسيا الوسطى و ذلك بإصدار قوانين تجعل تدريس التلاميذ مقتصرًا على أشخاص ينتمون إلى العرق نفسه ( أي أن الأزيكي يدرس الأزيكي و الطاجيكي يدرس الطاجيكي ..الخ) وهي قوانين وضعت أساسا لتحجيم دور

<sup>1</sup> Carole Reynaud-Paligot, *op.cit.*, p.44.

<sup>2</sup> *Ibid.* p.44.

<sup>3</sup> *Ibid.* p.48.

حركة التجديد التي قادها التتار بالدرجة الأولى و محاولة ترجيح التمايزات العرقية ( ethnicisation )  
على حساب الهوية القومية التركية الجامعة.<sup>1</sup>

لكن المشكلة الأساسية تتمثل في كون شعوب آسيا الوسطى لم تعرف قبل هذه المرحلة ظهور حركات  
عرقية أصيلة كما حدث لدى شعوب أخرى كالأرمن و الأوكرانيين أو الجورجيين ، بل ظل ارتباطهم  
بهويات جامعة كالوحدة الإسلامية أو القومية التركية، و لهذا يمكننا اعتبار السياسة العرقية الروسية في  
المنطقة متميزة عن غيرها من الأقاليم السوفييتية.

---

<sup>1</sup> Hélène Bertheleu, "Sens et usages de "l'ethnicisation", Le regard majoritaire sur les rapports sociaux ethniques", Revue *Européenne Des Migrations Internationales*, vol.23, n.2, 2007, p.65.

## المبحث الثاني: المقاربة البلشفية للمسألة القومية ( جذورها و تطورها )

يعتبر الاتحاد السوفييتي مخبرا حيا ( in vivo ) و نموذجيا لعلماء الأنثروبولوجيا و الاجتماع السياسي و هذا لعدة أسباب، فالاتحاد السوفييتي هو تجميع لأجناس و أعراق عديدة تختلف كثيرا عن بعضها البعض، و بالرغم من ذلك حاول مهندسو المشروع السوفييتي، ابتداء بـ لينين و ستالين أن يوائموا بين جميع عناصره لإنتاج كائن سوفييتي جديد (l'homo-soviéticus) يختلف عن العناصر المكونة له و يتجاوز انتماءاتها و هوياتها السابقة، باعتبارها هويات رجعية و متخلفة لا تتناسب حسبها مع طبيعة المرحلة الجديدة.

كما تعتبر هذه التجربة نموذجية لكونها أول تجربة سياسية حاولت أن تنطلق من عقيدة ماركسية و أن تتبناها كمرجعية وحيدة، فكل الحياة السياسية و الثقافية بما في ذلك العلوم الإنسانية كانت في الفترة السوفييتية مرتبطة بمذهب محدد بحيث أصبح كل البناءات النظرية و البحوث التطبيقية تتبنى إطارا مفاهيميا و مرجعيا واحدا.

و سواء أكان هذا الأمر يعبر حقيقة عن مشروع ماركسي أصيل أو كان محاولة لإضفاء طابع ماركسي لممارسات و قرارات براغماتية ( قد تختلف في جوهرها عن الطرح الماركسي) فمن غير الممكن تجاهل العمق الماركسي في فهم و تسيير المسألة العرقية و القومية لدى الحكومات السوفييتية المتعاقبة.

و هو ما يفرض علينا أن نفصل أكثر في المقاربة الماركسية للظاهرة العرقية، باعتبار العرض الموجز لهذه المقاربة في الفصل الأول لا يوفّيها حقها من جهة، و لا يمكننا من فهم تأثير الماركسية كمنهج و كمذهب فلسفي في السياسة العرقية السوفييتية.

## المطلب الأول: الإرث الماركسي (ماركس و انجلز).

لا ينطلق الماركسيون من إنكار وجود حقيقة قائمة بذاتها ، هي الأمة ، و حتى و إن كانت تعبر عن وعي زائف (fausse conscience) مقابل الوعي الحقيقي و الفعلي الذي يعبر عنه الوعي الطبقي (conscience de classe) فإن ذلك لا ينفي أنها من أهم الظواهر السياسية و الاجتماعية التي أنتجت المرحلة الرأسمالية، و ما دامت هذه الظاهرة هي ظاهرة طارئة أي ليست بالقديمة ، فمن الطبيعي أن تبحث الماركسية في الظروف و الشروط الموضوعية التي أدت إلى نشأتها و المنطق الذي يحركها و فق تصور مادي تاريخي، يحاول كذلك التماس التطورات الكفيلة بخلق واقع دولي يتجاوز مرحلة الدولة- الأمة و العبور إلى مرحلة أممية جديدة. على الأقل هذا ما يمثل بداية التحليل الماركسي في أبسط صورته.<sup>1</sup>

غير أن الحقيقة التي يجب الانطلاق منها، هي صعوبة إيجاد نظرية ماركسية متكاملة حول ظاهرة الأمة، و لعل هذا ما جعل الماركسيين فيما بعد ينقسمون إلى مدارس متعددة أهمها المدرسة النمساوية و المدرسة الروسية، بالرغم من ادعاء كل طرف أنه يمثل أو يحافظ على المرجعية الماركسية الأصلية أو الأصلية.

و قبل الحديث عن فهم ماركس و انجلز للظاهرة القومية، لا بد أن نؤكد على أن النزعات القومية في أوروبا لم تصل الى مرحلتها المتطرفة إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ( القومية الايطالية و القومية الألمانية كأحسن الأمثلة)، و بالتالي فماركس و الاشتراكيون عموما توجب عليهم أن يعيدوا دمج هذا المعطى الجديد في فهمهم و تصورهم للتطورات السياسية و الاجتماعية.

---

<sup>1</sup> Michel Cahen, "Vrai débat pour fausse conscience: Pour une approche marxiste de l'ethnicité", Revue internationale de la politique comparée, vol.4. n.1, Avril1997, p.167.

لم تخلُ كتابات و مراسلات ماركس و انجلز من إبداء الآراء حول مختلف القضايا و الصراعات القومية التي عرفها العالم في القرن التاسع عشر، لكن الصعوبة كانت تكمن في ربط تصاعد المد القومي بالتطور الهائل لوسائل الإنتاج، خاصة إذا علمنا أن هذا المد انتشر في مجتمعات و مناطق كثيرة من أوروبا لم تعرف بالضرورة حركة تصنيع واسعة.

و أمام الانتشار السريع للحركة القومية، كان لزاما على ماركس و انجلز أن يحددا موقفهما منها بحيث يزيل اللبس العالق حسبهما حول نظرة الشيوعية للأمة و القومية، و هو ما يظهر جليا في البيان الشيوعي الذي صدر في أعقاب الثورات الاجتماعية التي هزت أوروبا سنة 1848، إذ أن خصوم الشيوعية حسب الكاتبين يتهمونها بمعاداة الوطن و القومية : " و فوق ذلك يُتَّهَمُ الشيوعيون بأنهم يريدون إلغاء الوطن و القومية، فالعمال لا وطن لهم ، فلا يمكن أن يسلب منهم ما لا يملكونه"<sup>1</sup>.

و هنا يريد ماركس و انجلز أن يكونا واقعيين و لا ينجرا وراء النداءات التي تريد حرق المراحل الثورية دون أدنى اعتبار لطبيعة كل مرحلة حيث يظهر التوضيح في البيان مباشرة " و بما أنه ينبغي على البروليتاريا أن تستولي، أولا، على السلطة السياسية، و أن تنصب نفسها طبقة "قومية" و أن تتأسس كأمة ، فإنها لا تزال وطنية، لكن ليس قطعا بالمعنى البورجوازي للكلمة"<sup>2</sup>

و لم يبلغ كل من ماركس و انجلز الدور الثوري الذي تؤديه البورجوازية في التخفيف من وطأة النزعات القومية " فمع نمو البورجوازية مع حرية التجارة، مع السوق العالمية، مع التماثل في الإنتاج الصناعي و الأوضاع الحياتية الملائمة لذلك، تزول الفواصل القومية و التناقضات بين الشعوب أكثر فأكثر"<sup>3</sup>

<sup>1</sup> Karl Marx et Friederich Engels, *Le manifeste du parti communiste*, ([www.marxists.org/francais/marx/works/1847/00/kmfe18470000b.htm](http://www.marxists.org/francais/marx/works/1847/00/kmfe18470000b.htm)) consulté le 12/10/2013.

<sup>2</sup> Ibidem.

<sup>3</sup> Ibidem.

لكنهما يقران فيما بعد أن الدور الأكبر سيكون للبروليتاريا و ليس للبورجوازية: " و سيطرة البروليتاريا  
تزيلها (أي الفواصل القومية) أكثر فأكثر، و عمل البروليتاريا الموحد، في البلدان المتحضرة على  
الأقل، هو أحد الشروط الأولية لتحررها و بقدر ما يقضي على استغلال الفرد للفرد، يقضي على  
استغلال أمة لأمة أخرى، و مع زوال التناحر بين الطبقات داخل الأمة يزول موقف العداء بين الأمم" <sup>1</sup>

لقد حفلت مراسلات كارل ماركس و انجلز بآراء و تحاليل حول مختلف الصراعات القومية التي  
شهدتها أوروبا في تلك الفترة ( النصف الثاني من القرن التاسع عشر) و لقد حاول الماركسيون فهم  
مواقفهما استنادا إلى مرجعيتهما الأساسية أي المادية التاريخية، بالاعتماد على أمرين أساسيين هما تأثير  
قوى و وسائل الإنتاج على علاقات الإنتاج السائدة و مبدأ التطور التاريخي الحتمي، و هما العنصران  
الذان يميزان الماركسية عن بقية المدارس الاشتراكية ، و لهذا السبب لم ينف ماركس الدور الايجابي  
للبورجوازية كمرحلة تاريخية ممهدة للحالة الاشتراكية. <sup>2</sup>

هذه المرجعية الواضحة جعلت ماركس يتميز عن الفيلسوف الفوضوي باكونين في مسألة حق تقرير  
الشعوب لمصيرها، فبينما اعتبره هذا الأخير حقا مطلقا، أخضعه ماركس لمبدأ " التقدم الحضاري"، فلقد  
اعتبر ماركس أفكار باكونين طوباوية أو لنقل رومانسية تفنقر إلى العمق و إلى الأساس العلمي المدرك  
لقوانين المادة و التطور التاريخي، بينما كان الانطباع أن الصراع بين الفيلسوفين يرجع لأسباب شخصية  
أو لكره ماركس الكامن و احتقاره لكل ما هو روسي (russophobia) ، خاصة أن مواقف ماركس كانت  
دائما معارضة للسياسة القومية و التوسع الروسي. <sup>3</sup>

و في هذه النقطة بالذات كانت مواقف ماركس تبدو للكثيرين مدعمة للاضطهاد القومي و لسيطرة أمة  
على الأمم الأخرى، لكن الحقيقة أن ماركس و انجلز لم يخفيا مشاعر التضامن مع الأمم المضطهدة ،  
و السؤال المطروح بالنسبة لهما كان: هل من الضروري مساندة حركات التحرر القومي دون الأخذ بعين

<sup>1</sup> Ibidem.

<sup>2</sup> Maurice Barbier, *La pensée politique de Karl Marx*, Paris: L'Harmattan, 1992, p.310.

<sup>3</sup> Ibid. p.312.

الاعتبار عوامل التطور المادي ، و عندما عبر ماركس و انجلز عن تحيزهما ضد السلوك القومي للشعوب السلافية الصغيرة ، و أحيانا ضد الشعوب السلافية ذاتها، فإنهما لم يفعلا ذلك لصالح القومية الألمانية أو إيديولوجيات القومية عند الأمم المتقدمة الأخرى بل لأنهما لم يعتبرا هذه الحركات قادرة على تهيئة الظروف المواتية لتحررها الحقيقي.<sup>1</sup>

و خلال مسيرتهما ظل الموقف من تأييد المبدأ القائم على تأييد الطرف الذي يدفع الأمور الى الأمام أي الممهد للشروط الموضوعية للتقدم المادي هو المحدد الأساسي لكل مواقف ماركس و انجلز ، حتى و لو كان ذلك يؤدي الى تأييد سياسات استعمارية متوحشة كالاستعمار الفرنسي للجزائر أو وسط و جنوب آسيا، فهي في المحصلة وقائع لا بد منها لغرض التقدم.

إنّ ما يوضح رؤية ماركس و انجلز للظاهرة القومية هو تركيزهما على الأمم العظمى الموحدة ( grandes nations unifiées ) كإنجلترا و فرنسا أو دول قطعت أشواطاً كبيرة في مسار التوحيد و القضاء على التمايزات الجهوية كإيطاليا و ألمانيا و هي الدول التي عرفت في نفس الوقت تطوراً صناعياً كبيراً.<sup>2</sup>

و عندما صرح كل من ماركس و انجلز في البيان الشيوعي بأن العمال لا يملكون وطناً كانا في هذا الموضع يعبران عن استلاب يعاني منه العمال أكثر من كونه برنامجاً أو موقفاً يتوجب عليهما اتخاذه. فأقر كلاهما أن الديمقراطية بمفهومها البورجوازي هي مرحلة ضرورية ممهدة للثورة الاشتراكية ضمن إطارها الطبيعي أي الدولة-القومية، و لهذا السبب فالبروليتاريا كذلك، لا بد أن تتأسس قومياً أي في إطار الدولة القومية، قبل أن تتطور و تتحول إلى المستوى الأرقى أي الأممية البروليتارية.<sup>3</sup>

<sup>1</sup> Hélène Carrère d'Encausse, "Communisme et nationalisme", Revue *française de science politique*, 1995, vol.15, n.3, p.486.

<sup>2</sup> *Ibid.* p.484.

<sup>3</sup> *Ibid.* p.486.

إنّ تباين مواقف ماركس من القضايا القومية التي عرفتها أوروبا، و مناصرته لبعضها دون الأخرى أدى إلى وجود اختلاف و تمايز في المدارس الماركسية عند تناولها للظاهرة القومية، و هذا بالرغم من وضوح المبدأ الذي وجّه مواقف كارل ماركس أي مساندة القوى الفاعلة و الحية القادرة على إحداث نقلة ثورية، فهو ساند الألمان على حساب الدانماركيين في صراعهما على مقاطعة شلزويج على اعتبار الدانمارك دولة إقطاعية شبه متحضرة (semi civilisée) بينما ألمانيا دولة رأسمالية مصنعة، و ساند بولونيا على القيصريّة الروسية بالرغم من تخلف الشعب البولوني لأنه كان يعتقد أن روسيا هي الدولة الأكثر تخلفا و رجعية في أوروبا.<sup>1</sup>

و ابتداء من ستينيات القرن التاسع عشر عرفت مواقف ماركس فيما يخصّ المسائل القومية المطروحة في أوروبا بعض التحول، و يظهر ذلك في المؤتمر الأول للأممية الاشتراكية المنعقد سنة 1864 و الذي كانت أهم بنوده دعم الثورة البولونية ، فأصبح ماركس و انجلز مهتمين أكثر بالحركات القومية مع التأكيد على وجوب عدم التفريق بين مختلف أشكال الاضطهاد، و استحالة أن تتخلّص البروليتاريا في الدول المتقدمة من الاضطهاد إن هي قبلت باضطهاد شعوب أخرى من قبل دولها، فالأممية شكلت منعرجا جديدا يدعو للتضامن العالمي تجاوز فيه كل من ماركس و انجلز إطارهما النظري الضيق.<sup>2</sup>

و برز هذا التحول بصورة أوضح في المسألة الايرلندية، حيث كان موقف ماركس و انجلز تجاههما سلبيا في الأول ، لكن ماركس سرعان ما صرّح بأنّ استقلال ايرلندا الذي كان يبدو له مستحيلا أصبح حتميا، بل إن مسار تحرر البروليتاريا في انجلترا يبدأ من ايرلندا، على اعتبار الاستعمار الانجليزي قد يدفع بالعمالة الايرلندية الفقيرة إلى الهجرة للعمل في المصانع الانجليزية بأجور أدنى مما يؤدي الى ظهور نوع جديد من الصراع بين العمال الانجليز و الايرلنديين و لتتحول القضية من صراع بين الطبقات إلى صراع عرقي أو قومي لا يخدم الطرفين، و يظهر ذلك في ما كتبه ماركس حول هذه القضية:

<sup>1</sup> Maurice Barbier, *La pensée politique de Karl Marx, op.cit.*, p. 307.

<sup>2</sup> Hélène Carrère d'Encausse, *"Communisme et nationalisme"*, op.cit., p.470.

"كل مركز صناعي وتجاري في إنجلترا لديه طبقة عاملة منقسمة إلى معسكرين متعادين، معسكر البروليتاريا الإنجليزية، ومعسكر البروليتاريا الأيرلندية. إن العامل الإنجليزي العادي يكره العامل الأيرلندي كمنافس يقلل من مستوى معيشته، وتجاه العمال الأيرلنديين يشعر العامل الإنجليزي أنه عضو في الأمة الحاكمة وبالتالي يحول نفسه إلى أداة في أيدي أرستقراطي ورأسمالي بلده ضد أيرلندا، ويقوي بالتالي سيطرتهم عليه هو نفسه، وهو يمثل بالأحقاد الدينية والاجتماعية والقومية ضد العامل الأيرلندي. أما الأيرلندي فهو يدفع له من نفس المال وبفائدة، فهو يرى العامل الإنجليزي متواطئا و أداة غبية في أيدي الحكم الإنجليزي في أيرلندا. ويتم الإبقاء على هذا التناقض بشكل مفتعل من خلال الصحافة والجرائد الساخرة وكل الأدوات الموجودة لدى الطبقة الحاكمة. إن هذا التناقض هو سر عجز الطبقة العاملة الإنجليزية بالرغم من تنظيمها، وهو سر قدرة الطبقة الرأسمالية على البقاء في السلطة، وهذه الطبقة واعية تماما بذلك."<sup>1</sup>

أصبحت مواقف ماركس و انجلز من المسائل القومية أكثر مرونة من السابق، و تكيفت أكثر مع الواقع ، فكل حالة لها خصائصها و مميزاتها و لا يمكن الحفاظ على نفس المواقف الصلبة و الثابتة، و هو ما جعل المفكرين الماركسيين الذين جاؤوا من بعد ماركس و انجلز يعجزون عن تقديم نظرية موحدة ، بل إنّ المسألة القومية كانت أكثر القضايا التي عززت الخلاف و التناحر بين مختلف المدارس الماركسية.<sup>2</sup>

إن أشهر المدارس التي جاءت بعد ماركس و انجلز نظرت للقومية من خلال نماذج معقدة عن تلك التي تناولها ماركس، فماركس كان يتعامل مع كيانات سياسية موحدة و متجانسة إلى أبعد الحدود، ونقصد بذلك فرنسا و إنجلترا، بينما اصطدمت أشهر المدارس التي جاءت بعده و هي المدرسة النمساوية ثم المدرسة الروسية بواقع معقد، فالنمسا و المجر و روسيا القيصرية إمبراطوريات متعددة الأعراق و القوميات، و محاولة تطويع المقاربة الماركسية في فهم المسألة القومية و طرق تسيرها شكّلت مدخلا جديدا عمّق الخلافات و التباينات بين مختلف الاتجاهات الماركسية، بالرغم من أن كل واحد منها كان يعتقد أو يريد أن يبرهن للآخرين أنه الأكثر التزاما و احتراما للمقاربة الماركسية.

<sup>1</sup>Kevin Anderson, "On The The Dialectics of Race and Class:Marx's Civil War Writing's, 150 Years Later", *The International Marxist-Humanist*, (October 21, 2011).

<sup>2</sup>Hélène Carrère d'Encausse , "*Communisme et nationalisme*" *op-cit*, p.471.

## المطلب الثاني: أهم النقاشات الماركسية حول المسألة القومية ( بعد ماركس).

عرفت النقاشات الكثيرة حول المسألة القومية سجالا كبيرا بين مختلف مفكري الماركسية، و تميز الماركسيون النمساويون عن غيرهم و بخاصة أوتو باور Otto Bauer و كارل كوتسكي Karl Kautsky ، فلقد عُدت منذ ذلك الحين مبحثا من مباحث الحركة الاشتراكية النمساوية على العموم و الحزب الاشتراكي الديمقراطي على وجه الخصوص، إذ يعتبر كتاب أوتو باور : مسألة القوميات و الديمقراطية-الاجتماعية ( الذي طبع أول مرة سنة 1907 ) أول دراسة علمية وافية قام بها مفكر ماركسي على الإطلاق.

اعترف أوتو باور بقوة الحس القومي و درسه كمسألة اجتماعية ليصل إلى تصور خاص للأمة باعتبارها مجموعة من الناس يربطهم مزاج أو طباع مشتركة ( communauté de caractère ) كما أن أفراد هذه الجماعة التي تسمى أمة هي جماعة لها مصير مشترك ( communauté de destin ) و هذا لا يعني حسب باور الخضوع بقدر ما يعني معايشة أفراد الجماعة لتجربة مشتركة<sup>1</sup>

لقد مال باور إلى إعطاء المسألة القومية استقلالية ما في برنامج الحركة الاشتراكية ، كما أكد على جانب الهوية الذاتي في تعريف القومية ( الإيمان، الذاكرة ..الخ)، كما عبّر عن تعاطفه مع نضال القوميات الصغيرة و ذلك بقدرته على تصور دولة متعددة القوميات، أي إمكانية قيام دول حديثة تتعايش فيها قوميات مختلفة، دون أن تتحول إلى قومية واحدة بحسب النموذج الفرنسي، أي أنه تعايش بين القوميات من خلال الاعتراف بها كقوميات من قبل الدولة ، فهو بذلك لم يحاول إلغاء الخصوصيات باعتبارها متأصلة و لا يمكن تجاوزها من خلال قومية مدنية تتعالى على الهوية و الثقافة ، وهذا ما يظهر لنا كم كانت الديمقراطية الاجتماعية النمساوية سباقة إلى طرح حلول للمشكلة القومية ، متجاوزة

<sup>1</sup>Otto Bauer, *La question des nationalités et la social démocratie*, (trad., Claudie Weill), Paris: Edi, 1987, p.120.

النماذج السابقة التي ترى أنه من الضروري أن تُخضع الدولة المركزية جميع الأطراف لتصور وحدوي يلغي التعدد.<sup>1</sup>

كما دعا باور إلى ضرورة حل المسألة القومية دون انتظار الثورة الاشتراكية، حتى في الدولة التي تعيش فيها القوميات متداخلة دون حدود واضحة ، و هو هنا يركّز على إمبراطورية النمسا و المجر باعتبارها الدولة التي حاولت فيها القوميات المكونة لها الانفصال أو الحصول على استقلال ذاتي و ثقافي عن القومية المسيطرة أي ألمان النمسا، و الحق يقال أنه لا يمكننا هنا إلا الاعتراف بريادة و أسبقية الحزب الاجتماعي الديمقراطي في طرح هذا المشكل و محاولة إيجاد حلول له قبل انفجاره و هو ما حصل بالفعل و كان سببا أساسيا في اندلاع الحرب العالمية الأولى.

شكلت مسألة الأقليات و تنظيم الحزب الاجتماعي الديمقراطي على أسس إقليمية كما طرحها الماركسيون النمساويون ، أهم قضية خلافية مع بقية الأحزاب الاشتراكية الأوروبية و هذا بالنظر إلى تباين الواقع المحلي في كل دولة.

ففي مؤتمره سنة 1897 قرر الحزب الاجتماعي الديمقراطي النمساوي إعادة تنظيم هياكله على أساس فيدرالي يضم ستة أحزاب مستقلة ( ألماني، تشيكي، بولوني، روثيني (ruthène)، إيطالي و يوغسلافي )، بل و صل الأمر في المؤتمر المنعقد في مدينة (Brünn) سنة 1897 إلى أن اقترحت اللجنة المركزية للحزب الاجتماعي الديمقراطي تقسيم الإمبراطورية النمساوية إلى مقاطعات و مناطق تتحدد وفق المعيار العرقي ( الحدود العرقية) حيث يكون العنصر أو العرق السائد داخل كل وحدة هو المحدد الأساسي للسياسية الثقافية و اللغوية للإقليم.<sup>2</sup>

<sup>1</sup> عزمي بشارة، مرجع سبق ذكره، ص. 227.

<sup>2</sup> Hélène Carrère d'Encauss, " Communisme et nationalisme", Revue *Française de sciences politique*, vol.15, N.3, 1965, p.471.

أطلق المنظرون الماركسيون النمساويون على هذا الاقتراح اسم "الاستقلال الذاتي القومي الثقافي الإقليمي" و بالرغم من أن الفكرة كانت في ذلك الوقت فكرة رائدة إلا أنها اصطدمت بتعقيد النموذج الإمبراطوري النمساوي ، فكان احتمال تطبيقها ضئيلا جدا، فالقوميات و العرقيات في النمسا و المجر كانت متداخلة جدا و تعيش في أغلب الأحيان في حيز جغرافي واحد ( imbrication ethnique ) بحيث يتعذر تحديد إقليم خاص لعرق معين، هذا ما جعل الأعضاء اليوغسلاف في المؤتمر يقدمون اقتراحا آخر لا يعتمد على التقسيم الإقليمي على معيار العرق و القومية ، و لكن على أساس قومي بحيث يقوم أفراد كل قومية بانتخاب هيئة تكون مسئولة عن السياسة الثقافية و اللغوية لقوميتها تحديدا.<sup>1</sup>

غير أن اللجنة المركزية للحزب الاجتماعي الديمقراطي النمساوي رفضت هذه الاقتراحات و رأت أن حل مشكلة القوميات يكمن في تبني نموذج لا مركزي مشابه لطريقة تنظيم الحزب ذاته.

لقد شكلت النقاشات العميقة داخل الحزب الاجتماعي الديمقراطي مادة خاما لمختلف منظري القومية الماركسيين، لأنها كانت تجمع ما بين النظرية الماركسية كإطار ثابت نسبيا و الممارسة الواقعية و المعقدة، بل يمكننا القول أنها هي التي مهدت لصياغة نظرية ماركسية عامة للقومية (لم يتأتّ لماركس و انجلز صياغتها) .

تفطن أوتو باور إلى مسألة مهمة لم ينتبه إليها سلفه، و هي أنه لا بد للماركسيين أن يدركوا حساسية الموقف ، بحيث يتوجب عليهم أن لا يتجاهلوا المسألة القومية و تعقيداتها، باعتبارها أصبحت واقعا يفرض نفسه. استطاع باور أن يضيف لتصور الماركسية للمسألة القومية مفاهيم لم تكن مطروحة لدى سابقه، و لعل أبرز هذه المفاهيم هو مفهوم الطابع أو السمة القومية (caractère nationale) والذي صاغه من اعتقاده بوجود تمايزات و اختلافات واضحة بين الأمم و دليله على ذلك أن كل قومية تتخذ ردود أفعال مختلفة تجاه نفس التحديات. لكن هذا المفهوم لقي معارضة واسعة من المنظرين الماركسيين

---

<sup>1</sup>Otto Bauer, *op.cit.*, p.363.

المعاصرين لباور ( Kautsky ، Pannekoek ، Strasser الخ..) لأنه يحمل مدلولاً ميتافيزيقياً يتعارض مع جوهر النظرية الماركسية أي المادية التاريخية.<sup>1</sup>

كما طرح باور مفهوماً آخر أحدث جدلاً لا يقل عن الأول، وهو " الثقافة القومية" وهو المفهوم الذي بنى عليه إستراتيجيته الخاصة التي سمّاها الاستقلال الذاتي القومي ( autonomie nationale ) و لكنّ الذي أثار عليه الماركسيين النمساويين هو إفراغ الثقافة القومية من أي بعد سياسي، و كأنها أي الثقافة ظاهرة أصلية جوهرية ( primordiale et essentielle ) و ليست منتجا صقلته الصراعات الاجتماعية، بل هو مفهوم ينكر حسب منتقديه وجود صراع طبقي يولّد بالضرورة ثقافات متناحرة و ليس ثقافة قومية واحدة لا تقبل التجزئة. لكن أوتو باور كان ينظر للمسألة القومية بنظرة مختلفة عن سابقيه و معاصريه و هي نظرة ذكية، فهو يعتقد أن تأجيج الصراعات القومية ستكون له نتائج وخيمة على الوعي الطبقي للبروليتاريا، فمن الأفضل أن لا تتفاقم هذه الصراعات إلى مستوى تصبح فيه القومية معطلا للصراع الطبقي لا دافعا له.<sup>2</sup>

و لهذا السبب اعتبر أوتو باور اعتماد المعيار الإقليمي ( territorialiste ) في التقسيم عاملاً مؤجّجا للنزعات القومية بشكل تتحول فيه القومية و التضامن القومي إلى وعي جماعي يتجاوز الوعي الطبقي، فانقسام الشعوب على أساس قومي بدل أن يكون على أساس طبقي هو ما لم يكن يريده أن يحدث حيث كتب ذلك صراحة " حل الشؤون القومية يجب أن يكون مَخولاً إلى أجهزة لا يمكنها منح أو سلب أي شيء للأُمم ، و بهذا يكون الشعب منقسماً داخل هذه الهيئات على أساس طبقي و ليس على أساس قومي، و بهذا يكون المجال مفتوحاً أمام الصراع الطبقي".<sup>3</sup>

<sup>1</sup>Georges Haupt, Michael Lowy et Claudie Weill, *Les marxistes et la question nationale (1848-1914)*, Paris: L'Harmattan, 1997, p.384.

<sup>2</sup> *Ibid.* p.384.

<sup>3</sup>Hélène Carrère d'Encausse, "Communisme et nationalisme", *op.cit*, p.478.

و بهذا لن يظهر الماركسيون بمظهر معاداة أو تجاهل مطالب الشعوب المقهورة ، و هي القاعدة التي سيستفيد منها كل من جاء بعد أوتو باور سواء في أوروبا أو في القارات الأخرى. لكن كارل كاوتسكي ، و على عكس أوتو باور كان يرى في استعمار الأمم الرأسمالية المتقدمة للأمم الأخرى عملية ضرورية متضمنة في التطور الرأسمالي و نمو السوق العالمية، فالدولة القومية هي شكل الدولة الذي ينسجم أكمل انسجام مع الظروف العصرية ، كما أنها الشكل الذي يتهياً لها فيه تأدية مهامها بأسهل ما يمكن.

ففي مقالة حول تأثير الصراعات القومية على البرنامج الاجتماعي الديمقراطي رأى كوتسكي أنّ هناك ثلاثة عوامل شكّلت جذور الفكرة المعاصرة للأمة التي رافقت نمو الدولة الحديثة في ربوع أوروبا قاطبة وهي أولاً: "حاجة البورجوازية و منتجي البضائع بشكل عام للسيطرة أو لضمان سوق داخلية ثانياً: "الطموح إلى الحرية السياسية و الديمقراطية و أخيراً: انتشار الثقافة الأدبية القومية لدى عامة الناس"<sup>1</sup>. و هذه الفكرة بالذات تتطابق إلى حد بعيد مع نظرية إرنست جلنر للقومية.

لكنّ هذا لم يمنع كاوتسكي من معارضة باور و اعتباره الأمم واقعا غير ثابت سيزول لا محالة نتيجة التطور الاقتصادي و التقني، و لهذا السبب رأى كوتسكي أن محاولات حصر المسألة القومية ضمن نظرية جامدة ( كما فعل باور حسب ) هو مناف تماما للروح الماركسية و للمادية التاريخية حسب زعمه، و لهذا فهو لا يرى في الحركات القومية أهمية إلا بقدر إسهامها في تحقيق الثورة العمالية ( تماما كما ينظر إليها فلاديمير لينين)<sup>2</sup>.

لقد نزع الماركسيون النمساويين إلى تفضيل العمل البرلماني على العمل الثوري و النضال العمالي و خاصة وقوفهم إلى جانب حكومة النمسا و المجر أثناء الحرب العالمية الأولى ممّا أدّى إلى فقدان

<sup>1</sup>Ibid. p.480

<sup>2</sup>Ibid. p.486.

الحزب الاجتماعي الديمقراطي النمساوي و مفكره الموقع الريادي الذي كانوا يحتلونه، لتظهر إلى السطح مقاربات ماركسية جديدة خارج النمسا، و على الخصوص في ألمانيا و روسيا.

أما في ألمانيا فلقد ساهمت آراء روزا لوكسمبورغ Rosa Luxembourg في إثراء النقاش الماركسي حول مسألة " **حق الشعوب في تقرير مصيرها**"، بحيث كانت المطالبة باستقلال بولونيا الفتيل الذي أشعل الخلاف بين روزا لوكسمبورغ و لينين حول مسألة القومية و حق تقرير المصير للشعوب و كانت بولونيا آنذاك تحت سيطرة القيصرية الروسية.

إذ فسرت روزا لوكسمبورغ انتشار القومية في أوروبا و ربطته بسياسات الدولة البورجوازية الراجعة في تحقيق أكبر قدر من المجانسة و التوحيد القومي و القضاء على الخصوصيات الثقافية و الجهوية:

" الدولة القومية، الوحدة و الاستقلال القومي، هذه هي الشعارات الإيديولوجية التي تأسست عليها الدول البورجوازية الكبرى في قلب أوروبا في القرن الماضي (تقصد القرن 19). فالرأسمالية تتعارض مع خصوصيات الدول الصغرى أي أنها ضد التشتت السياسي و الاقتصادي (émiettement politique et économique)، فلكي تنمو الرأسمالية و تزدهر، لا بد أن يتوفر لديها إقليم متماسك و ملتحم و يكون شاسعا قدر الإمكان ، و أن يكون هناك مستوى واحد من التقدم الحضاري. فبدون ذلك لا يمكننا تضخيم حاجيات و متطلبات المجتمع لتتوافق مع مستوى الإنتاج الرأسمالي ، و بدون ذلك أيضا لا يمكن تفعيل ميكانيزمات سيطرة البورجوازية الحديثة. فقبل أن تبسط شبكتها على العالم كله ، تتجه الرأسمالية إلى خلق إقليم موحد (d'un seul tenant) ضمن الحدود القومية للدولة"<sup>1</sup>

<sup>1</sup>Rosa Luxembourg, *La crise de la social-démocratie*, Bruxelles: La Taupe, 1970, p.177.

و لم تكن روزا لوكسمبورغ معارضة لتحرر البولونيين بقدر ما كانت ترى أن الحرية لا تتحقق إلا في المرحلة الاشتراكية: "بالنسبة للاشتراكي، ليس هناك أمة حرة، عندما يكون وجودها الوطني يعتمد على استعباد شعب آخر" و في مقام آخر تقول: "تعترف الاشتراكية الأممية بتمتع الأمم الحرة المستقلة بحقوق متساوية، إلا أن الاشتراكية هي وحدها القادرة على خلق مثل هذه الأمم و على ضمان حق تقرير المصير لهذه الشعوب، وشعار الاشتراكية هذا كسائر شعاراتها، ليس اعتذارا عن الظروف القائمة بل هو دليل عمل... فطالما بقيت هناك دولة رأسمالية، أي طالما أن سياسات العالم الرأسمالي هي التي تتحكم و تضبط الحياة الداخلية و الخارجية للأمة، فلن يكون هناك " حق تقرير مصير قومي" لا في الحرب و لا في السلام".<sup>1</sup>

لقد نبهت روزا لوكسمبورغ إلى خطورة الدعوات القومية بمختلف أشكالها على الثورة العمالية واعتبارها عاملا مهددا لتماسك مبدأ الأممية البروليتارية، فلقد كتبت مقالا موجزا انتقدت فيه مساهمة الأحزاب الاجتماعية الديمقراطية في أوروبا للسياسات البورجوازية و محاولة زعمائها و منظريها تسويق و تبرير الحراك القومي الحاصل بمبررات اتخذت شكلا ماركسيا ( la phraséologie marxiste ) لكنها مناقضة تماما لجوهر الماركسية " أمم و شبه أمم تعلن في كل مكان حقها في تشكيل دول، كأنها جثث متحللة تخرج من قبورها و شعوب بلا تاريخ ( لم تنتظم في شكل كيان سياسي قومي في السابق ) أصبحت تشعر برغبة عنيفة في أن تصبح لها دول. بولونيون، أوكرانيون، بيلوروس، ليتوانيون، تشيك، يوغسلاف، عشر أمم في القوقاز و الصهاينة يؤسسون في فلسطين الغيتو ( le gheto palestinien )... إنه ليل فالبورجيا ( La nuit de Walpurgis )"<sup>2</sup>

لم تكن روزا لوكسمبورغ تنتكر حقيقة التمايزات الثقافية و التاريخية و لكنها ترفض أن تكون مدخلا ( كما يريده القوميون ) لتفتيت و تقسيم الشعوب بحيث تصبح الطبقة البورجوازية في وضع مريح يسمح لها بالقضاء على الوعي الطبقي و من تم التضامن العمالي و استبداله بوعي آخر لا يصب في مصلحة العمال، فما كانت تريده لوكسمبورغ هو أن يكون التنوع ضمن إطاره الأممي العالمي .

<sup>1</sup> Rosa Luxembourg, *Œuvres*, T2, Paris: Maspero, 1978, p.74.

<sup>2</sup> *Ibid.* P.93.

و حتى و إن اعتبرت مواقف و أفكار روزا لوكسمبورغ متطرفة و طوباوية (utopique) حسب خصومها -لأنها ترفض الإقرار بقوة الفكرة القومية و ضرورة استغلالها تكتيكيا ، على الأقل، في سبيل الهدف الأول أي إنجاح الثورة البروليتارية- فإنّ طروحات روزا لوكسمبورغ حول القوميات و مسألة حق الشعوب في تقرير مصيرها تظلّ نقطة ارتكاز و انطلاق لمختلف الدراسات الماركسية التي جاءت بعدها، سواء أكانت مؤيدة أو كانت معارضة لها.<sup>1</sup>

بل إن الماركسيين الروس في العقدين الأولين من القرن العشرين ، كما صرح لينين في مقدمة كتابه "حول حق الأمم في تقرير مصيرها" اعتمدوا على المقال المطول " المسألة القومية و الحكم الذاتي" الذي كتبه أواخر سنة 1908 كمرجع أساسي لتفسير الظاهرة القومية و موقف الاشتراكيين الروس منها.<sup>2</sup>

### المطلب الثالث: الماركسية الروسية و المسألة القومية ( قبل ثورة 1917).

شهدت روسيا القيصرية مع نهاية القرن التاسع عشر و بداية القرن العشرين، موجة من المد القومي الواسع، فكان لزاما على الماركسيين الروس اتخاذ المواقف اللازمة تجاهها، لكنهم و على غرار زملائهم الماركسيين في النمسا و ألمانيا، وجدوا أنفسهم أمام معضلة رئيسية ، و هي القدرة على التوفيق بين مبادئ الماركسية الأممية و بين الطابع المحلي الضيق للنزعات القومية.

لم تكن مسألة حق تقرير الشعوب لمصيرها أمرا مستجدا بالنسبة للماركسيين الروس، فلقد تناولها الحزب الاجتماعي الديمقراطي العمالي لروسيا ( P.S.D.O.R ) في بيانه الأول سنة 1898 ، بل تكرر هذا المبدأ في أدبيات الحزب و لوائحه، و منها برنامج الحزب المعد سنة 1903

---

<sup>1</sup> مسعد عرييد، "روزا لوكسمبورغ: قراءة متجددة في سياق العولمة"، الحوار المتمدد،

([www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=103827](http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=103827))

<sup>2</sup>Vladimir Lénine, *Du droit des Nations à disposer d'elles-mêmes*, Moscou: Editions du PROGRES, 1981, p.6.

و بالرغم من تأكيد جميع الأطراف عليه ( سواء البلاشفة أو المناشفة bolcheviks et mencheviks و نقصد بهما الأغلبية و الأقلية) إلا أن لينين و أنصاره كانوا يرون أنه من الضروري أن يتميز الحزب الاجتماعي الديمقراطي الروسي في آرائه و مواقفه عن بقية الأحزاب و القوى داخل أو خارج روسيا القيصرية.

ففي سنة 1903 دار نقاش محتدم داخل الحزب الاجتماعي الديمقراطي بين لينين و بليخانوف Plékhanov ، فلقد أصر الأول على إدراج الصياغة الآتية " حق تقرير المصير لكل القوميات المكونة للدولة" في حين كان بليخانوف يريد أن تقتصر الصياغة على "روسيا القيصرية" و ليس الدولة ( بالملق) حتى لا يعمّم هذا المبدأ على أشكال أخرى من الدولة ، أي إنّ بليخانوف كان يريد من صياغته أن تحتفظ الدولة الاشتراكية بحرية أكبر و أن لا تنقيد بمبدأ قد يعوقها عن أداء مهامها في المستقبل. و لكنّ لينين ظل مصرا على رأيه و تمّ في الأخير اعتماد الصياغة التي كان قد اقترحها.<sup>1</sup>

لم تمنع إرادة التميز لدى الماركسيين الروس من اللجوء إلى نقاشات مؤتمر Brünn لسنة 1897 و الجهود التنظيرية للماركسيين النمساويين على وجه الخصوص ، بحيث أصبحت تشكل القاعدة الصلبة التي ينطلق منها الماركسيون الروس في تعاملهم مع المسألة القومية على غرار بقية الأحزاب الاشتراكية في العالم.<sup>2</sup>

لقد كان الوضع في روسيا القيصرية معقدا إلى درجات كبيرة، و لأن روسيا ليست دولة متجانسة بل هي خليط من القوميات و العرقيات و الديانات المختلفة، فكان من الطبيعي و البديهي أن تتأثر قيادات الحزب الاجتماعي الديمقراطي الروسي بما يفرضه كل هذا التعقيد من تحديات. و لقد تمثلت

<sup>1</sup> Hélène Carrère d'Encausse, "Communisme et nationalisme", op.cit., p.477.

<sup>2</sup> Ibid. p.478.

أولى هذه التحديات في رغبة قيادات فروع الحزب الممثلة للقوميات المختلفة في تفعيل مبدأ الاستقلال الذاتي لدى بعضها أو تحقيق الاستقلال التام عند البعض الآخر.

ظهرت أولى الخلافات داخل الحزب الاجتماعي الديمقراطي الروسي بسبب المطالب التي أعلنها اتحاد عمال يهود روسيا، بولونيا و ليتوانيا ( Bund ) الذي يعتبر أول منظمة اجتماعية- ديمقراطية في روسيا القيصرية و الذي تأسس سنة 1897 ( أي قبل الحزب الاجتماعي الديمقراطي الروسي الذي تأسس سنة 1898 ) ثم انضم إلى الحزب الاجتماعي الديمقراطي سنة 1898 كمنظمة تستقل بالمسائل الخاصة بالبروليتاريا اليهودية.

و في مؤتمر الحزب الاجتماعي الديمقراطي الروسي لسنة 1903 أصرّ اتحاد العمال اليهودي على استقلاله و أن يظل الممثل الوحيد للعمال اليهودية، لكن قيادات الحزب و على رأسهم لينين رفضوا هذا المطالب، لينسحب الاتحاد اليهودي من الحزب ليعود بعدها بثلاث سنوات إثر تسوية غامضة لم تحل المشكلة من جذورها، و اتحاد العمال اليهودي هو أول من رفع شعار " **الاستقلال الثقافي القومي (l'autonomie culturelle-nationale)** " حيث فتح الباب لانتشار المطالب التي طرحها الاتحاد اليهودي إلى قوميات أخرى كالليتوان les Lettons و القوقاز.<sup>1</sup>

لكنّ العناصر التي شكّلت التحدي الأكبر للحزب الاجتماعي الديمقراطي الروسي هم البولونيون، على اعتبار البولونيين الذين كانت روسيا القيصرية آنذاك تحتل مجمل أقاليمهم يختلفون عن القوميات الأخرى من حيث العدد و التاريخ القومي ذي الطابع الثوري، ليس فقط في روسيا القيصرية و لكن في ألمانيا كذلك. يضاف إلى ذلك أن البولونيين و على عكس الاتحاد اليهودي لعمال روسيا و بولونيا و ليتوانيا كانت مطالبهم إقليمية واضحة بينما لم يكن للاتحاد اليهودي أي مطالب إقليمية لا في روسيا و لا في غيرها بل كان الاتحاد معاديا للفكرة الصهيونية الناشئة و يعتبرها حركة رجعية و عنصرية.<sup>2</sup>

<sup>1</sup>Joseph Staline, *Le Marxisme et la question nationale et coloniale*, Paris, Editions Sociales, 1953, p.28.

<sup>2</sup>Vladimir Lénine, *Du droit des nations à disposer d'elles-mêmes*, Moscou: Éditions du PROGRES, 1981, p.89.

استشعر الماركسيون الروس الكثير من الحرج و الصعوبة في مجابهة التحدي الذي أفرزته مطالب الاشتراكيين البولونيين داخل الحزب الاجتماعي الديمقراطي الروسي، فالأدبيات الماركسية المنتشرة حافلة بمواقف ماركس المؤيدة للثورة القومية البولونية على القيصرية الروسية، و لهذا كان على منظري الحزب إقناع البولونيين أن يضعوا المصالح العليا للطبقة العمالية فوق المطالب القومية.

حيث أدت هذه المشاكل العملية بالمنظرين الروس إلى الاجتهاد أكثر و محاولة إيجاد إجابات و حلول آنية للمعضلة القومية دون التكرار لأسس و قواعد الماركسية، و هنا سيظهر بالضرورة جدل الممارسة و النظرية وتطابقهما و قدرة الماركسيين الروس على إيجاد مخرج في كل مرة ترتفع فيها مطالب قومية داخل الحزب.

لكنّ لينين أدرك أن الوقوف مع مطالب الحركات القومية ضروري لاستمالة العمال في الأقاليم المستعمرة و هو ما دعاه إلى استخدام مصطلح " سجن الشعوب " لتوصيف روسيا القيصرية بل حارب النزعات الاستعلائية الروسية لدى بعض المناضلين الروس أو غير الروس داخل الحزب الاجتماعي الديمقراطي و سماه بشوفينية الروس الكبار (chauvinisme grand russe).<sup>1</sup> حيث كتب لينين :

" سنحاول بدورنا نحن الاشتراكيين-الديموقراطيين الروس أن نحدد موقفنا من هذا التيار الفكري. بالنسبة لنا، نحن ممثلي الأمة السائدة في الشرق الأقصى الأوروبي وقسم كبير من آسيا لا يجدر بنا أن ننسى الأهمية العظمى التي تتعلق بالمسألة القومية - لا سيما في بلد يسمى بحق "سجن الشعوب" - في وقت تبعث فيه الرأسمالية الحياة والوعي لدى مجموعة من الأمم "الجديدة" الكبيرة والصغيرة، وذلك في أقصى شرقي أوروبا وفي آسيا على وجه الدقة، في وقت جندت فيه الملكية

<sup>1</sup>Vladimir Lénine, "La révolution socialiste et le droit des nations à disposer d'elles-mêmes", ([www.marxists.org/francais/works/1916/19160100.htm](http://www.marxists.org/francais/works/1916/19160100.htm)). (consulté le 12/5/2013).

## القيصرية الملايين من الروس والقوميات الأخرى لتحل مجموعة من المسائل القومية طبقا لمصالح مجلس طبقة النبلاء الموحدة " <sup>1</sup>.

وهنا تبرز قدرة مزاجية لينين بين النظرية و الواقع الذي يرى أنه من الأجدر بالماركسيين الثوريين أن يدركوا جيدا حقيقة اللحظة التاريخية و أن لا ينساقوا وراء دعوات لا تعترف بقوة العامل القومي و بإمكانية توظيفه، و هو هنا ينتقد في المقام الأول أطروحات روزا ليكسمبورغ التي أعتبرها في كثير من المرات طروحات صبيانية (puériles) تتغطى بغطاء الأممية الاشتراكية و الحفاظ على النقاء الماركسي <sup>2</sup> و بالنسبة للينين ستتطور في زمن الإمبريالية انفجارات اجتماعية عميقة تأخذ أحيانا أشكالا قومية وتتطور في اتجاه معاد للإمبريالية. دون أي تنازلات أمام الأيديولوجيات القومية، فكان يرى التأييد لحق الأمم في تقرير المصير أداة لخلق الوحدة الأممية للطبقة العاملة وليس لتدميرها. و لهذا السبب كان لينين حذرا في التمييز بين مهام الثوريين في الدول المضطهدة والدول التي تعاني من الاضطهاد.

فعلى الاشتراكيين، حسب لينين أن يناضلوا لتأييد حق تقرير المصير لمواجهة سيطرة الشوفينية في الحركة العمالية وكاستعراض عملي للأممية. أمّا في الدول التي تعاني من الاضطهاد فعلى الثوريين الدمج بين المعارضة الحادة للإمبريالية والنضال الواضح من أجل الوحدة الأممية للطبقة العاملة. وهذا يعني النضال الأيديولوجي والسياسي ضد الوطنيين البرجوازيين الذين يحاولون إخضاع الصراع الطبقي تحت الصراع القومي. <sup>3</sup>

و لكنّه و في بعض الحالات، قد يتحتّم على الثوريين معارضة ممارسة حق تقرير المصير، ومن خلال وجهة النظر هذه لم يكن موقف لوكسمبورج حول استقلال بولندا خاطئا، بقدر ما كان محدودا. فقد كانت محقة تماما كثورية بولندية في محاربتها لشوفينية الحزب الاشتراكي البولندي. ولكنّها كانت مخطئة في مطالبتها بأن يعارض الثوريون في الدول المضطهدة شعار الاستقلال البولندي. وكان على الطبقة

<sup>1</sup> Ibidem.

<sup>2</sup> V. Lénine, "Du droit des nations à disposer d'elles-mêmes", op.cit., p.9.

<sup>3</sup> V. Lénine, "Thèses et additions sur les questions nationales et coloniales", (www.marxists.org/francais/inter\_com/1920/ic2\_19200700.htm).(consulté le 15/5/2013)

العاملة البولندية أن تقرر ما إذا كانت تريد الاستقلال الوطني، وكان واجب العمال الروس والألمان أن يؤيدوا حقهم في ذلك الاختيار.

و عليه يمكننا أن نستخلص من كتابات لينين أن الاستقلال القومي و تشكيل الدولة القومية مهمة أساسية من مهمات الثورة القومية الديمقراطية، التي تمهد السبيل أمام الثورة الاشتراكية، ثانياً لأنّ تنفيذ هذا الحق و بخاصة حق الأمم المهيمن عليها في الانفصال عن الدولة المهيمنة يساهم في تقويض أركان ما أسماه لينين شوفينية الدولة العظمى، التي تستمر حتى ما بعد استلام الطبقة العاملة للسلطة في الدولة المهيمنة، و لهذا يعتبر لينين أول من استطاع أن يكشف بوضوح العلاقة الجدلية القائمة بين الديمقراطية البورجوازية و الثورة الاشتراكية و المسألة القومية.

و لكنه و بالرغم من كل الكتابات و المقالات التي خصصها لينين للمسألة القومية أو كانت متضمنة في مواضيع أخرى ، فلم يعمد لينين إلى صياغة نظرية متكاملة حول الأمة و القومية بل ترك المجال لخليفته جوزيف ستالين ليقوم بهذه المهمة.

يعتبر كتاب " الماركسية و المسألة القومية " الذي نشر سنة 1913 أهم عمل تنظيري للمسألة القومية تم إعداده من قبل ماركسي روسي، و هو الكتاب الذي جعل ستالين و هو الوافد الجديد على الحزب الاجتماعي الديمقراطي الروسي نسبياً (مقارنة بلينين و تروتسكي و بوخارين..الخ) يتبوأ مكانة علمية وتنظيمية لا يستهان بها داخل الحزب أولاً ثم في الدولة مستقبلاً، و لهذا فمن الضروري إدراك مفهوم الأمة لدى ستالين لفهم سياساته في المستقبل.

يرى ستالين أن الأمة هي جماعة قبل كل شيء ، و أن هذه الجماعة ليست عرقية و لا هي قبلية فالأمة الإيطالية الحالية حسبه تشكلت من الرومان و الجرمان و اليونان و الأتروسك و العرب الخ.. و تشكلت الأمة الفرنسية من الغاليين و الرومان و البروتون و الجرمان..الخ، و مثل هذا ينطبق على الانكليز و الألمان و سواهم من الأمم التي تألفت كلها من أناس ينتسبون إلى عروق و قبائل مختلفة.<sup>1</sup>

<sup>1</sup>Joseph Staline, *op.cit.*, p.30.

و هكذا فالأمة ليست حسب ستالين جماعة عرقية و لا قبلية، بل هي جماعة من الناس تألفت بعوامل التاريخ، و من جهة، لا شك في أن دولتي كسرى و الاسكندر المقدوني الضخمتين لا يصح تسميتهما أمتين، بالرغم من أنهما قد تشكلتا تاريخيا، و بالرغم من أنهما تشكلتا من قبائل وأعراق مختلفة، فهما لم تكونا أمتين بل خليطا عارضا من جماعات ضعيفة الروابط فيما بينها، تتفرق، و تتحد تبعا لنجاح أو فشل هذا أو ذاك من الفاتحين. و لهذا فالأمة ليست خليطا عارضا واهيا، بل هي جماعة ثابتة من الناس.<sup>1</sup>

و لكن كل جماعة ثابتة لا تؤلف أمة، فالنمسا و روسيا هما أيضا و حدثان ثابتتان من الجماعات و مع ذلك فلا يسميهما أحد أمتين. فما الذي يميز الوحدة القومية عن وحدة الدولة إذا؟ و هنا يجب ستالين عن السؤال الذي طرحه: ممّا يميز بينهما أنه لا يمكن تصور الوحدة القومية دون لغة مشتركة، في حين أن اللغة المشتركة ليست إجبارية في الدولة. فلم يكن من الممكن أن تكون هناك أمة تشيكية في النمسا، و أمة بولونية في روسيا لولا وجود لغة مشتركة لكلّ واحدة منهما، في حين أن وجود مجموعة من اللغات داخل روسيا و النمسا لا ينافي وحدة كل من هاتين الدولتين، و هنا يقصد ستالين بكلامه اللغات الشعبية المتداولة لا اللغات الرسمية المستعملة في الدوائر الحكومية. و لذا فاللغة المشتركة هي إحدى الخصائص المميزة للأمة.<sup>2</sup>

و حسب ستالين فإنّ هذا لا يعني أنّ الأمم المختلفة تتكلم دائما، و في كل مكان لغات مختلفة. فمن الواضح أنه ليس هناك أمة تتكلم عدة لغات في الوقت نفسه، و لكنه ليس معنى ذلك أنه لا يمكن وجود أمتين تتكلمان اللغة نفسها ليعطي أمثلة عديدة، فالانكليز و الأمريكيون الشماليون يتكلمون لغة واحدة و الشيء نفسه عن النرويجيين و الدانمركيين و عن الانكليز و الايرلنديين، و هنا يتساءل ستالين: و لكن لماذا لا يؤلف الانكليز و الأمريكيون أمة واحدة، بالرغم من اللغة المشتركة بينهما؟ و يرى أنّ السبب هو أنّهم قبل كل شيء يعيشون في أراض مختلفة، وليس جنبا إلى جنب. فالأمة حسبه لا تتألف إلا نتيجة لعلاقات مستمرة منتظمة و نتيجة لحياة مشتركة بين الناس جيلا بعد جيل.

<sup>1</sup> Ibid.p.30.

<sup>2</sup> Ibidem.

و هنا يستدرك ستالين ليقول: و لكن الحياة المشتركة الطويلة الأمد مستحيلة من غير أرض مشتركة يعيشون عليها، فالانجليز و الأمريكيون كانوا قديما يسكنون أرضا واحدة هي انكلترا، و يؤلفون أمة واحدة، ثم هاجر قسم من الانكليز من انجلترا إلى أرض جديدة هي أمريكا، وهناك على تلك الأرض الجديدة ألفوا مع الزمن أمة جديدة هي الأمة الأمريكية. و هكذا أدى اختلاف الأراضي إلى تشكّل أمم مختلفة. لذا فالأرض المشتركة هي إحدى الخصائص المشتركة للأمة<sup>1</sup>

و لكن هذا أيضا ليس كل شيء حسب ستالين، فالأرض المشتركة لا تكفي بذاتها لتأليف أمة ، إذ ينبغي فوق ذلك لتكوين الأمة، وجود علاقة اقتصادية داخلية تجمع مختلف أجزاء الأمة في كل واحد، و علاقة كهذه ليست موجودة بين انجلترا و أمريكا. و لذا فهما تشكّلا أمتين مختلفتين، و لم يكن الأمريكيون ليستحقوا لقب أمة لو لم تكن مختلف أجزاء أمريكا مرتبطة بعضها ببعض في وحدة اقتصادية، بفضل تقسيم العمل بينهما و بفضل تطور المواصلات...الخ و هنا يعطي رأيا معاكسا ليثبت صحة قوله : "لنأخذ الجورجيين مثلا ( ستالين من أصول جورجية) . إنّ الجورجيين كانوا قبل الإصلاح الزراعي الذي ألغى الرق سنة 1860 يعيشون على أرض مشتركة، وكانوا يتكلمون لغة واحدة، ومع ذلك لم يكونوا يؤلفون أمة واحدة بالمعنى الدقيق للكلمة، لأنهم بانقسامهم إلى عدد من الإمارات المنفصلة بعضها عن بعض لم يكونوا يستطيعون أن يحيا حياة اقتصادية مشتركة.... و لم يكن في الإمكان أن تكون الحالة غير ذلك ، بالنظر إلى التجزئة الاقتصادية التي كانت تعاني منها جورجيا. و لم تصبح جورجيا في شكل أمة ، إلّا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر عندما تم إلغاء الرق و حصل تقدم في الحياة الاقتصادية في البلاد و تطورت طرق المواصلات و نشأت الرأسمالية، فأوجدت هذه العوامل تقسيم العمل بين مناطق جورجيا، وقضت نهائيا على العزلة الاقتصادية في مختلف الإمارات و جمعتها في كلّ موحد، و يجب أن يقال مثل ذلك على الأمم الأخرى التي اجتازت مرحلة الإقطاعية و ارتقت الرأسمالية في بلادها".<sup>2</sup> إذاً فالحياة الاقتصادية المشتركة، أو الاندماج الاقتصادي، هو إحدى الخصائص المميزة للأمة.<sup>3</sup>

و بالرغم من كل هذه الخصائص مجتمعة، فهناك عنصر أساسي لا بد أن يتوفر ليتحقق مفهوم الأمة حيث يقول ستالين": و لكن هذا أيضا ليس كل شيء ( يقصد الخصائص السالفة الذكر) فيجب أن نأخذ

<sup>1</sup> Ibidem.

<sup>2</sup> Ibid. p.32.

<sup>3</sup> Ibidem.

بعين الاعتبار نفسية الأفراد المندمجين في أمة واحدة. فلا تتميز الأمم بعضها عن بعض بشروط معيشتها و حسب، بل أيضا بعقليتها التي تجد تعبيراً لها في خصائص الثقافة القومية. فإذا كانت إنجلترا و أمريكا و إيرلندا تتكلم ثلاثتهم لغة واحدة، و تؤلف مع ذلك ثلاث أمم مختلفة ، فإن الذي يلعب دوراً أساسياً في ذلك هو التكوين النفسي الخاص الذي تتشكل عند كل منها جيلاً بعد جيل، تبعاً لشروط المعيشة المختلفة، و مما لا ريب فيه أن التكوين النفسي الخاص بذاته أو "الطابع القومي" كما يقول البعض ( و هو يقصد هنا أوتو باور كما أوردنا سلفاً) بعبارة أخرى، يتراءى للملاحظ كأنه شيء لا يمكن تحديده. و لكن لما كان هذا الطابع القومي يجد تعبيراً له في الخصائص المميزة للثقافة المشتركة بكل أمة، فهو إذن شيء لا يمكن إنكاره.<sup>1</sup> و من المعلوم أن الطابع القومي ليس شيئاً ثابتاً تم وضعه مرة واحدة و الى الأبد، فإنه يطرأ عليه التعديل تبعاً للتعديل الذي يطرأ على شروط المعيشة، لكنه مادام شيئاً موجوداً في كل لحظة مفروضة فهو يترك طابعه على حياة الأمة. و لهذا فالتكوين النفسي المشترك الذي يجد تعبيراً له في الثقافة المشتركة، هو إحدى الخصائص المميزة للأمة.<sup>2</sup>

و هنا يصل ستالين إلى الاعتقاد بأنه استنفذ جميع الخصائص المميزة للأمة و التي لخصها في التعريف التالي: " الأمة جماعة ثابتة من الناس، مؤلفة تاريخياً، لها لغة مشتركة، و أرض مشتركة، و حياة اقتصادية مشتركة ، و تكوين نفسي مشترك يجد له تعبيراً في الثقافة المشتركة"<sup>3</sup>

و في الأخير ينبه ستالين إلى نقطة حساسة تجعل تعريفه لظاهرة الأمة لا يبتعد عن أساسيات المادية التاريخية التي تؤكد على فكرة التطور و حتى لا يقرن كلامه بمدارس غير ماركسية كالقومية الرومانسية الألمانية ( فيخته و هردر)، وهي أن الأمة ككل حادث تاريخي هي أمر طارئ يخضع لقوانين التغير، فلها تاريخها و لها بداية و نهاية.<sup>4</sup>

### المبحث الثالث: الثورة البلشفية و تحديات المسألة القومية.

<sup>1</sup> Ibid. p.34.

<sup>2</sup> Ibidem.

<sup>3</sup> Ibidem.

<sup>4</sup> Claudie Weill, "Staline, Le marxisme et la question nationale", *Matériaux pour l'histoire de notre temps*, Année 1996, vol.41, N.41-42, p.51.

تناولنا في المبحث الثاني محاولات الماركسيين الروس التنظير للمسألة القومية، غير أن هذه المحاولات و إن كانت شديدة الصعوبة و الحساسية فهي لن تصل إلى درجة التعقيد الذي ستفرزه الممارسة و المعاشة.

فلقد شكلت ثورة 1917 تحولا جذريا في تسيير الماركسيين الروس لمسألة التعدد و التنوع الذي كانت عليه الإمبراطورية الروسية التي وصفها لينين "بسجن الشعوب" و نادى بحق الأمم في تقرير مصيرها، و لهذا يمكننا اعتبار الثورة البلشفية هي المناسبة الأمثل للتأكد من صدق دعوات البلاشفة التحررية، فلقد وضعتهم أمام محك الممارسة و السياسة بعدما كان التحدي في السابق لا يتجاوز التنظير العلمي و استمالة الشعوب المشكلة للإمبراطورية للمشاركة في الثورة أو على الأقل للوقوف موقف الحياد.

و عند الحديث عن آسيا الوسطى فإنّ الأمور تزداد تعقيدا لأن الثورة البلشفية كانت ثورة روسية مع إشراك بعض العناصر التي تنتمي لقوميات أوروبية. فما كان حاصلا في الجزء الغربي من الإمبراطورية الروسية من تجاذبات فكرية و صراعات عمالية، لم تكن آسيا الوسطى منشغلة به، بالنظر لحدثة الاستعمار الروسي فيها و طبيعة العلاقات الاقتصادية و الاجتماعية فيها.

### المطلب الأول: الحركات القومية في آسيا الوسطى قبيل الثورة البلشفية.

إنّ الأمر الذي كان يقلق الحكومة الروسية قبيل ثورة 1917 هو تأثير الحركات القومية و الإسلامية من خارج المنطقة، ففيما يخص الحركات الإسلامية فقد برزت ببروز الحركة الإصلاحية التي تزعمها جمال الدين الأفغاني، الذي غذّت فكرته حول الجامعة الإسلامية كل الحركات التي تتنادي بالوحدة الإسلامية (le panislamisme) . هذا التأثير كان من خلال وصول أدبيات تتنادي بهذه الفكرة من شبه القارة الهندية بالذات ( عاد الأفغاني سنة 1879 إلى الهند بعد طرده من مصر من قبل الخديوي توفيق ) . و في الوقت نفسه لاقت الأفكار القومية التي تتنادي بوحدة الشعوب التركية (le panturquisme) رواجاً كبيراً بفضل المثقفين التتار الذين تلقوا تعليماً عسرياً مكّنه من التعرف على الأدبيات القومية الأوروبية

المنتشرة في تلك المرحلة و على الظروف التي عاشتها الخلافة العثمانية في تلك المرحلة على وجه الخصوص.<sup>1</sup>

و لكنّ معضلة السياسة الروسية تمثلت في أن حركات الاحتجاج برزت في الجانبين، فتورة مدينة أنديجان التي قادها شيخ الطريقة النقشبندية محمد علي المدالي كانت من قبل الجناح المحافظ المعارض لكل مظهر من مظاهر الإصلاحات الروسية، و بخاصة في المجال التعليمي و الديني، و في الجانب المقابل عارضت الحركة "الجديدية" (le djadidisme) ( التجديد باللغة العربية) الاستعمار الروسي القائم على التسلّط المطلق (l'absolutisme russe) ( خاصة بعد اغتيال القيصر ألكسندر الثاني سنة 1881 و الذي كانت سياسته الأكثر ليبرالية و تقدمية من كل القياصرة سواء السابقين أو الذين جاؤوا بعده).<sup>2</sup>

اتفق مخطوطو السياسة الثقافية الروسية أن الإسلام هو المعرقل الرئيسي لمسيرة الترويس في آسيا الوسطى وسائر الأقاليم المسلمة، و لهذا وجدوا أنه من الضروري تقييد و ضبط المدارس الدينية التقليدية باتخاذ إجراءات صارمة تمثلت أساسا في:

- التدخل المباشر في نشاطات المدارس الدينية باعتبارها المحدد الأول لنفسية الفرد المسلم.
- إرسال مراقبين روس الى المؤسسات الإسلامية التقليدية بطريقة دورية.
- جرد و إحصاء جميع المدارس التقليدية ووضعها تحت رقابة السلطات الاستعمارية.
- منح الحاكم العام الصلاحية المطلقة في غلق أي مؤسسة دينية يرى في نشاطها تهديدا للسياسة الروسية.<sup>3</sup>

<sup>1</sup>Olga Benmertnaia, "Le "panislamisme" existait-il? La controverse entre l'Etat et les réformistes musulmans de Russie (autour de la commission spéciale) de 1910", in Pierre-Jean Luizard, **Le choc colonial et l'islam**, Paris: La Découverte, 2006,p.489.

<sup>2</sup>Hélène Carrère d'Encausse, "La politique culturelle du pouvoir tsariste au Turkestan ,1867-1917", **Cahiers du monde russe et soviétique**, année 1962, vol.3, N.3-3, p.390.

<sup>3</sup>*Ibid.* p.395.

فبعد تشجيع الإدارة الروسية للمحافظين على حساب المجددين أو الإصلاحيين، و ذلك بتقليص نفوذ النخب التتارية المتعلمة تعليما عسريا، جاءت أحداث أنديجان سنة 1898 لتخلط الأوراق على الإدارة الروسية، فالمدارس التقليدية التي كانت في نظر الروس مرتعا للتخلف و الرجعية، أصبحت منطلقا لثورة عنيفة ضد كل ما يمثل التواجد الروسي في المنطقة، و كان رد الفعل الروسي بقمع الثورة بطريقة عنيفة و شنق زعيمها الروحي سنة 1899، شاهدا على التحول الذي عرفته السياسة الروسية في معالجة المسألة القومية و الثقافية في هذه المنطقة، و في عموم القيصرية، فلم تسلم القوميات و الديانات الأخرى من تبعات هذه السياسة على غرار ما حدث لمواطني روسيا اليهود الذين فرضت عليهم إجراءات مماثلة لتلك المطبقة على المسلمين في تقييد مؤسساتهم القومية.

لا يمكننا عزل السياسة الثقافية الروسية في تلك المرحلة عن النشاط الفكري و السياسي الذي عرفته آسيا الوسطى و عموم الأقاليم الإسلامية التابعة للقيصرية الروسية متأثرة بالحركة الإصلاحية التي تزعمها جمال الدين الأفغاني، الذي استطاع أن يوفق بين ثلاثة مبادئ أساسية: الوحدة الإسلامية (panislamisme)، معاداة الاستعمار (l'anticolonialisme) و الإصلاح الديني، فبالنسبة إليه لن يتمكن المسلمون من مواجهة الغرب المسيحي المستعمر إلا بعد أن يقوموا بإصلاحات اجتماعية و سياسية جذرية غير أن ذلك لا يتأتى حسبه بدون إصلاح لمناهج التدريس، بعد قرون من سيطرة المؤسسة الدينية المحافظة و رفضها لكل أشكال التجديد و الاجتهاد. و لقد كان تأثير الأفغاني واضحا بحيث وصلت أفكاره الى المنطقة، فلقد عاش الأفغاني زهاء ثلاث سنوات في روسيا القيصرية (ما بين 1887 و 1889) والتقى فيها بالقيصر الروسي ألكسندر الثالث.<sup>1</sup>

و يعتبر الأفغاني أول من أدرك إمكانية الاستفادة من الوضع الخاص الذي تتمتع به القومية الإسلامية في روسيا مقارنة بوضع المسلمين في المستعمرات الفرنسية و الانجليزية (و هو يقصد بذلك المسلمين الذين يقطنون روسيا التاريخية و ليس مستعمراتها، أي التتار على وجه التحديد) فلقد ورد في مجلة الشورى التي تصدر باللغة النثرية في عددها الخامس لعام 1916 ترجمة لما قاله الأفغاني أثناء

<sup>1</sup> نوفل نيوف "جمال الدين الأفغاني في روسيا (1887 - 1889)"، ([www.alawan.org/article1678.html](http://www.alawan.org/article1678.html)). تاريخ التصفح: 2013/12/12.

تواجهه في روسيا مايلي: "إنّ الأفكار و التقاليد و القنوات التي كانت سائدة في البلدان الإسلامية لم تكن تساعد على تطوير العلم، و إنّهُ لأهون في الوقت الحاضر أن تسافر إلى البرازيل و تؤسس هناك دولة إسلامية مثقفة من أن تصلح "بخارى المعاصرة"... و لئن كانت شجرة العلم قادرة في عالمنا الإسلامي أن تتمر، فإن ذلك متاح قبل كل شيء لمسلمي روسيا بفضل الثقافة الروسية"<sup>1</sup>

وفي مقابل ذلك ظهرت في الأقاليم الإسلامية التابعة لروسيا، حركات تجديدية تتفق مع فكر الأفغاني من حيث مبدأ الإصلاح و مقاومة السياسات الاستعمارية، و خاصة في شقها الثقافي، لكنها اعتمدت على طرح جديد يقوم على تشجيع تأقلم المسلمين و اندماجهم في الثقافة العصرية مع تحديد لدور المؤسسات الدينية المحافظة، أي الدعوة إلى توحيد الشعوب الإسلامية و لكن على أسس علمانية و تبلورت هذه الفكرة أساسا على يد المثقفين التتار كعبد الرشيد ابراهيموف و الناشر التتاري إسماعيل بك غازبرينسكي Gasprinsky. (إل Gaspirali عند الأتراك )<sup>2</sup>.

و الملاحظة الأهم، هي أنّ التمييز بين هذين التوجهين لم يكن واضحا وذلك يرجع أن عدوهم مشترك وهو روسيا الاستعمارية بسياساتها الاندماجية المتطرفة و المؤسسة الدينية التقليدية المنغلقة، و حليفهم واحد و هو تركيا العثمانية سواء أتمثل في حركة "تركيا الفتاة" بالنسبة للعلمانيين و على رأسهم إسماعيل غازبرينسكي، أو الخلافة الإسلامية بالنسبة لدعاة الإصلاح الديني. فكلا الطرفين كان يدعو إلى الوحدة و ترقية الكيانات المسلمة ضمن القيصرية الروسية، و كلاهما طالب بمدارس جديدة لتعليم اللغة التركية، في حين كان الاختلاف محصورا في مكانة الإسلام في الحياة الاجتماعية و السياسية.

لقد شكّل التتار قاطرة كل الحركات الإصلاحية الإسلامية في الفضاء الروسي، بفضل مستواهم التعليمي الجيد، مقارنة بالقوميات الإسلامية الأخرى و معهم الروس ( إحصاء 1897 قدر نسبة الأمية لدى التتار ب 79.6 % بينما كانت لدى الروس 81.7 % ) و ذلك يرجع لوضعهم الخاص في

<sup>1</sup>المرجع نفسه.

<sup>2</sup>Marlène Laruelle, *Islam et politique en ex URSS (Russie, Europe et Asie centrale)*, Paris: l'Harmattan, 2004, p.172.

القيصرية الروسية. فتمكنهم من اللغة الروسية و التركية في الوقت نفسه جعل منهم الطرف الوحيد القادر على لعب دور الوسيط بين المركز الروسي و المحيط الإسلامي، هذا ما جعل النخبة التتارية قادرة على توظيف هذا الهامش من الحركة الذي منحته لهم روسيا القيصرية منذ بداية حملتها التوسعية في الأقاليم الإسلامية، خاصة و أنّ الروس كانوا مقتنعين أنّ التتار على عكس الشعوب الإسلامية الأخرى لا يمتلكون نزعات انفصالية واضحة. فبعد قرون طويلة من مغادرتهم لموطنهم الأصلي و تشكيلهم رقة المغول للجوزة الذهبية la Horde d'Or تحت قيادة جنكيز خان و من تم سيطرتهم على الإمارات الروسية لمدة قرنين و نصف استقروا منذ ذلك العهد في حوض الفولغا و شبه جزيرة القرم و من تمّ أصبحوا رعايا للقيصرية الروس.<sup>1</sup>

استطاعت الحركة الجديدة ( djadidisme ) استغلال الظروف الجديدة التي أفرزتها ثورة 1905 في روسيا بمنحها للشعوب المختلفة قدرا معتبرا من الحرية في تأسيس دور نشر و مدارس خاصة بهم . ويعتبر ابراهيموف و غازبرينسكي أول من عمل على لم شتات جميع مسلمي روسيا في حركة سياسية قومية سميت " الاتفاق (Ittifak)" و التي كانت تهدف إلى إنشاء حكومة ديمقراطية تتساوى فيها الحقوق السياسية بين جميع مكوناتها، و بحرية الصحافة. و لكن أفرادها انقسموا حول مبدأ الملكية الدستورية و حول طبيعة الإصلاح الاقتصادي و الاجتماعي، لكن أهم عنصر في برنامج الحزب هو مطالبته بالاستقلال الذاتي الثقافي تماما كما طرحها المفكرون الماركسيون النمساويون كأوتو باور Bauer و Renner مع السماح للمجموعات القومية غير الأصلية ( les allogènes ) أن تكون ممثلة تمثيلا نيابيا.<sup>2</sup>

و بالنظر إلى النجاح الذي لاقته الحركة الإصلاحية بجناحيها الديني و العلماني، عملت السلطات الروسية على إبقاء المؤسسات الدينية الخاصة بالمسلمين بعيدة عن تأثيرهما، و ذلك بتعيين رجال دين محافظين و تقليديين على رأس مؤسسات الإفتاء الإسلامية. و لأن المصالح بين الإدارة الروسية و رجال الدين المحافظين كانت متقاطعة في عزل الإصلاحيين، فإنّ بعض رجال الدين المحافظين سايروا

<sup>1</sup>Juliette Cadiot, "Le recensement de 1897, les limites du contrôle et la représentation des nationalités", *Varia*, année 2004, vol.3-4, n.45, p.443.

<sup>2</sup>Marc Ferro, *Le choc de l'Islam : XVIII- XXI siècle*, Paris: Odile Jacob, 2003, p.94.

السياسة الرسمية. الأمر الذي مهد إلى بروز نمط جديد من المؤسسات الدينية أصبح المختصون في تاريخ المنطقة يطلقون عليه " الإسلام الرسمي (l'islam officiel) " في مقابل الإسلام غير الرسمي أو غير القانوني (l'islam clandestin).<sup>1</sup>

و من تمّ فقد أصبحت السلطات الروسية الراعية الأولى للإسلام التقليدي، منطلقة من اعتبارات براغماتية محضة، فالروس كانوا يعتقدون أنّ عدم مشاركة الشعوب الإسلامية المنضوية في الإمبراطورية الروسية يرجع أساسا إلى سيطرة المؤسسات الدينية التقليدية على كل مناحي الحياة، و بما أن الروس قد استفادوا من تجربة المقاومة الشعبية في القوقاز الشمالي في منتصف القرن التاسع عشر و من ثورة انديجان سنة 1898، التي قادها، في الحالتين شيوخ الطريقة النقشبندية، فلقد أدركوا أن الحل يكمن في التعامل مع السلطة الدينية التقليدية على حساب رجال الدين الإصلاحيين.<sup>2</sup> الأمر الذي سيسهم بطريقة غير مباشرة في إضعاف الحركة الجديدة العلمانية التي بدأ دورها يتعاضد بعد ثورة 1905<sup>3</sup>

تأثرت الحركات القومية التركية في الأقاليم الإسلامية الروسية ( تتر القرم، القوقاز الشمالي أذربيجان و آسيا الوسطى) بالأفكار الجديدة التي نشرتها حركة الاتحاد و الترقى أو تركيا الفتاة و بخاصة بعد نجاح ثورتهم سنة 1908 في إزاحة السلطان عبد الحميد الثاني، و الدعوة إلى سياسة التتريك (turquisation) ذات الطابع العلماني، و هو ما جعل السلطات الروسية تستغل أحداث العنف الطائفية التي حدثت بين السنة و الشيعة في إمارة بخارى سنة 1910.<sup>4</sup> ليتم اتهام أنصار الحركة

<sup>1</sup>Olivier Roy, *La nouvelle Asie centrale ou la fabrication des nations*, Paris: Seuil, 1997, p.96.

<sup>2</sup>Hélène Carrère d'Encausse, "La politique culturelle du pouvoir tsariste au Turkestan (1867-1917)", *Cahiers du monde russe et soviétique*, tome 3, N.3, 1962, p.395.

<sup>3</sup>و هي السياسة نفسها التي ينتهجها الرئيس الروسي فلاديمير بوتين في القوقاز الشمالي و بخاصة في جمهورية الشيشان باستعانتة بشيوخ الطريقة النقشبندية و على رأسهم مفتي الطريقة الشيخ قاديروف و الذي تم استخلافه بولده لرئاسة الجمهورية المستقلة و محاربة المقاومة الانفصالية، مستعملا الخلافات المذهبية بين التيار المتصوف و التيار السلفي).

<sup>4</sup>كانت إمارة بخارى محمية روسية و لم يتم ضمها كليا إلا في سنة 1920 أي بعد قيام الاتحاد السوفييتي.

الجديدة بالرغم من طابعها العلماني بتأجيج الصراع المذهبي، حيث تبعها مباشرة منعهم من النشاط الحر و دفعهم إلى الهجرة الى تركيا أو العمل بطريقة سرية.<sup>1</sup>

لكنّ أخطر الأحداث و أكثرها عنفا كانت الثورة الشعبية التي عرفت المنطقة سنة 1916 وذلك في أوج الحرب العالمية الأولى، و كان السبب المباشر لهذه الأحداث هو فرض الحكومة المركزية للتجنيد الإجباري على سكان المنطقة و تزامن ذلك مع تزايد عمليات سلب و نهب ممنهجة لأراضي و مراعي الأهالي و منحها للمعمرين الروس. و بالرغم من أن بداية هذه الثورة كانت في بلاد الأزيك إلا أنها عرفت نصعيدا أكبر عند وصولها لمنطقة السهوب الكازاخية و الكيرخيزية حيث يعيش سكانها حياة البداوة القائمة على الرعي و الترحال المستمر.<sup>2</sup>

و أدت سياسة التجنيد الإجباري إلى بروز ردود أفعال رافضة له في المناطق الأخرى من آسيا الوسطى، لكن الخوف من حدوث إبادة جماعية كتلك التي حصلت في سهوب آسيا الوسطى (بلاد الكازاخ و الكيرخيز) جعل الأهالي يتجنبون مواجهة الجيوش الروسية مباشرة ، في حين فضل مئات الآلاف من التركمان الهجرة إلى شمال بلاد فارس (إيران حاليا) ، و الأمر نفسه حدث في المناطق الحضرية من آسيا الوسطى (بلاد الأزيك و الطاجيك ) حيث استطاعت القوات الروسية من دحر المقاومة الشعبية بانتهاج سياسة ترويع و تجويع حقيقية أدت إلى عزل المقاومة و من تم دحرها نهائيا.<sup>3</sup>

كانت نتائج هذه الثورة كارثية ، و تركت في الذاكرة الجماعية للأهالي حقدا دفيئا و صورة قاتمة تجاه القومية الروسية، فلقد أدت الحملة العسكرية الروسية إلى مقتل مئات الآلاف من الكازاخ و الكيرخيز و هجرة قسرية لمئات الآلاف نحو الصين<sup>4</sup> كما دمرت كل البنية الاجتماعية و الاقتصادية الهشة لسكان

<sup>1</sup> Pierre Chuvín, "L'Asie centrale jusqu'à la Révolution d'Octobre: La colonisation et l'administration tsariste (1865 -1917)", in P.Chuvín, R. Létolle et S. Peyrouse, *Histoire de l'Asie centrale contemporaine, op.cit.* p.110.

<sup>2</sup> Pierre Chuvín, *op.cit.* p.113.

<sup>3</sup> *Ibid.* p.114.

<sup>4</sup> كان عدد سكان إقليم تركستان في جويلية 1916 يقارب 7.334.500 ساكن بينما أصبح في جويلية 1917، أي بعد عام فقط، يقارب 6.554.300 أي أن المنطقة فقدت حوالي 800.000 فرد في مدة قياسية متجاوزة نسبة 11% و هي نسبة لا تحدث إلا في حروب الإبادة).

المنطقة و خاصة في المناطق الرعوية في سهوب كازاخستان و تركستان حيث عرفت المنطقة مجاعة حقيقية بسبب تحويل المراعي الخاصة بالأهالي و منحها للمستوطنين الروس، ولم تتوقف هذه الحملة إلا بعد تسعة أشهر أي مع اندلاع ثورة مارس 1917، و عليه فحدث كل هذه المجازر قبيل أشهر قليلة من الثورة البلشفية في أكتوبر 1917 سيكون الموجه الأساسي لعلاقة سكان المنطقة بالثوار الجدد.<sup>1</sup>

و نتيجة لهذه الأحداث العنيفة لم تكن للنخب الآسيوية أية أدوار تذكر في المشروع الثوري البلشفي، بل إن الواقع الذي كانت تعيشه المنطقة ، لم يكن واقعا يدعو لتعاون سكان المنطقة مع أي مشروع أو فكرة يكون مصدرهما الروس، فزعماء الثورة البلشفية يعتبرون عندهم مواطنين روس قبل كل شيء، و بالتالي فالمعضلة الأولى بالنسبة للينين و رفاقه هي إيجاد عناصر محلية يمكن التعاون و التنسيق معها، كما أن آسيا الوسطى لم تتكون فيها عمالة منظمة يمكنها تشكيل طبقة بروليتارية واعية بحسب المنظور الماركسي، فكل مصانع ومنشآت سكك الحديد كانت عمالتها تقتصر على الروس فقط، و هذا ما أربك زعماء الثورة البلشفية، كما أن المزارعين في سهول تركستان فرض عليهم التحول من الزراعة المعاشية التي كانت تؤمن لهم ضروريات الحياة إلى الزراعة الكثيفة للقطن بغرض تحويله إلى المصانع الموجودة في المركز أي المدن الصناعية الروسية، و هذا ماجعل سكان المنطقة يعيشون حالة من التبعية و الارتباط بما توفره أسواق المركز الاستعماري، كما أن زراعة القطن خلقت طبقة جديدة من المستفيدين من تجار كبار و ملاك للأراضي و أصحاب المؤسسات الصغيرة الخاصة بتنظيف القطن قبل توريده، وهذا النمط هو نمط استعماري بامتياز لا يختلف عما هو موجود في المستعمرات البريطانية و الفرنسية.<sup>2</sup> و لهذا فلقد كانت أولى محاولات تأثير البلاشفة على نخب و أهالي هذه المنطقة تعتمد في الأساس على استغلال معارضة سكان المنطقة لسياسات الحكومة القيصرية و للغضب المحتدم من سياسة تملك أراضيهم للمواطنين الروس أو الأوكرانيين، و عليه فالبلاشفة حاولوا الاستثمار في أخطاء الحكومة القيصرية و من تم الظهور بمظهر المحرر من الاستعمار و بمظهر الأممية (l'internationalisme) الرافض للتمييز القومي و العرقي.<sup>3</sup>

<sup>1</sup> Marco Buttino, "Turkestan 1917. La révolution des Russes", *Cahiers du monde russe et soviétique*, Tome 32, N. 1, p.63.

<sup>2</sup> *Ibid.* p.64.

<sup>3</sup> *Ibid.* p.70.

## المطلب الثاني: موقف القوميات المسلمة من الثورة البلشفية

وقف سكان آسيا الوسطى، على غرار جميع مسلمي الإمبراطورية الروسية، من ثورة 1917 موقف المتفرج أو موقف الضحية كما يرى O.Roy، فالمجالس (les soviets) التي شكلها البلاشفة غداة الثورة في قازان و طشقند لم تكن تحتوي على أي مسلم (أي مواطن محلي)، بل إن البلاشفة استعانوا بالأرمن على حساب الأذريين في مدينة باكو، و أدى النزاع بين القوميتين إلى وفاة الآلاف في مارس 1918، و كان المعمرون الروس (les colons) في بعض المناطق من آسيا الوسطى- و على الرغم من ولائهم السابق للقيصرية- يرون أن الثورة هي ثورة روسية بالدرجة الأولى، فساندوها على هذا الأساس، بل قاموا بتأميم و نهب أملاك الأهالي المسلمين دعماً للثورة كما حدث في طشقند، إلى درجة أبعدت الثورة الروسية من جوهرها الطبقي و الأممي، كما هو حاصل في الجانب الأوروبي من الإمبراطورية، و تحولت إلى صراع قومي أو عرقي في المناطق الآسيوية، أو في أحسن الأحوال صراع بين سكان المدن و سكان الأرياف، على اعتبار أن المزارعين في مجملهم كانوا مسلمين أما العمال و الموظفون فكانوا أوروبيين.<sup>1</sup>

فالعناصر القليلة من المسلمين التي انضمت إلى الحزب البلشفي لم تنضم إليه إلا في أكتوبر 1917 ( سلطان جاليف و تورار ريسكولوف ) وهذا ما جعل زعماء الحزب ينظرون إليهم دائماً برؤية و شك، بحيث كان الاتجاه السائد هو اعتبار المسلمين رجعيين، و تخلفهم الثقافي يجعل منهم غير قادرين أن يصبحوا ماركسيين حقيقيين، وعليه فقد كانوا يرون ضرورة إبقائهم تحت أي نوع من أنواع الوصاية.<sup>2</sup>

كان لينين يخشى من تحول حالة اللامبالاة أو عدم اهتمام سكان آسيا الوسطى أو لنقل مسلمي روسيا ككل بالثورة إلى حالة عدااء دائمة ( خاصة بعد المجازر التي تحدثنا عنها)، و لهذا فلقد دعا في الرابع و العشرين من شهر نوفمبر سنة 1917 و في بيان رسمي مشترك ( موقع من قبل لينين و ستالين)

<sup>1</sup>Olivier Roy, *La nouvelle Asie centrale ou la fabrication des nations*, op.cit, p.93.

<sup>2</sup>Ibid. p.94.

لا يخلو من العاطفة المقصودة "جميع العمال المسلمين لروسيا و المشرق إلى الالتحاق بالثورة" و الذي جاء فيه ما يلي: "إلى كل مسلمي روسيا، تاتار الفولجا و القرم ، الكيرخيز و سارت سيبيريا و تركستان، أترك و تاتار القوقاز الشمالي (Transcaucasie) ، شيشان و سكان جبال القوقاز، يا من دمرت مساجدكم و دور عبادتكم ، يا من داس على معتقداتكم و عاداتكم قياصرة و طغاة روسيا...ستصبح معتقداتكم و عاداتكم و مؤسساتكم القومية و الثقافية حرة و مصونة . نظموا حياتكم القومية بكل حرية، هذا حقكم"<sup>1</sup>

دعا لينين شعوب المنطقة للتوحد خلف المشروع البلشفي فيما يشبه حربه تحالفا بين الراية الحمراء و الراية الخضراء ، و لكي يتبث حسن نواياه قام بمبادرة استحسنها جمهور المسلمين و هي إعادة المصحف العثماني الذي كان محفوظا في المكتبة القيصرية للمسلمين.<sup>2</sup>

لكن المسافة بين الخطاب و النوايا الحسنة و بين الإستراتيجية البلشفية في تعميق هذا "التحالف" كما سماه لينين لم تكن مسافة هيئة ، و أكبر مشكلة كما تحدثنا سابقا هو غياب نخب محلية قادرة على إقناع شعوب المنطقة بضرورة الانخراط في الثورة الجديدة و غياب عمالة قادرة على تفعيل النضال في المؤسسات و المصانع.

لقد كانت النخب الإسلامية منقسمة قبل الثورة في تحديد مستقبل الأقاليم التي تعيش فيها القوميات المسلمة، و كان أكبر همها آنذاك، الاستفادة أو الاستغلال الأمثل للاضطرابات التي سبقت الثورة لتعزيز مواقفها القومية، حيث كانت تعتقد أن الظرف موات لتحقيق تنازلات مهمة لم تكن قادرة على تحقيقها في المرحلة القيصرية، بل لم تكن قادرة على طرحها أصلا، لكن المناخ السياسي الجديد، و الخطاب الأممي الذي تبناه لينين و دعوته الصريحة في حق الشعوب و الأمم في تحقيق مصيرها، أدت إلى ارتفاع سقف المطالب القومية، و من بين أكثر الأمثلة دلالة على الروح الجديدة التي بثها تيار الثورة الجارف " المؤتمر

<sup>1</sup>Pierre Denis, *Les derniers nomades*, Paris: l'Harmattan, 1989, p.317.

<sup>2</sup>Hélène Carrère d'Encausse, *L'Empire d'Eurasie*, Paris: Fayard, 2005, p.260.

الأول لعموم مسلمي روسيا" و المنعقد في الفاتح من جويلية سنة 1917 ( أي قبل الثورة بثلاثة شهور و نصف الشهر) و الذي استند على مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها.

و الشيء الأبرز في هذا المؤتمر هو دعوته الصريحة التوفيق (conciliation) بين الإسلام و الاشتراكية، و هي الفكرة التي تبناها بعض المنصرين الماركسيين المسلمين على غرار التتاري سلطان جالييف ، لكن المواقف تباينت عند نقطة حساسة وهي طبيعة و شكل التنظيم السياسي بين دعاة الاندماج و الحفاظ على "الاستقلالية الثقافية" و بين أصحاب "الخيار الفيدرالي" الذي يمنح الأقاليم الإسلامية حجما أكبر من السيادة و التصرف الأكبر في شؤونها المحلية. و لقد كان هذا الانقسام طبيعياً باعتبار الطرف الأول و الذي يدعو للاندماج تمثله النخب التتارية التي تعيش شعوبها في قلب روسيا ( تتار الفولجا و القرم) بينما الشعوب الإسلامية الأخرى تعيش على أطراف الإمبراطورية و هو ما يؤهلها جغرافيا على الأقل أن ترفع من حجم مطالبها الاستقلالية.<sup>1</sup>

لا يمكننا عزل المواقف المتخذة من قبل البلاشفة عن الوضع العام السائد في الداخل و الخارج، فروسيا في تلك الفترة كانت تعيش كارثة حقيقية في كل المستويات، فتأثير الحرب العالمية الأولى على أمنها الداخلي و رخائها الاقتصادي كان كبيرا جدا، في خضم هذه الحالة المزرية يضاف إليها تأثير الثورة البلشفية ، و ما تبعها من حرب أهلية مدمرة، جعلت السلطات المركزية غير قادرة على الاتصال و التواصل مع المناطق الطرفية (la périphérie) من الإمبراطورية المترامية الأطراف، و إذا علمنا أن دول الجوار كلها بما فيها (الدول الإسلامية كتركيا و إيران ) كانت دولا معادية للسياسة الروسية سيتضح لنا حجم الضغوط التي كانت تعترض عمل السلطات الجديدة ، و بالتالي فلقد كانت مهمة تسيير المسألة القومية أعقد مهمة في تلك الفترة ، ولم يكن اختيار لينين لجوزيف ستالين لتسلم محافظة الشعوب و القوميات اعتباريا بل كان صادرا من قناعته الراسخة بقدرة ستالين نظريا و عمليا على تسيير هذا الملف الشائك.

<sup>1</sup>Rinat Sigabdinov, "De la question du socialisme islamique au Turkestan: Le parcours d'Arif Klevleev ( 1874-1918)", *Cahiers d'Asie central*, n.13/14, 2004, p.236.

اعتمدت السياسة البلشفية تجاه القوميات الإسلامية في بدايتها على دعم انخراط النخب المسلمة في المؤسسات الحزبية البلشفية و توظيفها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في السياسة الجديدة و من تم إعطاء صورة ايجابية للنظام الجديد و قادتة لدى عموم المسلمين، و تكريسا لهذا التوجه قام البلاشفة بتشكيل " المحافظة المركزية للشؤون الإسلامية" في 19 جانفي 1918، و حزب شيوعي للمسلمين متميز عن الحزب البلشفي في جوان 1918 و حزب آخر خاص بالقومية الآذرية ( أذربيجان )<sup>1</sup>.

كان الخطاب البلشفي تحريرا و تقدما مقارنة بما كان عليه الخطاب السابق، فمنطلقات النظام الجديد الإيديولوجية كانت تمنعه من تبني خطاب آخر، فلم يكن من مصلحة صناع القرار الجدد أن تبدو سياستهم تجاه القوميات المختلفة و خاصة الإسلامية مشابهة للسياسة القيصريّة ، أي إنهم كانوا يرغبون في تصوير سياستهم بأنها معادية للاستعمار الذي هو شكل من أشكال الرأسمالية في مراحلها المتأخرة و هو ما تدل عليه نظرية لينين حول الإمبريالية، لكن الواقع لم يكن مطابقا للخطاب تماما.

فلم يكن مسموحا عند البلاشفة أن تتطور مطالب القوميات المختلفة إلى مستوى يمكنها من تشكيل كيانات قومية مستقلة، حتى و لو كانت بطابع شيوعي، و هو ما أدى بالسلطات البلشفية إلى حل الحزب الشيوعي الخاص بالمسلمين في نوفمبر 1918 (أي في السنة نفسها التي تم إنشاؤه فيها) و حصل الشيء نفسه للمحافظة السامية لشؤون المسلمين، و تم إلحاق "مكتب المنظمات الشيوعية الإسلامية" الذي تعنى بشؤون المسلمين بالحزب البلشفي ليتم حله هو كذلك سنة 1922.<sup>2</sup>

و للقضاء على كل طموحات المسلمين في تشكيل كيانات قومية اعتمد جوزيف ستالين باعتباره المسؤول الأول عن ملف القوميات على ورقة خطيرة و هي الورقة العرقية و ذلك لتشتيت المسلمين و منع بروز النزعات الإسلامية الجامعة (panislamisme) و النزعات التركية الجامعة (panturquisme).

<sup>1</sup>Hélène Carrère d'Encausse, *L'Empire d'Eurasie*, op.cit, p.262.

<sup>2</sup>*Ibid.* p. 263.

و تتلخص هذه السياسة في تكسير الولاءات القومية الكبرى القائمة على الانتماء إلى الدين الإسلامي أو الانتماء إلى القومية التركية باعتبار الأغلبية العظمى من مسلمي الإمبراطورية سواء الذين يعيشون في الأراضي الروسية أو في القوقاز أو آسيا الوسطى يتكلمون لغات تركية، وبالتالي فالهاجس الأكبر بالنسبة لستالين هو أن تتحول هذه النزعات إلى تعاون و تحالف بين هذه الشعوب و بين دول الجوار الإسلامية التي تشترك معها في الدين أو اللغة و بخاصة تركيا، إيران و أفغانستان، دون أن ننسى إمكانية توظيفها من قبل القوى الرأسمالية الكبرى التي كانت لا تزال مصرة على إفشال الثورة البلشفية بكل الوسائل من خلال دعمها للجيش الأبيض أو من خلال محاصرة روسيا سياسيا و اقتصاديا.

لم يكن للنخب المحلية في آسيا الوسطى أي دور يذكر في الثورة البلشفية، وهو ما ينطبق على الإدارة الروسية و المعمرين الروس، و بما أن هذين الطرفين كانا يعيشان في حالة عداة كبيرة بسبب الصراع على السلطة والموارد، و الذي أدى إلى قيام ثورات محلية انتهت بحملة إبادة حقيقية و نهب لممتلكات المسلمين و إعطائها للروس و الأوكرانيين. و لهذا فلقد سعى الطرفان إلى التقرب و استمالة السلطات الجديدة في المركز، فكان المعمرين الروس ينظرون للبلاشفة على أنهم مواطنون روس بالدرجة الأولى و لم يكن يهمهم ما يتبعونه من إيديولوجية أو عقيدة بقدر ما كان يهمهم بقاء مساندتهم و دعمهم لهم على حساب السكان المحليين. و في الجهة المقابلة رأى المسلمون أن البلاشفة هم الطرف القوي في الصراع و أنه من الأخط و الأسلم أن يسيروا في اتجاه التيار القوي لعل أصحابه يكونون صادقين في ما طرحوه من مبادئ أممية تحررية.

توضحت تفاصيل هذه السياسة في مرحلة بناء الاتحاد السوفييتي و تقسيمه إلى جمهوريات متميزة ، لكنه من الضروري أن نؤكد على أن هذه السياسة عرفت معارضة قوية و عنيفة من قبل شعوب آسيا الوسطى لسنوات طويلة ، و أن مهمة ستالين في ترسيخ النظام الجديد لم تكن سهلة على الإطلاق.

### المطلب الثالث: حركات التحرر القومية في المنطقة.

حاولت النخب المحلية المسلمة استغلال الوضع المضطرب الناتج عن الثورة و الحرب الأهلية الروسية لتحقيق أقصى حد من المطالب قدر المستطاع، و زاد من تطلعاتها إعلان لينين عن حقّ الشعوب و القوميات في تقرير مصيرها. لكن المسافة بين الخطاب الثوري الجارف و براغماتية السياسات البلشفية كانت مسافة شاسعة كما رأينا في المطلب السابق، فكان من الطبيعي أن يكون رد الفعل الرفض متناسبا مع حجم التطلعات و الآمال التي عقدتها هذه النخب. فلم تخلُ منطقة من المناطق التي يسكنها المسلمون من بروز حركات و ثورات مناهضة للسياسة الجديدة أو مستثمرة لهامش الحركة الذي منحتة الإدارة السياسية الجديدة.

ففي قلب آسيا الوسطى أو ما يسميه الروس قبل الثورة بتركستان (Turkestan) قامت هناك ثورة عنيفة بسبب ممارسات النظام الجديد الذي همش السكان المحليين سياسيا بمنعهم من تسيير شؤونهم و احتكار المعمرين الروس لكل المناصب الإدارية، حيث أعلن سوفيت أو مجلس طشقند ( Soviet de Tachkent ) في الفاتح من نوفمبر 1917 أنه يمثل السلطة الشرعية رافضا إشراك المسلمين بالرغم من أن السلطات المركزية طالبتهم بذلك، و هو ما أدى بمجموعة من الزعماء المحليين في السادس و العشرين و السابع و العشرين من شهر نوفمبر سنة 1917 من عقد مؤتمر استثنائي تمخض عنه مطلب أساسي هو: استقلال تركستان على أساس مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها الذي أقره البلاشفة أنفسهم تم اختيار مدينة خوقند عاصمة الإمارة أو الخانية السابقة (Khanat du khokand) مقرا للحكومة المستقلة ذاتيا لتركستان برئاسة مصطفى شوكاي Mustafa Tchokai ، وهنا بدأ الصراع مع مجلس طشقند لتوسيع سلطاته على عموم المنطقة.<sup>1</sup>

---

<sup>1</sup>Donna O'Kearney, "Enver Pasha and the Basmashi Rebellion", *Crossroad an interdisciplinary journal for the study of history, philosophy, religions and classics*, Vol. 3, Issue 1, 2008, p.101.

في الواحد و الثلاثين من شهر جانفي 1918 طالب مؤتمر مجلس طشقند بحل الحكومة المستقلة لتركستان، و لم يمر شهر واحد إلا و كان الجيش الأحمر حاضرا لسحقها و احتلال مدينة خوقند بعد حملة عسكرية أدت لمقتل 14000 ألف من المسلمين، بل إن ما تبع هذه الحملة من نهب و سلب لممتلكاتهم أدى إلى مجاعة قضت على ما بين ربع و نصف سكان المدينة ( بحسب بعض التقديرات)<sup>1</sup> و في الوقت ذاته حاول البريطانيون انطلاقا من إيران استغلال الفرصة لتأليب السكان الغاضبين من ممارسات المجالس السوفييتية، لكن ذلك لم يؤدّ إلا إلى مزيد من القمع من قبل الجيش الأحمر و بالتالي اتساع رقعة المقاومة ، خاصة بعد تأسيس حكومة محلية مستقلة أخرى في عشقباد Ashgabad ( عاصمة تركمنستان الحالية) المدعومة من البريطانيين و الجيش الأبيض الروسي في فيفري 1918، مستغلين انقطاع المواصلات بين المركز و هذه المنطقة بفعل الحرب الأهلية، لكن الجيش الأحمر استعاد زمام الأمور و استطاع القضاء على الحكومة الجديد بعدما قضى على قوات الجيش الأبيض و انقطاع الدعم البريطاني حيث سقطت مدينة عشقباد في جويلية 1919.<sup>2</sup>

كان حل الحكومة المستقلة لتركستان و احتلال مدينة خوقند سببا في بروز حركة مقاومة مسلحة ضد السلطات الشيوعية انطلقت في البداية من منطقة فرغانة و تزعمها بعض الفارين من مجزرة خوقند، و تم تسمية أفرادها من قبل الدعاية البلشفية بالباسماتشي (basmatchis) ، و يقصدون بها قطاع الطرق أو اللصوص، بينما كان أصحابها يطلقون على أنفسهم لقب الباكوات Bek أي "الرجال الأحرار".<sup>3</sup>

استغلت حركة المقاومة الجديدة انقطاع طرق المواصلات بين روسيا و آسيا الوسطى بسبب الصراع الدائر بين الجيشين الأحمر و الأبيض، لتنتشر في كامل ربوع منطقة فرغانة بقراها و مدنها العريقة: جلال آباد، أوش، أنديجان، و نامنجان... مستتدة على دعم رجال الدين المحافظين الممثلين في جمعية العلماء، و الاصلاحيين (أو المجددين كما يطلقون على أنفسهم ) المنضوين في مجلس الشورى الإسلامي، و لكن هذه الثورة كانت في بدايتها تفتقد الى قائد حقيقي و تنظيم فعال لأنها كانت ردة فعل

<sup>1</sup>Ibid. p.102.

<sup>2</sup>Ibid. p.103.

<sup>3</sup>Ibidem.

تلقائية على السياسة العنيفة التي انتهجها البلاشفة مستندة فقط على الولاءات القبلية و قواعد الشرف التي تميز شعوبها.<sup>1</sup>

لكن المنعطف الحاسم في تاريخ هذه الحركة هو انضمام شخصية محورية في تاريخ الأتراك الحديث و هو الغازي اسماعيل أنور باشا وزير الحربية التركي السابق ( بعد الانقلاب على السلطان العثماني عبد الحميد الثاني سنة 1909) الذي رحل إلى روسيا بعد الثورة البلشفية رغبة منه في عقد تحالف معها ضد الانجليز و ضد كمال أتاتورك الذي أصدر حكما بإعدامه ( تركيا دخلت الحرب العالمية الثانية الى جانب ألمانيا) ، لكن البلاشفة أرادوا توظيف هذه الشخصية التركية الكبيرة لإقناع شعوب آسيا الوسطى بعدم الدخول في تحالفات مع الانجليز أو الدول الموالية لهم كأفغانستان و إيران.<sup>2</sup>

تبرز شخصية أنور باشا و الدور الذي لعبه في حركة المقاومة جانبا هاما من لعبة التحالفات و التوازنات المحلية والإقليمية و حتى الدولية، كما تبين تباينات التوجهات القومية و الدينية في تلك الفترة و طرق توظيفها، ففي الفترة (1918-1920 ) كان الروس يخوضون حربا مدمرة في جميع الجبهات من جيوش التدخل الأوروبية و قوات الجيش الأبيض ، لذا كانت الحاجة ماسة إلى دعم المسلمين و أيضا ابتزاز الدول الاستعمارية لعقد مساومة معها مشروطة بأن توقف روسيا دعم هؤلاء المسلمين مقابل وقف التدخل الغربي لذا عقد البلاشفة كثير من الصفقات مع مسلمي روسيا و تركستان ، و كان أنور باشا حاضرا في "المؤتمر الأول لشعوب الشرق" الذي عقد في مدينة باكو في الفاتح من سبتمبر سنة 1920 برعاية الكومنترن<sup>3</sup> و ألقى خطابا فيه.<sup>4</sup>

لكن البلاشفة تراجعوا عن وعودهم المقدمة للمسلمين بعد هزيمة جيوش التدخل الأوروبية و انسحابها و اندحار الجيش الأبيض، بل إنهم عقدوا معاهدة صداقة مع كمال أتاتورك خصم أنور باشا الأول، وهنا

<sup>1</sup>Guy Spitaels, *La triple insurrection islamiste*, Paris: Fayard, 2005, p.61.

<sup>2</sup>Donna O'Kearney, *op.cit.*, p.104.

<sup>3</sup>الأممية الشيوعية، بالانكليزية communist international و تختصر communern تأسست في مارس 1919

<sup>4</sup> Paul Dumont, *La fascination du bolchevisme: Enver Pasha et le parti des soviets populaires (1919-1922)*, *Cahiers du monde russe et soviétique*, Année 1975, vol.16, N .16-2, p.142.

أدرك هذا الأخير حجم التحول في السياسة الروسية أو حقيقتها، فالتقارب التركي الروسي كان يمثل لأنور باشا خيانة من أتاتورك لمبدأ وحدة الشعوب التركية (Panturquisme) لحساب سياسة قطرية ضيقة و تراجعاً من قبل روسيا على مبدأ لينين المتمثل في حق الشعوب و الأمم في تقرير مصيرها، و عليه فقد اقتنع أنور باشا أن مقاومة السياسة البلشفية الجديدة لا بد أن تنطلق من الداخل دون ربطها بالدول الخارجية كي لا تكون لعبة في يدها أو ضحية لتغيرات في مواقفها سلبي أو إيجاباً.<sup>1</sup>

من هذا المنطلق رأى أنور باشا أن الحل يكمن في المقاومة المسلحة و هنا كان انضمامه لحركة المقاومة الباسماتشية التي اكتسبت بانضمامه إليها قائداً عسكرياً حقيقياً (باعتباره كان وزيراً للحربية في الدولة العثمانية) حيث تم توحيدها لتنتقل من حرب العصابات الى مستوى تنظيمي أرقى، و هنا بدأ التفكير في إنشاء دولة مستقلة تشمل كل شعوب آسيا الوسطى التركية.

و بالرغم من النجاحات الأولية لحركة الباسماتشي في العامين الأولين إلا أنّ ميزان القوى كان يميل بشدة لصالح البلاشفة، سواء من حيث العدد أو العدة و هو ما أدى إلى انهزامه و مقتله في الرابع من أوت 1922، لتعود المقاومة بعده الى سابق عهده ضعيفة و معزولة ليتم القضاء على آخر معاقلها في سنة 1930.<sup>2</sup>

و في مقابل المقاومة المسلحة كان هناك حراك قومي آخر انطلق من مؤسسات و أطر الدولة و الحزب الشيوعي، مستغلاً هو كذلك المبادئ الأممية التي طرحها لينين و هامش الحركة التي قدمها البلاشفة لشعوب الإمبراطورية للانضمام للثورة أو منعها على الأقل من التحالف مع الدول المجاورة سواء الأوروبية أو الآسيوية باعتبار روسيا كانت تمر بفترة حرجة تحتاج فيها لإعادة البناء الداخلي و منع التدخلات الأجنبية.

<sup>1</sup> Ibid. p.145.

<sup>2</sup> Ibid. p.156.

و في خضم هذه الأوضاع ظهرت أفكار جديدة تقوم على إعادة إحياء الروح القومية لدى مسلمي الإمبراطورية و كان أشهرها ما قام به الزعيم التتاري سلطان جالييف Sultan Galiev و الكازاخي تورار ريسكيلوف Turar Ruskyllov. لكن ما يميز هذه الحركة التي وصفت بـ "الشيوعية القومية (communisme national)"، هو انطلاقها من مرجعية شيوعية بحيث يصعب على الزعماء الروس صبغها بصبغة رجعية أو معادية للثورة ، فظهور الشيوعية القومية في هذه الفترة بالذات له ما يبرره حسب ماكسيم رودينسون " مع اندلاع ثورة أكتوبر، التحق بها جزء كبير من الانتلجنسيا التتارية ، واعتقد أغلب الملتحقين الجدد أن الاشتراكية المتبعة من قبل النظام الجديد ستحقق بل ستثري برنامج الحركة الإصلاحية (يقصد الحركة القومية الإصلاحية التركية)، و بطبيعة الحال كانوا يدركون التوجهات الأممية (orientations internationalistes) للحركة البلشفية، معتقدين أنها ستقيم المساواة بين الأعراق و تحطم سيطرة العنصر الروسي (grand-russe) ، هذه السيطرة التي سيعيدها البيض (les Blancs) إذا وصلوا مرة أخرى للحكم".<sup>1</sup> و لعلّ دعائها اختاروا هذا التوجه أي ربط القومية بالتوجه الشيوعي كإستراتيجية تسمح لهم فقط بتحقيق المطالب القومية، أي بتوظيف الشيوعية كمطية tremplin لا غير.

تستمد هذه الحركة أهميتها من محاولاتها لصياغة نظرية شيوعية متكيفة مع واقعها الخاص، و تمّ التصريح العلني بمطالبها في المؤتمر الأول لشعوب المشرق المنعقد بمدينة باكو في سبتمبر 1920 و تمّ توثيقها في مقالات منشورة في مجلة " القوميات" الرسمية أو في منشورات أخرى سرية.<sup>2</sup> و يعتقد أصحاب هذه النظرية أنه ليس هناك إمكانية للاتحاد بين الطبقة العاملة (البروليتاريا) للدول العظمى المستعمرة (الغرب) و بروليتاريي الأمم المقهورة في المشرق، بل توجد اختلافات جوهرية بينهما، و الثورة لا يمكنها حل مشكلة التفاوت بين الأمم الغنية و المسيطرة و بين الأمم الفقيرة و المقهورة على اعتبار بروليتاريي الأمم المستعمرة الغنية سيرثون حتما النزعة الاستعمارية للطبقات المسيطرة، التي لن تزول بسهولة في المرحلة الاشتراكية.<sup>3</sup>

<sup>1</sup>Maxime Rodinson, Marxisme et monde musulman, Paris, Seuil, 1972,p.379.

<sup>2</sup> Jean Paul Roux, Histoire des Turcs, Deux mille ans, du Pacifique à la Méditerranée, Paris, Fayard,2000, p.397.

<sup>3</sup>Ibid. p.398.

و تمتد هذه الاختلافات حسب أصحاب هذه النظرية إلى تصور كل طرف للصراعات الاجتماعية ، فتصور الطبقة العاملة في الدول المتطورة اقتصاديا لطبيعة الصراع الاجتماعي يختلف عن تصور الطبقة العاملة في دول المشرق، بل إنّ تقسيم المجتمع المشرقي إلى طبقات متصارعة لا يستقيم إلا بعد أن يتطهر هذا المجتمع من الاستعمار بشكل كلي، و ذلك ليس ممكنا في المستقبل القريب، كما أن القهر الاستعماري يخلق تضامنا بين مختلف الطبقات في المجتمعات المقهورة، فتتحول حسبهم كل الطبقات إلى بروليتارية بفعل الاستعمار.

و تتوضح خطورة هذه الأفكار بالنسبة للروس لأنها حاولت تحطيم المبدأ الذي وظفته البلشفية و هو الأممية البروليتارية و التضامن الشيوعي، فجالييف و ريسكيلوف اعتبروا هذه الأممية مصيدة أو فخا نصبه الروس لخداع المسلمين و التغطية على أشكال جديدة من القهر الاستعماري. و لهذا رأى منظروا الشيوعية القومية أنه من الضروري استحداث تجربة شيوعية جديدة تتناسب أو تتكيف مع واقع المشرق و التأكيد على الخصوصية المحلية التركية و الإسلامية، فالشيوعية و إن كانت حسبهم محركا للتحرر بشكل عام إلا أن التحرر القومي هو أولى أولويات هذه المرحلة، و لهذا فقد جعلت هذه النظرية الصراعات القومية أهم من الصراعات الطبقيّة بعكس كل النظريات و المدارس الماركسية السابقة. و من هنا بدأت المطالب بإقامة دول قومية تركية أو طورانية و بإنشاء حزب شيوعي تركستاني.<sup>1</sup>

و لكنّ البلاشفة رفضوا هذه المطالب جملة و تفصيلا و ذلك لسببين: أولهما عدم تلاؤمها مع النظرية الماركسية و مع مبدأ الأممية (l'internationalisme) و ثانيها لعدم تلاؤمها مع المشروع السوفييتي ككل. و لهذا لم تتأخر انتقادات البلاشفة للقومية الشيوعية بل انطلقت أثناء المؤتمر الأول لشعوب المشرق و استمرت لسنوات طويلة ، في الوقت الذي استمر القوميون الشيوعيون المسلمون في التأكيد على مطالبهم سواء في الأطر الرسمية أو في منندياتهم الخاصة. لكنّ الإدارة السوفييتية و بوصم سلطان جالييف و تورار ريسكيلوف و أتباعهما بالانحراف القومي (déviation)

<sup>1</sup>Maxime Rodinson, *op.cit.*, p.378.

(nationaliste) عجلت بتصفيتهم جميعا في السنوات اللاحقة و كانت تنتظر فقط حصول قدر معين من الاستقرار للقضاء على كل المزاعم القومية و أولها " القومية الشيوعية".<sup>1</sup>

و بالفعل فلقد مارست الدعاية السوفييتية ضغوطاً قوية على أصحاب هذا المشروع و أصبح كل شخص من المسلمين تريد الحكومة السوفييتية تصفيته تقوم باتهامه بالتهمة المعدة سلفا وهي : (sultangalievtchina) و التي تعني باللاتينية (sultangalievisme) نسبة لسلطان جاليف الذي تم تصفيته هو و تورار ريسكيلوف في ظروف غامضة و غير معلومة إلى يومنا هذا.<sup>2</sup>

و تبقى هذه النظرية تمثل أقوى الأفكار المعادية للمشروع البلشفي و السوفييتي من بعده ، في حين عدّها البعض فكرة جنينية لما أصبح يعرف بعدها بالفكرة العالم ثالثة (le tiers-mondisme) أو الأفرو-آسيوية . و لكن الخطر الأوضح بالنسبة لستالين يكمن في كون جاليف هو الشخصية الوحيدة من بين مسلمي القيصرية و الاتحاد السوفييتي التي استطاعت أن تبلور تصورا واضحا لكيان سياسي يفترض فيه لم شمل جميع أتراك روسيا الإمبراطورية و الصين ( تركستان الشرقية أو سينكيانج )مجتمعتين (أنظر الشكل رقم 3)

<sup>1</sup>Alexandre Bennigsen, Chantal Lemerrier-Quelquejay, *Sultan Galiev Le père de la révolution tiers-mondiste*, Paris: Fayard, 1986, p.127.

<sup>2</sup>Olga Bronnikova , Mathieu Renault," *Communisme et nationalisme: une lettre inédite de Mirsaid Sultan Galiev*" [www.revue-periode-communisme-et-nationalisme-une-lettre-inedite-sultan-galiev/.consulté](http://www.revue-periode-communisme-et-nationalisme-une-lettre-inedite-sultan-galiev/.consulté) le 1/3/2013.

الشكل رقم 3: خريطة توضح الكيان السياسي الجامع لشعوب آسيا الوسطى.

(كما تصوّرهما سلطان جالييف)



Xavier Martin, " Cours sur les espaces turcophones"

المصدر:

[www.xaviermartin.fr /index.php?post/2010/05/09/cours-sur-les-espaces-turcophones](http://www.xaviermartin.fr/index.php?post/2010/05/09/cours-sur-les-espaces-turcophones).  
(consulté le 15/11/2013).

## استنتاجات الفصل الثاني

تميّز الاستعمار الروسي عن الاستعمار الأوروبي الغربي في كثير من النواحي، لكنهما يجتمعان في عامل أساسي و هو فرض سيطرة المركز على أقاليمه الطرفية، و التي لا تتحقّق إلّا بإضعاف الشعوب المستعمرة و فق نفس الإستراتيجية: فرّق تسد.

فلقد كان للسياسة الاستعمارية الروسية الدور الأكبر في تقسيم و تجزئة منطقة آسيا الوسطى و دراسة هذه التجربة تسمح باستخلاص جملة من الاستنتاجات الهامة:-

- تتميز آسيا الوسطى عن المستعمرات الروسية الأخرى بوحدةها القومية ( الانتماء إلى القومية التركية) و وحدتها الدينية ( بفضل اعتناق شعوبها للإسلام) و لأنّ الاستعمار الروسي لهذه المنطقة تزامن مع بروز حركات الإحياء و التجديد الديني المنادية بالوحدة الإسلامية (panislamisme) و بروز الحركة القومية التركية (panturquisme) فلقد سعت الإدارة الاستعمارية جاهدة إلى تكسير هذه الولاءات الجامعة.
- و بما أنّ الإسلام و القومية التركية هويتان تتجاوزان الانتماءات المحليّة الضيقة، فلقد كان الحلّ هو مقاومتها بتقوية الهويّة العرقية التي كانت في تلك الفترة ضعيفة بفضل تمازج السكّان جغرافيا و لغويا.
- أدركت روسيا القيصرية أنّ إستراتيجية التقسيم و التجزئة لن يكتب لها النجاح دون استعمال الطرق الحديثة و توظيف العلوم الاجتماعية لتبرير سياستها و هو ما لخصّه Sergey Abasin في فقرة قصيرة: " قام الحكم القيصري باختلاق قبائل و شعوبا و أعطائها أسماء و ألقابا و منحها شخصيتها و حدّد لها لغاتها و تقاليدها مستعملا الإحصاء، الخرائط و المتاحف" و هذه السياسة هي جوهر الفكرة التي طرحها بندكت أندرسون في كتابه " الجماعات المتخيّلة".
- و مهما قيل عن كفاءة الاستعمار القيصري في تسيير أقاليمه الطرفية و توظيف مختلف العلوم لتحقيق التمايز بين مكونات الإمبراطورية فهو عند مقارنته بالتجربة البلشفية و السوفييتية يبدوا استعمارا تقليديا و بسيطا للغاية.

- فالتجربة السوفييتية تجربة فريدة من نوعها فهي أول مشروع سياسي تبني الأفكار الأممية و صاغها وفق نظرية متكاملة هي الماركسية اللينينية.
- كان زعماء الشيوعية الروسية يعطون أهمية قصوى للمسألة القومية و الاستعمارية بنفس الدرجة التي اهتم بها نظراؤهم النمساويون. فالماركسيين الروس و النمساويين عاشوا في إمبراطوريات متعدّدة القوميات و الأعراق و أدركوا ضرورة التفكير في هذه القضايا بما لا يتعارض مع مبادئ الماركسية.
- أدرك الماركسيون الروس، ومن قبلهم ماركس و انجلز و باور و كوتسكي، قوة النزعات القومية التي بدأت تبرز في أوروبا ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر.، و بالرغم من تعارضها مع الانتماء الأساسي للماركسيين و هو الانتماء الطبقي، فلقد تقطّنوا إلى ضرورة توظيفها لإضعاف مراكز الرأسمالية الكبرى. و هنا نلمس الجانب التكتيكي في التفكير الماركسي و خاصة لدى فلاديمير لينين.
- وظّف لينين مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها لاستمالة شعوب المستعمرات ضد الإدارة القيصرية التي وصفها بسجن الشعوب، و لم يكن لينين يقصد بهذا المبدأ تحرير هذه الشعوب بقدر ما كان يريد خلخلة توازن القيصرية.
- استمرّت السياسات الاستعمارية بعد ثورة أكتوبر 1917 مع تغيّر الخطاب السياسي، و بدل أن يمنح الماركسيون شعوب المنطقة حرّيتها وعدوها بالمساواة، فلم يكن في نية البلاشفة تحطيم الكيان السياسي الروسي بقدر ما كانوا يسعون لتغيير طبيعته. و في آسيا الوسطى عرفت هذه المرحلة بروز حركة قومية حاول استغلال الخطاب البلشفي لإعادة جمع شعوب المنطقة في كيان سياسي يوحدّها و يميّزها عن بقية الأقاليم الروسية، و عرفت هذه الحركة بالشيوعية القومية ( سلطان جاليف و تورار ريسكيلوف)، كما شهدت كذلك بروز الحركات الدينية الاستقلالية التي قاومت المد البلشفي قرابة عقد من الزمن متمثلة في ثورة الباسماتشي التي قادها وزير الحربية التركي السابق أنور باشا.
- و لهذا فلقد كان مهندس الاتحاد السوفييتي جوزيف ستالين حريصا على منع بروز الانتماءات فوق العرقية سواء كانت دينية أو قومية جامعة، فلجأ إلى نفس الاستراتيجيات السابقة المطبّقة في الفترة القيصرية و أضفى عليها طابعا ماركسيا علميا.
- و كان من نتيجة هذه السياسات بروز خمسة جمهوريات سوفييتية متميزة عرقيا، عمل ستالين على تكسير كلّ القواسم المشتركة التي كانت تجمع شعوبها.

### الفصل الثالث: السياسة السوفييتية (محدداتها و نتائجها).

تعتبر العقود السبعة من الحكم السوفييتي مرحلة أساسية في تاريخ آسيا الوسطى الحديث، و لكون النموذج السوفييتي نموذجا متميزا و فريدا من نوعه، فلا بد أن تكون دراسة السياسات القومية والعرقية المنتهجة من قبل النظام السوفييتي آخذة بعين الاعتبار طبيعة النظام الإيديولوجية و السياسية أي منطلقاته الماركسية الاشتراكية من جهة و آخذة بعين الاعتبار موازين القوى و مصالح الدولة الجديدة و الضغوط الممارسة عليها من جهة أخرى، و هي المقاربة التي يراها المؤرخ ادوارد هاليت كار السبيل الأمثل لفهم سلوك صانع القرار السوفييتي بعيدا عن المقاربة الاختزالية التي سادت عقودا طويلة و التي ارتبطت بطبيعة الصراع بين المعسكرين في مرحلة الحرب الباردة.

فالكلام عن سياسات الاتحاد السوفييتي في مجال تسيير القوميات و العرقيات و الذي يصب اليوم في إطار أشمل هو مباحث الهوية والأقليات، لا بد أن ينطلق من مسألة جوهرية و هي حرص زعماء الاتحاد السوفييتي على أن تكون سياستهم ( أو أن تبدو كذلك ) متسقة مع مبادئ الماركسية و تصورها للظاهرة القومية.

و إن كنا قد تحدثنا في الفصل الثاني عن محاولات التنظير للمسألة القومية من خلال مؤلفات كل من زعيمى البولشفية لينين و ستالين و رأينا حجم الصعوبة في تكييف النصوص الماركسية مع البيئة الخاصة في روسيا القيصرية ، فالمهمة ستكون لا محالة أخطر و أعظم في ظل نظام يقوده هذان الزعيمان، لأننا سننتقل من حقل التنظير إلى حقل الممارسة و التطبيق، مع التسليم بكون حقل الممارسة تعترضه صعوبات عملية محسوسة و ملموسة قد لا تعترض عمل الباحث أو المنظر، كما أن صاحب القرار يخضع لظروف المحيط الذي يعمل فيه و ما تقتضيه ضرورات كل مرحلة بعكس الباحث كما يؤكد هاليت كار.

و عليه فستكون الدراسة في هذا الفصل مركزة على خصائص التجربة السوفيتية و قدرتها على خلق واقع قومي و عرقي جديد في المنطقة يمكّنا من فهم وإدراك حقيقة الإرث السوفيتي في مجال السياسة القومية و العرقية و من تم يمكننا استطلاع تأثيراتها على المرحلة اللاحقة أي مرحلة استقلال الجمهوريات الوسط آسيوية.

### المبحث الأول: التأسيس للقوميات في الفترة السوفيتية.

تعتبر الفترة الممتدة من 1917 الى 1924 فترة أساسية في تاريخ الدولة البلشفية الفتية، لكنها كانت فترة اضطراب و صراع كبيرين، فلقد كان التردد و الحذر من السمات البارزة في سياسة الدولة داخليا و خارجيا، فالحرص على الاستقرار و المحافظة على وحدة الإمبراطورية المترامية الأطراف دون الظهور بمظهر المستعمر الجديد هو ما ميز الخطاب البلشفي في هذه الفترة بالذات لاستتاده على إيديولوجية تقوم على مبادئ الأممية و التحرر.

لكن الانتقال من مرحلة الثورة - و ما يتبعها من مرحلة انتقالية - إلى مرحلة بناء الكيان السياسي الجديد أو ما سمي اختصارا بالاتحاد السوفيتي، سيسمح لنا باستخلاص طبيعة النظام الجديد و وسائله المتبعة في تسيير التعددية العرقية و القومية ، و كذا المبررات السياسية و الأمنية التي دفعته الى تقسيم منطقة آسيا الوسطى الى خمس جمهوريات متميزة عن بعضها البعض.

## المطلب الأول: عملية التقسيم القومي.

امتدت عملية تقسيم منطقة آسيا الوسطى إلى جمهوريات اشتراكية سوفيتية لأكثر من 14 سنة إذ أنها انطلقت سنة 1922 و استمرت الى غاية 1936 لتأخذ شكلها العام، بل إن كثيراً من التعديلات طرأت عليها فيما بعد.

يمكننا اعتبار قيام الاتحاد السوفيتي كأهم النتائج الأساسية لثورة 1917، بحيث كان محركها هو إرادة لينين تحويل الإمبراطورية الروسية من طابعها الوحدوي unitaire إلى الطابع الفيدرالي أو إلى اتحاد بين مجموعة من الجمهوريات، و ذلك بالاعتماد على العرق l'ethnie كمبدأ أو أساس للتقسيم مع منح كل جمهورية استقلالاً ثقافياً محلياً.<sup>1</sup>

فمع استعادة البلاشفة لزام الأمور في آسيا الوسطى، بفضل الجهود التي بذلت من قبل لجنة تركستان و القيادة العسكرية بإمرة ميخائيل فرونزه M. Frunze (و هو ما سماه البعض " la reconquista تشبهاً بما حصل بعد استعادة الإسبان للأندلس)، بدأت مسألة إعادة النظر في الخريطة السياسية للمنطقة بكل ما فيها من الكيانات الجديدة التي برزت للسطح، و مطالبتها بالانفصال التام أو النسبي عن روسيا، حيث أن الانفلات الأمني و انعدام الاستقرار اللذين ميزا مرحلة ما بعد الثورة ( كمرحلة انتقالية) لم يسمحا للبلاشفة من إقرار أو تحديد تصور شامل لهيكل الدولة الجديدة .

فلم يكن لينين في بداية الأمر ينظر إلى عملية التقسيم أو مسألة الحدود بالقدر نفسه من الاهتمام الذي أولاه لها ستالين، فلقد كان يعتقد أن الحدود مسألة ثانوية مادام الهدف الأسمى وغاية الثورة هما خلق أممية عالمية و لهذا فلقد صرح سنة 1917 أن : " ما يهم بالنسبة لنا (أي البلاشفة) ليس من أين تمر

<sup>1</sup>Julien Thoréz, " Les nouvelles frontières de l'Asie centrale: Etats, nations, et régions en recomposition", [www.cybergéo.com](http://www.cybergéo.com).( consulté le 15/8/2013)

الحدود و لكن ما يهمنا هو أن تكون وحدة الطبقة الشغيلة مصانة عالميا لنستطيع مكافحة البورجوازية أينما كانت"<sup>1</sup>. و لهذا فالحدود هي حدود مؤقتة ، و لكن وصول البلاشفة للحكم و ما أعقبه من حرب أهلية و عجز الثورة من فرض نفسها في أمم أخرى ما عدا روسيا و خاصة بعد فشل الثورة السبارتاكية في ألمانيا ، حثّم على البلاشفة تسيير الإرث الاستعماري القيصري. و عليه فمسألة التقسيم و الحدود هي تجاوز لإيديولوجية ترفض مفهوم الحدود أصلا- لأنها تنتظر إلى الثورة كظاهرة لا يجب تقييدها أو تحديدها جغرافيا، لأن الثورة تريد أن تنتشر و تسيطر- إلى مرحلة جديدة خضعت لما يمليه الواقع ، فلامبراطورية المتهاكلة حدود خارجية حقيقية تفصلها عن بقية الأمم كما لها واقع داخلي متعدّد و متميز اقتصاديا و لغويا و عرقيا يميز الأقاليم عن بعضها البعض.<sup>2</sup>

فلقد اقترحت لجنة تركستان على القيادة البلشفية في الأول من جانفي عام 1920 تقسيم تركستان ( أو آسيا الوسطى) إداريا، على أساس الخصائص العرقية و الاقتصادية للمنطقة إلى ثلاثة كيانات متميزة ، الأول خاص بالتركمان في المناطق الشرقية من بحر قزوين la Transcaspienne ، الثاني خاص بالأزبك و الطاجيك في سمرقند و فرغانة و جزء من منطقة سير داريا Syr Daria و الثالثة بالنسبة للكيرخيز ( و يقصدون بهم الكازاخ لأن الروس كانوا لا يزالون يطلقون تسمية الكيرخيز على الكازاخ ) في المناطق المتبقية من سير داريا و أمو داريا Amu Daria و مجمل منطقة سيميريشيا la Semirechie<sup>3</sup>.

بينما اقترحت، في الوقت نفسه، هيئة خاصة أخرى شكلتها اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الروسي متكونة من ثلاثة أعضاء إخضاع المنطقة لخيارات أكثر مركزية معتمدة على نفس القالب المطبق في الفترة القيصرية حفاظا على وحدة الدولة من التفتت و التقسيم.

ففي العشرين من جوان 1920 حدد لينين موقفه من المسألة باقتراحه تقسيم الجمهورية المستقلة ذاتيا لتركستان *république autonome du turkestan* ( و التي تشكلت في أفريل 1918) إلى

<sup>1</sup>Svetlana Gorshenina, *op.cit* p.242.

<sup>2</sup>*Ibid.*, p. 243.

<sup>3</sup>Edward Allworth, *The Modern Uzbeks, From the Fourteenth Century to the Present*, Stanford, California: Hoover Institution Press, 1990, p.181.

جمهوريات أصغر، مرجحا الاقتراح الذي اعتمدته لجنة تركستان، و لأن لينين في تلك الفترة لم يكن مطلعاً اطلاقاً جيداً بحقيقة الواقع التركستاني فلقد طالب الهيئات المختصة باستصدار خريطة عرقية للمنطقة حتى يتمكن من معرفة توزع الأعراق و القوميات فيها، بحيث يكون التقسيم المستقبلي مدركاً لمميزات كل منطقة.<sup>1</sup>

كان ستالين في البداية رافضاً للخيار المتبع من قبل لينين ، بل كان يريد أن يكون الكيان الجديد أكثر مركزية تحت تسمية " الجمهورية الاشتراكية الاتحادية السوفيتية لروسيا " *République socialiste fédérative soviétique de Russie* . و هو كيان تذوب فيه جميع الجمهوريات و تفقد استقلاليتها لصالح روسيا التي ستصبح مركزاً للسلطة و هو المشروع الذي جعل لينين يقترح بديلاً عنه لتكون المساواة بين الجمهوريات قاعدته المعيارية<sup>2</sup>

وبالرغم من أن ستالين لم يكن روسيا بل كان جورجيا، إلا أنه كان أكثر ميلاً إلى أن تكون روسيا محور و مركز الدولة الجديدة و لغتها هي اللغة الرسمية على حساب الحقوق الثقافية و القومية، أي على حساب القوميات الأخرى التي تشكلت منها الإمبراطورية الروسية، بل إن لينين - و هو الروسي أصلاً - كان أكثر ميلاً للنظام الفيدرالي، و اعترض على النزعات التي تريد جعل روسيا أو الروس جوهر النظام الجديد، هذه النزعة سماها لينين الشوفينية الروسية (شوفينية الروس الكبار *le chauvinisme grand-russe*). و هذه المسائل كانت أكثر ما أثار مخاوف لينين حول مستقبل الثورة ، إذ اعتبرها الكاتب موشي لوين Moshé Lewin المعركة الأخيرة التي خاضها لينين<sup>3</sup>

و في المؤتمر التاسع للحزب الشيوعي انتقد لينين و بلهجة حادة الشوفينية الروسية و صرح قائلاً " اخذش (égratigner) بعض الشيوعيين و ستكتشف في الحين ، شوفينيين روس"<sup>4</sup> ، فلقد كان قلقه

<sup>1</sup>Svetlana Gorshenina, op.cit., p.201.

<sup>2</sup>Michael Lowy, "La révolution d'Octobre et la question nationale: Lénine contre Staline", [www.europe-solidaire.org/spip.php?article2507](http://www.europe-solidaire.org/spip.php?article2507).

<sup>3</sup>Moshe Lewin, *Le dernier combat de Lénine*, Paris: Editions de Minuit, 1967.

<sup>4</sup>Vladimir Lénine, *Œuvres choisies de Lénine*, Moscou: Les Editions du Progrès, 1968, vol3, p.759.

واضحا من وجود مفارقة خطيرة، فبالرغم من أن 70 % من أعضاء الحزب ينتمون للقومية الروسية إلا أن النزعة الشوفينية الروسية ظهرت أكثر لدى الأعضاء غير الروس أي المنتمين للأقليات القومية المشكلة للقيصرية الروسية، و أغلب الظن أن لينين كان يقصد جوزيف ستالين بالدرجة الأولى، و من المفارقات أيضا أن هذا الأخير هو المحافظ أو الوزير المكلف بشؤون القوميات.

لكن ستالين استقر على رأي لينين و غير مواقفه الأولية، بل كان المهندس الفعلي للاتحاد وفق الشكل الذي ابتغاه لينين، فابتداء من سنة 1924 قامت الإدارة المركزية بحل كل الكيانات الإدارية السابقة لإعادة رسم خارطة جديدة لمنطقة آسيا الوسطى (على غرار الجمهوريات السوفييتية الأخرى)، صادق عليها الدستور الذي اعتبر الكيان الجديد " اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية" اتحادا بين الفيدرالية الاشتراكية السوفييتية لروسيا و باقي " الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية" بحيث تستطيع هذه الأخيرة أن تضم جمهوريات مستقلة ذاتيا (républiques autonomes) ، مناطق مستقلة ذاتيا (régions autonomes) و أقاليم قومية (territoires nationaux).

و هكذا استطاع صناع القرار في موسكو إنشاء جمهوريات جديدة لم يكن لها أدنى وجود في السابق ( على الشكل أو وفق الحدود التي وضعها السوفييت)، حيث كانت البداية بالجمهورية الاشتراكية السوفييتية لتركمانيا (RSS de Turkménie) و الجمهورية الاشتراكية السوفييتية لأزبكستان التي احتوت الجمهورية المستقلة ذاتيا لطاجاكستان ( قبل أن تصبح جمهورية اشتراكية سوفييتية) التي ألحق بها المنطقة المستقلة ذاتيا (جورنو-بدخشان Gorno-Badakhchan) ، بينما تم تشكيل الجمهورية المستقلة ذاتيا لكيرخيزيا ( كازاخستان لاحقا) و الجمهورية المستقلة ذاتيا لكارا-كيرخيزيا ( كيرخيزستان لاحقا) و تم إلحاقهما بروسيا، و في الأخير المنطقة المستقلة ذاتيا لكاراكالباكيا (Karakalpakie) الملحقة مباشرة بروسيا.<sup>1</sup> و في سنة 1929 تم ترقية طاجاكستان و فصلها عن أوزبكستان لتصبح جمهورية اشتراكية سوفييتية و أضيف لها اقليم (Oblast) لينين آباد الذي كان قبلها تابعا لأوزبكستان ، بينما تم إبقاء مدينة سمرقند التي يقطنها الطاجيك تابعة لجمهورية أوزبكستان و التي استبدلت بطشقند كعاصمة لأوزبكستان

<sup>1</sup>Steven Sabol, "The Creation of Soviet Central Asian: The 1924 National Delimitation", *Central Asian Survey*, Vol.14, Issue2, 1995, p.229.

و هي إجراءات تكشف الحسابات و المنطق المتحكم في عملية التقسيم ( باعتبار سمرقند تعتبر مركزا لتزاوج الثقافة الفارسية بالتركية و العنصر الطاجيكي بالعنصر الأزيكي) بينما طشقند هي مدينة تركية بامتياز.<sup>1</sup>

و في سنة 1929 تم تغيير تسمية كل من كيرخيزيا إلى كازاخستان و كاركيرخيزيا إلى كيرخيزستان دون أن يكون هناك تغيير في وضعهما القانوني، بينما تمت ترقية كاركالباكيا إلى جمهورية مستقلة ذاتيا في إطار الجمهورية الروسية، لكن تم إلحاقها لجمهورية أوزبكستان سنة 1936، و في الوقت نفسه تمت ترقية كل من كازاخستان و كيرخيزستان لتصبحا جمهوريتين سوفيتيتين. أنظر الأشكال رقم 4 و 5 و 6 الموضحة للمسار التاريخي لعملية التقسيم.

---

<sup>1</sup>Ibid., p. 231.

الشكل رقم 4 : خريطة توضح الكيانات المشكّلة لآسيا الوسطى سنة 1923



Julien Thoréz, " *Les nouvelles frontières de l'Asie centrale: Etats, nations, et régions en recomposition*" [www.cybergéo.com](http://www.cybergéo.com). Consulté le 15/04/2012

المصدر :

الشكل رقم 5: خريطة الكيانات المكونة لآسيا الوسطى سنة 1924

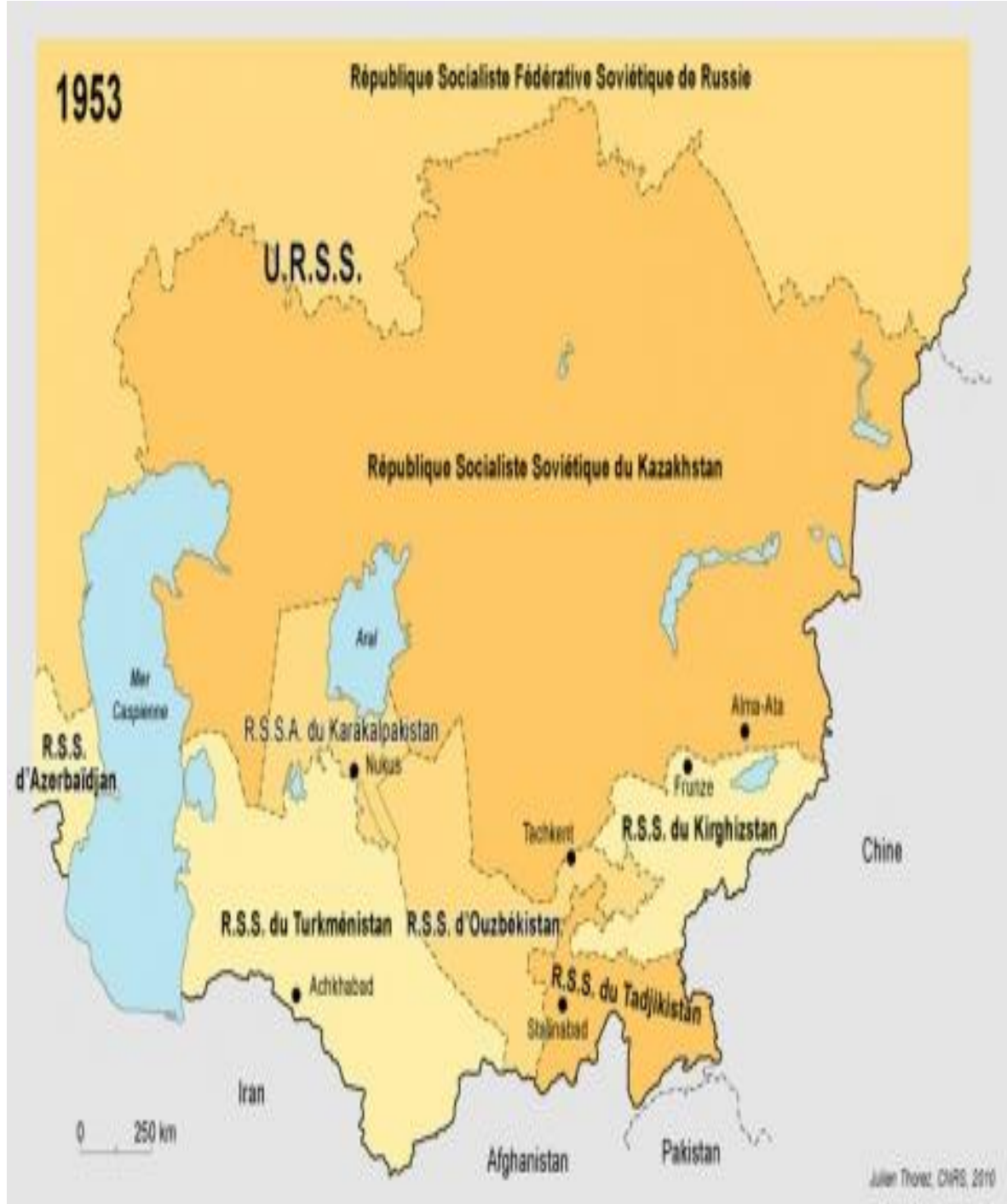
بداية تبلور الخريطة الأساسية للاتحاد السوفيتي



المصدر: Julien Thoréz, " *Les nouvelles frontières de l'Asie centrale: Etats, nations, et régions en recomposition* "

[www.cybergéo.com](http://www.cybergéo.com). Consulté le 15/04/2012.

الشكل رقم 6 : التعديلات الأخيرة الطارئة على خارطة آسيا الوسطى سنة 1953



المصدر : Julien Thoréz, " *Les nouvelles frontières de l'Asie centrale: Etats, nations, et régions en recomposition*" [www.cybergéo.com](http://www.cybergéo.com). Consulté le 15/04/2012.

## المطلب الثاني: الاثنوغرافيا السوفيتية ، محدد/ مبرر للسياسة العرقية.

إذا اعتبرنا الاتحاد السوفيتي مشروعا استعماريًا كباقي المشاريع المبتدعة في مناطق أخرى فإنه من البديهي القول أن التقسيم ( التفرقة) الذي هو سمة كل استعمار قد طبق لتحقيق السيادة و التمكين للطرف المستعمر للسيطرة و التحكم في مصائر الشعوب المستعمرة ، و هو ما تختصره ببلاغة المقولة المتكررة في هذا المقام و هي " فرق تسد *diviser pour régner* ".

بيد أن اعتبار الاتحاد السوفيتي مشروعا مماثلا لبقية المشاريع الاستعمارية الأوروبية، يجعلنا غير قادرين على تلمس طبيعة الكيان الجديد ، الذي أراد له أصحابه أن يكون مغايرا لكل التجارب السابقة بحيث يكون قادرا على إنشاء هوية جامعة جديدة تستند إلى إيديولوجية واضحة هي الماركسية كما تصورها كل من لينين و ستالين، الغرض الأخير منها صهر مختلف الشعوب و القوميات في بوتقة واحدة هي الشعب السوفيتي.<sup>1</sup>

و لهذا سيصبح الحديث عن المحددات الإيديولوجية ( الماركسية) بمعزل عن البيئة المحلية و الدولية حديثا نظريا مجردا غير مدرك للواقع و تحدياته، و ضرورة الموازنة بين متطلبات النظام السياسي و محدّداته الإيديولوجية، و لهذا استندت سياسة تقسيم الفضاء الوسط آسيوي إلى خمس جمهوريات متميزة على ثلاثة عناصر أساسية:

1/ منظومة نظرية صاغها أولا ستالين نفسه من خلال دراسته للظاهرة القومية و التي توجت بكتابه المعنون " الماركسية و المسألة القومية و الاستعمارية" و تم تطويرها فيما بعد من قبل المدرسة الاثنوغرافية السوفيتية.

---

<sup>1</sup>Marc Ferro, "Colonisation russe-soviétique et colonialismes occidentaux: Une brève comparaison", *Revue d'études comparatives Est-Ouest*, décembre 1999, p.77.

2/ تصنيف إداري و سياسي يقوم على الأقلمة ( la territorialisation ) و الوضع القانوني للغات.

3/ ضغط البيئة السياسية و الإستراتيجية ، و ما تفرزه من خيارات عملية براغماتية، مع مراعاة تخريجها بصيغة تبدو مطابقة للمحدد الإيديولوجي ( النظرية الماركسية).

فالتعقيد أو صعوبة إدراك مبررات التقسيم السوفيتية تأتي من و جود إرادة سياسية حقيقية في التوفيق بين متطلبات المحدد الإيديولوجي للدولة و بين تجاذبات البيئة الأمنية و السياسية ، و عليه فلا يمكننا أن ننكر تميز السياسة القومية السوفيتية عن غيرها من السياسات المصاغة في جهات أخرى من العالم.

تعتبر المدرسة الاثنوغرافية السوفيتية تنمة أو مواصلة للطرح الستاليني للمسألة القومية و الذي تمت صياغته قبل الثورة البلشفية، و هو يقوم على التوفيق بين الفهم الماركسي للقومية و بين إسهامات المدرسة القومية الرومانسية (nationalisme romantique).<sup>1</sup>

ففي كتابه " الماركسية و المسألة القومية (1913) صاغ ستالين تعريفا لمصطلح الشعب (Narod" باللغة الروسية ) " الشعب هو جماعة مستقرة ، تشكلت تاريخيا، له لغة و إقليم و حياة اقتصادية و له نفسية خاصة تتجلى من خلال ثقافة مشتركة " ، و الذي يبرز منه تأثير المدرسة الألمانية و خاصة مفاهيم الطابع القومي و التميز النفسي الذي استعاره ستالين من الماركسي النمساوي Otto Bauer. بينما اعترض عليها لينين لأنها مفاهيم ذاتية (subjectifs) باعتبار الثقافة القومية

<sup>1</sup>Frédéric Bertrand, "Critique de l'ethnos: Crise identitaire et/ou révolution paradigmatique", [www.institut-est-ouest-ens-lyon.fr/spip.php?article 152](http://www.institut-est-ouest-ens-lyon.fr/spip.php?article 152).(consulté le 14/5/2013).

ليست عاملا ثابتا بل متغيرا، و التسليم بوجودها كما طرحتها المدرسة الألمانية و الماركسيون النمساويون يجعلها منافسة للانتماء الطبقي كانتماء أساسي و هو ما يقضي حسب لينين على النزعة الأممية.<sup>1</sup>

اعترض ستالين على المفهوم الفرنسي للمسألة القومية ، فالشعب لا يتحدّد حسبة بعقد سياسي كما يعتقد ارنست رينان و لكنه يتحدد بعوامل طبيعية و موضوعية ، و يريد ستالين هنا إضفاء طابع ماركسي لنظرية الفولك الألمانية (le Volk) ، وذلك من خلال توظيف نظرية مراحل التطور الخمسة الماركسية فحسب ستالين فإنّ الشعب يمرّ من حالة القبيلة (Plemya باللغة الروسية) الذي تطبع المجتمعات البدائية إلى المرحلة الرأسمالية التي تتشكل فيها الأمة ( Natsya باللغة الروسية) و التي تتحدد بسوق و بالتالي إقليم.<sup>2</sup>

و تتبعت المدرسة الاثنوغرافية السوفييتية المعالم التي وضعها ستالين لتبرير مختلف السياسات القومية و العرقية المتخذة ، و على رأسها آليات تقسيم الاتحاد السوفييتي إلى كيانات متميزة ، حيث استطاع أشهر عالم للأعراق في الاتحاد السوفييتي ( Youlian Bromley ) من صياغة نظرية عرقية جديدة سميت بنظرية الاثنوس ( Théorie de l'ethnos )، و هي نظرية معقدة ساهمت في معالجة المسألة معالجة علمية أكاديمية ( و ذلك بخلق مدرسة أنثربولوجية سوفييتية خالصة مستندة على أدوات التحليل الأنثربولوجي المعمول بها في مختلف دول العالم للتدليل على علميتها).<sup>3</sup>

ينطلق يوليان بروملي من أن الاثنوس عامل ثابت من حيث الوجود ( invariant ) و لكنّه في الوقت نفسه يخضع لقوانين التطور و التحول و هو في نفس الوقت وليد انصهار و توحيد

<sup>1</sup>Alain Blum, Elena Filippova, "Territorialisation de l'ethnicité et ethnicisation du territoire: Le cas du système politique soviétique et russe", *l'Espace géographique*, tome35, vol.4. 2006, p.120.

<sup>2</sup>Olivier Roy, *Asie Centrale ou la fabrication des Etats Nation*, op.cit., p.109.

<sup>3</sup>Alain Blum, Elena Filippova, op.cit., p.125.

( Fusion ). و عليه فالاتحاد السوفييتي هو مرحلة ستتبعها مرحلة تطويرية لاحقة تتصهر فيها القوميات ليتشكل الإنسان السوفييتي الجديد (l'homo-sovieticus)<sup>1</sup>.

و ليس صعبا على القارئ أن يكتشف أن المدرسة الاثنوغرافية كما صاغها يوليان بروملي هي تسويق علمي للسياسة العرقية أو القومية الستالينية، قد استندت على اتجاهين نظريين احدهما يرى في العرق ثابتا أو جوهر (substantialisme) بينما الاتجاه الآخر ينزع نحو التطورية ( évolutionnisme ) و بالتالي فهو يترك لصناع السياسة العرقية هامشا معتبرا للحركة تتجه في بعض الأحيان نحو التعسف و التحكم في مصائر الشعوب.<sup>2</sup>

و لعل أوضح معالم التعسف و العبثية تظهر في التأريخ للعرقيات و البحث في أصولها و مراحل تطورها ، فهنا ينطلق العلماء من واقع حاصل و يريدون إثباته بأدلة علمية عبثية، ففي المستوى الذي يتناول نشوء الأعراق (l'ethnogenèse) أراد علماء الأعراق السوفييت أن يثبتوا معطيات تاريخية خاطئة فعلى سبيل المثال جعلوا من الأوزبك ( l'ethnie ouzbèk ) العرق الذي استوطن جمهورية أوزبكستان السوفييتية منذ القدم ليشهد فيها مختلف مراحل تطوره و يصبح أمة ، في حين تؤكد كل كتب التاريخ السابقة أنهم قد استوطنوها في مراحل لاحقة قادمين من مناطق بعيدة في شمال آسيا ( استوطن الأوزبك الأقاليم التي تتشكل منها جمهورية أوزبكستان الحالية في القرن السادس عشر أي بعدما أطاحوا بالامبراطورية التيمورية (نسبة إلى تيمور لنك) سنة 1507). و هو ما يجعلهم ينطلقون من التقسيم الإداري الحاصل و يبررونه بواسطة تزوير فاضح للتاريخ.<sup>3</sup>

<sup>1</sup>Ibid., p.126.

<sup>2</sup>Frédéric Bertrand, "Une science sans objet? L'ethnographie soviétique des années 20-30 et les enjeux de catégorisation ethnique", *Cahier du Monde russe*, vol.44, n.1,(Jan-Mar 2003), p.102.

<sup>3</sup>Olivier Roy, *La nouvelle Asie Centrale*, op.cit., p.110.

### المطلب الثالث: التصنيف التراتبي للقوميات و العرقيات.

من الناحية النظرية ، اعتمدت الإدارة السوفييتية في تقسيمها للفضاء الوسط آسيوي، إلى جمهوريات و جمهوريات مستقلة ذاتيا و أقاليم على التعريف الستاليني للأمة ، بحيث يمنح الوضع القانوني و الإداري للأعراق بناء على درجة تقدمها الاقتصادي، فالشعوب التي وصلت الى مرحلة الأمة ( Natsya باللغة الروسية) هي الشعوب التي تعرف نمطا إنتاجيا رأسماليا (MPC)، و عليه فهي شعوب يتوجب منحها وضع " الجمهورية الاشتراكية السوفييتية" ، أما الشعوب الأقل تطورا من الشعوب التي وصلت إلى المرحلة الرأسمالية فهي شعوب يتوجب منحها وضع " الجمهوريات المستقلة ذاتيا" أو "منطقة مستقلة" (Oblast)، و "إقليم قومي" (Okrug).<sup>1</sup>

و يتمتع كل صنف من هذه التقسيمات بوضع إداري يتناسب مع مستوى التقدّم الذي طرأ عليه نظريا أو كما تراه الإدارة السوفييتية في واقع الأمر ، فبالنسبة للجمهوريات الاشتراكية السوفييتية فإنّها تتمتع نظريا بكل المظاهر و الرموز الخارجية التي تتمتع بها الدول المستقلة:

- رئيس للدولة ( رئيس السوفييت)

- وزير للشؤون الخارجية ( ابتداء من سنة 1944)

-علم جمهوري

-حزب شيوعي قومي

- لغة قومية

-أكاديمية للعلوم

---

<sup>1</sup>Ibid., p. 212.

- نشيد وطني...الخ.

بينما تتمتع الجمهوريات المستقلة ذاتيا ( républiques autonomes ) بوضع إداري أقل من الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية فهي تتمتع بما يأتي:

- سوفيات محلي.
- مجلس للوزراء يضطلع بالمسائل التقنية فقط مع غياب لوزارة الخارجية.
- لغة قومية، يقتصر التدريس بها في المستويات الابتدائية و الثانوية .
- أكاديمية للعلوم متفرعة من أكاديمية الجمهورية السوفياتية التي تحتويها.
- حزبها الشيوعي هو فرع من الحزب الشيوعي الجمهوري (القومي)

و في أسفل السلم تأتي المناطق و الأقاليم القومية ( Oblasts et Okrugs ) و التي لا تتمتع بكثير من مظاهر الاستقلال و التخصص بحيث تقتفر إلى الوزارات مع امتلاكها لمجالس سوفيات محلية.<sup>1</sup>

و من خلال هذا التراتب يمكننا القول أن تقسيم الاتحاد السوفياتي إلى جمهوريات و الجمهوريات إلى كيانات أصغر يشبه الى حد بعيد الدمى الروسية ( poupées gigognes ) التي يؤدي تفكيك الدمى الكبرى فيها الى ظهور دمية أخرى صغيرة و يؤدي تفكيك هذه الأخيرة الى ظهور دمية أصغر، و هكذا دواليك.

و بما أن اللغة هي المحدد الأولي في ترتيب القوميات فهي الوسيلة التي يستعملها الساسة السوفيات في منح بعض الشعوب وضعاً إدارياً راقياً أو العكس، فالقومية التي لا تتمتع بلغة مكتوبة ( langue

<sup>1</sup> Ibid., p. 213.

(écrite) لا يمكنها أن تحصل على إقليم خاص بها، و لكنّ المفارقة تكمن في أنّ الإدارة هي من يستطيع منح صفة المكتوبة على اللغات بطريقة جزافية تعسفية.<sup>1</sup>

و هنا تصبح مهمة اللغويين في غاية الحرج بحيث يصبحون "خبراء تحت الطلب" لا يستطيعون رفض الأوامر الفوقية، بل يقومون بتوظيف كل خبراتهم العلمية لتبرير أي قرار مهما كان غريباً. و لم يُستثنَ من السياسة الجديدة أحد، بل إن اللغوي السوفييتي الشهير V.Oransky اضطر في أبحاثه إلى تسمية لغات من أصل واحد بتسميات مختلفة خوفاً من ردود أفعال صناع القرار السوفييت، و بخاصة اللغات ذات الأصول الفارسية، حتى لا يتم ربط بعض الشعوب المحلية، و بخاصة الناطقين بالفارسية في حواضر آسيا الوسطى ( سمرقند و بخارى بأزبكستان) أو في عموم جمهورية طاجكستان السوفييتية، بشعوب تعيش في إيران و أفغانستان. إذ أنّه يسمّيها باللغة الطاجيكية عند التطرّق الى بلاد الطاجيك و يسمّيها الفارسية عند الحديث عن اللغة المستعملة في إيران بينما يسمّيها لغة الداري Dari عندما يتحدّث عن أفغانستان.<sup>2</sup>

فوظيفة اللغويين في المرحلة الستالينية إذن، أصبحت تتركز في تصنيف اللّغات المحلية و ترتيبها بشكل متدرج حسب وضع الأقاليم السياسي و الإداري، فيصبح منح لغة ما، مرتبة معينة متوقّف على ما تتمتع به من وضع إداري و يتم على إثره تصنيف الأقاليم و الشعوب من حيث التقدّم و التخلف.

و لو عدنا إلى واقع الأمر، لوجدنا أن كل جمهوريات آسيا الوسطى السوفييتية ( فضلاً عن الأقاليم و المناطق) كانت أثناء منحها طابع الجمهورية و اعتبار شعوبها و صلت الى مرحلة " الأمة Natsya " بجانب الحقيقة تمام المجانبه، فستالين أو مهندس التقسيم السياسي و الإداري و منظر القومية السوفييتية انطلق من مسلمة واضحة و هي أنه لا يمكن تصور ارتقاء مجموعة أو شعب إلى مرتبة الأمة قبل تحوّل الحياة الاقتصادية إلى نمط الإنتاج الرأسمالي، و هذا بدوره يتطلب وجود سوق قومية موحدة و طبقة

<sup>1</sup> Ibidem.

<sup>2</sup> Iosif Oransky, *Les Langues iraniennes*, (trad., française), Klincksieck, Paris:1977, p.126.

بورجوازية نشطة و فعالة، و بروز التمدن ( urbanisation ) ، بانتشار المدن الصناعية بكل تداعياتها ( ظهور طبقة بروليتارية و من تمّ بروز الوعي الطبقي). ففي رسالته الموجهة إلى بعض القيادات أو الرفاق (كما سمّاهم فيها و يقصد Mechkov و Kovaltchouk) بتاريخ 28 مارس 1929 أي في خضمّ عملية التقسيم القومي، قام بالرد عليهما، بعدما وصفا المعايير التي وضعها ستالين في تصنيف الأمم بالناقصة ، حيث يقول في معرض حديثه عن نشأة و تطور الأمم " إنكما تدّعيان أن الأمم نشأت و وجدت قبل الرأسمالية ، و لكن كيف يمكن لها أن تنشأ و تتواجد قبل الرأسمالية؟ ففي المرحلة الإقطاعية حيث كانت الدول مجزأة و مقسّمة الى إمارات مستقلة عن بعضها البعض ، لم تكن هذه الدول مرتبطة بأي رباط قومي ، بل إنّها كانت تجهل تماما أهميّة و ضرورة هذا الرابط القومي"<sup>1</sup>

فهل كانت آسيا الوسطى تتمتع بكل هذه الموصافات أثناء تصنيف شعوبها الى أعراق و قوميات و أمم و تقسيم أقاليمها الى درجات متفاوتة؟ بالطبع لا.

فكتب التاريخ و تقارير الإرساليات الرسمية و العلمية، تؤكد أن جمهوريات آسيا الوسطى أثناء عملية التقسيم لم تكن تتمتع بأي من الشروط و المحددات التي وضعها ستالين في دراسته للمسألة القومية لأن المنطقة و بكل بساطة، كانت في أغلبها مناطق زراعية أو رعوية، تفتقد الى كل مقومات الحياة المدنية العصرية ، و مع غياب تامّ لمعالم النشاط الصناعي. و إذا نظرنا إلى عموم الإمبراطورية فسندج أن الرأسمالية التي تحدّث عنها ستالين لم تكن راسخة في تلك الفترة لأنّ معظم السكّان كانوا مزارعين يقطنون في الأرياف و يعيشون ظروفًا قاهرة لم تختلف كثيرا عن الظروف التي عرفتتها هذه الطبقة قبل تحریم الرق، وعشية ثورة أكتوبر لم يكن عدد أفراد الطبقة البروليتارية ( العمّالية) يتجاوز 3 ملايين فرد في دولة كان عدد سكّانها يتجاوز 140 مليون نسمة<sup>2</sup>

<sup>1</sup>Joseph Staline," La question nationale et le léninisme: Réponse aux camarades Mechkov et Kovaltchouk et autres", in *Marxisme et la question nationale et coloniale*, op.cit., p.315.

<sup>2</sup>Hélène Carrère d'Encausse, *L'empire éclaté*, Paris: Flammarion, 1978, p.11.

بل إن معظم أقاليم آسيا الوسطى هي مناطق سهبية ( steppiques ) تغلب عليها حياة البداوة و الترحال كما هو الحال في كازاخستان و كيرخيزستان أو صحاري قاحلة في تركمنستان أو سلاسل جبلية متشابكة كجبال بامير في طاجاكستان، و الحياة الاقتصادية و الاجتماعية فيها لم تتغير منذ أكثر من خمسة قرون نتيجة للعزلة الخائفة التي عرفتھا المنطقة بفعل التغيرات السياسية الطارئة منذ قيام الدولة الصفوية في إيران سنة 1501 ، و تحول التجارة من المحاور البرية إلى المحاور البحرية ( بفضل الكشوفات الجغرافية أولا و اختراع السفن البخارية ثانيا ) و توقف القوافل التجارية.

#### المطلب الرابع: المحددات الأمنية و السياسية للتقسيم.

حاول ستالين أن يضيف طابعا ماركسيا لعملية التقسيم ، و لهذا استغل كل الأدوات النظرية و العلمية لتبرير المشروع السوفييتي و ما ترتب عنه من تقسيم لمنطقة آسيا الوسطى إلى جمهوريات اشتراكية و مناطق مستقلة ذاتيا، غير أننا لا نستطيع أن نتجاهل الأوضاع السياسية وضغوط البيئة المحلية و الإقليمية التي أدت إلى بروز الكيانات الجديدة وفق الصيغ التي فرضها ستالين .

إنّ شعوب آسيا الوسطى لم تكن بمعزل عن تأثير الحركات القومية و الدينية الجامعة أي القومية التركية ( أو الطورانية ) و الجامعة الإسلامية، وهي إذن روابط عملت الإدارات المتلاحقة، منذ القياصرة على القضاء عليها أو تحجيم دورها، و الاتحاد السوفييتي هو مشروع جديد أراد خلق ولاءات و انتماءات جديدة يسهل التحكم فيها و توجيهها الوجهة المرجوة.

جرت عملية التقسيم في أخطر مرحلة عرفها المشروع السوفييتي، فصناع الكيانات الجديدة كانت لهم أهداف محدّدة أرادوا تحقيقها ، و تهديدات كانوا يسعون إلى كسرها ، ولهذا فالعامل الأمني أو الجيوسياسي ، يعتبر في تلك الفترة الحرجة واحدا من العوامل الرئيسة في هندسة المنطقة.

من ثمة فقد ذهب معظم الباحثين المهتمين بالمنطقة ( Bennisen ,Allworth, Carrère ) إلى اعتبار الطريقة التعسفية و الجزافية التي خطت بها الحدود الوسط آسيوية ناتجة عن وجود نشاط قوي لقوى الثورة المضادة للبشافية و لوجود تيارات انفصالية متعددة ، و لهذا فلقد كان لجوء صناع الحدود الجديدة الى إنشاء أقاليم قومية لمنع كل شكل من أشكال الوحدة التركستانية، بعد فترة قصيرة من التسامح النسبي تبعت الثورة البشافية و اتسمت بعود أممية تدعو إلى احترام حقوق الشعوب و القوميات في تقرير مصيرها تماشيا مع الشعارات التي طرحها فلاديمير لينين .

و في هذا الإطار يؤكد O.Roy أن: " الأولوية الأولى عند القادة السوفييت تمثلت في تكسير الإطار الإسلامي الجامع و القومية التركية الجامعة ( panislamisme et panturquisme ) عن طريق إحداث تمايز بين المجموعات العرقية و إقامتها في إطار جديد هو "الدولة-القومية" ضمن منطق قائم على عرقنة المنطقة (ethnisation) بدأت بواده في مرحلة متأخرة من القيصرية الروسية ، و لكن ذلك لا يعبر عن كل الخيارات المطروحة ، بل إنّ كثير من السياسات العرقية السوفييتية كانت تستند على اعتبارات إستراتيجية و سياسية تتغير بتغير ظروف الزمان و المكان"<sup>1</sup>

و وصلت الكاتبة Francine Hirsh إلى استنتاجات مماثلة لما وصل إليه Roy، فالنقسيم حسبها كان " يتبنى المعيار القومي شكلا ، لكن الهدف الأساسي منه كان التفتيت و التجزئة ، بحيث يكون احتمال وقوع معارضة واسعة أو نزاع مسلح احتمالا ضئيلا إن لم يكن مستحيلا"<sup>2</sup>

<sup>1</sup>Olivier Roy, *La nouvelle Asie centrale, op.cit.*, p.114.

<sup>2</sup>Francine Hirsh, " Toward an Empire of Nation, border making and the formation of Soviet national identities", *The Russian Review*, vol.59, n.2, April 2000, p.215.

و يعتقد محمد رضا جليلي أن مهندسي التقسيم السوفييت ، كانوا منذ البداية يعملون على التخلص من كل ما من شأنه أن يوحد شعوب المنطقة ، و لهذا فقد عملوا على تقسيم المنطقة إلى قسمين ، و عزلوا منطقة السهوب عن المناطق الحضرية ، بل إنّ الروس قاموا بمنع مصطلح "تركستان" ذي الدلالة القومية الكبيرة من التداول تماما ، في الصحافة و في المعاجم و أطلس الجغرافيا و كتب التاريخ ، و يفسر ذلك على النحو الآتي : " في الواقع، هناك اعتبارات سياسية و إستراتيجية جعلت البلاشفة يعملون على تقسيم هذا الكيان الموحد المسمّى "تركستان" بل إنّهم قاموا بمسح هذه التسمية من القواميس ، لأنّ المصطلح كان يحمل دلالات خطيرة ، فهو في الفارسية يعني "بلاد الأتراك" ، و لأنّ بقاء الكيان موحدًا و بالتسمية نفسها يبقى على تطلعات شعوب المنطقة القومية الجامعة (panturquisme) و لهذا جرى استبداله بمصطلح آخر محايد ( neutre ) خال من كل دلالة عرقية أو قومية ، و منذ ذلك الحين أصبحت عبارة " آسيا الوسطى " هي التسمية الدالة على المنطقة <sup>1</sup>

و هو تماما، نفس التصور الذي تبناه Zbigniew Brzezinski الذي لقّب هذه المنطقة ببلقان أوراسيا ( مع إضافة جمهوريات القوقاز الجنوبي أي أرمينيا و أذربيجان و جورجيا غير أنه يميز هذه الدول عن آسيا الوسطى بوجود تاريخ قومي سياسي متجذّر): " إنّ حدود آسيا الوسطى تمّ رسمها بواسطة الكارتوغرافيين ( مهندسو الخرائط) السوفييت بطريقة تعسّفية لتأسيس جمهوريات جديدة، و هذه الحدود تمّ رسمها و فق اعتبارات عرقية ، و لكنّها كانت كذلك تعكس مصلحة الكرملين في إبقاء المنطقة الجنوبية للإمبراطورية الروسية في حالة انقسام داخلي حاد و بالتالي تبعية مطلقة، و لهذا السبب رفضت روسيا جميع المطالب السابقة لصهر شعوب المنطقة في كيان سياسي موحد يسمّى تركستان" <sup>2</sup>

و للتدليل على قوة الاعتبارات الأمنية و السياسية في تحديد مسارات التقسيم ، فإنّنا سنعرض بعض الأمثلة الحية التي لم تكن متّقة مع التصور الماركسي ( الستاليني) للمسألة القومية، فقد أنشأ المسؤولون السوفييت كيانات إدارية لم تكن مرتبطة بأي نوع من أنواع الانتماء العرقي أو القومي، كالجمهورية

<sup>1</sup>Mohammad Reza-Djalili, Thierry Kellner, *Géopolitique de la nouvelle Asie centrale*, Paris: PUF, 2003. p.31.

<sup>2</sup>Zbigniew Brzezinski, *Le grand échiquier*, (trad., de l'américain par: Michel Bassière), Paris: Bayard Edition, 1997. p.166.

الاشتراكية المستقلة ذاتيا لداغستان أو الإقليم المستقل ذاتيا لجورنو بدخشان المتواجد في جبال بامير (Pamir) و الواقع ضمن حدود جمهورية طاجاكستان . فجمهورية داغستان وحدها تحتوي على ثلاثين مجموعة عرقية ، بينما لا تتميز المنطقة المستقلة ذاتيا (جورنو بدخشان) بأي ميزة عن المناطق المجاورة سوى اعتناقها للمذهب الاسماعيلي ( الشيعة الاسماعيلية أو السبعية) و عليه فإنّ تبني المعيار الديني في حد ذاته مخالف للمعايير التي وضعها ستالين في تصنيفه للقوميات و الأعراق.<sup>1</sup>

و بالرغم من امتلاك سكان جورنو بدخشان للغة شفوية ( le shughni ) إلّا أنّ المخططين السوفييت نزعوا عنها صفة القومية و تم تجاهلها و إنكار وجودها في المقررات الرسمية تجاوبا مع حملات التصفية التي لحقت بإطارات المنطقة سنة 1937، و عليه فقد أصبح وضع اللغات القومية مرتبطا بالمصير السياسي للأفراد الذين يتحدثون بها، فبلغ الحد بالإدارة السوفيتية الى منع جرد سكان المنطقة تحت مسمى الباميريين (les pamiris) في الأطلس السوفييتي لجمهورية طاجاكستان لسنة 1968، ومنذ ذلك الحين كان لزاما على سكان جورنو بدخشان أن يعتبروا أنفسهم من الطاجيك. و بالرغم من ذلك لم يقيم السوفييت بإلغاء هذه المنطقة إداريا لأن جورنو بدخشان تقع في منطقة حدودية مشتركة مع الصين و باكستان و أفغانستان ، و عليه تصبح من الناحية الاستراتيجية مهمة جدا لأن المناطق المحاذية لها تقطنها كذلك أقليات شيعية تتبنى المذهب الاسماعيلي ، و هذا ما جعل الإدارة السوفيتية توظفها لأغراض أمنية بحثة.<sup>2</sup>

و المنطق نفسه اتبعته الإدارة السوفيتية تجاه القومية التترية، فلقد سعت جاهدة منذ 1919 إلى تحطيم الدور الذي كان يلعبه التتار في الفترة القيصريّة باعتبارهم طليعة المجتمعات الإسلامية و حاملو لواء القومية التركية على غرار سلطان جاليف أو التجديد الإسلامي على غرار إسماعيل غازبرينسكي في كامل ربوع الإمبراطورية المترامية الأطراف، و أول جمهورية مستقلة ذاتيا تم إنشاؤها في هذه الفترة جمهورية الباشكير التي تقترب من التتار من الناحية اللغوية ( تمتلك لغة شفوية فقط) و يستعمل سكّانها

<sup>1</sup>Bertrand Renouvin, " La conception ismaélienne du développement: L'exemple du Pamir", [www.bertrand-renouvin.fr/la-conception-ismaelienne-du-developpement-lexemple-du-pamir](http://www.bertrand-renouvin.fr/la-conception-ismaelienne-du-developpement-lexemple-du-pamir). (consulté le 12/4/2013).

<sup>2</sup>Olivier Roy, "Groupes de solidarité au Moyen-Orient et en Asie centrale, Etats, Territoires et Réseaux", *Les cahiers du CERI*, n.16-1996, p.6.

التترية كلغة مكتوبة، و لم يتم ترقية التتار إلى جمهورية مستقلة ذاتيا إلا سنة بعدها ، و تمت محاصرتها بمجموعات من المناطق المستقلة ذاتيا خاصة بأعراق عديدة، ليصبح التتار مجموعة عرقية كغيرها من المجموعات الأخرى بلا أدنى اعتبار لتاريخها أو لتطورها في مختلف المجالات مقارنة بغيرها من الأعراق بل إنّ الإدارة السوفييتية قامت بترقية لغة الباشكير إلى لغة أدبية بعدما كانت شفوية فقط ، إمعانا في تحطيم كل أشكال التميّز الذي كان التتار يتمتعون به طيلة ثمانية قرون.<sup>1</sup>

إنّ القضاء على التميز الذي كان ممنوحا للتتار طيلة الفترة القيصريّة لا يمكننا فهمه إلّا من خلال رغبة واضعي الكيانات الجديدة لمحو كل ما من شأنه تذكير مسلمي الإمبراطورية بفكرة الوحدة و محوها من المخيلة الجماعية لسكان المنطقة ، و تعويضها بهويات عرقية ضيقة.<sup>2</sup>

فبالنسبة لستالين، كانت التجزئة و التقسيم ، أسهل طريقة لضمان التحكم و السيطرة على شعوب المنطقة ، و هو ما يفسّر الطبيعة التعسّفية للسياسة القومية السوفييتية في عهده ، فسياسة فرق تسد، تمّ تطبيقها و لو على حساب العوامل الاقتصادية العقلانية، فحسب محمّد رضا جليلي لم تقتصر هذه السياسة على مستوى العرقيات بل تعدّتها لتمس مستويات أخرى ، كان أهمّها مسألة تقسيم المياه في بيئة تعتمد كلياً على الأحواض المائية الكبرى لري محاصيلها الزراعية ككل و القطن بدرجة أخص حيث يقول: " و كان المنطق نفسه هو الذي جعل السوفييت يرسمون الحدود الجديدة بين الجمهوريات الوسط-آسيوية بطريقة يصبح بعضها، يمتلك فائضا من المياه ( طاجاكستان و كيرخيزستان) و جمهوريات أخرى تفتقر إلى الموارد المائية (تركمنستان و أوزبكستان) ، فهذه السياسة منحت موسكو امتيازات اثنين، الأول هو خلق صراع بين هاتين المجموعتين (الفقيرة و الغنية بالموارد المائية) و الثاني هو إدراك السلطات أن هاته الدول ستلجأ إليها حتما عند احتدام الصراع، و هو ما يؤهل موسكو للعب دور الوسيط الوحيد ، و هو ما سيعمّق تبعية هذه الدول و سيطرة روسيا عليها"<sup>3</sup>

<sup>1</sup>Hélène Carrere d'Encauss, *L'empire d'Eurasie*, Paris: Fayard, 2005, p.253.

<sup>2</sup>*Ibid.* p.266.

<sup>3</sup>Mohammad-Reza Djalili, "Républiques méridionales de l'ex-URSS: Nouveaux Etats du Sud", *Nouveaux Cahiers de l'IUED*, n.12, 2001, p.75-76.

لقد كان لعملية التقسيم وظائف إستراتيجية أخرى، تدل على ذكاء الإدارة السوفييتية و فهمها للواقع المحلي و الإقليمي، و هي استغلال الأعراق التي يمكن للسوفييت توظيفها ضد دول الجوار و الحط من مرتبة الأعراق التي يمكن لدول الجوار استعمالها ضد المصالح السوفييتية، و هو توظيف يشبه الإستراتيجية العسكرية المسماة بالمراكز المتقدمة ( tête de pont ) و بالتالي فلا يمكننا كذلك إهمال الاعتبارات العسكرية.

انطلقت الإدارة السوفييتية من اعتبار دول الجوار خصوما إستراتيجية ( تركيا الكمالية في القوقاز و إيران و أفغانستان في آسيا الوسطى)، و لهذا فلقد فضلت الإدارة السوفييتية ترقية الأعراق التي تشكل أقلية في الجانب الآخر من الحدود (دول الجوار) و هو ما يجعل بعض القوميات في تركيا الكمالية و إيران البهلوية تشعر أن وضع نفس القوميات ( أبناء عمومته ) في الاتحاد السوفييتي أفضل ، خاصة وضعهم اللغوي ، علما بأن النموذج المتبع في دول الجوار أي تركيا و إيران " نموذج الدولة-الأمة" قد ساهم في حشد القوميات الأخرى ضد القومية السائدة ( la nationalité titulaire ). فكان أن قامت الإدارة السوفييتية بترقية الهوية الأذرية ( azéris ) و التركمانية ( turkmène ) لوجود أقليات أذرية و تركمانية في شمال إيران و الكردية في كل من إيران و تركيا.

و الدليل على ارتباط إستراتيجية التقسيم بالعوامل السياسية و الأمنية هو السياسة المتبعة تجاه طاجاكستان، التي تم تحويلها من " مجتمع إقطاعي " سنة 1924 حسب التصنيف الستاليني الى "أمة" تستحق أن تمنح وضعية قانونية جديدة تتناسب مع تطورها بحيث تحولت إلى "جمهورية سوفييتية " سنة 1929، و واقع الأمر هو أن صناع القرار السوفييت كانوا يرون أنه من الأفضل أن ترقى طاجاكستان إلى جمهورية سوفييتية بعد وصول الأمير " حبيب الله غازي" ذي الأصول الطاجيكية إلى سدة الحكم في أفغانستان بعد أن أسقط الملك " أمان الله" ذي الأصول الباشتونية (Pashtoune)، فالمخابرات السوفييتية (NKVD) سلف الكا جي بي ( KGB ) هي التي اقترحت على الإدارة السوفييتية ترقية طاجاكستان إلى جمهورية سوفييتية مباشرة بعد وصول " حبيب الله غازي الى السلطة، و ذلك حتى لا يشعر الطاجيك في

الاتحاد السوفييتي بأنهم أقل شأنا من أبناء عمومته في الجهة المقابلة من الحدود ( الحدود الطاجيكية-الأفغانية).<sup>1</sup>

فهذه الاعتبارات كلها تمكننا من فهم و تفسير كثير من السياسات السوفييتية ، و معرفة السبب الحقيقي الذي جعل السوفييت يعاقبون و يقمعون بعض المجموعات بينما قاموا بترقية مجموعات أخرى، فمجرد الشك في ولاء مجموعة عرقية أو حتى الإحساس بوجود ميول من قبل مجموعة عرقية تجاه دول الجوار (تركيا، إيران، أفغانستان) يؤدي بالضرورة إلى معاقبتها، تماما كما حدث لمجموعة الترك المسخاتيين (les Meskhètes) الناطقة بالتركية و التي تم ترحيلها كليا إلى أوزبكستان سنة 1944 ( حدثت اضطرابات عرقية سنة 1989 بين الأزيك و المسخت سنتناولها لاحقا ) بعد اتهام المسخت بوجود نزعة و ميل نحو تركيا الكمالية، و الشيء نفسه بالنسبة للطاليش و التات (Taléchis et Tat) الذين أدمجوا في جمهورية أذربيجان السوفييتية بسبب وجود نزعات قومية إيرانية لديهم. و في المقابل فقد منحت الإدارة السوفييتية للأكراد ، بالرغم من أعدادهم الضئيلة - إذ لا يتعدى عددهم عشرات الآلاف - امتيازات لم تمنحها لكثير من العرقيات من جرائد و مدارس و قنوات إذاعية ، باعتبارهم ورقة يمكن للسوفييت استخدامها ضد تركيا و إيران إذا اقتضت الحاجة.<sup>2</sup>

و هو ما يفسر كذلك المعاملة المتميزة التي استفاد منها الأزيك بحيث منحتهم الإدارة السوفييتية مدينة سمرقند و بخارى ، اللتين يعتبرهما الطاجيك عاصمتيهما الدينية و الثقافية و التاريخية ، و مدينة خيوة (خوارزم سابقا) و التي كانت عاصمة لإمارة أغلب رعاياها كانوا ينتمون للقومية التركمانية، في حين ضمت مدينة أوش (Osh) الأزيكية الى جمهورية كيرخيزستان ، و هو ما يبين حرص الإدارة السوفييتية على توفير قدر كبير من اللاتجانس العرقي داخل الجمهوريات يمكنها من استخدامه و توظيفه عند الحاجة.

<sup>1</sup>Olivier Roy, *La nouvelle Asie central e*, op.cit., p.115.

<sup>2</sup>*Ibid.*, p.116.

## المبحث الثاني : تكريس التمايز و الانقسام.

لم يكن تقسيم منطقة آسيا الوسطى ( تركستان ) إلى جمهوريات متميزة كافيا ، في نظر السوفييت، لتحقيق التمايز و التفرقة بين شعوبها ، فما دامت هذه الشعوب محتقظة بوعي جمعي و إرث ثقافي مشترك، فالمهمة لن تكون سهلة على الإطلاق، فالحدود و إن كانت مهمة للغاية ، فهي حدود إدارية، لا تكفي لإبراز خصوصيات كل جمهورية و ترسيخها ، لهذا تفتن ستالين و مستشاروه الى دور السياسة اللغوية في تحقيق السياسة العرقية السوفييتية الرامية إلى إبعاد شعوب المنطقة عن فضائها الديني و الثقافي الأكبر ( العربي-الإسلامي) و محيطها القومي ( العالم التركي).

### المطلب الأول: السياسة اللغوية كأداة للتقسيم و التجزئة

إن المسألة اللغوية، أو بالأحرى السياسة اللغوية كانت مسألة مركزية بالنسبة لجميع القادة السوفييت، منذ نشأة الدولة إلى انهيارها سنة 1991 ، بل إن النقاشات حول هذه المسألة كانت حاضرة في أعمال الماركسيين قبل ثورة 1917. فلقد كان الهم الأكبر بالنسبة لفلاديمير لينين أن لا تشكّل اللغة عائقا أمام تقبّل القوميات غير الروسية للمشروع البلشفي، و لهذا فلقد كان حريصا على أن يتعامل مع هذه المسألة بمرونة و براجماتية واضحة مدركة لحساسية المرحلة و الضغوط المفروضة داخليا و خارجيا أمام نجاح الثورة، و وضّح لينين موقفه من هذه المسألة باعتبارها شكلا من أشكال حق تقرير المصير و المساواة بين الشعوب حيث يقول في مقالة نشرت قبل الثورة ( سنة 1914 ) " جميع الأمم المشكلة للدولة متساوية مساواة مطلقة و كل امتياز (privilèges) يمنح لأمة أو لغة هي امتيازات غير مقبولة و غير دستورية".<sup>1</sup>

<sup>1</sup>Vladimir Lénine, " Notes critiques sur la question nationale", *Œuvres complètes*, éd.5, 1969, vol.25, p.136.

و بما أن بناء الدولة الجديدة و تطويرها سياسيا، اقتصاديا و ثقافيا لا يمكن حصوله دون الخوض في المسألة اللغوية و تحديد توجهاتها الأساسية، فلقد اقتنع القادة السوفييت منذ الوهلة الأولى أنه من غير الممكن تحقيق المهام الأساسية للدولة من تحديث و تصنيع دون مواجهة أهم عائق يعترضها، و هو نقشي الأمية في مختلف مناطق الاتحاد، ضف الى ذلك، فإنّ معظم الشعوب المشكلة للدولة الجديدة هي شعوب غير ناطقة باللغة الروسية و مستواها التعليمي متدنٍ نسبيا مقارنة بالسكان الروس، فالواقع التعليمي و اللغوي في تلك الفترة هو كما وصفه الباحث Friedgut " إنَّ السكان غير الناطقين بالروسية أصبحوا يشكلون أقليات قومية، و هم في أغلب الأحيان مزارعون يعيشون في مجتمعات محلية رعوية ( paroissiale ) و تقليدية و عليه فلغاتهم القومية بعيدة كل البعد عن لغة البلاشفة ( الشيوعيون الروس أو الناطقون باللغة الروسية)، وهنا تظهر إشكالية التواصل و إيصال الخطاب السياسي الجديد المفعم بالعبارات الفلسفية و العلمية ( الماركسية) لجمهور الفلاحين الذين يعانون الأمية".<sup>1</sup>

و إلى جانب الوظيفة الاتصالية للغة، فهي أيضا مرتبطة بالهوية القومية ، و لهذا تأخذ كل سياسة لغوية الحساسيات القومية واحتمالات القبول و الرفض مأخذ الجد، فلقد راع مهندسو السياسات اللغوية السوفييتية ضرورة الحفاظ على وحدة الكيان الجديد و قدرة القيادة المركزية على السيطرة على الأطراف أو الأقاليم التي تحولت فيما بعد الى جمهوريات سوفييتية أو جمهوريات مستقلة ذاتيا ، دون أن تظهر هذه السياسات كاستمرار لروسيا القيصرية التي سماها لينين " سجن الشعوب".

إنّ دارسي السياسات اللغوية مثل Ager يعتقدون أن السياسات اللغوية " تنطلق من دوافع أساسية أهمها الايديولوجية ، الهوية، صورة النظام و تصوره للمسألة الأمنية، فهذه الدوافع الى جانب مواقف و أهداف الأفراد هي التي تحدّد مختلف مسارات التخطيط اللغوي ( aménagement linguistique)"<sup>2</sup>

<sup>1</sup>Théodor Friedgut, "The Unity of Language and the Language of Unity", *International Journal of the Sociology of Language*, n.33, 1982, p.85.

<sup>2</sup>Dennis Ager, *Motivation in language planning and language policy*, Clevedon Uk: Multilingual Matters, 2001, p.125.

و تأتي أهمية و حساسية السياسات اللغوية السوفيتية، و بالخصوص في الفضاء الوسط آسيوي، إلى تبني القادة السياسيين و علماء اللغة لتصور توظيفي ( conception instrumentaliste) ينظر الى اللغة كأداة طيّعة ( accessible et manipulable) لخدمة أهداف الحكومة و الحزب، فنحن هنا أمام سياسة إرادية تحكّمية ( volontariste ) في تسيير اللغات تمكّن صانعيها من التحكم في تطورها، الأمر الذي جعل مختلف الباحثين في هذا الشأن على غرار Seriot يقرّون بأنّ الاتحاد السوفيتي شكّل بالفعل مخبرا لصناعة اللغات الجديدة.<sup>1</sup> و هو ما لم ينفه علماء اللسانيات الروس أنفسهم إذ أن عالم اللسانيات الروسي Isayev قد ذهب إلى أبعد من ذلك حيث اعتبر " السياسة اللغوية هي النظرية و التطبيق للتأثير الواعي ( influence consciente ) و مساعدة موجهة (assistance orientée) نحو الهدف بطريقة علمية أي الانطلاق من لغات قديمة لخلق أو تطوير لغات جديدة"<sup>2</sup>

إنّ الإدارة و المجتمع العلمي السوفيتي لم يجد حرجا في تسمية هذه السياسات اللغوية بـ "الصناعة" حيث سمّوها عملية " البناء اللغوي l'édification linguistique" و يجذر بنا هنا التذكير أن هذا التصور التوظيفي لازم مختلف مراحل السياسات اللغوية الى غاية انهيار الاتحاد السوفيتي سنة 1991.<sup>3</sup>

**المسألة اللغوية عند لينين:** تحدد المسألة اللغوية عند لينين باعتبارات مختلفة يمكن إجمالها في ما يأتي:

- كانت السياسة اللغوية عند لينين جزءا لا يتجزأ من السياسة القومية إذ أنه لا يمكن تصور حل للمسألة القومية دون الأخذ بعين الاعتبار طبيعة الإمبراطورية الروسية و تنوعها، و لقد كان حريصا على إيجاد نموذج للتعايش بين مختلف مكونات روسيا القومية و اللغوية، و ما يحدد تصور لينين لهذه المسألة، هو مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها و المساواة بين الأمم، لأن لينين أدرك منذ البداية \_ على عكس الكثير من منظري الماركسية \_ خصوصيات المرحلة المتميزة

<sup>1</sup>Patrick Sériot, "L'un et le multiple:objet-langue dans la politique linguistiques soviétique", in Max-Peter Guernais (ed), *Etats de langue. Peut-on penser une politique linguistique?*, Paris: Fayard, 1986, p.119.

<sup>2</sup>*Ibid.*, p.121.

<sup>3</sup>*Ibid.*, p.122.

بسيطرة النموذج الرأسمالي و بارتباط نموذج الدولة الأمة بهذه المرحلة، و عليه فمن السذاجة و انعدام البصيرة أن تتجه النخب الماركسية ككل و البلاشفة على وجه الخصوص إلى تجاهل قوة " الحس القومي" من جهة و توظيفه من قبل القوى البورجوازية من جهة أخرى ، فقد نظر لينين إلى هذه المسألة بمنظار براجماتي مرحلي و ليس بمنظار دوغماتي لا يرى في الانتماء القومي إلا منافسا للانتماء الطبقي كما ادعت روزا ليكسمبورغ . و أحسن ما كتب لينين في هذا الصدد كان ردا موجها للنخب الروسية الليبرالية التي نادى في تلك الفترة بضرورة فرض اللغة الروسية لغة رسمية وحيدة على جميع شعوب روسيا القيصرية مستفيدا من معاشيته للتجربة السويسرية التي اعتبرها نموذجا يقتدى به من حيث التعدد اللغوي ( plurilinguisme ) حيث كتب لينين مقالا سنة 1913 ( و هو في سويسرا) تناول فيه مسألة التعدد اللغوي و جاء فيه : " لماذا يتوجب على روسيا "الشاسعة" والمتنافرة (bigarrée) و شديدة التخلف أن توقف تقدّمها بمنح امتياز ما لإحدى لغاتها - و هو هنا يقصد بالضرورة اللغة الروسية- ؟ أليس العكس هو الصحيح أيها السادة الليبراليون؟ ألا يجب على روسيا التخلص من كل أشكال الامتيازات مهما كانت طبيعة هذه الامتيازات"<sup>1</sup> .

- استندت المسألة اللغوية عند لينين على اعتبار آخر لا يقل أهمية عن الاعتبار الأول و هو رغبته في احتضان كل شعوب الإمبراطورية للثورة ، و لا يمكن تحقيق ذلك حسبه إلا بإظهار الكيان الجديد بمظهر يتميز عن النموذج القيصري في كل شيء، خاصة و أن لينين كان يطلق على روسيا القيصرية "سجن الشعوب". و تلخصت هذه السياسة في محاربة ما سماه " شوفينية الروس الكبار" ( chauvinisme grand russe ) و يقصد النزعة التي سادت في العقود السابقة و التي تنظر بنظرة دونية لمختلف القوميات بما فيها قوميتا الأوكرانيين ( الروس الصغار) و البيلوروس ( الروس البيض)، فقد كانت محاربة لينين لهذه النزعة إحدى أهم معارك لينين في سنواته الأخيرة ، في حين كان ستالين و بالرغم من كونه جورجيا الطرف الآخر في المعركة.<sup>2</sup> حيث أكد لينين أنه ليس من مصلحة الثورة الناشئة خسارة النخب المحلية و أن عدم المساس بحقوقها اللغوية و عدم فرض اللغة الروسية عليها هو السبيل الأمثل لإقناعها بالالتحاق بالثورة أو تحييدها. و هو ما حصل بالفعل بالنسبة لكثير من القوميات التي رأت في خطوات لينين الثورية منهجا جديدا يختلف عن سياسات روسيا القيصرية الاستعمارية. و مما يبين حرص لينين على عدم منح أي امتياز للغة الروسية هو اختياره للأبجدية اللاتينية لكتابة لغات معظم الجمهوريات السوفييتية الناشئة بدلا من الأبجدية السيريلية (alphabet cyrillique) الذي تكتب

<sup>1</sup>Vladimir Lénine, "Notes critiques sur la Question Nationale", op.cit., p.140.

<sup>2</sup>Moshe Lewin, *Le dernier combat de Lénine*, op.cit., p.65.

بها اللغة الروسية كما أنّ استعمال اللاتينية عوضا عن السيريلية يتمشى أكثر مع الطابع الأممي ( internationalité ) للثورة ، اذ أن الثورة البلشفية مثلث للينين مرحلة أولية لثورة عالمية كبرى ، على الأقل في مراحلها الأولى.<sup>1</sup> و لكن سرعان ما أدرك لينين و رفاقه أن احتمالات نجاح الثورة البروليتارية في مناطق أخرى من العالم أصبحت منعدمة ، و بالتالي أصبحت الغاية القصوى هي إنجاح المشروع الاشتراكي ضمن الإمبراطورية الروسية.

إلا أنّ لينين لا يعتبر المهندس الفعلي للاتحاد السوفييتي بل هو ستالين، بحيث كان لينين في فترة تشييد الكيان الجديد غير قادر على فرض توجهاته بسبب تدهور حالته الصحية، و ذلك بعد تعرضه لمحاولة الاغتيال و هو ما جعل ستالين المحافظ المكلف بشؤون القوميات و الشعوب ينفرد بتنظيم شؤون الاتحاد.

**المسألة اللغوية عند جوزيف ستالين:** تنطلق السياسة اللغوية عند ستالين من اعتبارين أساسيين أولها الاعتبار النظري و هو موضح في كتابه (الماركسية و المسألة القومية و الاستعمارية 1913) و الاعتبار الثاني اعتبار مرتبط بنظرة ستالين المركزية للدولة و محاولته لتأسيس نظام سياسي جديد يفكّك الولاءات المحلية و القومية و يدعم التبعية لرأس الدولة.

- حاول ستالين جاهدا أن يصبغ سياساته اللغوية بصبغة ماركسية و لو كان ذلك بطريقة تبريرية ، و لكنّ المهم هو ظهورها في ثوب ماركسي ، و لهذا فلقد التقت هذه النزعة مع ما طرحه عالم اللسانيات الشهير نيكولاي مار N.Marr صاحب ما يسمى **بالنظرية الجديدة في اللغة** "nouvelle doctrine du langage". و التي أضفى فيها مار طابعا ماركسيا على أطروحاته.<sup>2</sup> فلقد كان توماس مار يعتقد أن اللغات مثل المجتمعات تخضع لقوانين المادية التاريخية و قوانين التطور. فكل طبقة لها لغة خاصة بها تميزها عن الطبقات الأخرى و أنّ قوانين التطور ستفرض على مختلف اللغات الذوبان في لغة عالمية واحدة في المرحلة الشيوعية. و بالنظر الى محتواها الذي يتناسب مع تطلعات ستالين السياسية فلقد تم فرضها في كل المراكز

<sup>1</sup>Lénore Grenoble, *Language Policy in the Soviet Union*, Boston: Kluwer Academic Publisher, 2003, p.50.

<sup>2</sup>Monique Slodzian, "Actualité de Marr ou permanence de l'utopie", [www.revue-texto.net/inedit/slodzian\\_marr.html](http://www.revue-texto.net/inedit/slodzian_marr.html). (consulté le 23/11/2013).

العلمية السوفييتية، و هو ما جعل هذه النظرية تفرض فرضا على المجتمع العلمي السوفييتي لثلاثة عقود كاملة (1920-1950 ) إلى أن قرر ستالين فجأة التخلي عنها كلية و اعتبارها نظرية خاطئة.<sup>1</sup>

- الاعتبار الثاني تمثل في إيجاد الآليات التي تسمح بتحقيق أكبر قدر من التفرقة و التجزئة بين شعوب المناطق المتجانسة دينيا و لغويا و ثقافيا، فستالين سعى منذ البداية إلى عزل شعوب آسيا الوسطى عن محيطها الإسلامي ( فكرة الجامعة الإسلامية panislamisme ) و محيطها اللغوي-الثقافي التركي ( الانتماء الى الأمة التركية panturquisme ) و هو في هذا لم يكن مختلفا عن القياصرة، لكن الاختلاف يكمن في الأساليب و الأهداف. و لهذا فمن الضروري التفصيل في الإجراءات اللغوية المتخذة من قبل ستالين لتحقيق أهدافه.

شرح السياسة اللغوية لستالين: تتحدّد الأمة (Nation ,Natsya) في التصور الستاليني للقومية بواسطة اللغة و الإقليم ( كنا تحدّثنا عن السياسة الإقليمية من خلال شرح آليات التقسيم في المبحث السابق) و لهذا فقد كان من بين مهام السلطات السوفييتية الجديدة تحديد الأقاليم بطريقة واضحة و أن تعمل بعد ذلك على ترقية اللغات المحلية ( اللهجات ) الخاصة بالجماعات التي قررت الإدارة السوفييتية اعتبارها أمما.

و عليه فإنّ تحول جماعة أو عرق ما الى أمة في نظر السوفييت سيؤدي لا محالة الى تحولات عميقة لأن ذلك سيحدّد مصير اللغة ، حقوقها، امتيازاتها، أدوارها أو ما يمكن تلخيصه بمكانتها القانونية Statut فهذا التصور للأمة و اللغة أساسي لفهم السياسات اللغوية و هو الذي حدّد مساراتها في العقود اللاحقة.

لكنّ خبراء المنطقة يؤكدون على صعوبة هذه المسألة ، لأن إنشاء أمم جديدة و بهوية قومية خاصة أمر في غاية التعقيد، فمعظم المجموعات العرقية في آسيا الوسطى ليس لديها وعي قومي خاص، فقد وجد ديكنس Dickens في بحوثه الخاصة بلغات شعوب آسيا الوسطى أنّ ما كان يميّزها

<sup>1</sup>Bernadette Wynants, *L'Orthographe, une norme sociale*, Liège: Mardaga, 1997, p.73.

و يوحدّها هو شعورها الديني الجامع ( الهوية الدينية) و الثقافي (إرثها التاريخي) أكثر من شعورها بالانتماء إلى قومية خاصة.<sup>1</sup>

بالإضافة إلى ذلك، فاللهجات التركية متعددة و متداخلة أي إنّّه لا توجد حدود لغوية تفصل الأعراق عن بعضها البعض بشكل واضح، و لهذا تصبح عملية اختيار مجموعات عرقية ، على حساب مجموعات أخرى لتصبح أمما، و ما يترتب عن ذلك من منحها امتياز اللغة الأدبية ( langue litteraire ) بالضرورة عملية تعسّفية تخلق فروق مصطنعة، خاصة بالنسبة للغات المتقاربة جدا كلغة الكيرخيز و لغة الكازاخ. فالسياسة اللغوية السوفييتية كانت تهدف الى تكسير التقارب اللغوي بين لغات آسيا الوسطى.<sup>2</sup>

لقد كان المعيار الذي يقاس به نجاح السياسة العرقية السوفييتية في آسيا الوسطى هو الوصول إلى حالة عدم القدرة على التخاطب و التواصل بين شعوب آسيا الوسطى ، و لهذا فلقد ساهم تغيير الأبجدية المعتمدة في كتابة اللغات المحلية من العربية (الأبجدية العربية) الى الأبجدية اللاتينية في تعميق الهوة بينها، فقد اكتشف علماء اللسانيات السوفييت أن اللغة العربية لا تظهر الفروقات البسيطة بين اللغات لأنها لا تعتمد على الحروف اللينة ( les voyelles ) فهي تعتمد على الحروف الصامتة ( alphabet consonantique ) و عليه فاعتماد اللاتينية سيحقق النتيجة المرجوة عن طريق كتابة نفس الكلمات التي لها نفس المدلول في كل لغات آسيا الوسطى و لكن كتابتها بلغات لينة مختلفة ، و لقد قدم الباحثون بعض الأمثلة التي تعمّد فيها علماء اللغة السوفييت كتابة الكلمات بشكل مختلف من لغة لأخرى. و لنأخذ على سبيل المثال مصطلح " ملة" الذي نقصد به بالعربية- و حتى في اللغات التركية و الفارسية- مجموعة دينية تمت كتابته في اللغات المحلية لآسيا الوسطى عند تطبيق الأبجدية اللاتينية بأشكال مختلفة و بطريقة مقصودة ( millé , mellat , millat , millet...الخ) أو أن تكتب نفس الكلمات ذات نفس الدلالات بحروف مختلفة ( Tch , DJ , J ).<sup>3</sup>

<sup>1</sup>Marc Dickens, "Soviet language policy in Centrale Asia", [www.oxuscom/long-policy.htm](http://www.oxuscom/long-policy.htm). (consulté le 6/11/2013).

<sup>2</sup>Olivier Roy, *La nouvelle Asie centrale*, op.cit., p.127.

<sup>3</sup>*Ibid.*, p.129.

و لقد سمحت هذه السياسة اللغوية بتحقيق بعض الأهداف نذكر منها: - عدم قدرة الأجيال الجديدة على قراءة كتب التراث المحلي الغني المكتوبة باللغات القديمة و بالخط العربي، و بهذا لم يعد بإمكان الطاجيك قراءة التراث الأدبي المكتوب بالفارسية ( اللغة المستعملة في حواضر آسيا الوسطى كسمرقند و بخارى، إيران و بعض المناطق من أفغانستان ) إلا في حدود ما تسمح به الإدارة السوفييتية حيث إنها لم تقم بترجمة سوى الكتب التي تسمح بها الرقابة السوفييتية و هي كتب منتقاة بطريقة حذرة. كما أنّ سكان المنطقة أصبحوا غير قادرين على الاطلاع على المخزون الكبير من التراث الديني الإسلامي من تفسير للقرآن و الحديث النبوي أو كتب افقه و السيرة . و هو ما سيتخذ أشكالاً أكثر تمييزاً في المراحل اللاحقة تحقيقاً لسياسة عزل الجمهوريات الإسلامية عن بعضها البعض و عن دول الجوار ( تركيا، إيران و أفغانستان).

#### المطلب الثاني : تطور السياسات اللغوية من وفاة ستالين الى نهاية التجربة السوفييتية.

مع وصول نيكيتا خروتشيف (N. Khrushchev) الى سدّة الحكم ، بدأت معالم التحرير السياسي تظهر شيئاً فشيئاً، و تعاظمت آمال الشعوب و القوميات السوفييتية في التخلص من وطأة السياسات الستالينية القمعية المكبلة بعد الخطاب الشهير، الذي ألقاه بمناسبة المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي، سنة 1956، و هو الخطاب الذي قام فيه خروتشيف بالتشهير بسياسات ستالين و إعلان بداية مرحلة جديدة لمناهضة معالم و مخلفات هذه السياسة (déstalinisation).

و كان من بين الانتقادات التي وجهها خروتشيف، تلك المرتبطة بالسياسة القومية الستالينية المخالفة لجوهر و مضمون السياسة القومية التي رسمها لينين مع بداية المشروع السوفييتي . و لهذا فلقد ساد اعتقاد كبير أن السياسة القومية الجديدة و على رأسها السياسة اللغوية -باعتبارها المقياس و المعيار لتوجهات السياسة القومية- سترتكز على نفس المبدأ الذي أقره لينين و هو المساواة اللغوية و رفض مبدأ

الشوفينية الروسية ( chauvinisme Grand-Russe ) . و لهذا تقتضي الضرورة إجراء مطابقة بين الخطاب الذي يدعو للعودة إلى الفكرة الماركسية- اللينينية و السياسة اللغوية الجديدة.<sup>1</sup>

و على عكس ما كان منتظرا ، لم تختلف توجهات و أهداف السياسة اللغوية عند خروتشيف عن الفترة التي سبقتة، فتصور خروتشيف لمستقبل الاتحاد و المشروع السوفييتي هو نفس التصور الستاليني و لكن بأدوات و أساليب أقل عنفا و تطرفا، فخروتشيف ظل معتقدا أن مطالب القوميات-مثل ستالين- تعبر دائما عن اتجاهات مناقضة للمشروع السوفييتي ، بل إنها معرقة لمسيرة الاندماج الكلي التي كان يطمح إلى تحقيقها.<sup>2</sup>

**المسألة اللغوية عند خروتشيف:** ينطلق خروتشيف من اعتبارات نظرية و تطبيقية تتطابق في كثير من النقاط مع ما طرحه ستالين.

- كان خروتشيف يرى أن السياسة الجديدة التي تبناها هي سياسة مشجعة " للرخاء " ( Prospérité أو Rascvet باللغة الروسية) و أنها موجهة لجميع الأمم السوفييتية دون استثناء و أن انطلاق الاتحاد السوفييتي في هذه السياسة التي سماها خروتشيف "بناء الشيوعية" ستكون تمهيدا لبروز مجتمع جديد سماه " الجماعة التاريخية الجديدة " ( Nouvelle communauté historique) و مواطن جديد هو المواطن السوفييتي (Homo-Soviéticus) الذي يسمو و يتجاوز الانتماءات القومية و العرقية. و لتحقيق ذلك لا بد من تشجيع الأمم السوفييتية على التقارب ( rapprochement أو Sblizenice باللغة الروسية) و هذا التقارب سيؤدي تدريجيا للوصول إلى المبتغى و هو الانصهار ( Fusion أو Silanic باللغة الروسية).<sup>3</sup>

<sup>1</sup>Graham Smith, "The Soviet state and the nationalities policies", in Graham smith (ed.), *The Nationalities Questions in The Post-Soviet States*, Harlow, Essex: Longman, 1996, p.8-9.

<sup>2</sup>*Ibid.*, p.12.

<sup>3</sup>*Ibid.* p.10.

- انعكست هذه التصورات على السياسة اللغوية الجديدة و التي تدعو صراحة إلى تمجيد اللغة الروسية و تعميم استعمالها على حساب اللغات القومية و العرقية، فقد أعلن خروتشيف في خطاب رسمي هذا التوجه : " لا يمكننا إنكار الرغبة المتعاضمة للمواطنين غير الروس في تعلّم اللغة الروسية، التي أصبحت في الواقع (de facto) اللغة الأم الثانية لجميع شعوب الاتحاد السوفييتي غير الروس، فهي وسيلة الاتصال بين القوميات (lingua franca) ، و هي التي تسمح لكل قومية من القوميات بالتعرّف و بمعايشة النجاحات العلمية و الثقافية للقوميات السوفييتية الأخرى و كذا الثقافة العالمية".<sup>1</sup>

إنّ ما يقابل نظرية الانصهار في الممارسة هو سياسة الترويس اللغوي russification linguistique ، تماما كما طرحها ستالين بعد 1934 ( حملة التطهير و القضاء على النخب المحلية) ، و لقد اعترف علماء اللسانيات الروس بأنّ سياسة خروتشيف كان من شأنها إعادة النظر في مكانة اللغات القومية و العرقية حيث أكدت أكاديمية العلوم السوفييتية سنة 1958 أن السياسة اللغوية الجديدة ستولي الاهتمام لموضوعين أساسيين هما : " أولا) : في ضوء التقدم المطرد نحو المرحلة الشيوعية فإنه يجب التساؤل حول دور و وظيفة الكثير من لغات الشعوب السوفييتية في تحقيق هذا التقدّم و بالتالي مواصلة تطويرها أو العمل على اختفائها تدريجيا؛ ثانيا) : التأكيد على ضرورة إبقاء لغة اتصال عبر قومية (transnationale) واحدة فقط (طبعا الروسية) لعموم شعوب الاتحاد السوفييتي و على دورها في بناء المجتمع الشيوعي"<sup>2</sup> .

و هو ما يعتبر تراجعا خطير عن المبدأ الذي وضعه البلاشفة : " قومية الشكل، اشتراكية المحتوى" . إنّ علماء اللسانيات السوفييت أصبحوا أكثر جرأة في طرح المسألة اللغوية دون الاهتمام بالمبدأ الذي قامت عليه المسألة القومية منذ لينين و الذي ربط فكرة الأمة باللغة و هو ما يظهر من خلال ما طرحه عالم اللسانيات السوفييتي Hanazarov سنة 1963 حين اعتبر أنه بإمكان : " اللغة الروسية أن تصبح اللغة الأم لكثير من القوميات بعد أن تزيج لغات غير مستعملة"<sup>3</sup> علما أن مسألة

<sup>1</sup> Andréa Khylya Hemour, "La politique linguistique de l'URSS (1917-1991)", www.dumas-ccsd-cnrs.fr/dumas.

<sup>2</sup> Isabelle Kreindler, "Soviet language planning since 1953", in M.Kirkwood (ed.), *Language Planning in the Soviet Union*, London: Mcmillan Press, 1989, p.48.

<sup>3</sup> Ibid. p.15.

استعمال أو عدم استعمال اللغة يرتبط أولاً بوضع اللغة القانوني و مكانتها مرتبطة بالمكانة التي تمنحها إياها السلطة السياسية.

بعد الإطاحة بخروتشيف و ترأس ليونيد بريجنيف للأمانة العامة للحزب الشيوعي سنة 1964 دخل الاتحاد السوفييتي مرحلة أكثر تشدداً و تطرفاً في جميع المجالات و هي الفترة التي سماها مؤرخو العلاقات الدولية بمرحلة الجمود ( stagnation ) في الوقت نفسه الذي كان فيه الساسة السوفييت يتحدّثون عن استكمال البناء الاشتراكي و الاستقرار .

كان خروتشيف يتحدّث عن مواصلة مسار التطور الاشتراكي و قطع خطوات كبيرة نحو بناء المجتمع الشيوعي تاركاً مسافة واسعة لأجيال المستقبل لمواصلة المشروع السوفييتي، بينما كان بريجنيف يتحدّث عن الأمر و كأنه أصبح محسوماً، أو هو عبارة عن تصوير المشاريع و كأنها وصلت إلى غايتها سواء كان ذلك مقصوداً أو ناتجاً عن تجاهل للواقع.

كان بريجنيف يعتقد أن الجماعة التاريخية الجديدة ، و التي تتبأ بها خروتشيف من قبل، قد تحققت بالفعل، و بالتالي فإنه لم يعد هناك حاجة للحديث عن المسار و التدرّج في تعميم اللغة الروسية. و ترسّخت هذه الفكرة بعد مناقشات الحزب الشيوعي ابتداء من سنة 1969، و ظهورها في مقرراته سنة 1973 ، فعبارة "الجماعة التاريخية الجديدة" قد تمّ صياغتها في ديباجة الدستور السوفييتي لسنة 1977. و كما هو الحال دائماً فلقد اضطر المجتمع العلمي إلى التكيف مع الخطاب الرسمي و مقررات القيادة السياسية، فأصبح الخبراء و العلماء السوفييت يتحدّثون عن الاتحاد السوفييتي بوصفه كيانا متجانساً يتجاوز كل أشكال القومية و العرقية، و ظهر ذلك بجلاء و على وجه الخصوص ،بعد خطاب بريجنيف الذي ألقاه في المؤتمر الرابع و العشرين للحزب الشيوعي (1971) الذي طرح فيه معالم مذهبه

الجديد حيث ورد في الخطاب: " إن الاتحاد السوفييتي جماعة بشرية جديدة تشترك في إقليم، دولة، نظام اقتصادي، ثقافة مشتركة، نفس الطموح في بناء الشيوعية و لغة مشتركة"<sup>1</sup>.

و بالرغم من أن بريجنيف قد تحدّث في خطابه عن النظرة للخصوصيات القومية بعين الاعتبار إلا أن تركيزه كان واضحا على الطابع الأممي للاتحاد حيث أكّد على ضرورة تربية العمال وفق روح الأممية الاشتراكية ( dans l'esprit de l'internationalisme socialiste ) و كذلك التأكيد على التناغم و التجانس الذي أصبح يطبع الشعب السوفييتي، و هو ما جعل كل الخبراء يتحدّثون عن درجة كل أشكال الهويات القومية و العرقية إلى مستويات ثانوية.<sup>2</sup>

لكنّ المفارقة هو أن الخطاب الذي كان يحط من مكانة الهوية القومية لم يشمل القومية الروسية أو الشعب الروسي، فاستعمال مصطلح القومية عادة كان مقتصرًا على الشعوب غير الروسية، والخطاب الرسمي أصبح حافلا بعبارات التمجيد و التقديس للشعب الروسي دون سواه من الشعوب ، حيث طفت إلى السطح عبارة " الشعب الروسي العظيم" مرفوقة في الكثير من الأحيان بصفات التفضيل و التفخيم كصاحب الدور المشهود أو "صاحب المميزات الرفيعة".<sup>3</sup>

و في خضمّ هذه المقاربة الجديدة للغة الروسية أصبح الكثير من علماء اللسانيات السوفييت لا يتورعون في تبرير سيطرة اللغة الروسية على بقية لغات الاتحاد السوفييتي، فهذا عالم اللغات Asimov يعود إلى تصور تطوري للغة لتأييد هذه المقاربة فحسبه: " أصبحت الحياة اللغوية في عصرنا الحالي تتطور نحو مزيد من تقليص عدد اللغات، و أساسا تتمّ هذه العملية على حساب اللغات غير المكتوبة

<sup>1</sup>Graham Smith, *op.cit.*, p.10.

<sup>2</sup>Andréa Khylya Hemour, "La *politique linguistique soviétique de l'URSS (1917-1991)*", [www.dumas-ccrs-cnrs.fr/dumas](http://www.dumas-ccrs-cnrs.fr/dumas) (consulté le 12/12/2013).

<sup>3</sup>Michael Kirkwood, *op.cit.*, p.65.

للجماعات العرقية ، لتتحول هذه الأخيرة، تدريجيا، نحو استعمال اللغات الأدبية للأمم الكبرى التي تعيش ضمنها"<sup>1</sup>

و يسير عالم اللسانيات السوفييتي Isayev في نفس الاتجاه التطوري ، معتمدا على معايير سوسيو- لغوية (sociolinguistique) للتأكيد على ارتباط تطور اللغة بمستوى التطور الاجتماعي، ليقترّب من تفسير نيكولاس مار لعلاقة التفاوت اللغوي بالتفاوت الطبقي: "إنّ مستوى التطور الاجتماعي هو المعيار الذي يحدّد مستوى تطور اللغة، فالشعب الذي يعيش في مستوى متدنٍ من التطور الاجتماعي لا يمكنه امتلاك لغة متطورة، و العكس صحيح، فلغات الأمم المتحضرة لا يمكنها أن تكون لغات غير متطورة. و هكذا، فمن الممكن التمييز بين اللغات المتطورة و اللغات غير المتطورة من خلال: علاقتها مع مستوى الإنتاج، التقدم العلمي، التكنولوجيا، الثقافة و الحياة السوسيو-سياسية للشعوب التي تتكلم بها"<sup>2</sup>

و بما أنّ اللغة الروسية حسب Asimov: "هي اللغة " الأكثر تطورا" و " الأكثر انتشارا" و " الأكثر استعمالا" ، و هي اللغة التي " تلبي الوظائف الاجتماعية الأكثر تعقيدا و الأكثر تطورا" ، فهي بذلك تستحق المكانة (le statut) التي تتمتع بها بوصفها لغة (عبر قومية transnationale) ، بل أكثر من ذلك لغة أممية internationale"<sup>3</sup>

و استكمالا لهذا النهج ، جاء دستور 1977 لتعزيز دور اللغة الروسية و ذلك بجعل مسألة التعلم باللغة الأم لا تكون بالضرورة حقا مكفولا بل أصبحت تقوم على مبدأ الإمكانية و القدرة أي أنه و لأول مرة منذ 1917 أصبح التراجع عن مبدأ المساواة بين اللغات (الذي وضعه لينين) ليس ضحية لسياسات مرحلية بل تمّ إقراره في الدستور الجديد ، و هو ما كان يمهد لمستقبل خطير بالنسبة للغات القومية (غير

<sup>1</sup> Ibid., p.66.

<sup>2</sup> Patrick Seriot, " La sociolinguistique soviétique est-elle néo-marriste", ( contribution à une histoire des idéologie linguistique en URSS), Archives et documents de la SHESL, N.2, Paris, p.72.

<sup>3</sup> Ibid., p. 142.

الروسية) حسب من علماء اللسانيات، خاصة أن السياسة اللغوية الجديدة في هذه الفترة قد تَمَّت صياغتها في مناخ خاص يتميز بتمجيد الشعب الروسي و لغته، و هو ما حرص على إبرازه مؤتمرا طشقند (عاصمة أوزبكستان) لسنة 1975 و 1979 ، و هما المؤتمران اللذان حضرهما بريجنيف و ألقى فيهما خطابين لتمجيد الشعب و اللغة الروسية.<sup>1</sup>

لكن الأمر الذي يثير الغرابة و التعجّب هو أنّ مهندسي السياسة اللغوية السوفييتية في عهد بريجنيف و بخاصة في مراحلها الأخيرة، كانوا يرون أنّ هدف السياسة اللغوية السوفييتية هو الوصول إلى ما سموه " الازدواجية اللغوية المتناغمة *bilinguisme harmonieux* " أي الوصول إلى حالة يكون فيها بمستطاع كل مواطن سوفييتي أن يتكلم بلغته الأم و باللغة الروسية، في حين أنّ السياق العام الذي صيغت فيه هذه السياسة كان يشجّع على التخلي عن اللغة الأم لأنها لم تعد قادرة على الاستجابة لمتطلبات المرحلة كما قلنا سابقا ( نظرية الوظائف الاجتماعية ) و هو ما سنتناوله من خلال تقييم عام للسياسة اللغوية السوفييتية ونتائجها على أرض الواقع ، وبخاصة في جمهوريات آسيا الوسطى السوفييتية.

و مع وصول ميخائيل غورباتشيف للحكم سنة 1985، و انتهاجه سياسة أكثر تحررا و مرونة كان من الطبيعي أن تطرأ تغيرات في المسألة اللغوية و القومية، و لقد كانت هذه الفترة و بخاصة السنوات التي تلت سياسة البيريسترويكا و الجلاسنوست ، مناسبة للقوميات غير الروسية لتقييم عقود من الترويس اللغوي و تمييز اللغات عن بعضها البعض، و إن لم يقم غورباتشيف بإعداد سياسة لغوية جديدة محافظا على القديمة ، إلا أنّ فترته تميزت ب بروز المطالب اللغوية و القومية مقابل ظهور سياسة رسمية تميزت بالعنصرية و احتقار الثقافات غير الأوروبية و بالخصوص ثقافات شعوب آسيا الوسطى، و تزامن ذلك مع توسع الحرب الأفغانية.

<sup>1</sup>Andréa Khelya Hemour, "la politique linguistique de l'URSS (1917-1991)", [www.dumas-ccsd.cnrs.fr/dumas00558921/document.\(consulté le 15/2/2014\).](http://www.dumas-ccsd.cnrs.fr/dumas00558921/document.(consulté le 15/2/2014).)

### المطلب الثالث: حصيلة السياسات اللغوية في دول آسيا الوسطى.

لم تكن نتائج السياسات اللغوية السوفييتية واحدة في كل الفضاء السوفييتي، لأن الأهداف كانت متباينة و ردود أفعال الجمهوريات مختلفة ، ففي الوقت الذي ساهمت فيه هذه السياسة في ترقية بعض اللغات و تطويرها على غرار لغات الجمهوريات القوقازية ( أرمينيا، جورجيا و حتى أذربيجان)، ساهمت هذه السياسة أيضا في جعل بعض اللغات القومية لغات هجينة كاللغة الأوكرانية و ذلك بتطعيمها المقصود بمنظومة ألفاظ روسية جديدة و تخليصها من الألفاظ الأجنبية و بخاصة المجرية و البولونية، بشكل جعل اللغة الأوكرانية الجديدة تختلف كثيرا عن اللغة الأوكرانية القديمة، لذلك أصبحت غير مفهومة من قبل الأجيال الجديدة ، و هذا الذي أفرز أحقادا دفينية بين القوميتين الروسية و الأوكرانية تتجلى مظاهرها اليوم في الصراع الحاصل في أوكرانيا.

غير أن آسيا الوسطى لها وضع مختلف، فلغاتها لم تكن متميزة قبل بدء المخطط السوفييتي، و لم تكن اللغة أصلا أساسا للهوية العرقية و القومية، و هذا لانتشار لهجات و لغات محلية متعددة في فضاءات مشتركة، ترتبط كلها بأصل واحد هو اللغة التركية الممتزجة بالتأثير الفارسي ( باعتبار اللغة الفارسية هي لغة المناطق الحضرية كسمرقند و بخارى) كما أنها كانت تكتب بأبجدية واحدة هي الحرف العربي . فلعامل الانتماء الديني دور كبير كذلك إذ أنّ اللغات المحلية استعارت على مر القرون كلماتها من المخزون اللغوي العربي المرتبط بالقرآن و السنة، فالتعليم أو الدراسة كانت تنطلق أصلا من هذين الأصلين، أضف إلى ذلك أن الشعوب درجت على مماثلة أحوالها و معاملاتها بهذا العامل، و عليه كانت العودة للمصطلح و الحرف العربي أمرا ضروريا و طبيعيا و هذا إلى غاية بداية الاستعمار الروسي و السوفييتي.

و أول ما يمكننا استخلاصه من السياسة اللغوية السوفييتية ، هو استمرار نفس المنطق الذي كان سائدا في الفترة القيصيرية و هو سياسة الترويس اللغوي ، بالرغم من أنّ لينين قد دعا أكثر من مرة إلى ضرورة معاملة مختلف اللغات المستعملة داخل الكيان الجديد معاملة منصفة دون تمييز، لكنّ المخاوف

التي كان لينين مدركا لأهميتها ، لم تكن القيادات التي جاءت بعده تتعامل معها بنفس درجة الحذر ، بل إنّ الفترة الأخيرة من الاتحاد السوفييتي كانت الفترة التي برزت فيها الخطابات المتفائلة بوصول الاتحاد السوفييتي إلى أقصى درجات الاندماج و الانصهار ، و الذي كان تعميم استعمال اللغة الروسية أحد مؤشراتته الأساسية.

و لكن الأمر الذي كان غائبا عن مدركات القادة السوفييت هو طبيعة العامل اللغوي ، فاللغة ليست وسيلة للاتصال فقط بل هي أبرز مقومات الهوية ، هذا الجانب الذي كانت السياسات السوفييتية تتعامل معه باستخفاف و ازدراء، فمشروع الترويس كان بالنسبة لهم انعكاسا طبيعيا لمشروع الحداثة ، هذه الحداثة التي أخطأت هي كذلك في فهم و تقدير قضايا الهوية، فمنذ الوهلة الأولى كان السوفييت ينظرون إليها على أنها من مخلفات العصور البائدة ، و أن مسار التحديث سيقفلها من جذورها. فلقد استندت السياسة اللغوية السوفييتية على نظرة تطويرية مبتذلة ( *évolutionnisme vulgaire* ) رأيناها في استعانة ستالين بنظرية نيكولاي مار التي فسرت اللغة بنفس الطريقة التي يفسر بها الصراع الطبقي، بالرغم من أن جميع خبراء اللسانيات السوفييت كانوا مقنعين بعدم وجاهة ما ذهب إليه مار، و حتى ستالين كان متيقنا من ذلك ، لكنّه كان يستخدمها بغرض تحقيق غايات سياسية و أمنية استدعتها ضرورة التحكم في كيان سياسي مترامي الأطراف و منعدم التجانس القومي و الإثني، و لهذا السبب كان ستالين أول من طالب بالتراجع عن مسلمات مار و فتح نقاشا موسعا حول وجاهتها، و بالفعل فقد كانت جريدة البرافدا Pravda السوفييتية أول من فتح هذا النقاش لعلماء اللسانيات المعارضين لنيكولاي مار بعدما كان الاعتراض عليها سابقا يودي بصاحبها الى الفصل الكلي من التدريس ، فستالين ساهم بقوة في هذا النقاش من خلال مقالة مشهورة " الماركسية و مسائل اللسانيات " استلهم معظم أفكارها من أعمال خصوم نيكولاي مار و على رأسهم <sup>1</sup> Arnold Tchikobava

بيد أن نسبة كبيرة من النخب المحليّة في آسيا الوسطى ( سياسية كانت أم علمية أو حتى أدبية) أدركت أن التمكن من اللغة الروسية هو مفتاح الولوج الى المناصب السياسية و الإدارية و العلمية مقتدية

<sup>1</sup>Graham Smith, *Nation-Building in the Post-Soviet Borderlands: The Politics of National Identities*, Cambridge: Cambridge University Press, 1998, p.167.

بالنخب التتارية التي استطاعت أن تكتسب امتيازات هامة من خلال الانخراط في السياسة الاستعمارية الروسية و الاندماج في الثقافة الروسية ، و هذه الظاهرة بدأت منذ الفترة القيصريّة، و تواصلت الى غاية السنوات الأخيرة من الفترة السوفييتية.

**نتائج الترويس اللغوي:** لا تزال آثار سياسات الترويس اللغوي في مجتمعات آسيا الوسطى ، و لكن بدرجات متباينة ، فجمهورية كازاخستان و كيرخيزستان قد عرفتا مستويات عالية من الترويس مقارنة مع الجمهوريات الجنوبية ( تركمنستان، طاجاكستان، و كيرخيزستان) بالنظر إلى التركيبة العرقية و تنوعها في كل جمهورية و بالنظر الى اختلاف الأهداف المرسومة من قبل المركز أيضا.

- **في كازاخستان:** تركت سياسة الترويس اللغوية أثرا عميقة في المجتمع الكازاخستاني، فبالرغم من تواجد الملايين من الروس على أراضي جمهورية كازاخستان ، إلا أنّ نسبة الروس الذين يتكلمون اللغة الكازاخية ، لا تتجاوز 2% الى 5% ، بينما تتقن الغالبية العظمى من الكازاخ اللغة الروسية ، و الأخطر من ذلك هو كون 40 % من الكازاخ لا يتقنون لغتهم الأم ، و هذا راجع الى أن عدد المدارس الابتدائية التي تدرّس باللغة الروسية كانت ضعف عدد المدارس الابتدائية التي تدرّس بالكازاخية، قبل الاستقلال، بينما كان التعليم الجامعي يقدّم غالبا باللغة الروسية ، حيث لم تتجاوز نسبة الطلاب الذين يتلقون تعليمهم الجامعي باللغة الكازاخية 17.6 % . فالروسية كانت لغة العلم و الاقتصاد و التواصل بين مختلف الأعراق، بينما تمّت دحرجة اللغة الكازاخية لتصبح لغة ثانوية في موطنها.<sup>1</sup>

- **في كيرخيزستان:** في هذه الجمهورية ، كانت المدارس التي تقدّم دروسها باللغة الكيرخيزية نادرة جدا ، و لهذا كان الأولياء مضطرين لإرسال أبنائهم إلى المدارس الروسية، و انطلاقا من ستينيات القرن العشرين، عمدت السلطات المحليّة إلى ترويس اللغة الكيرخيزية إلى درجة أصبح الكيرخيز يفضلون تعلّم الروسية على لغتهم التي أصبحت هجينة، بحيث توقفت أغلب المدارس التي تقدّم التعليم باللغة الكيرخيزية، الى درجة لم تبق فيها إلا مدرسة واحدة في كامل ربوع العاصمة بشكك تقدّم دروسها باللغة الأم. لتصبح الروسية كما في كازاخستان لغة التداول

<sup>1</sup>Jacques Leclerc, *KazaKhsan*, [www.axl-cefan.ulaval.ca/asia/kazakhstan.htm](http://www.axl-cefan.ulaval.ca/asia/kazakhstan.htm).( consulté le 10/5/2014).

و التواصل في المدن، بينما لم يعد الكيرخيز يستعملونها إلا في المناطق الريفية و خاصة في المناطق الجنوبية.<sup>1</sup>

- **في أوزبكستان:** لم تكن آثار السياسة اللغوية السوفييتية في أوزبكستان مماثلة لما كانت عليه في جمهوريتي كازاخستان و كيرخيزستان، لأن نسبة الروس مقارنة بالأزبك لم تكن كبيرة ، و لكن الروسية احتلتّ وضعاً مميزاً ، لأن النخب المحليّة ، كانت تدرك أن كل ترقية في عالم السياسة و الإدارة و غيرها من القطاعات المهمّة ، لا تتم إلا بعد التمكن من اللغة الروسية، و الاندماج في الثقافة الروسية، فلقد أدركت النخب بعد حملات التطهير الكبرى ، التي حدثت في الفترة الستالينية، أنها لا بد أن تتأى عن كل ما يثير شبهة النعرات القومية التي برّر بها ستالين قمع النخب السياسية القديمة.<sup>2</sup>

- **في طاجاكستان:** سيطرت اللغة الروسية على مختلف مناحي الحياة في طاجاكستان، و هذه السيطرة اشتدت مع اعتماد الحزب الشيوعي الطاجيكي على سياسة مماثلة للسياسة التي اعتمدها الحزب الشيوعي الكيرخيزي، ففي الستينيات من القرن العشرين، تمّ ترويس مقصود للغة الطاجيكية ، بحيث امتنع الطاجيك عن الدراسة في المدارس الطاجيكية و فضلوا عليها اللغة الروسية ، بحيث توقفت كل المدارس الطاجيكية في العاصمة دوشنبي.<sup>3</sup>

- **في تركمنستان:** أما في تركمنستان ، فلقد همّشت سياسة الترويس التركمان ، وجعلت من القوميات الأخرى كالروس و الأرمن و الأوكرانيين يسيطرون على الوظائف الادارية لأن اللغة الروسية كانت هي لغة التواصل بين مختلف الأعراق، ففي الوقت الذي كان التركمان و خاصة أولئك الذين يعيشون في المناطق الصحراوية غير متمكّنين باللغة الروسية، كانت بقية الأعراق لا تتكلّم إلا باللغة الروسية.<sup>4</sup>

<sup>1</sup>Ibidem.

<sup>2</sup>Jacques Leclerc, "Ouzbékistan", [www.axl.cefan.ulaval.ca/asia/ouzbékistan.htm](http://www.axl.cefan.ulaval.ca/asia/ouzbékistan.htm).(consulté le 12/5/2014)

<sup>3</sup>Jacques Leclerc, "Tadjikistan", [www.axl.cefan.ulaval.ca/asia/Tadjikistan.htm](http://www.axl.cefan.ulaval.ca/asia/Tadjikistan.htm).(consulté le 12/5/2014)

<sup>4</sup>Jacques Leclerc, "Turkménistan", [www.axl.cefan.ulaval.ca/asia/turkménistan.htm](http://www.axl.cefan.ulaval.ca/asia/turkménistan.htm).(consulté le 13/5/2014).

### المبحث الثالث: تعزيز النزعات الجهوية و المحلية.

لم تكتف الإدارة السوفييتية بالأدوات الاثنوغرافية و اللغوية لترسيخ التفكك و الانقسام بين شعوب آسيا الوسطى و قومياتها، بل لجأت الى أدوات أخرى، كان الغرض منها جعل المركز (موسكو) قادرا على إدارة شؤون المنطقة بشكل مريح يتيح له لعب دور الحكم الأول و الأخير، بحيث يكون اللجوء إليه هو الوسيلة الوحيدة للفصل بين المتنافسين المحليين على الحكم و الثروة.

و عليه يصبح فهم طبيعة البنى المحلية الجديدة و دورها في التنافس السياسي مدخلا أساسيا لفهم المخطط السوفييتي لإبقاء هيمنة القيادة المركزية على كل كبيرة و صغيرة بدون أن تتدخل بطريقة مباشرة ، لأن ذلك لم يعد ضروريا، بعد أن بدأت عملية تأصيل النخب (indigénisation des élites) في الفترة الستالينية. كما أن التقسيم الإداري السوفييتي ( و على كافة المستويات :جمهورية، إقليم، منطقة) جعل الأفراد في تلك المنطقة يشكّلون هويات جديدة قائمة على الانتماء الإقليمي و ليس العائلي. فعملية الأقلمة ( territorialisation ) تعتبر إحدى أهم التحولات التي عرفتتها آسيا الوسطى في الفترة السوفييتية بالنظر للعلاقات السياسية و الاقتصادية المنجرة عنها، و ما أفرزته من ولاءات و انتماءات جديدة .<sup>1</sup>

و بالنظر إلى المستويات المختلفة من الولاءات و البنى الجديدة التي أفرزتها عملية التقسيم الإداري السوفييتي، فمن الأفضل علميا و عمليا أن ننطلق من المستويات البسيطة و الضيقة ( المستوى المحلي) للوصول للمستويات المعقدة و الكبيرة (المستوى الجمهوري).

---

<sup>1</sup>Alain Blumm, Elena Filippova, "Territorialisation de l'ethnicité et ethnicisation du territoire: Le cas du système politique soviétique et russe", L' Espace Géographique, Tome 35, Avril 2006, p.322.

## المطلب الأول: الانتماء إلى الكولخوز.

تتميز جمهوريات آسيا الوسطى عن بقية الجمهوريات السوفييتية بكونها المنطقة التي ينتشر فيها نمط الإنتاج الزراعي و الرعوي أكثر من أي منطقة أخرى، و هو ما يفرز انتماءات اجتماعية ريفية و قبلية (الريف بالنسبة للمزارعين و البادية بالنسبة للرعاة)، فتضاريس المنطقة الجبلية و الصحراوية كانت المحدد الأكبر لطبيعة المعاش و العلاقات الاجتماعية السائدة في المنطقة.

و لهذا فلقد شكّل التقسيم الإداري -بربطه كل فرد سوفييتي بمنطقة أو إقليم معين - انقلابا حقيقيا على موازين الطبيعة و الثقافة المحليّة، فلقد كان أول و أخطر هذه النتائج هو تكسير نمط الإنتاج البدوي و شبه البدوي الذي يزوج بين الزراعة و الرعي ( nomadisme et semi-nomadisme ) تماما، خاصة إذا علمنا أن معظم مساحة آسيا الوسطى تعتبر مناطق صحراوية و سهبية، إذ تغطي السهوب مجمل أراضي كازاخستان و جل أراضي كيرخيزستان بينما تعتبر تركمنستان منطقة صحراوية بامتياز.<sup>1</sup>

و لم تكن عملية تثبيت المجتمعات الرعوية في أقاليم محدّدة بالأمر الهين، بل احتاجت الى قبضة حديدية عنيفة جدا، فلقد أدت عملية تثبيت ( sédentarisation ) الكازاخ في قرى نموذجية ( 1928-1932 ) إلى مجاعة حقيقية أودت بحياة 1.3 مليون فرد و هو ما يمثل في تلك المرحلة ثلث سكان الجمهورية<sup>2</sup> ، تماما كما حدث في أوكرانيا بفعل سياسة التمدن الإجباري ( urbanisation forcée ) في الثلاثينيات من القرن العشرين و التي مست المزارعين الأوكرانيين و أدت إلى وفاة 2.6

<sup>1</sup>Charles Stepanoff, Carole Ferret, Julien Thorèz, *Nomadisme d'Asie centrale et septentrionale*, Paris: Armand Colin, 2013, p.37.

<sup>2</sup>Isabelle Ohayon, "La famine kazakh: à l'origine de la sédentarisation", [www.massviolence.org/fr/la-famine-kazakhe-à-l'origine-de](http://www.massviolence.org/fr/la-famine-kazakhe-à-l'origine-de). (consulté le 16/4/2014).

مليون أوكراني و القضاء على ماشيتهم ( هذه الحملة تسمى بالفرنسية dékoulakisation و يقصد بها الحملة على ملاك الأراضي الصغار، بينما يطلق عليها الأوكرانيون الهولودروم Holodrome )<sup>1</sup>

لقد أصبح الكولخوز بالنسبة لسكان آسيا الوسطى الإطار أو الفضاء الذي تتحدّد فيه هويتهم، فهو الوسيط الاجتماعي، لأنهم، عن طريقه، يحصلون على الخدمات الاجتماعية و الإدارية. و بما أن كلّ كولخوز يتكون من عدد من التقسيمات و الفروع ( section أو Utchatska باللغة الروسية) و كل فرع ينقسم هو كذلك الى مجموعات أولية ( brigades أو Khutur باللغة الروسية) تضم من 15 الى 30 أسرة تنتمي غالبا إلى نفس العائلة يمكننا تصنيفها كنواة اجتماعية قاعدية ( noyaux de base ) إلى حد جعل الكاتب Jean François Bayart يتحدّث عن ظهور هوية جديدة هي الهوية الكولخوزية ( identité kolkhozienne ) و هو بهذا لم يجانب الصواب باعتبار الإدارة السوفييتية نفسها كانت تطلق على أبناء الكولخوز (Kolkhozniks) حتى عند انتقالهم إلى المدينة للعمل في المصانع أو للدراسة في الجامعات.<sup>2</sup>

و عليه فإنّ الكولخوز لم يقدّر بعصرنة المجتمعات المحليّة بقدر ما منحها فرصة لإعادة إنتاج نفس أنماط العلاقات السائدة في الفترات السابقة، لتتحوّل فروع الكولخوز ( brigades ) إلى مجموعات تضامن جديدة (groupes de solidarité) تشبه إلى حد كبير ما يسمى في حواضر آسيا الوسطى سابقا بالمحلة ( Mahalla ) التي تشبه الأحياء الأحياء الشعبية الخاصة بالمدن الشرقية. إذ يعتقد جون فرانسوا بايارت أن الكولخوز ليس مؤسسة رسمية جامدة بل هو بنية اجتماعية حقيقية تلبي وظائف سياسية و اجتماعية و اقتصادية كثيرة فهو حسب: " همزة وصل ( interface ) بين الدولة و الفلاح و ليس فقط جمع من القرويين يؤطّرهم أعضاء منضبطون من الحزب الشيوعي (apparatchiks)، فللكولخوز منطقته و واقعه الخاص باعتباره بنية تتم فيها عملية التنشئة الاجتماعية و هو جماعة مستقلة تمتد فروعها إلى المدن و إلى الدولة و ليست فقط نقطة لفرض سيطرة و قوة الدولة على المزارعين"<sup>3</sup>

<sup>1</sup>Jacques Vallin, "A New Estimate of Ukrainian Population Losses during The Crise of the 1930s and 1940s", *Population Studies*, Vol.56 M, No.3, Nov. 2002, p.256.

<sup>2</sup>Jean François Bayart, *La réinvention du capitalisme*, Karthala, Paris: 1994, p.77.

<sup>3</sup>*Ibid.*, p.77.

و بما أن مسؤولي الكولخوز في آسيا الوسطى كان يتم اختيارهم من بين أفراد الكولخوز ، عكس ما كان يحصل بالنسبة لكولخوزات روسيا على سبيل المثال، فلقد أدى ذلك إلى إبقاء نفس العلاقات التي كانت سائدة في السابق ، بحيث يتحول مدير الكولخوز إلى واحد من الأعيان (notable) أو شيخا لقبيلة أو زعيما لمجموعة تضامنية، و بالنظر إلى عدم قدرة المركز على نشر كل أجهزته القمعية و الإدارية و الإيديولوجية في المستويات الدنيا، فقد استطاع سكان الكولخوز التكيف مع متطلبات الدولة مع الاحتفاظ بعلاقات اجتماعية تقليدية.<sup>1</sup>

لقد ساهمت سياسة التعاونيات الفلاحية التي انطلقت مع المخطط الرباعي الأول (1928 - 1932) إلى تجسيد واقع جديد و هو أقلمة الهوية ضمن إطارها الجغرافي و الإداري الجديد أي الكولخوز ، أي منح قاعدة إقليمية للانتماءات و الولاءات القديمة، فلقد تم بفضل الكولخوز إحداث ما يمكن اعتباره استنساخا (réincarnation) لمجموعات التضامن المحلية التقليدية، و في هذا الإطار يعتقد O.Roy أن إعادة بناء الهويات القديمة ضمن الكولخوز تخضع لثلاثة أنماط مختلفة: بالنسبة للمناطق القبلية تتداخل البنى التقليدية القديمة القائمة على الانتماء العائلي ( segment lignager ) مع البنية الكولخوزية ، بحيث يصبح كل أفراد الكولخوز ينتمون إلى نفس الشجرة العائلية مما يجعل الكولخوز متجانسا اجتماعيا و هو الحاصل في جمهورية تركمنستان الصحراوية حيث نجد المجتمع مقسما تقسيما قبليا، و لهذا صُنّف هذا النوع من الكولخوزات بالكولخوزات القبلية (Kolkhozes tribaux)، و هناك أنواع أخرى من الكولخوزات كانت تجمع المهجرين من جنسيات معينة تم ترحيلها إلى وسط غريب عنها و هو حال الكولخوزات الموحدة عرقيا ( kolkhozes mono-ethniques ) كالكولخوزات الخاصة بالمهجرين الألمان و الكوريين و كذا الخاص بالإسماعيليين القاطنين جنوب جمهورية طاجاكستان، أما الصنف الثالث و هو صنف نادر تكون فيه مجموعتان مختلفتان مثل ما كان حاصلا في بعض الكولخوزات المختلطة ( kolkhozes mixtes ) و مثل هذه الكولخوزات ساهمت في بروز الصراعات الداخلية بل و صلت إلى حد الحرب الأهلية كما حصل في جمهورية طاجاكستان سنة 1992 حيث كانت هناك كولخوزات تجمع مجموعتين مختلفين هما الغارميون و الكلابيون ( Gharmis et Koulabis ).<sup>2</sup>

<sup>1</sup>Bertrand Bouchet, "Tribus d'autrefois, kolkhozes d'aujourd'hui", Revue *du Monde Musulman et de la Méditerranée*, vol.59. n.59-60, p.61.

<sup>2</sup>Olivier Roy, *La nouvelle Asie centrale*, op.cit., p.144.

و في السياق نفسه يعتقد Bertrand Bouchet أنّ إعادة تشكيل (recomposition) الهويات القديمة في المناطق القبلية ضمن إطارها الكولخوزي الجديد قد تم بطريقة سلسة لأن المجموعات القبلية استوطنت فضاءات معينة قبل بدء الحملة السوفييتية ، فمن الطبيعي أن تستقر في الواحات و ضمن شبكات ري ضرورية لبقائها، و بما أن الإدارة السوفييتية لم تكن لتجد أماكن أفضل من تلك الواحات و شبكات الري الخاصة بها فما كان عليها إلا أن تستبقها و تحولها إلى كولخوزات أو على أكثر حد توسيعها.<sup>1</sup>

لكنّ هذه العملية لم تكن سهلة في سهوب كازاخستان حيث كان الاعتماد على حياة البداوة و الترحال فتثببت السكان كما قلنا في البداية أدّى الى مجاعات و مجازر رهيبة امتدت من سنة 1930 إلى سنة 1939، فلم تكن بسبب ذلك عملية إعادة تركيب الهويات السابقة مع البنية الكولخوزية سهلة و لكنها في الأخير و صلت إلى نفس ما وصلت إليه العملية في تركمنستان أي تحول الكولخوز إلى جماعة محلية تؤدي نفس الأدوار التي كانت تؤديها القبيلة سابقا.<sup>2</sup>

أدت سياسة التعاونيات الفلاحية إلى نتائج لم تكن في الحسبان، فتحول الكولخوز إلى إطار تنتظم فيه علاقات أولية تقليدية و قبلية، و ظهور أشكال جديدة من التضامن المحلي لم تكن لترضي القيادة السوفييتية الجديدة ، فبعد سنة فقط ، من وفاة جوزيف ستالين ( 1953 ) قامت السلطات بحملة موجهة للحد من استفحال هذه الظاهرة، اعتمدت على جمع و تركيز الكولخوزات بطريقة تحكّمية و بدون مراعاة الانتماءات السابقة، و هو ما أدى الى تقليص عدد الكولخوزات، حيث انتقل عددها في طاجيكستان من 2695 سنة 1949 الى 453 سنة 1955، أي بعد عام فقط من بداية الحملة.

و في أوزبكستان أعلن السكرتير الأول للحزب الشيوعي المحلي أشرف رشيدوف ( A.Rachidov ) عن بداية الحملة الرسمية للقضاء على أبسط الفروع المشكلة للكولخوز و التي تسمى بالروسية (Khutur)

<sup>1</sup>Gilles Dorronsoro, "La transition des sociétés en Asie centrale turco-iraniennne", [www.CEMOTi.revues.org/1713](http://www.CEMOTi.revues.org/1713) ( consulté le 13/2/2014).

<sup>2</sup>Bertrand Bouchet, *op.cit.*, p.57.

( لأنها و ببساطة أعادت إنتاج نفس البنية التقليدية القديمة و المسماة بالمحلة (Mahalla) و لكن هذه المرة بضم مجموعة من الكولخوزات و ضمها للسوفخوزات ، لأن هذه الأخير كبيرة بقدر كاف و رؤساؤها يعينون من قبل أجهزة الدولة العليا. و لكن النتيجة لم تكن مرضية ، هنا كذلك ، فالكولخوزات التي تم دمجها تحولت إلى فروع و إلى مجموعات تضامنية ، و بهذا فشلت الحملة في تغيير الواقع.<sup>1</sup>

و عليه يمكننا اعتبار الكولخوزات الفضاء الأبسط لبروز مجموعات تضامنية محلية، عوّضت مع مرور الوقت مجموعات تقليدية قديمة، إلى حد جعل الإدارة السوفييتية تعلن عن تخوفها من النزعة المحليّة (localisme) بل إنّ مصطلح (Mahallagera) و الذي يعبر عن هذه النزعة باللغة الطاجيكية دخل القاموس السياسي السوفييتي للدلالة على هذه الظاهرة، تماما كما دخل مصطلح (sultangalievishna) للدلالة على النزعة القومية التركية الجامعة أو القومية الشيوعية التي نادى بها سلطان جالييف في عشرينيات القرن العشرين.<sup>2</sup>

لكنّ هذه النزعة المحلية لم تكن إلّا مستوى أدنى من التضامن يشبه إلى حد بعيد التضامن الآلي الذي تحدّث عنه دوركايم، باعتبار الكولخوز و بخاصة فروعه البسيطة كانت تعمل وفق نمط تقليدي بسيط يشبه العائلة الموسعة ، فعلاقة أفرادها بالمدير لم تكن تختلف عن علاقة سكان المحلة بشيخ المحلة. غير أنه لا بد و أن نبحث في مستويات أعلى لفهم طبيعة الحياة السياسية في جمهوريات آسيا الوسطى.<sup>3</sup>

<sup>1</sup>Olivier Roy, "Groupes de solidarités au Moyen-Orient et en Asie centrale", [www.academia.edu/1453533/Groupes\\_de\\_solidarite\\_en\\_Moyen-Orient\\_et\\_en\\_Asie\\_centrale](http://www.academia.edu/1453533/Groupes_de_solidarite_en_Moyen-Orient_et_en_Asie_centrale). ( consulté le 12/4/2014).

<sup>2</sup>Boris-Mathieu Petric, *Pouvoir, Don et réseaux en Ouzbékistan post-soviétique*, Paris: PUf, 2002, p.300.

<sup>3</sup>Jean-Francois Bayart, *op.cit.*, p.75.

## المطلب الثاني: تشكيل العصب الجهوية و دورها في الحياة السياسية.

ذكرنا سابقا أن الإدارة السوفييتية قد عجزت في السنوات الأولى للتجربة السوفييتية من إيجاد نخب محلية متشعبة بالفكر البلشفي و قادرة على تسيير السوفييتات المحلية، و لهذا استعانت بالنخب الأجنبية عن المنطقة عموما، و بالنخب الروسية على وجه الخصوص، لكن هذه السياسة كانت تحمل بذور فشلها، فالخوف الأكبر بالنسبة للقادة السوفييت هو تبلور انطباع محلي عام بعدم وجود فروق جوهرية بين التجربة الاستعمارية القيصرية و التجربة البلشفية، و لقد كان لينين أكثر الشخصيات إدراكا لهذه الحقيقة. لهذا السبب سارعت القيادة السوفييتية في انتهاج سياسة بديلة تقوم على استعمال متدرج لشخصيات محلية لتسيير شؤون الجمهوريات الآسيوية.<sup>1</sup>

و من أجل بعث قنوات اتصال جديدة (courroie de transmission) بين المركز و الأطراف، أقرت القيادة السوفييتية سياسة جديدة ( صادق عليها المؤتمر العاشر للحزب الشيوعي 1921) سميت باللغة الروسية (Korenizatsya) أي التأصيل ("indigénisation" أو "enracinement") و التي بدأت سنة 1921 و استمرت إلى غاية 1934 تبعتها توقف و حملة لتطهير الجمهوريات من نخبها المحلية، لتتطلق بعد الحرب العالمية الثانية من جديد و لكن بأهداف جديدة.<sup>2</sup>

اعتقدت القيادات السوفييتية أن تغيير النخب السابقة بنخب محلية سيؤدي إلى تحقيق أهداف متعددة أهمها:

<sup>1</sup>Jonathan Whetley, "Le nationalisme "civic" et "ethnique" revisité: la conceptualisation de l'Etat, de la nation et du citoyen dans l'Ex-Union soviétique", [www.Afriit.org/IMg/pdf/11\\_wheatley.pdf](http://www.Afriit.org/IMg/pdf/11_wheatley.pdf). (consulté le 14/4/2014).

<sup>2</sup>Lewis Siegelbaum, "Making Central Asia Soviet", [www.soviethistory.mcgill.ca/index.php?page=subject](http://www.soviethistory.mcgill.ca/index.php?page=subject). (consulté le 2/4/2014)

- نفي صفة الطابع الاستعماري عن السياسة البلشفية على اعتبار أن الجمهوريات سيكون لها إطاراتها المحلية، شرط أن تكون موالية للتوجه البلشفي العام.

- التخلص من النخب المحلية الارستقراطية (التقليدية) بالاستعانة بأشخاص ينتمون إلى أفقر فئات المجتمع و أكثرها هشاشة ( بدو تم تثبيتهم ، رعاة لا يملكون ماشية ، عمال موسميون ) لكن هذه الطريقة سرعان ما ظهرت سلبياتها لأن هذه الفئات لم تخضع لأي تكوين و لا تمتلك أدنى قناعات شيوعية و كانت تبحث فقط عن مصالحها الخاصة بالانخراط في أجهزة الحكم.

شكّلت حملات التطهير ( les purges ) لسنة 1937 محطة أساسية للتمييز بين الإطارات المحلية المتعلّمة و المؤهلة و الإطارات الأخرى و لم تستقر الأمور إلا بعد عقدين من تاريخ بداية حملات التطهير، حيث شكّلت نهاية الخمسينيات تبلور إطارات محلية بارزة، ساهمت طريقة التسيير المنتهجة في عهد بريجنيف (1964-1982) إلى تحويلها إلى مرزانيات محلّية ( satrapies ).<sup>1</sup>

مثّلت المرحلة البريجنيفية مرحلة استقرار كبير ( بينما سماها خصومه بمرحلة الانسداد و الركود stagnation ) لأجهزة الحكم في جمهوريات آسيا الوسطى و بقاء أغلب أمناء الأحزاب الشيوعية الجمهورية في مناصبهم ( الكازخي كوناييف (من 1959 الى 1986) و الأزيكي رشيدوف من 1959 إلى 1983 و التركماني غافروف من 1969 الى 1986 و الطاجيكي رسولوف من 1961 الى 1982 و الكيرخيزي أصول بابيف من 1961 الى 1985 ، فهذه المرحلة شهدت توقفا لعملية تدوير النخب ( rotation des cadres ) و بروز علاقات زبائية أقرب إلى القرون الوسطى منها إلى الإيديولوجية الرسمية ( الماركسية ) ، فبعيدا عن الخطاب المفعم بمفاهيم الاشتراكية العلمية ( لغة الخشب ) كانت الممارسة السياسية في عهد بريجنيف قائمة على صراعات عصبية شجعت على بروز ولاءات جهوية .<sup>2</sup>

<sup>1</sup>Olivier Roy, *La nouvelle Asie centrale*, op.cit.,pp.167-168

<sup>2</sup>*Ibid.*, p.170.

اعتقد بريجنيف أنه يكفي للمركز ( موسكو ) أن يفرض الولاء و الاستقرار في منطقة آسيا الوسطى باللعب على وتر التنافس بين العصب المحلية ، التي شكلها النظام ، بحيث يصبح المركز قادرا على السيطرة على الحياة السياسية المحلية و لعب دور الحكم (arbitrage) الذي تلجأ إليه هذه العصب المحلية للحصول على المناصب و الموارد، و ضمن هذه الإستراتيجية يمكننا فهم طريقة تشكيل هذه العصب في المرحلة السوفييتية.

كان مدار الحكم و السلطة في الجمهوريات السوفييتية يدور حول ثلاثة مناصب أساسية هي السكرتير الأول للحزب الشيوعي المحلي الذي يمتلك السلطة الفعلية، رئيس السوفييت الأعلى و هو عادة أكثر الشخصيات حظا لتعويض السكرتير الأول و المنصب الثالث هو رئيس مجلس الوزراء. و كان توزيع أو منح هذه المناصب على أساس عصبي جهوي هو الذي يحقق التوازن بين السلطات، و جرى التقليد أن يكون منصب السكرتير الثاني مخصصا لإطار ينتمي للعرق الروسي. و سنلاحظ من خلال النماذج المقدمة استمرار هذه المعايير و دورها في خلق الولاءات الجهوية و تأثيرها على الانتقال السياسي في مرحلة الاستقلال.

توصل دارسو الحياة السياسية في جمهوريات آسيا الوسطى إلى قناعة راسخة وهي ضرورة التركيز على البنى و المؤسسات غير الرسمية بدلا من المؤسسات الرسمية، ففي كثير من الأحيان تعجز البنى الرسمية عن تفسير طبيعة العلاقات السياسية، بحيث يعتقدون بأنّ اللعبة السياسية في منطقة آسيا الوسطى تسير وفق قواعد ضمنية ( implicit rules ) تعتمد على العشائرية أو بالأحرى على عصبية سياسية جهوية، و لفهم هذا النمط المختلف من الحكم ، لا بد أن نقوم بتحليل هذه البنى و المؤسسات غير الرسمية"<sup>1</sup>

---

<sup>1</sup>Kathleen Collins, "Clans, pacts and politics in Central Asia", *Journal of Democracy*, vol.13, n°3, juillet 2002. p.144.

فالعصب السياسية الجهوية في آسيا الوسطى ، كما عرّفها Kathleen Collins ، هي " بنى غير رسمية تتشكل من شبكة من الأفراد تربطهم علاقات قرابة فعلية أو متخيلة (fictive) و تعمل وفق قواعد أو كودات (codes) غير مكتوبة " أو بتعبير آخر هي "مجموعات تضامن أو عصبية تشكلت وفق علاقات شخصية مبنية على القرابة أو الولاء أو الزبائية، لكنها تصبح بالنسبة لأعضائه مع مرور الوقت معطى مكتسب و أولي (primaire) و كأنه لم ينتج عن إستراتيجية شخصية"<sup>1</sup>.

إنّ السياسة التي اتبعتها هذه العصب هي استثمار للظرف عن طريق إبعاد (crowding-out) مؤسسات الدولة الفعلية و تعويضها بالبنى غير الرسمية بطريقة سلسلة دون الدخول في صراع معها، و بهذا فهي لا تعارض الدولة بل تعمل على الحصول على جميع الامتيازات السلطوية من مناصب و موارد و تحتكر توزيعها على المستوى المحلي، و لقد ساد هذا النمط في جمهوريتي أوزبكستان و طاجاكستان على وجه الخصوص.<sup>2</sup>

**العصب الجهوية في أوزبكستان:** اعتمدت الادارة السوفييتية على توزيع المناصب الأساسية على شخصيات تنتمي إلى مناطق مختلفة من أوزبكستان، فانطلاقا من سنة 1925 اعتمدت على Fayzoullah Khodjaiev من بخارى لرئاسة مجلس الوزراء و Akmal Ikramov من طشقند لتولي منصب السكرتير الأول للحزب و Yoldach Akhoundbabaiev من فرغانة لتولي رئاسة السوفييت الأعلى، ثم قامت بتصفية الأولين في حملة التطهير التي عرفتها المنطقة سنة 1937 ، و هو ما جعل منطقة فرغانة تحتكر السلطة و المناصب، و خاصة بعد تحالف إدارتها مع إدارات منطقة طشقند لينشأ محور سياسي يسمّى محور **فرغانة-طشقند** ، و هو ما سهّل على المناطق المنتمية للعرق و الثقافة الأوزبكية ( ينتمون للقومية التركية) إزاحة الإدارات المنتمية لمدينتي سمرقند و بخارى اللّتين تسكنهما الأقلية الطاجيكية و المنتمية للثقافة الفارسية، علما أنّ أبناء هذه المنطقة هم الذين احتكروا المناصب الإدارية لقرون طويلة، حتى في ظل الإمبراطوريات ذات الأصول التركية (

<sup>1</sup> Ibid., p.150.

<sup>2</sup> Olivier Roy, "Groupes de solidarité, territoires, réseaux et Etat dans le Moyen Orient et l'Asie Centrale", p. 44 et in Dawod, Hosham, *Tribus et Pouvoirs en terre d'Islam*, Paris: Armand Colin, 2004.

فالسطة كانت في الغالب تركية و الإدارة فارسية لغة و أفرادا). و هنا لا بد من الإشارة على أنّ التحالفات هذه لم تكن مبنية على أسس عرقية أو قومية واضحة لكنها كانت إستراتيجية سياسية للاستئثار بالسطة و الموارد حسب ما تملّيه ظروف و خصوصيات نمط التسيير السوفيتي.<sup>1</sup>

احتكر محور فرغانة- طشقند السطة إلى غاية سنة 1959 ، لكن خروتشيف و بعد جولته الآسيوية و توقفه في طشقند سنة 1955 أدرك أنه لا بد من تدوير المناصب بين المناطق و الجهات فقام بتعيين أشرف رشيدوف Ashraf Rachidov المولود بمدينة جيزاك القريبة من سمرقند سكرتيرا أولا للحزب الشيوعي الجمهوري سنة 1959، بينما احتفظ محور طشقند-فرغانة بمنصب رئاسة الدولة. لتبدأ من هذا التاريخ الصراعات و التنافس بين محورين إثنين هما محور طشقند-فرغانة و محور سمرقند-جيزاك. و مع وصول رشيدوف إلى السطة أصبحت المحاور أكثر تجانسا و تماسكا، لكنّ رشيدوف استطاع أن يستغل ما وقع من مظاهرات قام بها أنصار الفريق المحلي لكرة القدم و هتافاتهم المعادية للروس سنة 1969 بأن ألصق التهمة و المسؤولية على المسؤولين المنتمين لمحور طشقند-فرغانة، و بالفعل فقد قامت الإدارة المركزية بفصل رئيسة الدولة من منصبها نهائيا و قامت بسجن رئيس مجلس الوزراء ( Rahmankoul Kourbanov ) عشر سنوات. و هنا نلمس تأثير التسوية الضمنية ( و بخاصة في فترة رئاسة بريجنيف ) بين المركز (موسكو) و قادة الأقاليم في آسيا الوسطى و المتمثلة في المعادلة الآتية: منح الاستقلالية الموسعة و عدم التدخل في طرق التسيير و توزيع الموارد مقابل ضمان الولاء المطلق للمركز و ضمان الاستقرار و منع تصاعد النزعات القومية<sup>2</sup>.

و بالطريقة نفسها، قامت الإدارة السوفيتية بتغيير جميع الإطارات المنتمية إلى جماعة سمرقند-جيزاك لصالح جماعة طشقند-فرغانة، مستغلة انفجار أشهر قضية فساد في منطقة آسيا الوسطى سنة 1983 سميت بفضيحة القطن و التي شكلت منعرجا خطيرا، ليس في جمهورية أوزبكستان فحسب بل في المنطقة بأسرها، إذ تزامنت مع وفاة بريجنيف و مجيء أندريوف Andropov الذي حاول

<sup>1</sup>Kathleen Collins, *Clan Politics and Regime Transition in Central Asia*, New York: Cambridge University Press, 2006, p.35-36.

<sup>2</sup>*Ibid.*, p.37.

التخلص من تراكمات الفترة السابقة، و لكن بدون جدوى، حيث استمرّ الصراع بين العصب الجهوية الى غاية 1989 أي السنة التي تولى فيها إسلام كاريموف Karimov منصب السكرتير الأول للحزب الشيوعي الأزيكي الذي استغل فيما بعد السياسة السوفييتية المناوئة لمحور جيزاك-سمرقند و رئيسها رشيدوف و وظفها في فترة الاستقلال توظيفا جيدا لتعميق التباعد الروسي الأزيكي و تعبئة المشاعر القومية.<sup>1</sup>

**العصب الجهوية في طاجاكستان:** على مر عقود طويلة، كانت مدينتا سمرقند و بخارى تمثلان الحاضنة الرئيسية للنخب الدينية و الثقافية في منطقة آسيا الوسطى لأنهما المدينتان اللتان حافظتا على التراث الفارسي، و لهذا فقد كانتا تحتكران المناصب القيادية و الإدارية لمختلف الدول و الممالك السالفة، كما أن الاستعمار الروسي ( البلشفي) لم يضم خانية بخارى ضما كلياً إلا في سنة 1920. لكن ستالين بدهائه الحاد قام بإضعاف التأثير السياسي و الثقافي لهاتين المدينتين من خلال ضمهما إلى جمهورية أزيكستان ( التركية) بدلا من طاجاكستان (الفارسية)، لكنّ المخطط السوفييتي لم يتوقف عند هذا الحد بل عمل على خلق ولايات جهوية جديدة ساهمت في نشر التناقس و الصراع بين المناطق بنفس الطريقة المعتمدة في جمهورية أزيكستان.<sup>2</sup>

في البداية اعتمد السوفييت على شخصيات تنتمي إلى إقليم بامير Pamir الجبلي، و لم يكن هذا الاختيار جزافيا بل كان نتيجة لتضافر عوامل موضوعية كثيرة أهمها:

- فقر سكان هذه المنطقة المدقع بحكم البيئة القاسية التي يعيشون فيها (جبال بامير) و انعدام طبقات أرستقراطية على عكس المناطق الأخرى، فهم بذلك يشكلون طبقة مضطهدة أو بروليتاريا مهمشة.<sup>3</sup>

<sup>1</sup>Olivier Roy, *La nouvelle Asie centrale*, op.cit., p.172.

<sup>2</sup>*Ibid.*, p.173.

<sup>3</sup>Bliss Frank, *Social and Economic Change in the Pamirs( Gorno-Badakhshan, Tadjikistan)*, London and New York: Routeledge, 2006.45-46.

- ثانيا: ضعف التدّين عند سكان بامير و هذا لأسباب تاريخية لكونهم ينتمون الى أقلية دينية ( الشيعة الاسماعيلية) تقترب كثيرا من الطائفة الدرزية المتواجدة في لبنان و سوريا و هي عادة طوائف قليلة الاهتمام بمظاهر التعبد على خلاف الشيعة الإمامية ( الاثنى عشرية) التي تعتبرها طوائف مارقة أو ضالة، و هو ما يفسر تواجدها في مثل هذه المنطقة القاسية ، اذ نجد أن جميع الطوائف التي تعتبرها المذاهب الكبرى (السنة أو الشيعة) تعيش في عزلة كبيرة ( الدروز في الهضبة الدرزية و العلويون في جبل عامل في لبنان و الإباضيون في جزيرة جربة بتونس ..الخ، فهذه المنطقة بالذات و التي صُنفت أثناء التقسيم السوفييتي كمنطقة مستقلة ذاتيا ( Oblast autonome du Haut Badakhshan) توجد فيها أعلى قمة جبلية في الاتحاد السوفييتي هي قمة إسماعيل ساماني (7134 م) و التي كانت تسمى في الفترة الستالينية قمة ستالين ثم استبدل بقمة الشيوعية بعد الحملة التي قادها خروتشيف ضد كل مظاهر الستالينية.<sup>1</sup>

- ثالثا: و نتيجة للعاملين الأولين فقد كان من الطبيعي أن يكونوا أقلّ عداوة و مواجهة للاحتلال الروسي بل إنهم وظفوا الورقة الروسية للحصول على الحماية مقابل الولاء المطلق للمحتل الروسي الذي كان يعتبر جبال بامير الواقعة في الجنوب الشرقي لطاجاكستان أهم منطقة من الناحية الاستراتيجية لأنها محاذية و تمتد الى ثلاث مناطق جيوسياسية كبرى هي بلاد الصين و أفغانستان التي يعدها السوفييت بوابة للقارة الهندية و بلاد الصين، و جبال بامير هي مستودع المياه الدائم لأحواض آسيا الوسطى، كما يسمح ارتفاع قممها الجبلية على مراقبة كل المناطق المحاذية، بما فيها الصين.(أنظر الشكل رقم 7) .

<sup>1</sup>David Gauzère, "La Laïcité et aussi une valeur orientale", [www.blog.Mediapart.fr/blog/david-gauzere/041112/la-laicite-est-aussi-une-valeur-orientale](http://www.blog.Mediapart.fr/blog/david-gauzere/041112/la-laicite-est-aussi-une-valeur-orientale).

الشكل رقم 7: الموقع الاستراتيجي المتميز لإقليم جورنو بدخشان



المصدر:

[www.en.wikipedia.org/wiki/Gorno-Badakhshan\\_Autonomous\\_Region](http://www.en.wikipedia.org/wiki/Gorno-Badakhshan_Autonomous_Region).

و في المقابل اعتمدت الإدارة السوفييتية على الباميريين بالطريقة نفسها التي اعتمد فيها الاستعمار الفرنسي على العلويين في سوريا ( تمكينهم من بسط نفوذهم على المؤسسات الأمنية ) و بالطريقة نفسها التي يعتمد فيها الإسرائيليون على الدروز من دون الطوائف العربية الأخرى في فلسطين. فاللعب على الورقة الطائفية و الأقليات كانت سمة بارزة في طاجكستان.<sup>1</sup>

و في الوقت نفسه، اعتمدت الإدارة السوفييتية على المناطق التي يقطنها الأزيك كإقليم لينين آباد

<sup>1</sup>Olivier Roy, *La nouvelle Asie centrale, op.cit.*, p.175.

( خوجنت Khodjent بعد استقلال الجمهورية)، الذي استطاع أن يهيمن على بقية المناطق من 1946 حتى 1992. و باختصار يمكننا تلخيص التنافس الدائر بين العصب الجهوية كالاتي: لقد أدت سياسة التقسيم السوفييتية إلى ظهور أربعة تجمعات مناطقية كبرى ( لينين آباد، كولاب، غارم، و بامير) بالإضافة الى مناطق فرعية صغرى حسب التقسيم السوفييتي كمنطقة Kourgan Tepp، و عند سيطرة النخب المنتمية إلى إقليم لينين آباد على الحياة السياسية في طاجاكستان ( خاصة بعد 1946) قاموا بتهميش المناطق الأخرى بل وصل بهم الحد إلى إلغاء هذه المناطق إداريا ( نزعت منها مكانتها القانونية) ما عدا منطقة غورنو بدخشان (بامير) و هذا بسبب مكانة هذه المنطقة التي لا يمكن إلغاؤها إلا بأمر مباشر من موسكو، لكنّ الوضع بدأ يتغير ابتداء من 1973 حيث أعيد الاعتبار لمنطقة كولاب.<sup>1</sup>

و في سنة 1974 تم اغتيال رئيس سوفييت منطقة كولاب، الذي ينتمي إلى مدينة لينين آباد سنة 1974 و تعويضه بشخصية من كولاب، و بعدها بسنتين تمّت ترقية منطقة Kourgan Tepp - القرية من كولاب و التي يقطنها طاجيك و قد تم ترحيلهم إليها في خمسينيات القرن العشرين و أزيك من منطقة غارم - إلى منطقة مستقلة ذاتيا و بذلك أصبحت منافسة لمنطقة كولاب، و هو ما يوضح الطريقة التي اعتمدها السوفييت في تحويل التنافس السياسي إلى واقع إداري.<sup>2</sup>

و استمرت هذه الأساليب إلى غاية مجيء جورباتشيف سنة 1985 حيث قامت السلطات المركزية بتقسيم المناصب القيادية على إطارات تنتمي إلى عصب جهوية مختلفة، و أدى احتدام الحرب الأفغانية إلى ظهور مخاوف من حدوث تواصل بين الطاجيك المنتشرين على أطراف الحدود الطاجيكية-الأفغانية فقامت موسكو بتعيين أفراد من منطقة بامير الاسماعيلية ( جورنو-بدخشان) على رأس وزارة الداخلية التي تضطلع بالمؤسسات الأمنية و استخدامهم دون غيرهم في جهاز الاستخبارات السوفييتي (KGB)، في حين تم استثناء منطقة غارم من جميع الوظائف العليا، الأمر الذي أدى إلى شعورهم المتزايد بالإقصاء و التهميش إلى درجة جعلت هذه المنطقة تتبنى مرجعيات سياسية دينية وافدة على المنطقة و التي

<sup>1</sup> Ibid., p.175.

<sup>2</sup> Alexis Berelowitch, Jean Radvanyi, *Les 100 portes de la Russie: de l'URSS à la CEI, les convulsions d'un géant*, Paris: LES EDITIONS DE L'ATELIER, 1999, p.268.

ساهمت في إذكاء الصراع الذي تطور بعد انهيار الاتحاد السوفيتي الى حرب أهلية طاحنة (1992 - 1997).<sup>1</sup>

**الجمهوريات الأخرى:** أمّا في باقي الجمهوريات الآسيوية، فقد استغلت الإدارة السوفيتية التمايزات الداخلية فيها بشكل مختلف، ففي كازاخستان كان توزيع المناصب يعتمد على أسس عرقية واضحة ، فالمناصب كانت تخصص عادة لأفراد ينتمون إلى العرق الكازاخي أو العرق الروسي إذ يعتبر ليونيد بريجنيف أشهر من تولى منصب السكرتير الأول للحزب الشيوعي الكازاخستاني (1954-1956) .<sup>2</sup>

و في كيرخيزستان ، كانت التعيينات تتم وفق اعتبارات أخرى، هي كذلك، فنظامها السياسي كان قائماً على وجود صراع بين شمال البلاد و جنوبها، و هو ما يتناسب مع التوزيع العرقي السائد فيها و نمط الإنتاج المتباين بين شمال البلاد وجنوبها، فالشمال الصناعي يقطنه الكيرخيز و نسبة كبيرة من المواطنين الروس ( يعملون خاصة في مجالات الهندسة و التعليم العالي) بينما الجنوب الزراعي تقطنه نسبة كبيرة من الأزيك و بخاصة مدينة أوش الواقعة في حوض فرغانة، فجوهر التنافس كان بين هذه الفئات و لا يزال إلى غاية اليوم، و من خلاله يمكننا فهم النزاعات العرقية المتكررة في كيرخيزستان.<sup>3</sup>

بينما اقتصر الصراع على الحكم في تركمنستان على الأسس القبلية التي تميّز هذه الجمهورية الصحراوية، فقبيلة التّك (Tekke) هي التي تسيطر على المناصب الحساسة بينما تؤول المناصب المحلية الى القبائل المسيطرة في مناطقها الأصلية و هو الأمر الذي استمر بعد انهيار الاتحاد السوفيتي<sup>4</sup>

<sup>1</sup>Karine Gatelier, "Le processus de paix tadjik: des origines du conflit au processus de paix", [www.irenees.net/bdf\\_fiche-experience-746\\_fr.html](http://www.irenees.net/bdf_fiche-experience-746_fr.html). (consulté le 12/5/2014)

<sup>2</sup>Sébastien Peyrouse, "De la mort de Staline à la Perestroïka", in *histoire de l'Asie centrale contemporaine*, sous la direction de: Pierre Chuvin, René Létolle, Paris: Fayard, 2008, p.158.

<sup>3</sup>Boris Petric, Pouvoir , "identités et ressources: construction de la solidarité au kirghizistan", Cahier de l'Asie centrale, 19-20/2011, p.350.

<sup>4</sup>Sébastien Peyrouse, *op.cit.*, p.160.

### المطلب الثالث: بروز النزعات و المطالب العرقية.

استطاعت شعوب آسيا الوسطى أن تتكيف مع النمط الذي سيرت به الحياة السياسية و هو النمط السوفييتي، و تكيفت كذلك مع النظرية العرقية السوفييتية، فبفضل (أو بسبب) السوفييت تمت صناعة الجنسية (nationalité) فالأفراد كانوا ملزمين باختيارها حسبما تمليه عليهم الوثائق الرسمية (بطاقة التعريف، و جواز السفر) و حسبما تمليه عليهم الإحصاءات الرسمية التي تفرض عليهم اختيار قومية من بين عدد محدد من القوميات الموضوعة. حيث يذكر Gérard Noiriel أنه و في سمرقند و بخارى كان أعوان الإحصاء حسب مذكره له محمد شوكوري " حينما يسألون شخصا من سمرقند و بخارى عن أصله تكون الإجابة عادة : الحمد لله أنا مسلم. فيرد عليه عون الإحصاء: اذهب الى بلاد العرب إذا. و في المحاولة الثانية تكون إجابة الشخص : أنا فارسي ، فيقول له العون: اذهب إذا إلى إيران. و حينما يقول لهم أنا طاجيكي فسيردون : إرحل من أوزبكستان ، فيجيب هذه الأرض هي مسقط رأسي ، فيقول له العون : اعتبر نفسك أزيكي"<sup>1</sup>

و في الوقت نفسه، فقد فرضت الإدارة السوفييتية على مجموعات عرقية أخرى الذوبان في مجموعة أكبر، من خلال تحديد درجة تطورها و لو بطريقة جزافية ، كما لاحظنا في الكيفية التي صيغت بها السياسة اللغوية، و التي من خلالها تم تصنيف المجموعات إلى مجموعات راقية بلغت مستوى "الأمة" ، و بالتالي فلها الحق في جمهورية سوفييتية، و مجموعات أخرى أقل تطورا لم تصل الى مستوى "الأمة" ، و بالتالي فهي فقط مجموعات عرقية أو قبائل يتوجب التعامل معها لغويا و إداريا على هذا الأساس.

و عليه فإنّ الاتحاد السوفييتي هو المسئول الأول على واقع و مآلات العلاقات العرقية لأنها وليدة سياسته العرقية ، حيث لخص O.Roy السياسة العرقية السوفييتية ونتائجها بطريقة وافية إذ يقول: " لقد

<sup>1</sup>Mohammad-Reza Djalili, Shirin Akiner, *Tajikistan: the Traial of Independance*, New York: Routledge, 1998, p.35.

أنشأت السياسة السوفييتية " المستفيدين " من هذه الأمم ، و هم من يحملون القومية أو الاسم الذي يطلق على هذه الجمهوريات. فالاتحاد السوفييتي كان آلة رهيبة لصنع الأعراق و جعلها متجانسة ، فهو يفرض على الأفراد اختيار "القومية" و يشجع على ذوبان المجموعات الصغيرة في بوتقة للمجموعات الأكبر، فالسلطات حولت الهوية إلى تصنيف إداري (catégorie administrative) حيث كانت أعلاها هي الأمة <sup>1</sup>.

إنّ هذه العوامل مجتمعة أدت الى صعود النزعات العرقية، التي بدأت بعد وفاة بريجنيف و مجي أندريوف في نوفمبر 1982 ، ففي هذه الفترة عرفت العلاقات بين المركز موسكو و الجمهوريات الإسلامية بروز أزمة حقيقية ، ففي ظرف ثلاث سنوات قامت الإدارة السوفييتية بتغيير كل الأسماء العامين للأحزاب الشيوعية الجمهورية، بل إن أندريوف وظّف " قضية القطن " الشهيرة لانتقاد سياسات بريجنيف التي وصفها بالإجرامية (لأن عائلته كانت متورطة في بعض قضايا الفساد و من بينها قضية القطن التي تورط فيها صهره)، لكنّ السلطات السوفييتية تمادت في انتقادها للجمهوريات الجنوبية و بالخصوص جمهورية أوزبكستان و سكرتير حزبها الشيوعي أشرف رشيدوف، و أصبحت الصحافة السوفييتية الرسمية تتحدّث عن وجود "مافيا أوزبكية" جعلتها أنموذجاً مثالياً لما تسميه "مافيا الجنوب" الغارق في الركوند و الفساد، و لتصبح هذه الفترة ممهدة للانفصال بين الشمال و الجنوب السوفييتي، خاصة بعد فصل أعضاء المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفييتي المنتمين للجمهوريات .

كما قامت السلطات المركزية بعزل كل أعضاء المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفييتي سنة 1983، و بهذا لم يعد لجمهوريات الاتحاد الآسيوية أي ممثل لهم على المستوى المركزي و هو ما اعتبر من قبل هذه الجمهوريات إجراءات تمييزية تتنافى مع تقاليد الحكم الموروثة من الفترة السابقة، بل شبهت بحملات التطهير التي عرفت المنطقة في منتصف الثلاثينيات، و لهذا فقد كانت هذه الحملة سببا في بروز التوتر و الاحتقان الذي انفجر فجأة و بعنف سنة 1986 في عاصمة كازاخستان ألما أتا.<sup>2</sup>

<sup>1</sup>Olivier Roy, *La nouvelle Asie centrale, op.cit.*, p.182.

<sup>2</sup>Hélène Carrère d'Encauss, *La gloire des nations ou la fin de l'empire soviétique*, Paris: Fayard, 1990, p.86.

لقد كانت أحداث 1986 ألما أتا مؤشرا على فشل السياسة الاندماجية السوفييتية ، باعتبار كازاخستان المخبر الحي لسياسة السوفييت لخلق إنسان جديد هو الإنسان-السوفييتي HOMO-SOVIETICUS ، بسبب التنوع العرقي الحاصل فيها بفعل عمليات التوطين الطوعي للمزارعين الروس أو التهجير القسري لمعارضى السياسات السوفييتية أو الجماعات القومية و العرقية المغضوب عليها.

اندلعت أحداث ألما-أتا بعد قيام الأمين العام الجديد غورباتشيف بعزل دين محمد كونايف ( ينتمي إلى العرق الكازاخي) من منصبه كأمين عام للحزب الشيوعي الكازاخستاني و تعويضه بالروسي غينادي كولبين ( Guennadi Kolbin ) ، إذ شهدت شوارع ألما أتا بعدها مباشرة أكبر مظاهرات عرقية عرفها الاتحاد السوفييتي منذ عقود طويلة ، و ذلك بخروج عشرات الآلاف من الطلبة و العمال رافعين شعارات قومية صريحة كان أشهرها " كازاخستان للكازاخ" و هذا في الوقت الذي لم تكن نسبة الكازاخ في الجمهورية تتجاوز 40% ( بفعل السياسة العرقية السوفييتية). و بعد مقتل المئات و جرح الآلاف و سجن العديد من النشطاء، اضطر غورباتشيف إلى التراجع عن قراره و إعادة الأمين العام الكازاخي لمنصبه.<sup>1</sup>

اعتبرت هذه الأحداث من قبل الكثير من مؤرخي المرحلة إيذانا واضحا بفشل التجربة السوفييتية وانطلاق مسيرة المطالب القومية الانفصالية ، في حين اعتبرها البعض ضوئاً أحمرًا أو إنذارا للسلطات السوفييتية لتغيير سياستها العرقية و ضرورة انتهاج سياسة غير تمييزية ، و بالخصوص مع جمهوريات آسيا الوسطى. غير أن القيادة السوفييتية تمادت في عنادها ، فسياسة البريسترويكا و الغلاسنوست و إن كانت تهدف إلى إصلاح المؤسسات المهترئة و إضفاء الشفافية على الممارسات و السياسات بمحاربة الفساد الإداري و الاقتصادي كما صورها الروس، اعتبرت من قبل سكان الجمهوريات الإسلامية سياسة موجهة ضدهم تمادت في احتقارهم و إهانتهم ، فكيف نفهم قيام الإدارة المركزية بالصاق تهمة "المافيا" على كثير من المسؤولين المحليين و بخاصة أشرف رشيدوف و عدي洛夫، بل إن الإعلام السوفييتي الرسمي اختلق مصطلحا جديداً أطلق عليها باللغة الروسية " rashidovshchina " للدلالة على الانحرافات السياسية القائمة على الزبائنية و الجهوية و العصبية ، متجاهلا دور الإدارة المركزية

<sup>1</sup> أحمد وهبان، الصراعات العرقية و استقرار العالم المعاصر، الإسكندرية: الحضري للطباعة، 2007، ص، 420.

-و بالخصوص في المرحلة البريجنيفية الطويلة - في بلورة هذه الممارسات، و هو ما يذكرنا بفترة الثلاثينيات و الأربعينيات التي تم فيها بلورة مصطلح " sultangalievischna " للدلالة على الانحراف القومي المضاد للماركسية اللينينية كما تصورها ستالين.

و من هنا نستنتج الدور الروسي في تعزيز مشاعر الكراهية و التمييز العرقي و العنصري ، و هو بذلك كان السبب في بروز كل المطالب اللاحقة، فساكن آسيا الوسطى لم ينظروا إلى حملات عزل و تطهير المؤسسات المحلية من النخب المحلية على أنها معركة ضد الفساد بل نظروا إليها على أنها ميز و فصل بين الشمال (السلافي و الأرثوذكسي) و بين الجنوب (التركي و المسلم) و هو ما أصبح راسخا لدى المواطنين و حتى النخب السياسية، و استقرت عليه قناعاتهم إلى غاية تفكك الاتحاد السوفييتي.

كما لعبت الحرب الأفغانية دورا لا يستهان به في زيادة مستويات التوتر و الكراهية بين الروس و السلاف على العموم و بين المسلمين و بخاصة الطاجيك و الأوزبك الذي يعيش الملايين منهم في الجهة المقابلة من الحدود، و هذا بالرغم من عدم حدوث انشقاقات في صفوفهم أو التحاقهم بالعدو أي المجاهدين الأفغان.<sup>1</sup>

إنّ فترة الثمانينيات فترة تراجع للسياسة السوفييتية التقليدية المطبقة في عهد خروتشيف و بريجنيف، فكلاهما عملا على توظيف المنطقة كبوابة أو واجهة (vitrine) لتلميع صورة الاتحاد في الدول الإسلامية فتتمية هذه المنطقة و استفادتها بشبكة معقدة من الطرقات و سكك الحديد و نجاح سياسة محو الأمية و تكوين عشرات الآلاف من الإطارات و المهندسين و الأطباء المسلمين و إرسالهم في كثير من الأحيان للعمل في بعض الدول الإسلامية ساهم بدون شك في إعطاء صورة ايجابية نسبيا للاتحاد السوفييتي، و لم يكتف كل من خروتشيف و بريجنيف بهذا بل أعادوا فتح مراكز التعليم الدينية لتشكيل مؤسسة دينية

---

<sup>1</sup> المرجع نفسه، ص. 411.

رسمية لعبت دور المؤسسات المضطلة بالعلاقات العامة مع المؤسسات الدينية العريقة كالأزهر، و هو ما دفعهما للسماح لآلاف الطلبة من تعلم اللغة العربية و سفرهم أو ابتعائهم في بعثات دينية خارجية.<sup>1</sup>

و مع زيادة نسب النمو الديمغرافي في جمهوريات آسيا الوسطى، تفاقم الطلب على سوق العمل بشكل مخرج للقيادة السوفييتية، فأصبحت أمام معضلة حقيقية و هي: زيادة النفقات المخصصة لدول الجنوب أو السماح لمواطنيها بالسفر نحو الشمال الصناعي ، و إن كان بريجنيف قد اختار الحل الأول أي تنمية الجنوب من خلال مشروع عملاق ( Sibaral ) الذي يهدف إلى تحويل جزء من مياه الأنهار الروسية الكبرى إلى منطقة آسيا الوسطى لإعادة ملأ بحيرة آرال ( mer d'Aral ) لتكثيف الزراعة و خلق صناعة غذائية محلية و الحد من الكوارث البيئية التي لحقت ببحر آرال الذي فقد أكثر من نصف مستوياته السابقة في ظرف وجيز بسبب السياسة السوفييتية . و في المقابل فقد رفضت الإدارة السوفييتية كل مشاريع التنمية الموجهة لدول الجنوب مع وصول غورباتشيف و اعتماده على مستشارين روس متطرفين أو ينتمون الى قوميات تحمل عدااء تاريخيا تجاه المسلمين ، وبالأخص الخبير الاقتصادي و مستشار غورباتشيف الأرميني ( Aganbekian ) الذي أفنعه بضرورة توقيف مجمل المشاريع لأنها غير مجدية أو مهددة للبيئة ، في الوقت الذي كانت آسيا الوسطى مخبرا لكل التجارب النووية و الكيميائية و حتى البكتريولوجية و بخاصة صحراء كازاخستان .<sup>2</sup>

و كان من الطبيعي أن تكون الكوارث البيئية إحدى أهم العوامل المؤججة للشعور القومي ( تماما مثلما ساهمت كارثة تشيرنوبيل 1986 في زيادة العداء بين الأوكرانيين و الروس حيث كان السؤال الأكبر آنذاك هو ماذا سيكون موقف الإدارة المركزية لو كانت تشيرنوبيل تقع في روسيا و ليس أوكرانيا بل أن زلزال أرمينيا سنة 1988 كان سببا مهما في ظهور جفاء كبير بين هذه الجمهورية و القيادة الروسية نتيجة للطريقة السيئة في إدارة الأزمة ) .

<sup>1</sup>Sébastien Peyrouse, " *La gestion du fait religieux en Asie centrale: Poursuite du cadre conceptuel soviétique et renouveau factice*", *Cahiers d'Asie centrale*, n.13/14, 2004, pp.89-90.

<sup>2</sup>Jérémy Allouche, " *Continuité et discontinuité de la politique de l'eau en Asie centrale*", *Cahiers d'Asie centrale*, N.13/14, 2004, p.90.

فقد وصل سكّان آسيا الوسطى إلى مرحلة من الغضب نتيجة ظهور السياسات المعادية و المهينة لشعوب المنطقة و اتهامهم بالفساد و التأخر من جهة ورفض إصلاح ما أفسدته السياسات التنموية القديمة و سببته من كوارث لا حصر لها - على أساس أنّها لن تكون مجدية- من جهة أخرى.

ساهمت سياسة غورباتشيف في ظهور قوى مناهضة للسياسة السوفييتية في مجمل الاتحاد السوفييتي، بل وصلت إلى النخب السياسية المحلية التي أصبحت ترى القيادة السوفييتية خصما، بعدما كانت تراها كحكم أو قناة رئيسية لتولي المناصب العليا على المستوى المحلي ، بل إن اللجوء إلى المركز للحصول على السلطة أصبح يعدّ في السنوات الأخيرة من عمر الاتحاد السوفييتي خيانة للتضامن المحلي حيث وصف O.Roy اللعبة السياسية الجديدة بطريقة معبرة " حتى و لو أصبحت الصراعات العصبية و الجهوية واقعا متأصلا في المنطقة ، إلّا أنّ ذلك لم يمنع من قيام فضاء سياسي قومي و ظهور تضامن محليّ في مواجهة موسكو، فقد أصبحت الصراعات بين العصب تحدث داخل شباك مغلق (à guichet fermés)، و من يجرأ على الاستجداد بموسكو لشغل منصب ما أصبح يعد خائنا لعقد ضمني بين جميع الأطراف"<sup>1</sup>.

#### المطلب الرابع: ضعف التنمية كممهد للصراعات العرقية.

ساهمت الأوضاع الاقتصادية، في أغلب الأحيان في تأجيج الصراعات العرقية و القومية ، فتوزيع الثروة و الانفاق على برامج التنمية ، هي ظواهر قابلة للقياس و المقارنة ، على عكس الظواهر ذات البعد الثقافي و السياسي، لأنها علاقات رقمية رياضية ، يستطيع أي فرد تلمّسها على مستوى الجداول و المنحنيات أو من خلال ما يراه من انعدام فاضح للمساواة بين أبناء الكيان السياسي الواحد. فبالنسبة للمحلل الاقتصادي ، تخضع العلاقات القومية والعرقية لمنطقات عقلانية ، بل إنّ الكاتب ماريو فيريرو ذهب الى أبعد من ذلك حيث يقول:

<sup>1</sup>Olivier Roy, *La nouvelle Asie centrale*, op.cit., p.165.

" بالنسبة لنا نحن الاقتصاديون ، فإننا سنكون أكثر تعقلاً بحيث نترك الأمم و القوميات تحدّد هويّتها بالشكل الذي يحلو لها، فلو شعر شخص ما بأنه قريب لشخص آخر أيًا كانت أسبابه و يود أن يصبغ هذه العلاقة بالهوية القومية أو الوعي القومي فلا ضير من ذلك. و يتبع ذلك أنّه إذا قرّر هذان الشخصان أن يعيشا سوياً ، و ينضما لنفس الوحدة السياسية- أي الدولة الأمة- فليكن لهما ما يريدان ، إذ انه بالنسبة لعالم الاقتصاد ، فان الأذواق ليست محلّ نزاع أو جدل. و في هذا الصدد فالإقبال على الديمقراطية لا يختلف عن اشتهاء البعض للأطعمة النباتية، و أن المطالبة بإقامة الدولة الأمة لا تختلف كثيراً عن رغبة شخص "تباتي" في الانضمام لنادٍ يضم في عضويته النباتيين فقط"<sup>1</sup>.

لقد كان الخطاب السوفييتي منذ السنوات الأولى للتجربة السوفييتية يريد أن يقنع شعوب الاتحاد أن الشيوعية الأممية هي الوحيدة القادرة على حماية الطبقات الكادحة التي تمثل الأغلبية العظمى، من ألعيب البرجوازية و الامبريالية في استغلال المسألة القومية لخداع الشعوب. بيد أن فشل السياسات في تحقيق مزاعم هذا الخطاب هو الذي أدى حسب الكثير من خبراء الاتحاد السوفييتي إلى انبعاث المطالب العرقية والقومية بشكل عدواني في الفترة التي سبقت انهياره.

و نوّكد هنا على مسألة المساواة في التنمية لأن الاشتراكية كخيار هي تأكيد على المساواة عموماً و على المساواة في توزيع الثروة خصوصاً. و من هذا المنطلق تبرز أهميّة دراسة الاختلالات الاقتصادية التي حدثت في مرحلة الإصلاح التي تبناها جورباتشيف في النصف الثاني من ثمانينيات القرن العشرين.

دافع بعض الباحثين عن التجربة التنموية السوفييتية في آسيا الوسطى، فبالرغم من طبيعة الاتحاد السوفييتي القمعية و التسلّطية- لأنّها استطاعت حسبهم تحقيق نتائج مذهلة في كثير من مجالات التنمية

---

<sup>1</sup> ماريو فيريرو، " اقتصاديات القومية الاشتراكية: النظرية و البرهان"، في ألبرت بريتون ، بيير سالمون (و آخرون) محرّرا، القومية و العقلانية، ترجمة: أمنية عامر، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، 2006، ص. 232.

الاقتصادية و الاجتماعية، و أن منطقة آسيا الوسطى لم تكن بمنأى عن هذا التحول، سواء كان ذلك في التعليم أو الصحة.

و لو قارنا جمهوريات آسيا الوسطى بدول الجوار الإسلامية أي إيران، باكستان، أفغانستان و تركيا من خلال مؤشر معدّل الحياة لوجدناه أعلى عن معدلات الحياة في دول الجوار و هذا المؤشر يدل على تحسّن الأوضاع الصحيّة و الأمان الاجتماعي (انظر الجدول رقم 1)

الجدول رقم 1: مقارنة معدّل الحياة في دول آسيا الوسطى، روسيا و دول الجوار الإسلامي

| الدولة     | 1985/1980 | 1992/1987 |
|------------|-----------|-----------|
| أوزبكستان  | 68 سنة    | 69 سنة    |
| كيرغيزستان | 65 سنة    | 66 سنة    |
| طاجاكستان  | 69 سنة    | 69 سنة    |
| تركمينستان | 65 سنة    | 66 سنة    |
| كازاخستان  | 69 سنة    | 68 سنة    |
| روسيا      | 69 سنة    | 69 سنة    |
| تركيا      | 63 سنة    | 67 سنة    |
| إيران      | 60 سنة    | 65 سنة    |
| أفغانستان  | 40 سنة    | 43 سنة    |
| باكستان    | 54 سنة    | 59 سنة    |

المصدر: Anatoli Vechnevski, "L'Asie centrale post-soviétique: Entre la colonisation et la modernité", Revue *d'études comparatives Est-Ouest*, vol.26,n.26,1995, pp.101-123.

بل إن بعض الكتّاب وصل به الأمر إلى تسمية السياسة السوفييتية تجاه منطقة آسيا الوسطى "استعمار الرفاهية" (Welfare colonialism) بدلا عن مفهوم الاستعمار الداخلي (internal colonialism) الذي ابتدعه ميخائيل هكتر Michael Hechter في أواسط السبعينيات ، لينفوا الطابع الاستغلالي عن السياسة السوفييتية تجاه جمهورياتها الطرفية و يظهروا محاسنها، و هم ينطلقون من نقطة أساسية و هي أنّ الاستعمار الروسي يختلف عن أنماط الاستعمار الأخرى لأنه لا يقوم على تمييز واضح بين مختلف أبناء الإمبراطورية مثل الاستعمار الفرنسي و البريطاني و يذهبون أبعد من ذلك حين يعتبرون أنّ سياسة الاتحاد التنموية تمّت على حساب المركز، و هو الرأي الذي كان يشاطرهم فيه كثير من القوميين الروس، دعاة التخلّص من الجمهوريات الفقيرة و المعرّقة لمسار تقدّم الجمهوريات السلافية، و الذي كان سولجنستين أحد أهم المنادين به.<sup>1</sup>

و في الوقت الذي تحدّث البعض عن بعض الإيجابيات التي ميّزت التجربة التنموية في المرحلة السوفييتية، ذهب البعض إلى انتقادها و اعتبارها تجربة تقترب في بعض جوانبها من تجارب استعمارية أخرى، و دليلهم على ذلك هو تركيز السياسة التنموية السوفييتية في آسيا الوسطى على القطاع الزراعي و إهمال الصناعة ، و هو ما يظهر من خلال نسبة التمدّن المتدنّية مقارنة مع معدلها العام في الاتحاد السوفييتي و نسب العمالة في قطاعي الزراعة و الصناعة (انظر الجدولين رقم 2 و رقم 3).

<sup>1</sup>Michael Rywkin, *Moscow's Muslim Challenge: Soviet Central Asia*, New York: Sharpe, 1990, p.115.

الجدول رقم 2 : مقارنة مستويات التمدّن دول آسيا الوسطى و عموم الاتحاد السوفييتي

| الاتحاد<br>السوفييتي | تركمنستان | طاجاكستان | كيرخيزستان | أزبكستان | آسيا<br>الوسطى |      |
|----------------------|-----------|-----------|------------|----------|----------------|------|
| %32                  | %33       | %17       | %19        | %23      | %23            | 1939 |
| %48                  | %46       | %33       | %34        | %34      | %35            | 1959 |
| %62                  | %48       | %37       | %37        | %37      | %38            | 1970 |
| %62                  | %48       | %39       | %39        | %41      | %41            | 1979 |
| 66%                  | %45       | %33       | %38        | %41      | %40            | 1989 |

المصدر: Anatoli Vechnevski, "L'Asie centrale post-soviétique: Entre la colonisation et la modernité",  
Revue d'études comparatives Est-Ouest, vol.26,n.26,1995, pp.101-123

الجدول رقم 3: نسبة العمالة في قطاعي الصناعة و الزراعة .

| الجمهورية        | نسبة العمالة في قطاع الصناعة | نسبة العمالة في قطاع الزراعة |
|------------------|------------------------------|------------------------------|
| عموم آسيا الوسطى | % 20.6                       | % 52.2                       |
| أزبكستان         | % 20.9                       | % 52.0                       |
| كيرخيزستان       | % 27.1                       | % 45.0                       |
| طاجاكستان        | % 18.5                       | % 57.0                       |
| تركمنستان        | % 14.7                       | % 54.2                       |

|        |        |                       |
|--------|--------|-----------------------|
| 27.4 % | 52.0 % | عموم الاتحاد السوفيتي |
|--------|--------|-----------------------|

المصدر: Anatoli Vechnevski, "L'Asie centrale post-soviétique: Entre la colonisation et la modernité",

Revue d'études comparatives Est-Ouest, vol.26,n.26,1995, pp.101-123

و ما يزيد من أرجحية الطرح الثاني، أي القائل بأن التجربة السوفيتية في آسيا الوسطى كانت استعمارية بحثة، هو اعتماد المخطط السوفيتي على نفس الأساليب المعتمدة في بعض المستعمرات الأوروبية، إلى الحد الذي جعل باحثا مثل Olivier Roy يعتقد أن آسيا الوسطى أصبحت في سنوات الاتحاد الأخيرة تنسّم بمواصفات عالم-ثالثية (tiersmondisation) نتيجة الفشل الذي عرفته السياسة التنموية السوفيتية و التهميش الذي لحقها في فترة البريسترويكا.<sup>1</sup> و ما يؤكّد هذه الظاهرة هو طغيان نشاط زراعي (monoculture) واحد على باقي الأنشطة و هو زراعة القطن، الذي تحوّل محاصيله مباشرة إلى الجمهوريات السوفيتية الأوروبية، بدعوى التخصص و التكامل ( انظر الجدول رقم 4).

#### الجدول رقم 4: التركيز المفرط على زراعة القطن

| السنة | المساحة المسقية مقدرة<br>بملايين الهكتارات | المساحة المسقية المزروعة<br>(مقدرة بملايين<br>الهكتارات) | نسبة المساحات المسقية<br>المزروعة بالقطن من مجمل<br>المساحة المسقية |
|-------|--------------------------------------------|----------------------------------------------------------|---------------------------------------------------------------------|
| 1913  | 3.2                                        | 0.556                                                    | 17.4 %                                                              |
| 1922  | 1.7                                        | 0.100                                                    | 5.9 %                                                               |
| 1933  | 3.5                                        | 1.8                                                      | 51.4 %                                                              |
| 1940  | 3.8                                        | 1.369                                                    | 36 %                                                                |

<sup>1</sup>Olivier Roy, "Caucase et Asie centrale: Vers la balkanisation", *Politique étrangère*, vol.54, n.3, 1989, p. 460.

|      |      |       |        |
|------|------|-------|--------|
| 1950 | 3.8  | 1.580 | % 41.6 |
| 1965 | 4.8  | 2.289 | % 45.6 |
| 1980 | 6.3  | 2.869 | % 45.5 |
| 1985 | 7.0  | 3.051 | % 43.6 |
| 1990 | 7.25 | 2.909 | % 40   |

المصدر: Anatoli Vechnevski, "L'Asie centrale post-soviétique: Entre la colonisation et la modernité",  
Revue d'études comparatives Est-Ouest, vol.26,n.26,1995, pp.101-123

و كان من نتائج فشل السياسات التنموية السوفييتية دخول المنطقة برمتها في أزمة اقتصادية خانقة تجلّت في تدني الإنتاج و تضائل الدخل الفردي لسكان آسيا الوسطى مقارنة بالدخل السنوي للفرد الروسي، بحيث شرعت في تبني سياسات تهدف الى التخلص من من عبء الأجانب ( أفراد الأقليات العرقية) المقيمين لديها، حيث كانوا - في اعتقاد السكان الأصليين- يزاحمون أبناء البلد الأصليين في فرص العمل الضئيلة المتاحة، و من ثم شرعت تلك الجمهوريات في التحرش بالأجانب و محاولة طردهم من البلاد (انظر الجدول رقم 5).<sup>1</sup>

الجدول رقم 5: مقارنة الدخل الفردي السنوي بين جمهوريات آسيا الوسطى و روسيا ( سنة 1989)

|            |             |
|------------|-------------|
| أزبكستان   | 980 دولارا  |
| كيرغيزستان | 1220 دولارا |
| طاجاكستان  | 780 دولارا  |

|           |             |
|-----------|-------------|
| تركمنستان | 1360 دولارا |
| روسيا     | 3780 دولارا |

المصدر: Anatoli Vechnevski, 'L'Asie centrale post-soviétique: Entre la colonisation et la modernité',  
Revue d'études comparatives Est-Ouest, vol.26,n.26,1995, pp.101-123

أما أبناء الجالية الروسية فلقد استشعروا الخطر قبل وقوعه ، فظهرت بوادر الهجرة العكسية و العودة الى الديار، فآسيا الوسطى لم تعد تلك المنطقة ، التي يمكن لأبناء القوميات الأوروبية أن يحققوا فيها تحسّنا في أوضاعهم الاقتصادية و الاجتماعية، ليتحوّل الصراع الى صراع بين أبناء الأعراق المحليّة، أي بين الأوزبك و الطاجيك ، و الأوزبك و الكيرخيز أو بين أبناء الأعراق المحليّة و الأقليات القوقازية كذلك النزاع الذي حدث بين الأوزبك و الترك المسخاتيين المهجّرين من جمهورية جورجيا السوفييتية.

و عليه، فالصراعات العرقية الحاصلة في السنوات الأخيرة من الحكم السوفييتي ، هي نتيجة لضعف وظيفة المركز في توزيع الموارد من جهة واتسام هذه العملية بعدم المساواة.

### استنتاجات الفصل الثالث

كان الغرض من هذا الفصل توضيح دور السياسات العرقية السوفييتية المتعاقبة في تقسيم المنطقة من أجل خلق التمايزات و الفروق مستعملة جملة من الأساليب، و خلصت دراستها إلى استنتاجات مهمة:

- يعتبر ستالين المهندس الحقيقي للاتحاد السوفييتي ، و استندت سياسته العرقية إلى إسهاماته العلمية السابقة و خاصة كتابه الأهم : الماركسية و المسألة القومية و الاستعمارية و إلى الظروف المحيطة بالثورة البلشفية و بالدولة السوفييتية من بعدها.

- اعتقد ستالين أنّ أسهل طريقة للسيطرة و التحكم ( شأن كل التجارب الامبريالية ) هي تقسيم الإمبراطورية لإضعاف مكوناتها.

- و تبعا لهذه النظرة التقسيمية، قام ستالين بتقسيم الاتحاد السوفييتي إلى جمهوريات اشتراكية سوفييتية، جمهوريات مستقلة ذاتيا، و أقاليم قومية. و لم يخلو هذا التقسيم من تعسف و إجحاف في كثير من الحالات.

- استعان ستالين في سياساته بمنظومة أكاديمية معقدة، سخرها لصالحه، و في مجال سياسته العرقية بالذات استعان بأشهر عالم سوفييتي في علم الأجناس و هو يوليان بروملي الذي صاغ نظرية الإثنوس لتبرير المشاريع الستالينية، و هذه النظرية كان القصد منها إضفاء صبغة ماركسية تطورية على تصنيف الشعوب و الكيانات السياسية.

- استند التقسيم السوفييتي إلى اعتبارات أخرى غير الاعتبار العلمية و هي الاعتبار الأمنية و الإستراتيجية، و هو ما ظهر جليا في طريقة تعامله مع الأقاليم المحاذية للدول الإسلامية المجاورة ( تركيا، إيران و أفغانستان).

- و بعد تحقيق التقسيم كان لا بد للسلطات السوفيتية أن تكرّس التمايز و الانقسام بين شعوب آسيا الوسطى، فلجأت إلى جملة من الأساليب و الاستراتيجيات كان من أهمها السياسة اللغوية.

- كانن السياسة اللغوية ترمي إلى تحقيق هدفين أساسيين هما: ترويس المنطقة بحيث تصبح لغة الاتصال بين جميع القوميات و الأعراق المشكّلة للاتحاد السوفيتي. و خلق لغات محلّية و جهوية و إبراز الفروقات البسيطة و تأصيلها بحيث تصبح الأعراق المشكّلة لنفس القومية كشعوب آسيا الوسطى تمتلك لغات خاصة بها لا تمكّنها من فهم اللغات المستعملة في باقي جمهوريات آسيا الوسطى. و بالفعل فلقد نجحت هذه السياسة و حقّقت أهم أهدافها بحيث أصبحت شعوب آسيا الوسطى المختلفة اليوم غير قادرة على التخاطب بينها.

- و إلى جانب السياسات اللغوية لجأت السلطات السوفيتية إلى خلق انتماءات و ولاءات جهوية و محلّية بديلة عن الانتماءات التقليدية و هي الدين الإسلامي و القومية التركية الجامعة، فاستندت الحياة السياسية فيها إلى العصب الجهوية المتنافسة على المناصب.

- و جميع هذه السياسات أدت إلى بروز النعرات العرقية و الجهوية، زاد من حدّتها ضعف مسارات التنمية في جمهوريات آسيا الوسطى التي اعتبرها البعض نموذجا للسياسات الاستعمارية و ليس للسياسات الاندماجية.

- هذه السياسات هي التي شكّلت الإرث السوفيتي الثقيل الذي سيصعب تجاوزه من قبل جمهوريات فتية لا تمتلك تقاليد سياسية و سلطوية سابقة للفترة السوفيتية.

#### الفصل الرابع: الاستقلال و تسير التركة السوفيتية.

أعلنت جمهوريات آسيا الوسطى استقلالها تباعا بعد الانقلاب الفاشل سنة 1991 ، حيث أعلنت كل من كيرخيزستان و أوزبكستان استقلالهما في الواحد و الثلاثين من أوت 1991 ، و طاجاكستان في التاسع من أكتوبر و تركمنستان في السابع و العشرين من أكتوبر، بينما تأخر إعلان استقلال كازاخستان إلى غاية السادس عشر من ديسمبر 1991 خوفا من تداعيات انهيار الاتحاد السوفيتي على وحدتها الترابية.

و بما أن هذه الجمهوريات الفتية ، لم تكن تمتلك تقاليد سلطوية عريقة و اقتصرت الحياة السياسية فيها على تسير شئون الإدارة و الاقتصاد المحلي وفقا لما تمليه القيادة السياسية في موسكو، فلم يكن للنخب السياسية فيها قبل الاستقلال أدنى تصور لما ستؤول إليه الأوضاع في غياب المركز المسيطر و المتحكم.

و عليه فإنّ الحديث عن المرحلة الجديدة هو حديث عن تجربة بناء مؤسسات الدولة و رموزها أو إعادة إنتاجها مستعينة بما خلفته التجربة السوفيتية، و هو أمر هين مقارنة بعملية بناء الأمة nation- building ، و هذا بالنظر إلى حساسية المسألة العرقية و القومية ، و لهذا فقد كان التساؤل الطبيعي يدور حول قدرة هذه الجمهوريات عن انتهاز سياسات قادرة على تسير التعدد الثقافي و العرقي و اللغوي الذي أفرزته التجربة السوفيتية، بما يسمح باستيعاب مختلف مكونات الأمة، أو الاستمرار في نفس المنطق الذي طبع المرحلة السابقة.

و بما أن جمهوريات آسيا الوسطى ورثت من الفترة السوفيتية حدودها التي أصبحت حدودا سياسية بعدما كانت حدودا إدارية فقط ، فمن الطبيعي أن تصبح قضية الحدود و الأقاليم الحبيسة و المكتنفة (les enclaves) و الجمهوريات المستقلة ذاتيا واحدة من القضايا التي أصبحت ذات بعد دولي بعدما كانت مسائل ترتبط بالسياسة الداخلية للاتحاد السوفيتي.

و هو ما يقودنا بالضرورة إلى فهم مختلف هذه التحديات و دورها في التأثير على أمن و استقرار هذه المنطقة.

## المبحث الأول: القومية العرقية و تكريس التمايز العرقي.

تفاجأت النخب السياسية الحاكمة في آسيا الوسطى بانهيار الاتحاد السوفيتي ، كغيرها من الجمهوريات السوفييتية الأخرى ، لكن وقع الاستقلال لديها كان أشد، فلم تكن تستند إلى تقاليد سلطوية أو إرث قومي خاص بها واضح المعالم كما هو حاصل لدى جمهوريات البلطيق أو جمهوريات القوقاز ، وبخاصة جمهوريتي جورجيا و أرمينيا، فالعودة إلى مضمون الحراك القومي الذي سبق الثورة البلشفية و نقصد به الحركة الجديدة و الجامعة الإسلامية أو ما تلاها من ثورات و حركات مناهضة استمرت عقدا كاملا من الزمن تمثلت في ثورة الباسمانشي و مشاريع الإحياء القومي التي تزعمها سلطان جاليف، لا تتناسب مع الواقع الجديد القائم على تفتيت و تجزئة المنطقة إلى جمهوريات منفصلة.

و عليه فلقد كانت النخب المحلية المنتمية للفترة السوفييتية مدركة لهذا التحول العميق، و لهذا فهي لم تكن تخشى من عدم قدرتها على تسيير مؤسسات الدولة و أجهزتها لأنها كانت تضطلع بهذا الدور وفق النمط السوفييتي الخاص بها، و هو النمط الذي استطاعت استيعابه بل استبطانه بامتياز.

لكن المسألة تعدت منطلقات بناء الدولة إلى ضرورة رسم هوية جديدة للدولة و المجتمع تتوافق مع الوضع الطارئ و لا تحدث شرخا عميقا مع الماضي يتعذر عليها لملمته، و سواء كانت هذه النخب ستعتمد إلى سياسات جديدة غايتها الحفاظ على سيطرتها على مقاليد الحكم أو كانت الغاية وطنية تخضع لمنطق الدولة و مصالحها فذلك سيصطدم لا محالة بتأثير سبعة عقود من السياسة العرقية السوفييتية.

## المطلب الأول: القومية العرقية كأيدولوجية جديدة للدولة.

ظهرت القومية العرقية (le nationalisme ethnique) أول ما ظهرت كرد فعل على التوسع الاستعماري سواء داخل أوروبا (الحملة النابوليونية)، و بروز التصور الألماني للقومية كنقيض و معارض للإمبراطوريات السلالية (dynasties)، أو خارج أوروبا ببروز نماذج أخرى كالنموذج الهندي في مواجهة الاستعمار البريطاني. فالاستعمار من هذا المنظور هو مولّد هذه الظاهرة بطريقة غير إرادية، و لهذا يعتقد أنثوني سميث (Anthony Smith) أن:

"النخب في البلاد المستعمرة تنقسم في تعاملها مع التحدي الاستعماري إلى ثلاث فئات أساسية فالفئة الأولى تتخذ موقفا رافضا للاستعمار رفضا مطلقا باعتباره شرا مطلقا، بينما تسقط الفئة الثانية في فخ الانبهار (fascination) إلى درجة جعلها تتجاهل أو تحتقر ثقافتها ، بينما يتبنى الذين اختاروا القومية العرقية موقفا ثالثا: فهم يحاولون إصلاح مجتمعاتهم من خلال تقليد المستعمر ليتمكنوا من مقاومته".<sup>1</sup>

لكن الأمر الذي يستدعي التمعن و الانتباه هو التشابه و التماثل في الحالة الوسط-آسيوية ، فكل النخب التي استحوذت على مقاليد الحكم غداة استقلال جمهوريات آسيا الوسطى هي النخب نفسها التي كانت تسيطر على الشؤون المحلية في الفترة السوفييتية، فهم كانوا في الأغلب أمناء عامين للأحزاب الشيوعية الجمهورية أي إنهم يشكلون ما يسمى في الأدبيات السياسية الروسية بالأباراتشيك (apparatchik) أي إنهم نظريا تشبّعوا بالإيديولوجية الشيوعية الأممية و بنمط التسيير السوفييتي و بالتالي فلقد كان من المنتظر أن يحصل نوع من التطابق أو على الأقل التأثير الواضح لهذه الخلفية السياسية السوفييتية في النموذج المتبع بعد استقلال هذه الجمهورية.

غير أنّ اختيار القومية العرقية كأيدولوجية بديلة عن الشيوعية لا يتناسب مع النمط العام (idéal-typique) الذي وضعه أنثوني سميث، فالنخب الحاكمة التي تبنت القومية العرقية في جمهوريات آسيا لم تكن تنتمي لحركات مقاومة للاستعمار الروسي كبقية النخب المنتمية لحركات التحرر في ما كان يسمى بالعالم الثالث ، و بخاصة الحركات التي وصلت إلى السلطة في إفريقيا في مطلع

<sup>1</sup>Anthony Smith, *Theories of Nationalism*, London: Duckworth, 1971, p. 56.

الستينيات و تبنت نماذج حداثية مستغلة تشبعها -بفعل التعلم و التكوين- باللغة و الثقافة الأوروبية، فالنخب الحاكمة الجديدة في تبنيها للقومية العرقية عوض بدائل أخرى سلكت مسلكا براغماتيا.

إذ لا يخفى على أحد ، أن هذه الجمهوريات ورثت من الفترة السوفييتية تركة ثقيلة يصعب تسييرها سواء في التسيير الاقتصادي السوفييتي أو في تسيير المسألة القومية و العرقية، و لهذا فلقد اعتقد رؤساء الجمهوريات الجدد أنه لا بد من الإبقاء على الوضع القائم درءا للمخاطر و التحديات المحتملة ، فالقومية العرقية ستعتبر ، من هذه الزاوية، استجابة طبيعية لهذه التحديات التي كان من ضمنها احتمالات التقسيم بفعل المطالب الانفصالية.

كما يمكننا تصور أسباب تبني القومية العرقية بطرق عكسية ، إذا نظرنا إليها من زاوية أخرى، بفقدان النخب الحاكمة لنماذج أخرى جاهزة تمكّنها من البقاء في السلطة و فرض الاستقرار في الوقت نفسه ، و هو التصور الأقرب إلى التصديق ، انطلاقا من المكاسب التي سيمنحها تبني هذه الإيديولوجية دون غيرها.

فاختيار مثل هذا النوع من الإيديولوجيات (القومية العرقية) و توظيفها يعود بالدرجة الأولى لمحتواها العاطفي (حسب تصور ماكس فيبر للظاهرة العرقية ) أو لمحتواها الرمزي حسب علماء اجتماع معاصرين على رأسهم كليفورد جيرتز (Clifford Geertz) الذي يرى في مثل هذه الأنواع من الإيديولوجيات تعبيرا عن استراتيجيات سماها استراتيجيات رمزية (symbolic strategy) لأنها حسبها استجابة لتوتر ما ، قد يكون ثقافيا، اجتماعيا أو نفسيا. فحسبه " القومي لا ينتج حجبا مرتبطة بالتقاليد إلاّ عندما يكون هناك تساؤل حول وجاهتها و نجاعتها، فهو لا يعود للتقاليد بطريقة ساذجة بل من أجل إعادة صياغتها بما يتوافق مع أهداف جديدة"<sup>1</sup>

و ينحو كل من إريك هوبسباوم (E. Hobsbawm) و تيرنس رانجر (T.Ranger) في الاتجاه الذي خطه جيرتز من خلال فكرة " اختراع التقاليد (invention de la tradition)"، فبالنسبة لهذين الباحثين توظف هذه الاستراتيجية / الإيديولوجية أو الإيديولوجية/الإستراتيجية لشرعنة قطيعة محتومة (rupture inévitable) - و هو حال جمهوريات آسيا الوسطى التي وجدت نفسها في ظرف طارئ لم تكن تنتظره، و هو انهيار الاتحاد السوفييتي و ضرورة التكيف مع هذا الطارئ و حسن تسييره، و لهذا

<sup>1</sup>Clifford Geertz, *The Interpretation of Cultures*, New York: Basic Books, 1973, p.63.

فمثل هذه الدول ستلجأ حسب هوبسباوم إلى مخزونها الثقافي من الماضي البعيد جدا لخلق رموز جديدة بحيث يكون التدقيق في صدقية أو خطأ هذه الرموز ضربا من المحال.<sup>1</sup>

و هنا يأتي دور النخب العلمية في تبرير هذه الإيديولوجية و إلباسها لباسا علميا، و هو الدور الذي سيعطى به مؤرخو و علماء الأجناس و اللغة المحليين تماما كما اضطلع به سابقوهم في الفترة السوفييتية، غير أن المفارقة الكبرى هو اضطرار جمهوريات آسيا الوسطى لتبني إيديولوجية وخطاب سياسي استقلالي مضاد لروسيا يعتبر تجربة العقود السبعة من العيش المشترك تجربة استعمارية و لكنّه في الوقت نفسه يحاول تجاهل حقيقة أساسية و هي كون هذه الجمهوريات بحدودها و مؤسساتها و لغاتها العرقية ما هي إلا نتاج لهذه التجربة ، كما وضعنا في الفصل السابق.

فعلى سبيل المثال و ليس الحصر كان الخطاب السياسي في جمهورية كيرخيزستان في الفترة السوفييتية يعتبر جوزيف ستالين الأب المؤسس للأمة الكيرخيزية ، و هي اليوم عاجزة عن استحضار عناصر من التاريخ القديم أي الفترة التي سبقت التجربة السوفييتية و استغلالها في تبرير السياسات القومية الحديثة ، عكس كثير من الجمهوريات السوفييتية التي عرفت تجارب سياسية قومية سبقت الفترة السوفييتية ، على غرار أرمينيا و جورجيا أو دول البلطيق ، إذ تعتبر أذربيجان الدولة الوحيدة من بين الدول السوفييتية المسلمة التي تستطيع الاستناد بتاريخها السياسي السابق من خلال أنموذج جمهورية 1918 ( علم أذربيجان اليوم هو نفس علم جمهورية 1918).

كما أنّ تبني القومية العرقية استنادا للتركة السوفييتية و حدودها هو إستراتيجية تلغي و تقصي كل منظومة فكرية سابقة سواء ارتبطت بالقومية التركية أو بالدين الإسلامي، تماما كما فعل السوفييت ، فليس من المحبذ عند النخب السياسية الجديدة أن يظهر نقاش سياسي و لو على المستوى الفكري يسترجع كل الاجتهادات الفكرية الكبيرة و النضال السياسي الطويل الذي خاضته النخب الفاعلة في الفترة القيصريّة أو في بداية التجربة السوفييتية ، وهنا نعني بالضرورة الحركة الإصلاحية الجديدة و القومية التركية الجامعة التي توقفت مع حملة القمع الكبيرة لحركة الباسماتشي في بداية العقد الثالث من القرن العشرين و مع سجن و اغتيال زعماء القومية الشيوعية كسلطان جالييف و تورار روسكيلوف.

<sup>1</sup>Eric Hobsbawm , " *Inventer des traditions*" (traduit de l'anglais: André Mary), [www.enquete.revue.org/319](http://www.enquete.revue.org/319). (consulté le 12/6/2014).

و لهذا فالنخب الجديدة في اعتمادها على القومية العرقية كإيديولوجية مؤسسة للأمة، حاولت أن تستغل كل عنصر من الماضي يخدم التوجه الجديد و إقصاء كل عنصر يضعها في مساءلة حقيقية حول وجهة اختياراتها الإيديولوجية الجديدة و هو ما جعلها كما يقول O.Roy " تستخدم القوالب المفاهيمية ( matrice conceptuelle ) السوفيتية المعلمنة (laicisée) لكن بدون تناول مسألة وحدة الشعوب أو ذوبان ( Fusion des peuples ) كما تبناها السوفييت و لو نظريا".<sup>1</sup>

و عليه فلقد انتهجت الجمهوريات الجديدة في تسييرها لمرحلة الاستقلال على الاستبعاد القسري (forclusion) لكل حقائق التاريخ التي لا تخدم توجهها الاستقلالي المكرس للتمايزات التي صنعتها السياسة العرقية و اللغوية السوفيتية ، و هي بذلك وجدت نفسها تستعير نفس المنهج الإقصائي بغض النظر عن خطورته .

و أخطر ما يفرزه تبني هذه الدول للقومية العرقية هو تغليب الهوية العرقية على حساب الحقوق المدنية ، فيصبح المواطنون غير المنتمين للعرق السائد أو العرق الذي تسمى به هذه الجمهوريات يعتبرون أنفسهم مواطنين من الدرجة الثانية<sup>2</sup> و بهذا تعتبر الأعراق الأخرى نفسها أقليات من جهة و دخلاء (allogènes) من جهة أخرى مما يشعرهم بالتهميش و الغربة في بلدهم.

و تزداد خطورة الإيديولوجية الذي اتبعتها النخب الحاكمة في هذه الجمهوريات عندما تتخذ طابعا شعبويا فتحدث مزوجة للقومية العرقية مع الشعبوية و تنتج لنا ما يسميه David Gauzère بالعرقية-الشعبوية (l'ethno-populisme) التي أصبحت حسب القاعدة التي بنت عليها جمهوريات آسيا الوسطى سياساتها المختلفة، و هو ما يتمخض عنه ثلاثة أصناف هي: 1 - العرقية- الشعبوية الرسمية أو الدولية ، و هي تحصل بانتهاج الدولة لسياسة أو خطاب يمجد العرق السائد، 2 - العرقية-الشعبوية المنتهجة من قبل أفراد العرق السائد أنفسهم تشجعهم في ذلك الدولة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، 3- العرقية- الشعبوية الخاصة بالأقليات العرقية و التي قد تأخذ شكلا تحريرا استقلاليا (autonomiste).

<sup>1</sup> Olivier Roy, *La nouvelle Asie centrale*, op.cit., p.243.

<sup>2</sup> لاحظ أن تسمية الجمهوريات و مدلولها اللغوي يعطي للوهلة الأولى انطباعا اقصائيا، فعندما نقول أوزبكستان فمعناه باللغة التركية بلاد الأوزبك أو الموطن الأصلي لهم ، و تركمنستان معناها بلاد التركمان أو موطنهم الأصلي و هكذا دواليك.

و عليه فستكون هذه الإيديولوجية عاملا كامنا قد يؤدي إلى إشاعة الفوضى داخل الدول أو بين الدول إذا أخذنا بعين الاعتبار جملة من الحقائق الميدانية كمشكلة التنوع العرقي و مسألة الحدود المصطنعة، و بهذا تبدو لنا هذه السياسات من الناحية النظرية مؤجبا للصراعات العرقية بدلا من محاولة معالجتها بما يضمن التعايش و الانسجام بين مختلف مكونات المجتمع.

### المطلب الثاني: سياسات الهوية و تأميم التاريخ.

إنّ تبني إيديولوجية شعبية تقوم على تمجيد العرق السائد و جعله العنصر الأصيل و المولّد للأمة سيخلق لا محالة تمييزا عرقيا بين مختلف مكونات الدولة و المجتمع، و سيجعل من الهوية عاملا للصراع و التنافس عوضا عن التناغم و الانسجام. و بما أن النخب الحاكمة الجديدة هي نخب تربت و ترعرعت في حضن النمط السوفييتي، فهي بذلك عارفة و متمكنة بالأساليب القديمة في تسيير العلاقات العرقية، بما يخدم توجه الدولة.

لقد ترك انهيار الاتحاد السوفييتي فراغا إيديولوجيا رهيبا، و هو ما أدى إلى تبني القومية العرقية أو توظيفها من قبل النخب الحاكمة ، ولكن هذه الإستراتيجية كانت تقتصر إلى قاعدة متينة ترتكز عليها، فالجمهوريات السوفييتية الأخرى كانت تمتلك أدبيات قومية ونخب سابقة تستطيع استحضارها في الوقت الراهن لتمتين الحس القومي لدى مواطنيها، بيد أن جمهوريات آسيا الوسطى بحدودها الآنية لم تكن وريثة ثقافة قومية سبقت الفترة السوفييتية بل بناءً جديداً قام على أنقاض القومية التركية و الطورانية التي لا يسمح استحضارها اليوم إلا في إعادة النظر في مبررات وجود هذه الجمهوريات العرقية.

و لهذا فلقد انطلقت عملية بناء الهوية القومية و ترسيخها من مأزق خطير وهو ضرورة الرجوع إلى الفترة السوفييتية و العمل وفق السجل السوفييتي بينما هي تحتاج إلى إحداث قطيعة مع ماضيها السوفييتي، أي أن هذه العملية ستقوم على نكران الدور السوفييتي في خلق هذه الكيانات و لكن باستغلال نفس الأدوات التي استعملها ، وهذا لا يتم طبعاً إلا بإعادة كتابة التاريخ و الاشتغال على الذاكرة بطريقة ذكية تقوم بتوظيف الماضي لغايات مختلفة عن مسباته.

- إعادة صياغة الذاكرة الجماعية: يرى O.Roy أن " منطق الجمهوريات الوسط آسيوية هو خلق شرعية قومية جديدة و ثابتة ، لكنها مضطرة في نفس الوقت أن لا تقطع (القطيعة) مع

المرحلة السوفييتية قطعاً كلياً لأنها (أي المرحلة السوفييتية) هي التي اخترعت هذه الجمهوريات من عدم و بالتالي فهي جزء من مسار شرعتها<sup>1</sup>.

كانت النخب الحاكمة من جهة، وصانعو الهوية القومية/العرقية الجديدة ( المؤرخون، علماء الأجناس و اللغويون) من جهة أخرى، يعلمون أنه من الصعوبة بمكان أن يزيلوا البعد أو العامل السوفييتي من ذاكرة شعوبهم سواءً بإيجابياته أو سلبياته ، بل إنّ الأفراد كانوا بحاجة إلى استرجاع ذكرياتهم الخاصة أو الفردية والتي ارتبطت بمناسبات و أعياد و محن و أفراح لا يمكنهم نسيانها أو تناسيها لمجرد ظهور أولويات سياسية جديدة ، فالأفراد و بخاصة كبار السن كانوا لا يزالون يتذكرون المحطات الأساسية في حياتهم و هي التمدرس و الخدمة الوطنية و الحياة الجامعية و مختلف أشكال الجزاءات و الأسفار إلى المدن الروسية و الاحتفال بيوم العمال و تاريخ الانتصار على النازية.

و يظهر المنطق الجديد المتبع في كتابة التاريخ من خلال استبعاد محطات تاريخية بعينها و استعادة أخرى، فجمهوريات آسيا الوسطى تعمّدت تجاهل بعض المراحل ، فعلى سبيل المثال تخلو كتب التاريخ في أوزبكستان من أي ذكر للمرحلة الشيبانية<sup>2</sup> لأن ذكرها سيؤدي إلى معرفة الأزيك أنهم لم يكونوا السكّان الأصليين و لم يقطنوا أراضي أوزبكستان الحالية إلّا في مراحل متقدّمة من التاريخ لأنهم في الواقع أحفاد الشيبانيين الذين قدّموا من الأراضي المنغولية البعيدة، في حين يتم التركيز على المرحلة التيمورية و اعتبار تيمور لنك مؤسس الدولة و أب الأمة الأوزبكية بالرغم من أنّ إمبراطوريته قد تمّ تحطيمها على يد أجدادهم، أي قدماء الأزيك، كما أن مؤرخي أوزبكستان لا يتداولون تاريخ الإمارات أو الخانيات التي كانت منتشرة في بعض المناطق الأوزبكية كخانية بخارى و خانية خوقند لأن أمراءها لم يكونوا أزيك بل كانوا طاجيكا يتكلمون لغات فارسية، كما استبعدوا تاريخ الحركة الإصلاحية الجديدة لأن مطالبها كانت قومية جامعة لمختلف الأعراق التركية (panturquistes) في حين ترفض الإيديولوجية الرسمية أي القومية العرقية الأوزبكية كل فكرة تقوم على تجاوز العرق.

كما أنّ كتاب التاريخ في طاجيكستان قاموا بتكريس التمايزات الجهوية الموروثة من الفترة السوفييتية ، فقام كل جناح بتمجيد رجالاته و إبراز نضالاتهم ضد المستعمر الروسي ، حتى و لو كانوا

<sup>1</sup> Ibid., p. 246.

<sup>2</sup> نسبة لأبو الخير الشيباني الذي أسس الإمبراطورية الشيبانية سنة 1500 في الأراضي الأوزبكية على أنقاض الإمبراطورية التيمورية التي كانت عاصمتها سمرقند علماً أن حواضرها كانت فارسية و ليست تركية.

في حقيقة الأمر مجرد موظفين خاضعين للإدارة السوفييتية ، و اعتبار ما لحقهم من حملات التطهير المتلاحقة و كأنه جاء نتيجة لتوجهاتهم القومية و هو أمر عارٍ من الصحة تماما، لأنهم كانوا ملتزمين بما أوكل إليهم من أدوار و وظائف.

لم يجد مؤرخو الجمهوريات الجدد حرجا في استعادة القوالب السوفييتية لأنها تتماهي مع الإيديولوجية الجديدة فالسوفييت هم أول من قضى على الهوية التركستانية الجامعة و أنشأ أمما جديدة على أسس عرقية، و لهذا فهم قاموا بتبني التصور السوفييتي لتطور الأعراق (l'ethnogenèse) الخاص بكل عرق سائد ضمن جمهوريته مع التعامي عن الطور الأخير المتمثل في ذوبان و انصهار جميع القوميات مستقبلا ليتشكّل ما كان يسمى بالرجل السوفييتي (homo-Soviéticus).

### المطلب الثالث: اللغة كعامل مكرس للتمايز العرق.

و هنا يجب أن ننظر إلى اللغة كوسيلة طيّعة بيد النخب الحاكمة لكسب مزيد من الشرعية المفقودة من جهة وتسيير الصراعات المحتملة و الكامنة من جهة أخرى.

لقد لجأت الجمهوريات المستقلة إلى اعتماد سياسات لغوية مماثلة للسياسة اللغوية السوفييتية من حيث المبدأ لكنها كانت تختلف من حيث الغايات، ففي الفترة السوفييتية كانت السياسة المنتهجة تسعى إلى ترويس التعليم و الاتصال و الوظائف العامة، بل إنّ هذه السياسة استطاعت تهميش اللغات المحلية و جعلتها لغات ثانوية ، بينما السياسة اللغوية الجديدة كانت تسعى إلى فرض لغة العرق السائد (l'ethnie titulaire) توافقا مع تبنيها للقومية العرقية كإيديولوجية مؤسسة للدولة المستقلة الجديدة.<sup>1</sup>

و في هذا الإطار كان من الطبيعي أن تقوم هذه السياسات على تمجيد اللغة المحلية و ترقيتها على حساب اللغة الروسية و اللغات المحلية الأخرى أي لغات المجموعات العرقية المتواجدة ضمن حدودها، و بالتالي فستكون النتيجة تهميشا لقطاعات واسعة من السكّان كانت في السابق تتخذ اللغة الروسية وسيلة لبلوغ المناصب الرفيعة في قطاعات التعليم و الإدارة و الاقتصاد و السياسة على وجه التحديد، بالنظر إلى كون التحكم في اللغة الروسية يسمح لها من التواصل مع المؤسسات المركزية

<sup>1</sup>Marlène Laruelle , sébastien Peyrouse, *Asie centrale, la dérive autoritaire: Cinq républiques entre héritage soviétique, dictature et islam*, Paris: Autrement, 2006, p.83.

(موسكو) دون الاستجداد بالواسطة ، كما أنه كان يعتبر دليلا على بلوغ مستويات اندماج عالية تجعلها مقبولة و علامة على نجاح سياسة الترويس.<sup>1</sup>

فلقد فقدت أجيال عديدة من أبناء النخب السياسية و العلمية القدرة على استعمال لغتها الأم و عدّ ذلك في العهد السوفييتي مبعثا للتفاخر و إبراز التمايز الاجتماعي و الثقافي الذي قد يأخذ بعدا طبقيًا، فلقد تبين للنخب الحاكمة الجديدة أن السياسة السوفييتية خلقت عالمين مختلفين هما عالم مدني يحظى بمستوى تعليمي رفيع يماثل المستويات الأوروبية و عالم الريف الذي ظل محافظا، و استمر التعليم فيه مستعملا اللغات المحلية ( الثانية ) كما لا حظنا في الفصل الثالث.

و لهذا فلقد خشيت النخب الحاكمة من أن تصبح اللغة كما كانت في الفترة السوفييتية عاملا مؤجبا للتفاوتات و الصراعات الاجتماعية، ليس فقط بين الروس و غير الروس و لكن بين سكان المدن الناطقين بالروسية حتى و لو كانوا مسلمين و بين من هم يتكلمون اللغة المحلية ، فلقد تنبه الحكام الجدد إلى أن بقاء هذا التمايز اللغوي (بين اللغة الروسية و لغة العرق السائد) سيكون عاملا يفصل المدينة المتروسة ( russifiée ) و الريف المحافظ على لغته و ثقاليده.

و بما أن المدينة هي مركز الرقي الاجتماعي ( promotion sociale ) فلقد كان من الطبيعي أن تصبح الأرياف في حالة عزلها لغويا بيئة حاضنة لمختلف أنواع الحركات الاجتماعية التي يمكن توظيفها من قبل الحركات الراديكالية. و لهذا يمكننا القول أن النخب الحاكمة قد قامت بسياسة استباقية ( anticipation ) ساهمت في منع حدوث شرخ كبير بين الريف و المدينة و منعت بذلك انخراط آلاف من الشباب في العمل المسلّح من جهة و في تكريس اللغة القومية كأداة طيبة لشرعنة بقائها في الحكم.<sup>2</sup>

اقترن مسار ترقية اللغة القومية ( لغة العرق السائد ) بمحورين أساسيين، الأول تمثل في تنقية اللغة القومية من الألفاظ الروسية قدر المستطاع ، بحيث اعتبر اللغويون هذه العملية كتهذيب للغة المحلية ( expurgation ) من العنصر الروسي الدخيل، أما المحور الثاني فتم فيه و بطريقة مقصودة خلق هوة سحيقة بين اللغة القومية ( المحلية ) و لغات جيرانها ذات المنشأ المشترك أي اللغة التركية و منع كل محاولة للتقارب اللغوي.

<sup>1</sup>Ibid., p.84.

<sup>2</sup>Aneta Pavlenko, "Multilingualism in Post-Soviet Countries: Language Revival, Language Removal and Sociolinguistic Theory", in [www.Astro.temple.edu/apavlenko/pdf/pavlenko\\_ijbeeb\\_2008.pdf](http://www.Astro.temple.edu/apavlenko/pdf/pavlenko_ijbeeb_2008.pdf).

كان من نتائج هذه السياسة تغيير للمصطلحات الروسية بمصطلحات جديدة و تغيير الأبجديات (ما عدا في كازاخستان و كيرخيزستان)، و لكن الأمر الثابت هو الامتناع عن كل محاولات التقارب بين اللغات التركية المختلفة و بخاصة لغة جمهورية تركيا الحديثة، إذ أنّ مصطلح " ترك " لا نجده متداولاً بين لغات جمهوريات آسيا الوسطى، بل إنّ هذه الجمهوريات و في سبيل تغيير أو تبديل المصطلحات الروسية و بالخصوص تلك التي تحمل بعداً علمياً أو تقنياً اختارت الاستعارة من اللغة الفارسية أو العربية بدلاً من استعمال المصطلحات التي صقلتها تجربة الجمهورية التركية، و هذا حتى لا يتحقّق أي تقارب لغوي، فعلى سبيل المثال اختار اللغويون في أوزبكستان مصطلحاً عربياً و فارسياً (racine arabe et suffixe persan) للدلالة على كلمة المطار التي كانت في الفترة السوفييتية تحمل اسماً لاتينياً ( aeroport ) فأصبحت ( طياراگاه Tayyaragah ) و التي تعني مكان الطائرة بدلاً من استعمال المقابل التركي لكلمة المطار وهو ( havalimani ) و وصل الحد إلى أن فضّلت كلّ من كازاخستان و كيرخيزستان اللتان لم تمتزج ثقافتهما بالثقافة الفارسية عكس تركمنستان و أوزبكستان الاستعارة من اللغة الفارسية بدلاً من لغة جمهورية تركيا كاتخاذ مصطلح ( vilayet ) للدلالة على الحكم أو الإقليم.

فجميع الجمهوريات الجديدة رفضت أو تجاهلت المقترح الذي قدمته لجنة من الخبراء الأتراك من جامعة مرمرة سنة 1993 لإعادة التناغم و التجانس بين مختلف الأبجديات التركية و هو الأمر الذي يبيّن أن هذه النخب اتخذت موقفاً استقلالياً رافضاً لكل أشكال التقارب و لكل محاولات بعث هوية تركية جامعة أي تجمعها مع تركيا (panturquisme) أو حتى طورانية (pantouranisme) تجمعها مع بعضها البعض متجاهلة حقائق التاريخ و الجغرافيا و حقائق التنوّع العرقي الذي تعرفه. و بالتالي فهي اتخذت منذ البداية كل الأدوات التي تخلق التمايز و الإقصاء دون أي اعتبار لتبعات هذه السياسات، و هذا الموقف أعلنه ضمناً الرئيس الأزيكي إسلام كريموف في خطاب رسمي أمام البرلمان الأزيكي، حيث صرّح فيه أنه إذا كنا رفضنا في السابق وصاية " الأخ الأكبر الروسي " فلن نقبل اليوم بعودة وصاية جديدة تحت أي مسمّى أي رفض أخ جديد، حتى و لو كان ينتمي إلى نفس القومية، و هو هنا يقصد جمهورية تركيا.<sup>1</sup>

- الترسانة القانونية لترقية لغة العرق السائد و تكريس التمايز ( أوزبكستان أنموذجاً): لم تنتظر جمهوريات آسيا الوسطى انهيار الاتحاد السوفييتي لإعادة الاعتبار للغاتها القومية ، فمنذ 1989 صدرت

<sup>1</sup>Anthony Hyman, "Turkestan and Panturkism Visited", *Central Asian Survey*, 1997, n.16, p.341.

جملة من القوانين كان الهدف منها ترقية لغاتها القومية ، لتضطلع بالوظيفة التي مُنحت للغة الروسية ، لكنّ تلك القوانين اصطدمت بعامل أساسي و هو وجود ازدواجية في الانتماء خاص بالأنموذج السوفييتي أي الانتماء إلى القومية و المواطنة.

و بما أن جميع سكّان الجمهورية كانوا مواطنين سوفييت ، فلم تستطع هذه القوانين تجاوز هذه الحقيقة ، و لكنّ مرحلة الاستقلال أرسّت واقعا جديدا و هو القومية العرقية، و بالتالي كان من الواضح أن القوانين الجديدة الخاصة بترقية لغة العرق السائد، ستعمل على تكريس التمايز بين لغة العرق السائد و اللغة الروسية من جهة و بين لغة العرق السائد و لغات الأعراق المحليّة حتى ولو كانت تقطن إقليم الجمهورية. و عليه فسنعوم بعرض هذه القوانين و تبعاتها في جمهورية أوزبكستان التي تعتبر الدولة التي عرفت فيها سياستها اللغوية مستويات متطرفة من التمرکز اللغوي.<sup>1</sup>

لقد سنّت السلطات الأزيكية، جملة من القوانين لها صلة مباشرة أو غير مباشرة بالمسألة اللغوية، ابتداء بقانون المواطنة سنة 1992، و الذي كان من إفرازاته اعتبار المجموعات العرقية غير الناطقة باللغة الأزيكية أجنب ، إلى درجة تشبيهه بقانون " للهجرة" و ليس للمواطنة ، ثمّ قانون جمهورية أوزبكستان حول اللغة الرسمية سنة 1995 ، و القانون الخاص بالأحزاب السياسية سنة 1997 الذي يمنع تشكيل أحزاب ذات منشأ ديني أو عرقي. فلقد جاء قانون 1995 لينزع ما تبقى من مكانة للغة الروسية في قانون 1989، بحيث تمّ التراجع عن اعتبار الروسية لغة التخاطب و التواصل الدولية ما بين الجمهوريات (inter-nationale) و التواصل ما بين الأعراق القاطنة داخل الجمهورية (inter-ethnique).

كما أن السلطات الأزيكية قامت بتبديل الأبجدية السيريلية (الروسية) بالأبجدية اللاتينية ، مع رفض الخيار المتبنى من قبل جمهورية تركيا، كما رفضت العودة الى الحرف العربي الذي كان سائدا ما قبل الفترة السوفييتية، و هو ما أعطى النتائج المرجوة من سياستها اللغوية أي تحقيق القطيعة مع الفترة الروسية و ذلك بتفريغ اللغة الأزيكية من المصطلحات الروسية كمرحلة ثانية بعد استبدال الأبجدية السيريلية ، و تكريس التمايز بين الأزيكية و اللغات التركية الأخرى.

<sup>2</sup>Schlyter Birgit, "New Language Laws in Uzbekistan", in *Language Problems and Language Planning*, vol.22, n.2, Feb.1998, p.145.

و جاءت هذه القوانين لتعميم استعمال اللغة الأزيكية في مختلف مناحي الحياة ( التعليم، الإدارة ، القضاء و التشريع ) بطريقة يكون فيها كل فرد يعيش داخل أوزبكستان مجبرا على تعلّم اللغة الأزيكية، و لقد أعطى الرئيس إسلام كريموف القدوة لمواطنيه ، بحيث أنّه أصبح متمكّنا من لغته الأم بعدما كان لا يتكلّم إلاّ اللغة الروسية أي اللغة التي نشأ عليها و وصل بفضلها إلى منصب الأمين العام للحزب الشيوعي الجمهوري، قبل استقلال أوزبكستان.<sup>1</sup>

بينما اعتمدت الجمهوريات الأخرى، قوانين أقل جرأة ، فهي لم تتجاهل الواقع العرقي و اللغوي الذي عاشته، طيلة عقود طويلة ، لكنّها في نفس الوقت عملت على أن تكون لغة العرق السائد هي اللغة الرسمية الأولى في البلد، ممّا جعل المجموعات العرقية الأخرى تجد نفسها مضطرة الى التكيف مع الوضع اللغوي الجديد. ( أنظر الملاحق رقم 1 ، 2 ، 3 ، 4 ، 5 )

---

<sup>1</sup>Ibid., p.150.

## المبحث الثاني: تعقيدات المسألة العرقية و تبعاتها الأمنية.

ورثت المنطقة من الفترة السوفييتية تنوعا عرقيا كبيرا، بفعل سياسات التهجير القسري أو الهجرة الطوعية، بحيث أصبحت فسيفساء عرقية حقيقية، وزادت عملية تخطيط الحدود بطريقة جزافية غير مبالية بحقائق التاريخ و الجغرافيا الطين بلة. و عليه فتناول موضوع المسألة العرقية لا بد أن ينطلق من الوضع أو التركة التي خلفها انهيار الاتحاد السوفييتي، وهو أمر لا تسأل عنه النخب الحاكمة و يتجاوزها، و لكن مسؤوليتها تبرز في طريقة تسييرها لهذا التنوع بحيث يكون مصدرا للتكامل و التعايش أو مصدرا للصراع و التنافس.

### المطلب الأول: الخريطة العرقية لدول آسيا الوسطى.

إنّ السمة البارزة التي يمكننا ملاحظتها في كل الخرائط و الإحصاءات الرسمية أو غير الرسمية هو شدة التنوع وانتشار العرقيات (imbrication ethnique) في مختلف بلدان آسيا الوسطى ، و لو بنسب متفاوتة ، و إن كانت تشترك فيها مع بقية الجمهوريات السوفييتية ، غير أن آسيا الوسطى تتميز عن بقية الجمهوريات بوجود قوميات و أعراق بعيدة كل البعد جغرافيا و ثقافيا عنها، و لهذا فالباحث قد يفاجأ بوجود أعداد كبيرة من الألمان و البولونيين و حتى الكوريين فضلا عن الروس و الأوكران يعيشون منذ عقود طويلة في هذه البلدان، لكنه سيدرك أن هذا الواقع ما هو إلا نتيجة طبيعية للمنطق الذي اعتمدته الإدارات السوفييتية المتعاقبة لتسيير المسألة العرقية و الأمنية، باعتبار عمليات الترحيل القسري كانت من السياسات التي طبقها الاتحاد السوفييتي بإفراط أثناء و بعد الحرب العالمية الثانية.<sup>1</sup>

بل إنّ كثيرا من تلك العمليات كان يحدث بمجرد وجود شك أو احتمال بسيط في إمكانية وجود تعامل أو تخابر من قبل تلك القوميات مع أعداء الدولة، و أحسن مثال على ذلك هو ترحيل مئات الآلاف من الشيشان من موطنهم الأصلي في القوقاز الشمالي إلى سهوب كازاخستان أو ترحيل تزار القرم من موطنهم الأصلي إلى آسيا الوسطى بتهمة التخابر مع النازية ، كما قامت الإدارة السوفييتية بترحيل عشرات الآلاف من الترك المسخت (turcs meskhets) قبيل انتهاء الحرب العالمية الثانية

<sup>1</sup>Isabelle Ohayon, "La déportation des peuples vers l'Asie centrale", in Pietro Causarano et Valeria Galimi (dir.), Le XX siècle des guerres, Paris, Editions de l'Atelier, 2004, p.171.

من جنوب جورجيا حيث كانوا يعيشون بمحاذاة الجمهورية التركية ، بالرغم من أنّ جمهورية تركيا قد اتخذت موقفا محايدا ولم تتخرب في الحرب.<sup>1</sup>

أضف الى ذلك الدور الرمزي الذي لعبه تخطيط الحدود بين الجمهوريات في بلورة الأمم الجديدة و أقلمة الهويات الجديدة (territorialisation) بشكل جعل الكثير من العرقيات المحلية التي حوّلت إلى أقليات سلبت منها هويتها أو تمّ تهيميشها ، و عليه فالوضع الذي آلت إليه المنطقة هو نتيجة لتراكمات عديدة أنتجتها السياسة العرقية السوفييتية (أنظر الشكل رقم 8).

الشكل رقم 8: خريطة تبيّن التنوّع العرقي في منطقة آسيا الوسطى.

---

<sup>1</sup>Ibid., p.172.



المصدر: Régis Genté, "Election au pays du sultan de la lumière", in [www.blog.mondediplo.net/2011-04-03-election-au-pays-du-sultan-de-la-lumiere?archives=toutes](http://www.blog.mondediplo.net/2011-04-03-election-au-pays-du-sultan-de-la-lumiere?archives=toutes) consulté le 14/06/2013.

و من خلال الإحصاءات المتوفرة يمكننا ملاحظة وجود كثير من المناطق التي تمتزج فيها العرقيات و تعيش في مكان واحد، و هو ما يستدعي التأمل في وجهة السياسات المطبقة من قبل النخب الحاكمة و تبعاتها بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، و نقصد بذلك و على وجه الخصوص اعتماد القومية العرقية كإيديولوجية تتأسس عليها ما يتبعها من سياسات سكانية و ديمغرافية. (أنظر الشكل رقم 9).

الشكل رقم 9: خريطة تبين حجم تبعثر العرقيات في آسيا الوسطى



المصدر : [www.novastan.org/articles/](http://www.novastan.org/articles/), Sardor Abduganiev, "*L'Afghanistan vers une reprise en main régionale*", lafghanistan-vers-une-reprise-en-main-régionale. Consulté le 17/12/2013.

ساهمت السياسات المتبعة من قبل السلطات ، منذ استقلال دول آسيا الوسطى، في تكريس عملية التأميم، أي جعل العرق السائد الممثل الوحيد لهوية و شخصية الدولة، و كان من الطبيعي أن تنتج عنها تغيرات جذرية على مستوى التوزيع العرقي و العلاقة بين الأعراق.

فبالنسبة للتوزيع العرقي، فقد ساهمت هذه السياسات في خلق تمايزات خطيرة بين السكّان الأصليين و السكّان الأوروبيين من جهة و بين السكان الذين ينتمون الى العرق السائد و بين من ينتمون إلى أقليات عرقية ، حتى و لو كانوا سكّانًا أصليين، من جهة أخرى، و زاد من حدة هذه الظاهرة وجود غموض

و التباس مقصود في التمييز بين المواطنة كإنتماء مدني يجمع كافة سكّان الجمهورية و بين القومية التي قامت على أسس عرقية.

لقد كان من نتائج هذه السياسات تحولات سكانية كبيرة ، من أبرزها هجرة الملايين من السكّان الأوروبيين إلى مواطنهم الأصلية بسبب الظروف الاقتصادية أحيانا و بسبب سياسة التمييز العرقي، أحيانا أخرى، و كان من نتائجها أيضا شعور الأقليات المحليّة بوجود تهديد مقصود على مختلف المستويات، خاصة و أنّ السلطات قد قامت بتسهيل و تشجيع قدوم الأفراد الذين ينتمون إلى العرق السائد فقط بغية تحقيق تجانس عرقي يقضي أو يقلّص حجم التنوع الموجود منذ قرون طويلة.<sup>1</sup>

كما قامت كل من جمهوريتي كازاخستان و تركمنستان بدعوة رسمية لكل الكازاخيين و التركمان الذين يقطنون خارج جمهورياتهم إلى العودة إلى الديار و شجعت قدومهم ، بالرغم من الظروف الاقتصادية الصعبة التي عرفتتها جمهوريات آسيا الوسطى بعد استقلالها، و كان من نتائج هذه السياسات أن وصلت نسبة الطاجيك في طاجاكستان و الأوزبك في أوزبكستان و التركمان في تركمنستان إلى 80% ، بينما ظلت نسبة الكيرخيز و الكازاخ في كلا الجمهوريتين أقل من 6.5%.<sup>2</sup>

و لهذا فإنّ مسار المجانسة العرقية (homogénéisation ethnique) المطرّد يرضي تصور السلطات الحاكمة التي ترى أن جمهورياتها هي دول-أمة في طريق التأسيس (Etats-nation en voie de constitution) و لهذا فقد تزامن هذا بمسار مطرد كذلك لعزل الأعراق الأخرى من دوائر الدولة و الوظيف العمومي، و لهذا فقد عرف كلّ من هذين المسارين معارضة الأقليات و السياسيين الذين اعتبروه تمييزا عرقيا أو حتى عنصريا، باعتبارها سياسات تركز ديكتاتورية الأغلبية.<sup>3</sup>

و كرد فعل طبيعي أصبحت بعض الأقليات و بالخصوص الروس تطالب بمنحها المواطنة المزدوجة طوال العقد الأول من الاستقلال، و هو ما رفضته السلطات في كل الجمهوريات الآسيوية ما عدا في جمهورية تركمنستان و التي سمحت للروس باكتساب الجنسية المزدوجة إلى غاية 2003 ، و من ثمّ صدر مرسوم لإلغاء هذا الامتياز.

<sup>1</sup>René Letolle , Sébastien Peyrouse, "La démographie: vers des Etats mono-ethnique?", in Pierre Chuvion et René Letolle (ed), *Histoire de l'Asie centrale contemporaine*, Paris: Fayard, 2008,p.291.

<sup>2</sup>*Ibid.*, p.293.

<sup>3</sup>David Gauzère, "*La derive populiste en Asie centrale post-sovietique*", [www.novastan.org/articles/la-derive-populiste-dans-lasie-centrale-postsovietique](http://www.novastan.org/articles/la-derive-populiste-dans-lasie-centrale-postsovietique).

و في السياق نفسه اكتست المسألة اللغوية بعدا كبيرا في العلاقة بين العرقيات ، فالروس بعدما كانوا يشعرون بالتفوق و التميز عن بقية شعوب آسيا الوسطى، جاءت مرحلة الاستقلال و استعادة هذه الدول لرموز السيادة المادية و المعنوية لتشعرهم بالتهميش و التوقع، و لهذا فالكثير من الروس الذين فضلوا البقاء في هذه الجمهوريات صُعبَ عليهم التأقلم مع الوضع الجديد.

و تعتبر كيرخيزستان الجمهورية الوحيدة من بين الجمهوريات الخمس التي اعترفت باللغة الروسية كلغة رسمية بمعية اللغة الكيرخيزية في دستورها المعد سنة 2003 ، بينما لم يعد للغة الروسية أية مكانة خاصة في جمهوريتي أوزبكستان و تركمنستان فأصبحت تعتبر لغة أجنبية ، بينما منحتها كل من طاجاكستان و كازاخستان صفة " لغة تواصل ما بين العرقيات langue de communication interethnique".<sup>1</sup>

و مهما كانت طبيعة هذه السياسات اللغوية فهي ليست إلا وسيلة من الوسائل المتبعة من قبل السلطات لخلق واقع جديد يكون العرق السائد هو المسيطر على كل جوانب الحياة الاجتماعية السياسية و الاقتصادية ، و هو ما يؤدي في الأخير الى تحول هذه الأنظمة إلى إثنوقراطيات حقيقية (ethnocracies) فلقد بيّن الباحثان Marlène Laruelle و Sébastien Peyrouse هذا النزوع الواضح نحو أثنية ( عرقنة) جميع مناحي الحياة في آسيا الوسطى :

" إن جميع مناحي الحياة في آسيا الوسطى هي اليوم في يد العرق السائد، أي العرق الذي تشتق منه تسمية كل جمهورية ، من سلطة سياسية و وظيف عمومي و حياة ثقافية و علمية و نشاط اقتصادي بحيث يمكن أن يؤدي عزل و تهيمش (exclusion) الأقليات في بعض الحالات ، كالأزبك في كيرخيزستان و الطاجيك في أوزبكستان إلى توتر مستمر تنتج منه علاقات عرقية تنازعية"<sup>2</sup>

و لقد أدّت هذه السياسات إلى أن يبحث الجميع عن طرق بديلة للتكيف معها ، فأصبحت العلاقات السياسية و الاقتصادية تتسم بالزبائنية و تتمحور حول العشيرة و العصب، للتخفيف من سطوة السلطة المركزية التي تسعى إلى مجانسة و توحيد عرقي يلغي الأقليات و يهدّد مصالحها، ففي كل الجمهوريات

<sup>1</sup>Jacques Leclerc, "Kirghisistan", [www.axl-cefan.ulaval.ca/asia/kirghisistan.htm](http://www.axl-cefan.ulaval.ca/asia/kirghisistan.htm). (consulté le 12/7/2014)

<sup>2</sup>Marlène Laruelle, Sébastien Peyrouse, *Asie centrale, La dérive autoritaire, op.cit.*, p.84.

هناك صراع بين عديد من الأجنحة السياسية ممثلة لجهة أو إقليم معين أو ممثلة لتجمع قبلي، و بهذا تصبح كل الحياة السياسية تتصف بالجهوية و الزبائنية (clientélisme et régionalisme) التي أحسنت السلطات السوفييتية توظيفها، و بالخصوص في فترة الرئيس ليونيد بريجنيف.

و تبرز أهمية هذه الظواهر في كونها تعطي الصورة الحقيقية للعلاقات السياسية من خلال المستويات المحليّة و الجهوية ( الإقليميّة) بحيث استطاع الاتحاد السوفييتي استغلالها بواسطة بنى حديثة عوضا عن التقليدية ، لكنّ اللافت للانتباه هو قيام الأنظمة الجديدة بإعادة إنتاجها و كأنها لا تزال محافظة على النمط السوفييتي القديم ( و هذا بالرغم من الانتقادات التي و جّهت لهذا النمط و وصف الممارسات المترتبة عنه بالرجعية و المافياوية في العقد الأخير من عمر الاتحاد السوفييتي، و بخاصة في فترة حكم ميخائيل جورباتشيف و انتهاجه لسياسة الشفافية و البريسترويكا). و في هذا الإطار يلخص كلّ من M.Laruelle و S.Peyrouse هذا التحول كالآتي : " في الفترة السوفييتية تحول زعيم العصابة أو العشيرة إلى مسؤول عن الكولخوز، و بعد استقلال الجمهوريات الوسط آسيوية قام باستغلال مسار الخصخصة المنطلق في عقد التسعينيات ليتحوّل إلى مالك فعلي لأراضي الكولخوز و مستخدما أفراد الكولخوز السابق كمستأجرين (métayers) " <sup>1</sup>.

#### المطلب الثاني: الحرب الأهلية في طاجاكستان.

و تعتبر الحرب الأهلية في طاجاكستان نموذجا ممتازا يبرز طريقة تحوّل الولاءات العصبية و الجهوية إلى ظواهر تنازعية حقيقية، و يوضح خطورة الاستمرار في المنهج الذي رسمه الاتحاد السوفييتي لتسيير الجمهوريات الوسط آسيوية و فق مبدأ التفرقة و التجزئة الاستعماري ( فرق تسد).

كما يبيّن لنا النموذج الطاجيكي العوامل التي ساهمت في اندلاع الحرب في طاجاكستان بينما استطاعت الجمهوريات الأخرى تفاديها، بالرغم من أن الكثير من الباحثين كانوا ينظرون إلى دول المنطقة باعتبارها مصطنعة ستؤول إلى ما آلت إليه مناطق أخرى من الاتحاد السوفييتي و يوغسلافيا، بما أن علبة الباندور قد فتحت. <sup>2</sup>

<sup>1</sup>Ibid. p.92.

<sup>2</sup>Mohammad-Reza Djalili , Thierry Kellner, *op.cit*, p.268.

لقد تمّ تصنيف الحرب الأهلية في طاجاكستان بأنها صراع إيديولوجي بين الشيوعيين الذين استولوا على الحكم غداة استقلال الجمهورية و بين الاسلاميين المتحالفين مع بعض القوى الديمقراطية و القومية ، و إن كان الطرفان يرفعان شعارى الشيوعية والإسلام حقا، لكنّ تصفّح الواقع بتمعّن يظهر أن طبيعة الصراع لم تكن في الأصل ذات منشأ إيديولوجي بل هي نتيجة حتمية للصراع القديم المتجدّد بين نفس العصب و الفصائل الجهوية التي كانت متواجدة في الفترة السوفييتية و تحاول أن تسيطر على المناصب الحيوية في الجمهورية باللجوء إلى المركز موسكو كموزع للموارد و حكم وحيد بين جميع الأطراف كما بينا في الفصل الثالث. و يتفق الكاتب ميثم الجناي مع التفسيرات الغربية للصراع في طاجاكستان حيث يرى في تصنيفها إلى حرب إيديولوجية مغالطة كبرى فالحرب في طاجاكستان هي وليدة انقسامات سابقة:

"إنّ ما حدث في طاجاكستان هو انقسام يعكس ضعف تطوّر العلاقات الاجتماعية، و بقايا التجزئة الجهوية و القبلية، و بالتالي ليست الشيوعية و الإسلامية في حالات عديدة سوى الغلاف المناسب للتبرير السلطوي لا غير، أي إنّ الحوافز الاجتماعية و الثقافية و السياسية تكمن دون شك وراء غياب تبلور الدولة-الأمة و وحدتها الاجتماعية، و بالتالي ليس اتهام القيادة السياسية للبلاد بالشيوعية سوى الطفح الإيديولوجي للمعارك الجهوية و القبلية لا السياسية، و نفس الشيء يمكن قوله عمّا يسمّى بالتطرّف الإسلامي للمعارضة المسلّحة الطاجيكية"<sup>1</sup>

و بالتالي فالشيء الوحيد الذي استجد هو غياب المركز كحكم و رادع يردع الأطراف المتنافسة، فكلّ عناصر الفرقة و الصراع كانت متوقّرة في الفترة السوفييتية، لكنّ الإدارة السوفييتية التي صنعتها هي الإدارة نفسها التي كانت قادرة على لجمها.<sup>2</sup>

و إذا قمنا بتفسير النزاع من خلال الانتماءات الجهوية و العصبية للأطراف المتنازعة سنخلص إلى التصنيف الآتي:

الفريق الأول: و الذي يضم التحالف الإسلامي - الديمقراطي و يتكوّن أساسا من

<sup>1</sup> ميثم الجناي، الإسلام السياسي في جمهوريات وسط آسيا الإسلامية ، الرياض، مركز الملك فيصل للبحوث و الدراسات الإسلامية ، 2002، ص. 98.

<sup>2</sup> Ibid., p.270.

1 - الغارميون: و تعود أصولهم إلى كاراتيجين ( Karategin ) أو وادي فخش ( Vakhsh ) و كافرنيهان. و الغرميون سَنَّة يتكلمون لغة فارسية قديمة، و هم أكثر سَكَّان طاجاكستان تأثراً بالحركات الإسلامية العالمية و بخاصة حزب النهضة الإسلامي و هم متحالفون مع الدروزيين ( سَكَّان إقليم دروز Darwaz ) الذي يفصل كاراتيجين عن الأراضي الأفغانية، و عن المناطق التي كان يسيطر عليها تحالف الشمال بقيادة أحمد شاه مسعود و ضمَّ هذا الإقليم معظم القيادات المؤثرة كالقاضي تورانجن زاده و الملا سعيد نوري.<sup>1</sup>

2 - الباميريون و هم جماعة تقطن إقليم جورنو-بدخشان الجبلي يتميزون عن بقية سكان طاجاكستان بانتمائهم للمذهب الإسماعيلي ( الشيعة السبعية ) و يتكلمون لغة فارسية خاصة بهم، و هم على غرار الدروز في لبنان و سوريا ( الذين يشتركون معهم في كثير من الاعتقادات ) أكثر السكَّان نزوعاً نحو العلمانية و أقلَّهم تديناً، لهذا فقد وظَّفهم البلاشفة في عشرينيات القرن العشرين لتوسيع نفوذهم في المنطقة و لكنَّهم عرفوا على غرار كثير من العصب حملة تطهير واسعة في ثلاثينيات القرن العشرين، و لكن الإدارة السوفييتية عادت لتستعملهم مرة أخرى و بقوة في الأجهزة الأمنية ( KGB و MVD ) بالرغم من أنَّهم لا يمثلون إلاَّ أقلَّ من 5% من سكان طاجاكستان، لأنَّها تعلم أن استمالتهم من قبل الدعاية الإسلامية منعدمة و بالتالي فهم أكثر الجماعات ولاءً و بعداً عن التأثير الأفغاني ( الحرب الأفغانية ) و هي الاستراتيجية نفسها التي طبقها الاستعمار الفرنسي مع الأقلية العلوية في سوريا و التي استمرت بعد جلائه. إذا يمكننا اعتبار الباميريين أقلَّية وظيفية لا تريد فقدان الامتيازات و الحماية التي وفرتها لها التجربة السوفييتية. و لهذا فلقد منحتهم حكومة المنفى التي أقامها التحالف "الإسلامي-الديمقراطي" منصبي الرئيس ( اسكندروف ) و وزير الخارجية ( خالق نازاروف ) بالرغم من عددهم القليل نسبياً.<sup>2</sup>

و بالإضافة للغارميين و الباميريين ، فقد ضمَّ هذا التحالف عددا لا يستهان به من المثقفين الليبراليين و القوميين، ينتمون كلهم إلى إقليم بندجكنت بوادي زرفشان، و لكنَّ سكان هذا الإقليم لم يكن لهم دور يذكر في العمليات القتالية بل ساهموا في إعطاء التحالف غطاءً ديمقراطياً و قومياً و شكَّلوا واجهة ليبرالية استغلت في المحادثات و المفاوضات اللاحقة.

<sup>1</sup>Olivier Roy, "Structure d'un conflit", *Cahiers d'Etudes sur la Méditerranée et le monde Turco-iranien*, n.19, 1995, p.38.

<sup>2</sup>*Ibid.*, p.39.

و على العموم يبقى حزب النهضة الإسلامي الطرف الفاعل في الميدان بينما كان الباميريون ينشدون الحفاظ على استقلال ذاتي موسع لإقليم جورنو بدخشان و كانت الحرب فرصة لتحقيق هذا المطلب.

الفريق الثاني : الجناح المحافظ ( الشيوعيون الجدد).

و هو يضم مجموعتين جهويتين أساسيتين و هما:

1 - اللينينباديون: و هم سكان إقليم لينين آباد ( Léninabad ) سابقا و الذي أصبح يسمى خوجنت ( Khodjent ) بعد استقلال طاجاكستان الواقع شمال البلاد، و هو يتميز بدرجة كبيرة من الترويس ( سواء لغويا أو عرقيا) و هو الأكثر تصنيفا مقارنة بالأقاليم الأخرى كما أنه الإقليم الذي قدّم كل الأمناء العامين للحزب الشيوعي الجمهوري ابتداء من سنة 1946 إلى غاية استقالة نابييف Nabiev شهر سبتمبر 1992.<sup>1</sup>

2 - الكوليابيون: و هم سكّان إقليم كوليا ب ( Koulab ) الواقع على الحدود الطاجيكية-الأفغانية و هم سنة يتكلمون لغة فارسية، و هو الإقليم الأكثر تخلفا و تهميشا في المرحلة السوفييتية، استغلوا رغبة اللينينباديين في توسيع جناحهم السياسي و تحالفوا معهم ضد الأقاليم الأخرى منذ عقد السبعينيات من القرن العشرين، و استطاع الكولابيون- و بخاصة نخبة تنتمي الى وادي بلجوان ( vallée de Baldjawan ) - ابتداء من سبتمبر 1992 و بعد أشهر قليلة من بداية الحرب الأهلية من احتكار جميع المناصب القيادية ( الرئاسة رحمانوف Rahmanov ، نيابة الرئاسة دوستييف Doustiev ، وزارة الداخلية سليموف Salimov ، المؤسسة الأمنية زوخوروف Zoukhourouv ، و النيابة العامة ساليخوف Salikhov).<sup>2</sup>

من الاستنتاجات التي استخلصت من الحرب الأهلية في طاجاكستان هو وجود عدم تجانس واضح في تركيبة الأجنحة المتصارعة و بخاصة الفريق الأول فالتحالف الإسلامي الديمقراطي يتكون من خليط هجين من القيادات الإسلامية و الليبرالية و بالتالي فالعامل الإيديولوجي لا يصلح في توصيف هذه الحرب ، فهي ليست حربا إيديولوجية ، كما أنّ عامل التدين الذي قد يستند إليه البعض للتفريق بين سكّان

<sup>1</sup>Ibid., p. 40.

<sup>2</sup>Ibid., p. 41.

الشمال الأكثر تحرراً و علمانية و بين سكّان الجنوب المحافظين هو كذلك سند ضعيف، لأن جميع الفرق استندت و استعانت بمرجعياتها الدينية السابقة أي الملاي ( mullah ) و القضاة الشرعيين.

كما أنّ العامل الخارجي لم يكن له دور كبير في بداية الصراع و لكن جاء نتيجة لحاجة هذه الأطراف إلى دعم خارجي و هو ما وظفته هذه الأخيرة ، سواء أتعلق الأمر بروسيا الفيدرالية التي دعمت التحالف اللينينبادي - الكولياي سياسي و عسكريا بواسطة الفرقية 191 التي ظلت مرابطة في قواعدها بعد استقلال طاجاكستان و وجدت في الحرب الأهلية فرصة لاطالة أمد بقائها أو بالنسبة لأفغانستان التي دعمت الغارميين الذين حملوا لواء الدولة الإسلامية ، و لهذا فقد أصبح مصير الحرب مرتبطا بهذه الأطراف الخارجية و بخاصة روسيا التي فرضت على جميع الأطراف بالمصادقة على وقف القتال و تقاسم السلطة سنة 1997 أي بعد خمس سنوات كاملة مت التقاتل الذي أدى الى وفاة عشرات الآلاف ( 50 ألف في السنة الأولى فقط ) و تهجير مئات الآلاف إلى الدول المجاورة.<sup>1</sup>

لقد مثلت الحرب الأهلية في طاجاكستان مثالا حيّا لتأثير الإرث السياسي و المؤسسي السوفييتي، فهذه الحرب هي نتيجة حتمية للتنافس السياسي بين العصب الجهوية التي لم تجد بعد استقلال طاجاكستان مركزا يتحكّم و يظبط حراكها.

---

<sup>1</sup>Catherine Poujol, "Quelques réflexions sue l'implication russe dans le conflit tadjik", in Mohammad-reza Djalili, Frédéric Grare (ed.), *Le Tadjikistan à l'épreuve de l'indépendance*, Graduate Institute Publication, 1995, p.45.

### المبحث الثالث: الحدود و الأقليات كمعضلة أمنية ( وادي فرغانة مثالا).

بعد أكثر من عقدين من سقوط الاتحاد السوفييتي، لا تزال الحدود الموروثة في آسيا الوسطى تشكل معضلة حقيقية و مصدرا للنزاع بين دولها، و في وادي فرغانة على وجه الخصوص ، فهذه المنطقة التي تعتبر أخصب منطقة في آسيا الوسطى و أكثرها كثافة سكانية ، محاطة بسلاسل جبلية تعتبر من بين أعلى القمم في العالم ( جبال بامير و جبال تيان شان)، و هي مقسمة بين ثلاث دول هي أوزبكستان ، طاجاكستان و كيرخيزستان.

لقد كان تحويل منطقة فرغانة إلى إقليم إداري في الفترة القيصريّة (province) يهدف إلى كسر كل محاولات المقاومة التي عرفتها المنطقة و بالخصوص خانية خوقند ( Khanat de Kokand ) التي كانت تسيطر على أجزاء واسعة من فرغانة .

و منذ السنوات الأولى من بداية المشروع السوفييتي بدأت عملية تقنيت المنطقة و تقسيمها بين الجمهورية السوفييتية الاشتراكية لأوزبكستان و المنطقة المستقلة ذاتيا للكارا كيرخيز ( région autonome des Kara-Kirghizes ) الواقعة تحت الإدارة المركزية المباشرة لموسكو سنة 1924. و تعرضت لاحقا لعملية تقسيم أخرى نتيجة ترقية المنطقة المستقلة ذاتيا لطاجاكستان التي كانت تخضع لإدارة أوزبكية و تحولها إلى جمهورية اشتراكية سوفييتية سنة 1936، بينما منحت السلطات إقليما جديدا لأوزبكستان و هو كاراكالباكستان كتعويض عن خسارتها لطاجاكستان.<sup>1</sup>

إنّ تقسيم المنطقة و تخطيط الحدود الجديدة ، كان من بين عمليات التقسيم الأكثر تعقيدا و صعوبة بالنظر للتعدد العرقي و اللغوي الذي تعرفه و بالنظر لكونها المنطقة الأكثر خصوبة و ديمغرافية في آسيا الوسطى كلّها، فلقد كانت هناك أعراق كثيرة تتعايش فيما بينها على غرار السارت ، الطاجيك، الكيرخيز، الكيشاك، الأوزك، الخ .

و لم تكن هناك حدود ثقافية واضحة تفصل الأعراق عن بعضها البعض، و حتى بالنسبة للنشاط الاقتصادي و الاجتماعي فقد كانت كل الأعراق منقسمة بين بدو رحل يمارسون الرعي و مزارعون مستقرون ، و أهم ما يميّز هذه المنطقة هو امتناعها أو تعذر إخضاعها لنموذج الدولة القومية المهمّشة

<sup>1</sup>Isabella Damiani, "Ferghana: Les étapes d'une matérialisation frontalière, entre intention et réalité", [www.espacepolitique.revue.org/2651](http://www.espacepolitique.revue.org/2651).

للأعراق و الأقليات الذي فرضته الإدارة السوفيتية أكثر من أي منطقة أخرى ليس فقط في آسيا الوسطى وحدها بل في عموم الاتحاد السوفيتي.<sup>1</sup>

### المطلب الأول: تعقيدات المسألة الحدودية.

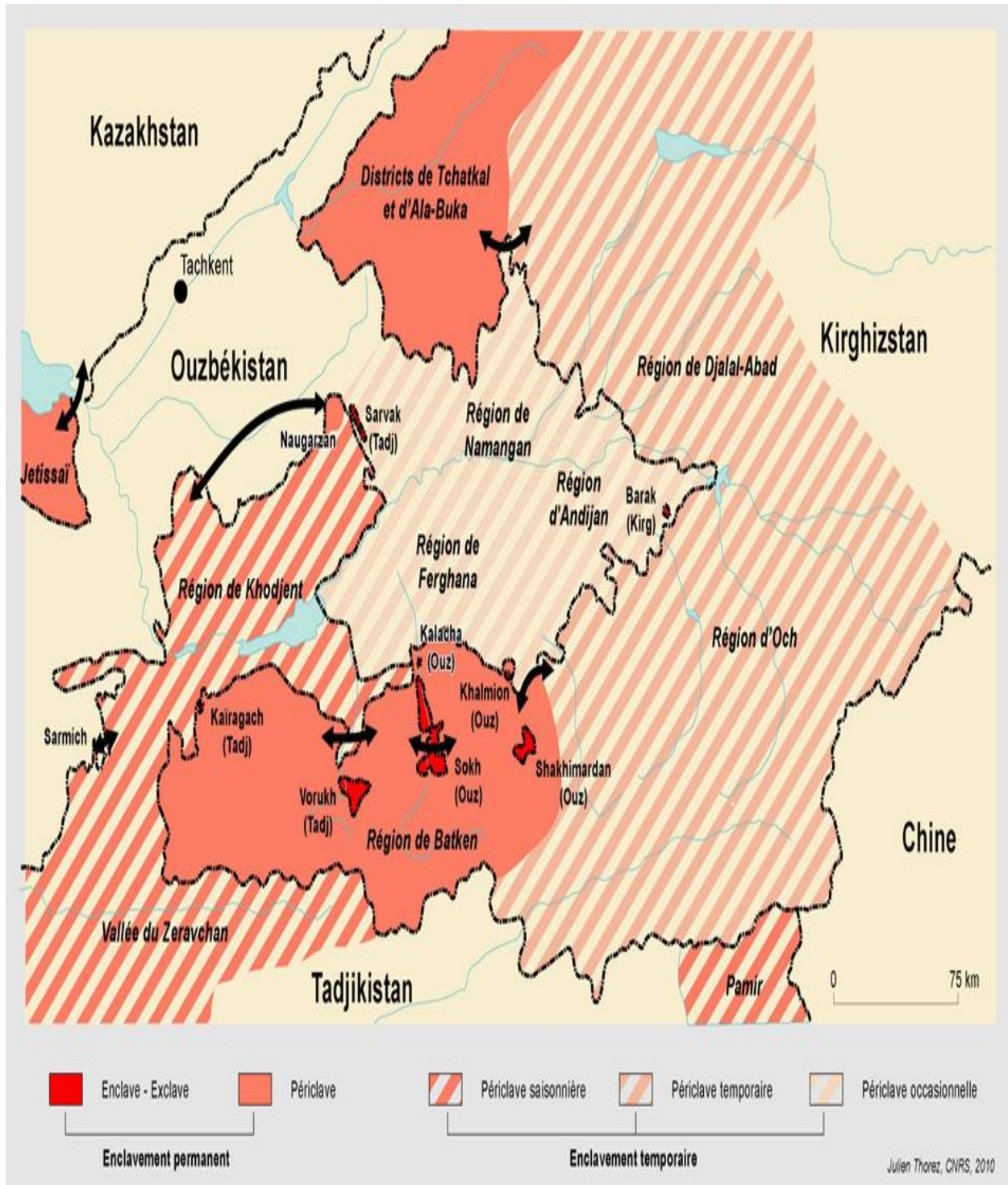
لقد كانت منطقة فرغانة في الفترة السوفيتية منطقة للتبادل بين الجمهوريات التي تتقاسمها أو كما يسميها Julien Thorèz منطقة عبر-جمهورية (trans-républicaine) و لم تكن الحدود الفاصلة بينها تشكّل مشكلة جوهرية ، بل كانت مسألة محلية ، لا تلجأ الجمهوريات إلى طرحها على المستوى المركزي (موسكو) إلا في الحالات الطارئة التي يتعذر فيها إيجاد اتفاقات و تسويات بين الأطراف.<sup>2</sup>

و تنقسم هذه المسألة إلى مستويين، المستوى الأول هو الحدود الادارية الرابطة بين الجمهوريات و التي تحولّت بعد استقلالها الى حدود سياسية دولية ، و المستوى الثاني يمثّل في المناطق المحصورة (les enclaves) و نقصد بها المناطق التي تنتمي لدولة ما و تقع في دولة أخرى ( أي تقع خارج حدود الدولة) ولا يوجد بينها اتصال جغرافي (continuité géographique). (أنظر الشكل رقم 10)

<sup>1</sup>Julien Thorèz, "Enclaves et enclavement dans le Ferghana post-soviétique", *Cahier d'études sur la Méditerranée orientale et le monde turco-iranien*, n.35, 2003, p.29.

<sup>2</sup>*Ibid.*, p. 32.

الشكل رقم 10: المناطق الحبيسة و المكتنفة في منطقة فرغانة



المصدر: Julien Thorez, "Les nouvelles frontières de l'asie centrale: Etat, nations et régions en recomposition", [www.cybergeog.revue.org/23707](http://www.cybergeog.revue.org/23707). consulté le 12/05/2013.

إنّ الدوافع السياسية و الأمنية التي جعلت ستالين يقوم بتفتيت الأقاليم و تشتيت العرقيات قد ذكرناها آنفا و التي تبين فيما بعد أنّ تأثيرها على تنمية و استقرار المنطقة كان ضئيلا، فإنّ الوضع بعد استقلال هذه الدول أفرز رهانات أمنية و تنمية جديدة يصعب تسييرها في غياب طرف ثالث قادر على امتصاصها مثلما كان في السابق.

لقد كانت آسيا الوسطى طوال عقد التسعينيات من القرن العشرين مسرحا للعديد من المطالب الإقليمية تزامنا مع اعتمادها على القومية العرقية، و كان من البديهي أن تظهر هذه المطالب بالنظر إلى عدم التطابق الصارخ بين الخارطة العرقية و الخارطة السياسية كما هو مبين في الشكل رقم 10 و بالنظر إلى تعدّد المعايير التي اعتمدتها الادارة السوفييتية سابقا، و ان كان العامل الأكثر حساسية هو وجود أقليات مبعثرة في جميع أنحاء آسيا الوسطى تنتمي الى جمهوريات غير جمهورياتها

و بما أن منطقة فرغانة التي تعتبر قلب آسيا الوسطى و خزانها الديمغرافي قد عرفت تقطيع الحدود و تشتيت العرقيات بمستويات فاقت ماعرفته الأقاليم الأخرى و زاد من تعقيدها وجود عدد كبير من الأقاليم المحصورة مقارنة بغيرها من المناطق ، فقد كان ذلك إيذانا لتحويلها إلى برميل بارود (poudrière) أو قنبلة موقوتة ، ففي منطقة فرغانة وحدها هناك سبع مناطق محصورة جغرافيا عن جمهورياتها الاسمية و واقعة في مناطق جبلية مما يزيد من شدة هذه الظاهرة .

فالانحصار كما يرى Gael Raballand ليس ظاهرة جغرافية فقط بل هو ظاهرة أمنية و نفسية كذلك.<sup>1</sup> فالانحصار يولّد شعورا بالعزلة و التهميش و يزداد بفقدان الارتباط مع الوطن و الدليل على ذلك هو أنّ معظم الخلافات الحدودية كانت منطقة فرغانة مسرحا لها كما هو موضح في الشكل رقم 11 و المعبر عنها بـمثلثات حمراء ( أنظر الشكل رقم 11)

<sup>1</sup>Gael Raballand, "La question de l'enclavement en Asie centrale", [www.cemoti.revues.org/759](http://www.cemoti.revues.org/759).

## الشكل رقم 11: بؤر التوتر الحدودية في منطقة فرغانة



المصدر: Julien Thorez, "Les nouvelles frontières de l'Asie centrale: Etat, nations et régions en recomposition", [www.cybergeographie.org/23707](http://www.cybergeographie.org/23707), consulté le 12/05/2013.

من اللافت للانتباه أنه وفي ظل غياب توجهات اندماجية أو حتى تعاونية لدى النخب الحاكمة فقد كان تعزيز المطالبات الإقليمية وإعادة النظر في ممارسة السيادة الوطنية على الأقاليم المستقلة ذاتيا هو المنطق السائد، و ماعدا الطرح الوحدوي الذي تبنته بعض الحركات الإسلامية كحزب التحرير

و حزب النهضة ، فلقد تماهت كل النخب المثقفة مع التوجه الرسمي الرامي إلى خلق تجانس عرقي داخلي وفق أنموذج " الدولة-الأمة" الأوروبي متغاضية عن حقائق تاريخ و جغرافيا المنطقة القائمة على التنوع و التعدّد.<sup>1</sup>

لقد مثلت قضية ضمّ مدينتي سمرقند و بخارى صاحبتَي التاريخ العريق و التراث الفارسي الكبير إلى جمهورية أوزبكستان واحدة من بين أكثر عمليات التقسيم السوفييتي غرابة ، لأن هاتين المدينتين كانتا تشكلان العاصمتين السياسية و الثقافية للطاجيك ذوي الأصول الفارسية ، فلم تكن هذه العملية بالنسبة للطاجيك مسألة اقتصاد و تنمية بل كانت مسألة رمزية و حضارية فهاتان المدينتان هما الخزان الرئيسي للنخب الطاجيكية و هما دليل تفوق و تميّز الطاجيك عن بقية شعوب المنطقة دينيا و ثقافيا. و لهذا فقد كانت أولى المطالب ( بغض النظر عن المطالب التي حصلت في فترة التقسيم أي في عهد ستالين) قد ظهرت مع البريسترويكا حيث طالب مجموعة من الكتاب و المثقفين الطاجيك باستعادة هاتين المدينتين، فألف المؤرخ الطاجيكي Rahim Masov كتابا نشر سنة 1991 تحت عنوان يدّل على التعسف السوفييتي في تخطيط الحدود سمّاه ( تاريخ تقسيم بواسطة الفأس Histoire d'un découpage à la hache) و بيّن فيه أن الإدارة السوفييتية كانت أكثر ميلا و تفضيلا للأزبك الأتراك على الطاجيك الفرس لكن اندلاع الحرب في طاجاكستان و الصراع بين العصب الجهوية لم يترك مجالا لبروز هذه المطالب.<sup>2</sup>

و تعتبر الحدود الكيرخيزية-الأزبكية أكثر الحدود إثارة للتصادم و الخلاف بين الدولتين ، ففي سنة 2004 طالبت أوزبكستان أن تكون الحدود المرسومة سنة 1924 هي الحدود المعتمدة بين الدولتين بينما طالبت كيرخيزستان أن تكون الحدود المعتمدة هي الحدود النهائية و المرسومة سنة 1954 بالرغم من أن الجمهوريتين قد دخلتا فعلا في جولتي مفاوضات في الفترة السوفييتية ( الأولى في الخمسينيات و الثانية ثمانينيات القرن العشرين) ، وهذا ما يؤكد أن الحدود حتى ولو كانت حدودا إدارية إلّا أنّها قد أثارت خلافا بين الطرفين في الفترة السوفييتية و هو ما يجعلها مصدرا لصراع أكبر بتحولها لحدود سياسية.<sup>3</sup>

و بما أن أغلب سكان هذه المناطق (85%) ينتمون للعرق الأزبكي فلقد ولّد ذلك مخاوف كبيرة لدى جمهوريتي كيرخيزستان و طاجاكستان وصلت إلى حد اتهام جمهورية أوزبكستان بالتآمر و استخدام الأقلية الأزبكية لتهديد استقرارهما، فقد اتهمت طاجاكستان أوزبكستان سنة 1998 بعد الأحداث التي عرفتھا منطقة خوجنت و المتمثلة في الهجوم الذي شنّه العقيد محمود خودوبردييف (Khudoberdiev) على

<sup>1</sup>Adeeb Khalid, "L'Islam et l'Etat post-soviétique en Asie centrale", Revue Internationale et Stratégique, Vol.4, n.64, 2006, p.101.

<sup>2</sup>Julien Thorez, "Les nouvelles frontières de l'Asie centrale: Etat, nations et régions en recomposition", www.cybergeo.revues.org/23707.

<sup>3</sup>Ibidem.

مدينة لينين آباد شمال طاجكستان ، علماً أنّ هذا العقيد ينتمي للأقلية الأوزبكية المتواجدة بكثرة في هذه المدينة.

بعد الأحداث التي شهدتها مدينة باتكن Batken صيف 1999، عرفت العلاقات بين الجمهوريات التي تشترك في إقليم فرغانة منحى تنازعيًا ، فلقد أدّى الهجوم الذي شنته مجموعات مسلحة تنتمي إلى الحركة الإسلامية الأوزبكية بقيادة طاهر يولداش و جمعة نمجانبي إلى بروز أكبر تحدٍّ أمني لزعماء هذه الجمهوريات ، استغله الرئيس الأوزبكي اسلام كريموف جيداً و وظفه في زيادة الحملة القمعية على المعارضة بانتهاج سياسة قومية عرقية شوفينية ، متهماً دول الجوار بتسهيل حركة الجماعات الإسلامية المسلحة .

بل إنّ كريموف وجه الاتهام مباشرة للأقاليم المحصورة ( Sokh و Chakhirmardan ) بأنّها متضامنة مع هذه الحركات و هي التي تمنحها الملجأ و المأوى ، و كرد فعل سريع قررت السلطات الأوزبكية غلق حدودها مع طاجكستان و كيرغيزستان و قامت بزرع الألغام على أطراف الحدود و هو ما أدّى إلى سقوط العديد من الضحايا المدنيين أغلبهم من المزارعين ، و هجرة الكثير منهم للمناطق الداخلية، و بداية تعميم نظام التأشيرة بين هذه الجمهوريات.<sup>1</sup>

و في سنة 2004 دعا نواب البرلمان الكيرغيزي الحكومة إلى ضرورة المطالبة بعودة الإقليم الحبيس شاكرماردان للسيادة الكيرغيزية ، و هي الدعوة التي لاقت ترحيباً و استحساناً من قبل الوزير الأول Nicholai.Tanaev الذي أعلن حينها أنّ هذا الإقليم جزء لا يتجزأ من الأراضي الكيرغيزية ، و بالنظر إلى أهميّة هذا الإقليم الذي كان يستقطب أكثر من مليون سائح سنوياً لاحتوائه على معلم ديني قديم مخصص للخليفة الرابع علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقد كانت السلطات تنظر إليه كمصدر مهم للدخل لا يجب التفريط فيه.<sup>2</sup>

إنّ هذه الصراعات ما كانت لتحصل لو سلكت الحكومات المعنية سياسات تعاونية و اندماجية ، فتبنيها للقومية العرقية كإيديولوجية مؤسسة ضاعف من مستوى التوتر و التنافس الذي كان كامناً في الفترة السابقة حيث يعتقد Julien Thorez أنّ هذه الدول كانت ترى في السياسات الحدودية الجديدة وسيلة لتعميق الانتماء الوطني و إبراز معالم السيادة و الاستقلال ، و الذي ينطلق من منطق سلبي يربط استبطان الهوية و الانتماء باستعداد دول الجوار و محاولة تقليص مستويات التبادل إلى أدنى حدوده الممكنة ، و بالتالي فإنّ تسيير الحدود هو جزء لا يتجزأ من عملية بناء الأمة و ليس فقط بناء الدولة ، حتى و لو كانت على حساب ضروريات التنمية و الرخاء الاقتصادي.

<sup>1</sup>Isabella Damiani, "Ferghana: Les étapes d'une matérialisation des frontières entre intention et réalité", [www.espacespolitique.revues.org/2651.consulté](http://www.espacespolitique.revues.org/2651.consulté) le 15/05/2014.

<sup>2</sup>Ibidem.

إنّ هذه السياسات المتطرفة في تسيير الحدود عن طريق جعل الحدود مناطق عازلة مثلت صورة واضحة لتوظيف النخب الحاكمة للخطر الأجنبي و الإحساس بالخوف و انعدام الثقة لفرض أنظمة سياسية تسلطية، و بالفعل فهذه النخب قد ساهمت في تعميق الجفاء و العزلة عن طريق استعداد الغير و جعل الحدود ملفا أمنيا بحثا عوض تحويله لجسر للتعاون و الاندماج، و لعلّ مسألتا الأرض و الماء هما المسألتان الأكثر توضيحا لخطورة السياسات المعتمدة من قبل جمهوريات آسيا الوسطى لتسيير ملفي الحدود و الأقليات.

### المطلب الثاني: النزاعات الحدودية و تنمية المنطقة.

عرفت المنطقة بعض أشكال الصراع على الأرض و الموارد في الفترة السوفييتية بسبب الحدود المصطنعة ، و بالرغم من كونها حدودا إدارية و يخضع تسييرها لطرف واحد، فقد كانت محل صراع و تنافس بين شعوب المنطقة و أعراقها بسبب تفتت الأراضي و توزيع الموارد بشكل تراه أطراف مهدّدا لمصالحها أو تفضيلا لأطراف أخرى.

و لأن آسيا الوسطى منطقة تشكّل فيها الصحاري و السهوب نسبة كبيرة من مساحتها الإجمالية، إذ لا تتلقى إلاّ نسبا شحيحة من مياه الأمطار لا تزيد في أحسن الأحوال عن 300 ملم في السنة ، فهي تعتمد كلية على مياه المسطحات و المجاري المائية لري الأراضي الزراعية ، و بخاصة الزراعات الكثيفة الاستهلاك للماء، على غرار زراعة القطن.

فقد جعلت السياسات التنموية السوفييتية من آسيا الوسطى متخصصة في زراعة القطن (mono-culture) الذي يتم تسويقه للمصانع الواقعة في الجمهوريات السوفييتية الأوروبية ( روسيا و أوكرانيا) إلى حدوث شحّ كبير في المياه و تجفيف خطير للمسطحات المائية ، فالاستغلال المفرط لمياه نهري أموداريا سيرداريا ( سيحون و جيحون في الأدبيات الجغرافية العربية القديمة) و الذي تمّ تحت شعار " الانتصار على الصحراء" في عهدي خروتشيف و بريجنيف ، أدّى إلى تقلص منسوبها بشكل رهيب أدى الى تجفيف بحر آرال الذي كان في السابق يعتبر من بين أكبر البحار الداخلية بحيث كانت مساحته تتعدى 60.000 كم مربع سنة 1960 و ابتداء من هذه السنة أخذت مساحة البحر و حجمه في التقلص ليفقد بعد ثلاثة عقود 75 % من مساحته و 90 % من حجمه ( منسوب المياه) و تضاعفت نسبة الملوحة فيه إلى درجة انقرضت فيها معظم الكائنات الحية فيه.<sup>1</sup> (أنظر الشكل رقم 12)

<sup>1</sup>Christopher Pala, "Un combat pour sauver la mer d'Aral", [www.fr.rbth.com/articles/2011/10/27/un-combat-pour-sauver-la-mer-daral/12895.html](http://www.fr.rbth.com/articles/2011/10/27/un-combat-pour-sauver-la-mer-daral/12895.html), (consulté le 2/11/2013).

الشكل رقم 12: خريطة تبين انخفاض منسوب بحر آرال و تقلص حجمه

(خلال ربع قرن )

### Évolution du niveau de la mer d'Aral



Image de Nivaz Karim

Christopher Pala" Un combat pour sauver la mer d'Aral" [www.fr.rbth.com/articles/2011/10/27/un\\_combat\\_pour\\_sauver\\_la\\_mer\\_daral/12895.html](http://www.fr.rbth.com/articles/2011/10/27/un_combat_pour_sauver_la_mer_daral/12895.html). consulté le 2/11/2013.

و بالنظر إلى تعقيدات و خطورة المسألة المائية التي لم تجد السلطات السوفييتية، أو لم ترد حسب البعض إيجاد حلول دائمة لها، حيث تحدثنا في الفصل الثالث عن تأثير توقيف مشروع قناة سيبرال Sibiral الذي كان يهدف إلى إيصال مياه الأنهار الروسية من سيبيريا إلى بحر آرال سنة 1986 و ظهور نزعة قومية عدائية ضد الروس الذين كانوا السبب في الكارثة لكنهم رفضوا إتمام المشروع الذي كان قادرا على إعادة البحر لسابق عهده، فلقد كان الاعتقاد السائد أنّ جمهوريات آسيا

الوسطى ستلجاً لسياسات تعاونية أكثر عقلانية حيث لا تؤدي إلى ربح أحد الأطراف على حساب الطرف الآخر.<sup>1</sup> (أنظر الشكل رقم 13).

### الشكل رقم 13 : مشروع قناة سيبرال لإعادة ملأ بحر آرال



→ Canaux prévus pour les projets de détournements des fleuves sibériens

المصدر:

Jérémy Allouche " Continuité et discontinuité dans la politique de l'eau en Asie centrale" Cahier d'Asie centrale, n.13/14,2004,p.290. consulté le 6/12/2013.

<sup>1</sup>Jérémy Allouche, "Continuité et discontinuité dans la politique de l'eau en Asie centrale", *Cahier d'Asie centrale*, n.13/14,2004,p.290.

لقد كان من المفروض أن تتعاون دول المنطقة بعد استقلالها لتسيير ما لم تسمح به السياسات السوفييتية الموجهة من المركز (موسكو) بما يخدم مصالحها المشتركة و لكن السياسات المتبعة أظهرت بروز نزعة شوفينية تتعامل مع الموارد المائية بنظرة ضيقة و ترى فيها شكلا من أشكال التعبير عن السيادة و الاستقلال.<sup>1</sup>

يتمثل جوهر المعضلة المائية في آسيا الوسطى في وجود مجموعتين متصارعتين من الدول ، فالمجموعة الأولى هي دول المنبع و التي تتمثل في طاجيكستان و كيرغيزستان و هي الدول الجبلية ( جبال تيان شان و بامير ) التي تستقطب أكبر قدر من مياه الثلوج التي يؤدي ذوبانها الى تشكيل المجاري و المسطحات المائية الكبرى (سيرداريا، أموداريا، بحيرة بلقاش، الخ) و المجموعة الثانية هي دول صحراوية وسهبية أي تركمنستان، أوزبكستان و كازاخستان التي تعتمد على مياه دول المنبع للتخفيف من وطأة مناخها الصحراوي الجاف.

و لقد أدى الاستعمال المفرط للمياه و بناء السدود لتوليد الطاقة الكهربائية في دول المنبع إلى شح منسوب المياه التي كانت تصل لدول المصب بعد استقلالها، أي بعد غياب المنظم و المراقب لتوزيع المياه على الدول المعنية ، و مما زاد في خطورة الوضع افتقار طاجيكستان و كيرغيزستان لمصادر الطاقة الأحفورية ( من غاز و نفط و فحم ) و بالتالي كان اعتمادهما على الطاقة الهيدروغرافية، بعد ان كان الاتحاد السوفييتي يضمن امداداتها من النفط و الغاز عبر شبكته المعقدة لنقل الطاقة. و بالفعل فقد أدت سياسات دول المنبع إلى بروز عجز مائي ضخم لم تستطع دول المصب تحمّله.<sup>2</sup>

لقد كان من الممكن أن تتفاهم دول المنبع و المصب على صيغ بديلة تضمن لكل طرف نصيبا مقبولا من الماء ، فالبيئة الجغرافية و الاقتصادية تدعو الى تبني سياسات تعاونية و اندماجية ، فعلى سبيل المثال فإنّ كلاً من تركمنستان و كازاخستان و أوزبكستان و هي دول مصدرة للنفط و الغاز تستطيع تأمين حاجيات دولتي المنبع أي طاجيكستان و كيرغيزستان من الطاقة الأحفورية مقابل ضمان إمدادات كافية من الماء لري حقولها و توفير مياه الشرب و الصناعة ، غير أنّ المنطق السائد هو منطق تنازعي عزّزته إيديولوجية قومية-عرقية .

و هذا المنطق الغريب يشبه إلى حد كبير المنطق الذي اتبعته تركيا مع دول الجوار و الذي يختصر في جملة مشهورة وجهها الرئيس التركي سليمان ديميريل للعراقيين الذين رفضوا المشاريع المائية المقامة في تركيا و التي جعلت العراق يعرف مستويات خطيرة من الفقر المائي " إنّ آبار النفط لهم (يقصد

<sup>1</sup>Umida Hashimova, "Fire Over Water in Central Asia", [www.old.cacianalyst.org/?q=node/5079](http://www.old.cacianalyst.org/?q=node/5079) (consulté le 5/8/2014)

<sup>2</sup>UN NEWS Centre, "UN Seminar Explores Water Management in Central Asia", [www.Un.org/apps/news/story.asp?News\\_ID=30522](http://www.Un.org/apps/news/story.asp?News_ID=30522). (consulté le 6/8/2014)

العراق) و منابع المياه لنا، و من حق تركيا التحكّم بمياه دجلة و الفرات حتى آخر نقطة حدودية .  
و إنّ هذا التحكّم جزء لا يتجزأ من السيادة الوطنية التركية<sup>1</sup>.

فبالرغم من عشرات القمم الرئاسية و اللقاءات الوزارية و المختصة ، فإنّ هذه الدول لم تتوصّل  
إلقرارات من شأنها حل المعضلة الأمنية ، بل إنّ كلّ هذه اللقاءات كانت مناسبات حقيقية لإظهار رفض  
هذه الدول للتعاون و الاندماج و اختيارها التوقع و الانعزال بالرغم من أنّها تشكّل في مجملها المنطقة  
الأكثر انحباسا في العالم ، فهذه الخلافات حسب Renaud Francois هي انعكاس لطبيعة العلاقات  
التي تربط النخب الحاكمة أو زعماء المنطقة فيما بينهم لأنّه لو كانت " هنالك إرادة حقيقية لإحلال السلم  
و التعاون بين الأطراف ، ما كان الماء ليشكل عائقا أو تهديدا، بل كان هو الحل و المبرّر لحل  
الخلافات الأخرى<sup>2</sup>.

و الدليل هو تحوّل هذه القمم و اللقاءات إلى فرص تستغل من قبل السياسيين لإلقاء التهم  
و التهديدات عوض البحث عن سبل عقلانية كفيلة بحل هذه الخلافات و بالخصوص من قبل الرئيس  
الأزبكي إسلام كريموف.

و عليه فالمتّمعّن للعلاقات بين هذه الدول يلحظ تجاهل النخب الحاكمة لكل عوامل التوحيد و التعاون  
و إصرارها على انتهاج كل ما يعزّز التنازع و التصادم، و هو ما يحيلنا إلى جوهر القومية العرقية التي  
لا تتحقّق الا في مناخ سياسي قائم على استعداد الآخر أي دول الجوار و لو على حساب مصالحها  
الحيوي، بالرغم من تركيز خطابها السياسي على فكري الأمن القومي و الاستقرار، و بالتالي فإنّ  
الخلافات الحدودية التي تغذي هذا المناخ ، ستكون بالنسبة لهذه النخب الحاكمة مصدرا من مصادر دعم  
توجهاتها السياسية<sup>3</sup>.

و حتّى و إنّ لم تصل هذه الخلافات إلى درجة اندلاع نزاع كبير، فإنّ سياسات التصعيد  
(escalade) المسلّح لا تزال قائمة ، إلّا أنّه هناك بعض الأمثلة تبين امكانية تطور هذه الخلافات  
إلحرب حقيقية على الماء، ففي سنة 2000 قامت القوات المسلّحة الأزيكية بتمارين عسكرية القصد منها  
محاكاة هجوم شامل على الخزان المائي (طوكطوغول Toktogul) المتواجد في الأراضي الكيرخيزية  
و الذي يستخدم لسقي أراضيها الزراعية الواقعة في وادي فرغانة ، و كانت هذه التمارين رد فعل لعمليات

<sup>1</sup>أحمد الزوبعي، "النفط و الماء بين العراق و تركيا، و امكانيات التبادل" (www.faceiraq.com/inews.php?id=113466)

<sup>2</sup>Francois Renaud, "Asie centrale: La bataille de l'eau", [www.esic.org/publication/analyses/asie-centrale-la-bataille-de-l'eau](http://www.esic.org/publication/analyses/asie-centrale-la-bataille-de-l'eau).

<sup>3</sup>Johannes Linn, "The Compound Water-ENergy-Food Crisis Risks in Central Asia: Update on an International Response", [www.brooking.edu/research/opinion/2008/08/12-central-asia-linn](http://www.brooking.edu/research/opinion/2008/08/12-central-asia-linn).

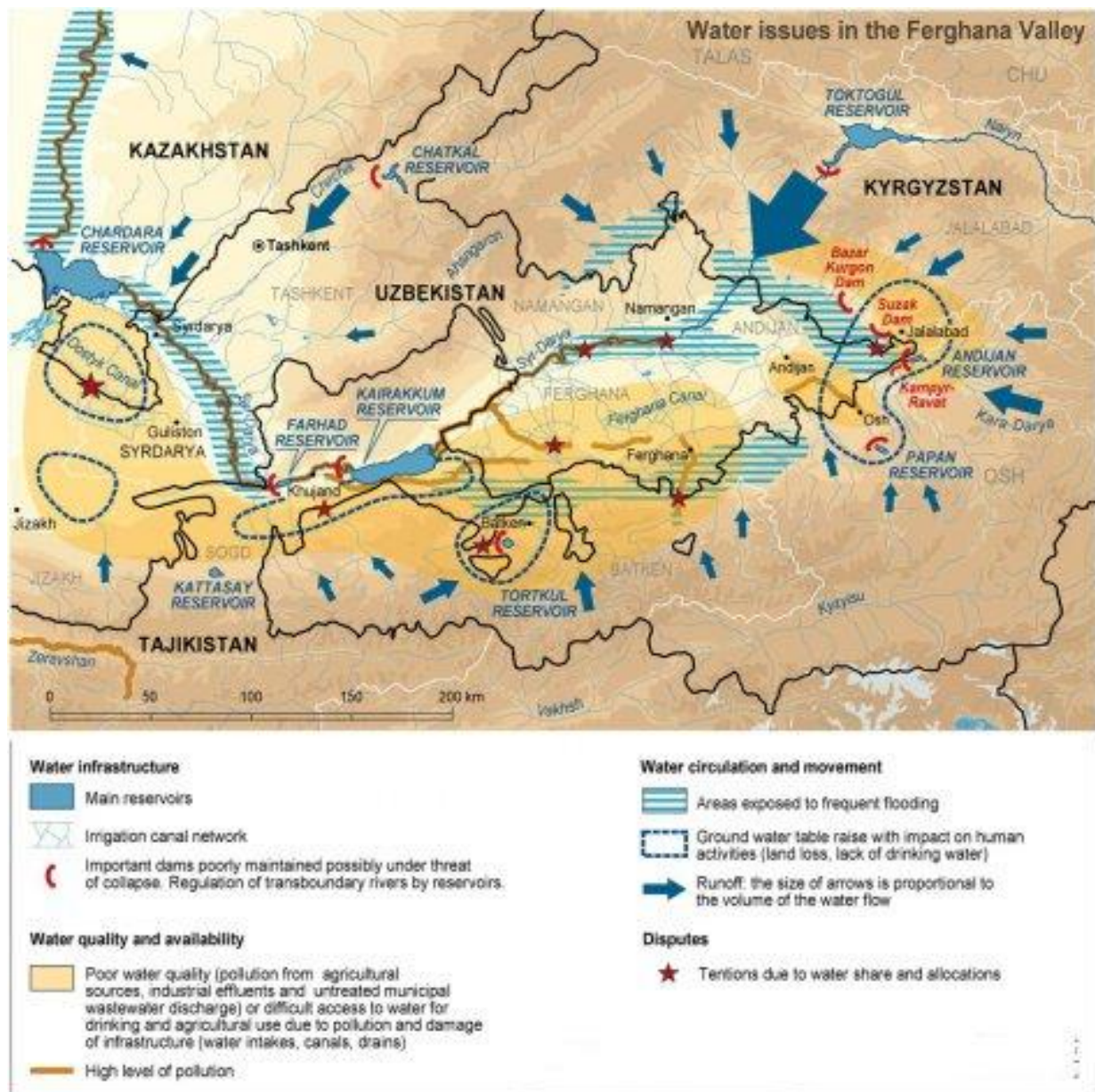
التخلّص من المياه الزائدة في فصل الشتاء بقصد توليد الكهرباء و التي تصب في الأراضي الأزيكية مما يؤدي إلى اغراق محاصيلها الزراعية ، بينما تمنع وصولها في فصل الصيف.<sup>1</sup>

و في سنة 2008 قام العشرات من القرويين الطاجيكيين القاطنين ببلدة أصفرا بعبور الحدود الفاصلة بين طاجاكستان وكيرخيزستان رافعين أسلحتهم محاولين الوصول لأحد السدود الكيرخيزية الذي يهدّد حقولهم الزراعية ، و لولا تدخل قوات حرس الحدود لوصل الأمر إلى ما لا يحمد عقباه. ( أنظر الشكل رقم 14)

الشكل رقم 14: السدود و خزانات المياه و بؤر النزاعات حول الماء في منطقة فرغانة

---

<sup>1</sup>Merhat Sharipzhan, "In Central Asia, Water Could Lead To Fire", [www.rferl.org/commentary\\_water\\_crisis\\_central\\_asia/1185586.html](http://www.rferl.org/commentary_water_crisis_central_asia/1185586.html). (consulté le 5/5/2014)



المصدر:

Water issues in the Ferghana Valley, [www.grida.no/graphicslib/detail/water-108c/](http://www.grida.no/graphicslib/detail/water-108c/) consulté le 12/8/2014)

### المطلب الثالث: النزاع العرقي في منطقة أوّش نموذجاً.

تعتبر مدينة أوّش الواقعة جنوب كيرخيزستان و تقطنها أغلبية أوزبكية ، المدينة التي عرفت فيها الصراعات بين المجموعات العرقية مستوى عنيفا و مسلّحا، فهذه المدينة الواقعة في وادي فرغانة لها خصوصيات تميزها عن باقي مدن الإقليم.

و يمكننا تلخيص حيثيات هذا النزاع الذي عرفته مدينة أوّش في جوان 2010 في قيام مجموعات مسلحة تنتمي للعرق الكيرخيزي بعمليات واسعة من النهب و القتل و الحرق ضد الأوزبك ، و كانت من نتائجه الآنية سقوط أكثر من 191 ضحية و جرح الآلاف و فرار أكثر من 300.000 من مقار سكانهم و نزوح أكثر من 100.000 من الأوزبك إلى جمهورية أوزبكستان.<sup>1</sup>

و لفهم الأسباب التي أدت الى اندلاع هذا النزاع ، لا بد من إدراك جملة من العوامل الهيكلية و المرحلية التي أدت تضافرها إلى سقوط المنطقة في فخ التصادم و الاقتتال العرقي.

أولاً. العوامل الهيكلية : و هي العوامل الثابتة نسبيا و نعني بها بالدرجة الأكبر، التوزيع العرقي لسكان كيرخيزستان، سواء على مستوى البلاد ككل أو على مستوى الأقاليم التي نشب فيها النزاع ، و مميزات كل عرق من ناحية النشاط الاجتماعي و الاقتصادي تاريخيا.

ففيما يخص التوزيع العرقي عامة، فإنّ جمهورية كيرخيزستان تتواجد بها حسب الأرقام التي قدمتها اللجنة القومية للإحصاء سنة 2009 ثلاث مجموعات عرقية كبرى و هي : الكيرخيز بنسبة % 69.6 و الأوزبك بنسبة % 14.5 و الروس بنسبة % 8.4 بينما نجد بقية العرقيات لا تتجاوز نسبها من مجمل السكّان أكثر من % 1.5 لكل أقلية في أحسن الأحوال ( حيث يبلغ تعداد أقلية الدونغان Dungs حوالي 60.000 و هي مجموعة عرقية ذات أصول صينية و تدين بالاسلام و يطلق عليها في الصين الهوي Hui ، و 52.000 ويجوري Ouigours تعود أصولهم لتركستان الشرقية أو سينكيانج Sinkiang عند الصينيين و الواقعة في شمال غرب الصين ، يضاف إليهم 48.500 طاجيكي و 38.500 كازخي ).<sup>2</sup>

و بالإضافة إلى هذا التنوع العرقي فإنّ هناك تمايزا من حيث التوزيع الجغرافي و النشاط الاقتصادي فعلى العموم هناك اختلافات جوهريّة بين شمال البلاد و جنوبها و ممّا يعزّز هذا الاختلاف السلاسل الجبلية التي تفصل شمال البلاد عن جنوبها ( يتجاوز ارتفاعها 3000 متر) بنفس الطريقة التي فصلت السلاسل الجبلية الأمريكية شرق الولايات المتحدة عن غربها. و على العموم يعتبر الشمال منطقة

<sup>1</sup>Joldosh Osmonov, "Kyrgyzstan Faces Interethnic Conflict and Humanitarian Catastrophe", *Central Asia-Caucasus Analyst*, Vol.12, n.12, 23 June 2010, p.4-5.

<sup>2</sup>Humanitarian News and Analysis (IRIN), [www.irinnews.org/printreport.aspx?ReportId=89544](http://www.irinnews.org/printreport.aspx?ReportId=89544)

صناعية و لهذا فالروس يتواجدون فيه بكثرة الى جانب الأغلبية الكيرخيزية ، بينما تنتشر في جنوب البلاد الذي تعتبر مدينة أوّش عاصمته و حاضرتة الأولى الزراعة و التجارة باعتبار مدينة أوّش كانت محطة أساسية في طريق الحرير و زادت أهميتها لقربها من الحدود الصينية، و جنوب البلاد هو المنطقة التي يتعايش فيها الكيرخيز و الأوزبك و تتكامل نشاطاتهم الاقتصادية منذ القدم حيث كان الكيرخيز بوصفهم بدوا رحلا يمارسون نشاط الرعي بينما كان الأوزبك يمارسون الزراعة المسقية و التجارة و الأعمال الحرفية و بالتالي فهم عرفوا الاستقرار منذ القدم<sup>1</sup>.

و هو ما يجعل هاتين المجموعتين العرقيتين تعرفان علاقات اجتماعية مختلفة يفرضها نوع المعاش الاقتصادي بحسب بن خلدون أو نمط الإنتاج السائد بالتعبير الماركسي.

ثانيا: العوامل الظرفية ، و نقصد بها التحولات التي عرفتتها جمهورية كيرخيزستان عامة و مدينة أوّش بصفة خاصة منذ انهيار الاتحاد السوفييتي و تأثير ذلك على التوازنات التي كانت تتحكم في علاقات الأعراق بعضها ببعض.

تعتبر كيرخيزستان أكثر الجمهوريات انفتاحا من الناحية الاقتصادية، فهي أول الدول التي انضمت إلى منظمة التجارة العالمية (OMC) و أول من طبق توصيات صندوق النقد الدولي و قامت بإصلاحات اقتصادية ليبرالية متطرفة ( العلاج بالصدمة) إلى درجة أصبحت فيها توصف بالتلميذ النجيب ، وهي تسمية كانت تختفي وراءها أزمات اقتصادية و اجتماعية عميقة جعلت الرئيس عسكر أكاييف ( من الشمال) يدخل في صراع عميق مع النخب الممثلة لسكان الجنوب في البرلمان ، و هذا الصراع وضع الحياة السياسية كلّها في شلل<sup>2</sup>.

إنّ كيرخيزستان حسب Boris Petric اتخذت مسارا خطيرا جدا، فانقيادها لوصفات صندوق النقد الدولي الليبرالية ، و رغبة الرئيس في تمييز دولته عن بقية الدول الوسط-آسيوية قاد البلاد إلى التضحية بأهم نشاط زراعي كان يكتسي في الفترة السوفييتية ( و ما قبلها ) طابعا استراتيجيا بتناسب مع خصوصيات المنطقة و طبيعة الكيرخيز العرقية و هو تربية الأغنام ، فالإصلاحات التي قادها أكاييف دمّرت هذا القطاع الحيوي تدميرا كلّيا، هذا النموذج الاقتصادي اعتبره Petric النموذج الموازي أو المضاد للنموذج الصيني ، أي أن كيرخيزستان عوض أن تستفيد من المثال "الصيني" راحت تطبق توصيات ليبرالية لا تتناسب مع طبيعة المجتمع و إمكانياته<sup>3</sup>.

<sup>1</sup>Bayram Balci, "Identité nationale et gestion du fait minoritaire en Asie centrale: analyse des affrontements interethniques d'Osh en Juin 2010", *Cahier d'Asie Centrale*, N.19/20, 2011, p.476.

<sup>2</sup>Emine Gurgun, "Asie centrale: progrès et perspectives", *Finances et développement*, Septembre 2000, p.42.

<sup>3</sup>Boris Petric, *On a mangé nos moutons. Le Kirghizistan, du berger au Biznesman*, Paris: Belin, 2013.

فتفكيك التعاونيات الفلاحية و خصخصتها جعل الكثير من سكّان الشمال وهم في الغالب من الكيرخيز يطالبون الدولة بمنحهم امتيازات ( الأرض ) على حساب سكّانها السابقين الذين ينتمون في كثير من الأحيان الى المجموعة الأوزبكية و بالخصوص في مدينتي أوش و جلال آباد ، و قد أدّت هجرة الكثير من سكّان الشمال الى مناطق الجنوب الى حدوث ضغط كبير على هذا الاقليم من الناحية الديمغرافية . و هذا الوضع جعل الكثير من الكيرخيز يقومون بمزاحمة الأوزبك في أراضيهم و نشاطاتهم الاقتصادية . و اتجهوا إلى احتراف مهن لم يكونوا في السابق يعملون فيها.<sup>1</sup>

و عليه فإنّ هذه العوامل هيكلية كانت أو ظرفية ، أضفت على هذه المنطقة توترا كبيرا كان يستدعي تدخّل السلطات المركزية و إعدادها لسياسات كفيلة بتخفيف حدة التوتر إن لم تستطع التخلص منه تماما، غير أن العكس هو الذي حصل.

**التوظيف السياسي للتمايزات العرقية:** و هنا نستقرئ دور السياسات العرقية المطبقة من السلطات في كيرخيزستان ابتداءً من تاريخ استقلالها إلى نشوب النزاع سنة 2010.

حاول الرئيس الكيرخيزي الأول عسكر آكايف A.Akiev أن يسلك مسلكا مغايرا للسياسات المطبقة من قبل رؤساء جمهوريات آسيا الوسطى الآخرين ، سواء في الجانب السياسي أو الجانب الاقتصادي، ففي الجانب الاقتصادي قام بتحرير السوق و خصخصة المؤسسات العمومية و في الجانب السياسي كان نظامه السياسي الأكثر انفتاحا على المعارضة بحيث أصبحت كيرخيزستان الدولة الوحيدة في المنطقة التي تمتلك برلمانا تعدديا، و لقد انعكس ذلك حتما على وضع الأقليات العرقية و مكانتها في المؤسسات السياسية و الاقتصادية ، فالأوزبك الذين يمثلون ثاني أكبر مجموعة عرقية ، تعاظم تمثيلهم في البرلمان كممثلين لمنطقة الجنوب على وجه الخصوص و تضاعفت نسبتهم في قطاعي الأعمال و التجارة.<sup>2</sup>

و لهذا فقد شهدت فترة الرئيس آكايف استقرارا مخادعا، بالرغم من الظروف الاقتصادية الصعبة الناتجة عن تفكيك المؤسسات الاقتصادية السوفييتية ، غير أنّ الانحرافات التي شهدتها المرحلة الأخيرة من حكمه و انتشار الفساد جعلت المعارضة تقوم بتعبئة مضادة و مظاهرات عارمة شهدتها العاصمة بشكك في شهر مارس من سنة 2005 تعبيرا عن رفض النتائج الرسمية للانتخابات التشريعية و وصفها بالمزورة لصالح حزب الرئيس. حيث شكّلت هذه المظاهرات بداية ثورة عارمة على نظام آكايف سماها الكيرخيزيون بثورة الخزامى (révolution des tulipes)<sup>3</sup> و هي أول ثورة شعبية استطاعت إسقاط نظام قائم موروث من الفترة السوفييتية في كامل آسيا الوسطى. و ليتولى كورمان بك

<sup>1</sup>Bayram Balci, *op.cit.*, p.480.

<sup>2</sup>Erica Marat, "Kyrgyzstan Troubled Path To a Parliamentary System", *Central Asia-caucasus Analyst*, Vol.12,n.12, 23 June2010,p.8.

<sup>3</sup>Maral Madi, "The "TULIP" Revolution Develops In Kyrgyzstan", *Central Asia-Caucasus Analyst*, Vol.6, n.6, 23March 2005,

باكييف (Kourmanbek Bakiev) رئاسة الجمهورية على اثر انتخابات رئاسية مسبقة فاز فيها بنسبة وصلت إلى حدود 89%<sup>1</sup>.

و بالرغم من كون باكييف من مواليد جلال آباد الواقعة في الجنوب و التي تشتهر بوجود اختلاط و تعايش عرقي بين الأوزبك و الكيرخيز إلا أنّ الفترة التي حكم فيها باكييف كانت مسرحا لظهور سياسات إقصائية متطرّفة مسّت القيادات السياسية الأوزبكية و نخبها الاقتصادية، و لهذا فقد كانت المجموعة العرقية الأوزبكية هي الأكثر تضررا من الانحرافات التي وقع فيها النظام الجديد، و لهذا فقد كانت تتقدّم صفوف المعارضة الناشئة و المطالبة بتغيير السياسات الجديدة ، و بالخصوص الفساد المستشري في البلد و احتكار الثروة من قبل عائلة الرئيس و حاشيته المقربة. و من بين الأمثلة الفاضحة تملك أكبر منجم للذهب في كيرخيزستان لابن الرئيس بالإضافة لأهم وسائل الإعلام الخاصة.<sup>2</sup>

و بعد خمس سنوات فقط من سقوط نظام آكاييف، ثارت الجماهير مرة أخرى لإسقاط نظام باكييف الذي ارتكب الأخطاء نفسها التي ارتكبتها سلفه يضاف إليها تهديده للتعايش و التوازن الهش بين مكونات الشعب الرئيسية أي الكيرخيزن الأوزبك و الروس. و في أبريل من سنة 2010 سقط النظام و فر باكييف لكازاخستان و من تمّ الى بيلوروسيا.<sup>3</sup>

خلف سقوط النظام فراغا حكوميا خطيرا، لكنّ المعارضة كانت تعقد كل آمالها على استئناف المسار الانتخابي للعودة للاستقرار ، و هنا أدركت جماعة الرئيس أو عصبته أن الوقت مناسب لإطالة أمد الأزمة السياسية بخلق مناخ سياسي متوتر، فكانت الوسيلة هي توظيف النعرات الجهوية و العرقية بغية تحويل البلد إلى مسرح للفوضى و الخراب بهدف اضعاف النظام الجديد و منعه من إجراء استفتاءات جديدة تمنحها شرعية سياسية و تقضي على كل أمل لعودة الرئيس باكييف مجدداً.<sup>4</sup>

و بالفعل فقد كان الموالون للرئيس السابق- و بالخصوص ابنه مراد باكييف - هم المحرّضون الأساسيون لأعمال العنف العرقي التي شهدتها مدينة أوش مستندين إلى اتهامات موجهة لزعيم الأقلية الأوزبكية في مدينة أوش قادير جان باتيروف Kadyrjan Batyrov بأنه المسؤول عن حرق منزل الرئيس باكييف في هذه المنطقة التي تعتبر منطقة نفوذ و ولاء (معقلا fief ) كبيرين له، مستغلين الظروف الاقتصادية الصعبة التي تعيشها البلد و تحميل الأوزبك المسؤولية.<sup>5</sup>

<sup>1</sup>Scott Radnitz, "The Unraveling of Southern Kyrgyzstan", *Central Asia-Caucasus Analyst*, vol.12,N.12, 23 June 2010, p.4.

<sup>2</sup>*Ibid.*, p.5.

<sup>3</sup>Bayram Balci, *op.cit.*, p.478.

<sup>4</sup>Boris Petric, "Pogroms contre les Ouzbeks à Osh. Des dangers de la manipulation politique du nationalisme ethnique", *Hérodote*, vol.3, n.138, 3eme trimestre 2010, p.62.

<sup>5</sup>Scott Radnitz, *op.cit.*, p.3.

و بهذا تحوّل الانتماء العرقي كمورد أو كمصد توظيفه النخب السياسية و الاقتصادية من خلال استغلال أعضاء مجموعتها العرقية في صراعها على الثروة و المناصب السياسية ، وهنا لا تتفصل السياسة عن الاقتصاد بتاتا، بل إنّ رجال الأعمال يعلمون جيدا أن أسهل طريقة لكسب مناطق نفوذ هي توطيد العلاقة مع أبناء مجموعتهم العرقية ، فتنشكّل بذلك علاقات زبائنية قوّة تستند إليها النخب الاقتصادية للوصول إلى الحكم و بالتالي المحافظة على امتيازاتهم و احتكارهم للثروة ، و هو الذي يفسّر سهولة و سرعة عملية التعبئة التي قامت بها جماعة الرئيس باكييف لمجموعتها العرقية بحيث أصبح الصراع يبدو صراع هويّة و انتماء أكثر من كونه صراعا على المناصب و الثروة.

## استنتاجات الفصل الرابع

هذا الفصل يهدف أساسا إلى تقييم تأثيرات السياسة العرقية على جمهوريات وسط آسيا المستقلة و اختبار قدرة النخب الحاكمة الجديدة على تجاوزها، لنصل إلى الاستنتاجات الآتية:

- استندت النخب الحاكمة الجديدة على القومية العرقية و هو ما يعني استمرارا للمعايير السوفييتية السابقة القائمة على عرقنة الكيانات السياسية.
- أدّى تبني القومية العرقية إلى إضعاف كل محاولات استعادة البعد القومي الجامع (القومية التركية الجامعة) تماما كما فعلت السياسات الستالينية.
- أدّى تبني القومية العرقية إلى تهميش و إقصاء الأقليات العرقية و عدم الاعتراف بحقوقها بالرغم من التنوع العرقي الذي تعرفه هذه الجمهوريات.
- وظّفت السلطات الجديدة السياسات و الأساليب نفسها التي وظفتها السلطات السوفييتية و تجلّى ذلك في تشكيل هوية جديدة من خلال إعادة كتابة التاريخ بما يتلاءم مع الطابع الجديد للدولة و تمثل ذلك في تعزيز الدور التاريخي للعرق السائد و اعتباره المؤسس الأوحد للأمة.
- كما استعانت السلطات الجديدة بالطرق نفسها التي اعتمدتها السياسة اللغوية السوفييتية بحيث تمّ تعزيز التمايز و الاختلاف بين مختلف اللغات الجمهورية ذات الأصول التركية، كما تمّ تقليص المؤثر اللغوي الروسي تحقيقا للسيادة و تكريسا للاستقلال.
- ساهمت السياسة السوفييتية في تشكيل العصب الجهوية المتنافسة على المناصب و الثروة إلى إنكفاء الحرب الأهلية في طاجكستان، فبغياب سلطة المركز و دور الحكم الذي لعبته الإدارة السوفييتية أصبح الطرف مهياً لاندلاع هذه الحرب.
- ساهمت المعايير السوفييتية في تقسيم الجمهوريات في تكريس الانكشاف الأمني لهذه الجمهوريات تمثل أساسا في الصراعات المرتبطة بالمسألة الحدودية و ما لحقها من تبعثر للعرقيات بين أطراف الحدود و إنشاء الأقاليم الحبيسة و المكتنفة ، و هو ما جعل العلاقات بين الأعراق تأخذ طابعا تنازعا تجلّى في المذابح العرقية المتكررة في منطقة فرغانة بين الكيرخيز و الأوزبك.
- كما ساهمت المعايير السوفييتية في تقسيم المنطقة إلى تقسيم الثروات بطريقة غير عادلة و معيقة للتنمية، في الوقت الذي أدّى تكريس القومية العرقية إلى غياب تصوّر تعاوني اندماجي يجمع الجمهوريات المستقلة و يقلّص من حجم الصراعات العرقية.

## الفصل الخامس: المعضلة العرقية في كازاخستان نموذجا.

لقد شكّل ظهور أمم و أقاليم جديدة على إثر تفكّك الاتحاد السوفييتي ، فرصة حقيقية لإحياء النقاشات التقليدية بين مختلف التيارات التي تدرس المسألة العرقية و ارتباطها بالتوظيف السياسي.

و تمنحنا التجربة السياسية لجمهورية كازاخستان المستقلة، أحسن مثال ، لضرورة التكيف مع تعقيدات الوضع الجديد، فكازاخستان وجدت نفسها بين عشية و ضحاها دولة مستقلة ذات سيادة ، لكنها في نفس الوقت متعدّدة العرقيات و الديانات ، و بميراث سياسي و اقتصادي و ثقافي هو الأثقل بين جميع الجمهوريات المستقلة ، و هو ما يجعل مسار بناء الأمة فيها معقّدا للغاية ، فبين تطلعات الدولة في إبراز معالم استقلالها و سيادتها و بين تحسّسها و استشعارها بهشاشة الوضع العرقي لديها و تشابكه مع المؤثرات الخارجية، تندرج خصوصية تسيير المسألة العرقية في كازاخستان.

و هو ما سندرسه من خلال مستويات ثلاثة ، حيث يتطلّب المستوى الأول فهم طبيعة المرحلة و تعقيداتها و يتناول المستوى الثاني أهداف السياسة و منطقها المعتمد بينما يتناول المستوى الثالث الآليات و الاستراتيجيات المعتمدة . مع الأخذ بعين الاعتبار المحاذير و التبعات المترتبة عن هذه السياسات.

### المبحث الأول: التنوع العرقي في كازاخستان ( أسبابه و تبعاته )

عندما ننظر إلى الخارطة العرقية لكازاخستان سندرك تأثير السياسة العرقية الروسية فيها، فهذه الدولة تعترف بوجود أكثر من 100 مجموعة عرقية على أراضيها اليوم، و تنتمي لأجناس مختلفة لا تجمع معظمها أي قرابة لغوية أو دينية أو لغوية ، هي بالضرورة مخبر حي لتأثير السياسة على البيئة و السكّان بطريقة تبدو للوهلة الأولى أنها لم تكن سياسة عادية بل تكريسا لهندسة عرقية حقيقية.

لم تكن المنطقة التي تسمى اليوم جمهورية كازاخستان قبل ثلاثة قرون تمثّل سوى أقاليم شاسعة من السهوب المترامية الأطراف تسكنها شعوب تركية استطاعت التأقلم مع بيئتها الصعبة ، و بما أنّ الإنسان ابن بيئته -يتأثر بها و يؤثر فيها- فقد اعتمد الكازاخ على النشاط الاقتصادي الوحيد الذي يتلاءم مع البيئة السهبية ، و هو الرعي ، و كانت حياتهم بسبب ذلك قائمة على البداوة و الترحال بحثا عن

مواطن الكلاً و الماء ، و هو ما جعل حياة الكازاخ الاجتماعية تتميز بقدر كبير من التضامن و التآلف المتمحور حول القبيلة.<sup>1</sup>

و على العموم فإنّ الكازاخ ينتمون إلى إحدى الكونفيدراليات القبلية ( الصغرى ، الوسطى و الكبرى) و تختلف تسمية هذه الكيانات القبلية باختلاف من يطلقها، فشعوب المنطقة تطلق عليها اسم " الجوزات التي هي جمع جوزة (Jouz) بينما يسمّيها الأوروبيون " Horde" و هي كلمة لها مدلول سلبي إذ تعني فيما تعنيه " الحشد الفوضوي أو العصابة" ، و هذا المعنى مقترن بالصورة النمطية التي تبلورت في أوروبا منذ أن غزتها قبائل الهون التوتونيين (les Huns teutoniques) بقيادة آتिला في القرن الخامس الميلادي ، و تدعمت هذه الصورة بعد الغزو المغولي بقيادة جنكيز خان زعيم " الجوزة الذهبية" أو " la Horde d'or" في اللغة الفرنسية. و هي شعوب لا تختلف عن جميع الشعوب البدوية كما وصفها ابن خلدون في مقدّمته بأنّها شعوب تتسم بالشجاعة و الإقدام و تشتهر بنزوعها للغزو و التوسّع إذا اقتضت الظروف ( الجفاف و القحط).<sup>2</sup>

و بما أن التنوع العرقي أمر طارئ على المنطقة و وليد تجربة سياسية فريدة من نوعها ( الاستعمار الروسي و السياسات السوفييتية) فمن الطبيعي أن تنتج عنه ردود و استجابات طبيعية.

### المطلب الأول: البحث في جذور المشكلة.

بدأت الطموحات الروسية في التوسع داخل الأقاليم الكازاخية مع مطلع القرن الثامن عشر مستعينة بالجيوش القوزاقية ( Cosaques) التي أقامت حصونا قوية في أومسك (Omsk) سنة 1716 و جليزنسك (Jelesinsk) سنة 1717 و سيميبلاتنسك (Semiplatinsk) سنة 1718 مثلت قواعد جيّدة لتقدّم الجيوش القيصرية ، بنفس الطريقة التي احتلت بها الجيوش الروسية سيبيريا، أي أنها كانت دائما تستفيد من المجهود الذي تبدله العناصر القوزاقية.<sup>3</sup>

و بالنظر إلى الفارق الكبير في العدّة و العتاد، فإنّه لم يكن بمقدور الجوزات الثلاثة مقاومة المد الروسي بل إنّ خان (سلطان) الجوزة الصغرى أبو الخير و التي كانت تستوطن شمال-غرب جمهورية كازاخستان الحالية طلب النجدة من الجيوش الروسية سنة 1730 لمواجهة الاعتداءات المتكررة التي كان الإقليم يتعرض لها من قبل قبائل الكالموك (Kalmouks) الصينية و قام بمبايعة الإمبراطورة Anna Ivanova سنة 1734 ، لكنّ هذا التوسع الروسي أخذ بعدها طابعا استعماريا ، فبعد بناء حصن أومسك Orsk سنة 1735 و أورنبورغ Orenbourg سنة 1740 و الذي كان الغرض منهما محاصرة القبائل

<sup>1</sup>Martha Brill Olcott, *The Kasakhs*, California: Hoover Institution Press, Seconde Edition, 1995, p.15.

<sup>2</sup>عبد الرحمن بن خلدون، *المقدمة*، مرجع سبق ذكره نص.242.

<sup>3</sup>Martha Brill Olcott, *The Kasakhs*, op.cit., p.19.

البشكيرية (les Bachkirs) وجدت الجيوش الروسية المجال مفتوحا للتقدم نحو عمق السهوب الكازاخية حيث تتواجد الجوزة الوسطى (la Horde Moyenne) و حيث تمّ احتلال المناطق التي تتواجد فيها مدن سيميبلاتينسك (Semiplatinsk) و أكمولنسك (Akmolinsk) و إقليم سيميرتشى (Semiretchie) الذي استسلم هو كذلك للجيوش الروسية سنة 1740. و في هذا العقد دعم الروس تواجدهم من خلال السيطرة على جميع الطرق التي تربط السهوب بسيبيريا و منطقة الأورال، و هو ما سمح بتعزيز الوجود الروسي في المنطقة ، و ابتداء من سنة 1756 مُنع الكازاخ من استغلال المراعي الواقعة ما بين الأورال و الفولجا (Volga). و شكلت سنة 1780 محطة هامة في تاريخ التوسع الروسي من خلال الحملة الروسية لتهدة الأوضاع في السهوب في فترة الإمبراطورة كاترين الثانية.<sup>1</sup>

شهدت بداية القرن التاسع عشر تكثيفا للتواجد الروسي في المنطقة، و في 1824 استصدر قانون جديد يمنح بعض الحقوق لأفراد الجوزة الوسطى لحمايتهم من تعسف الإدارة المحلية لكنّه في الوقت نفسه اعتبرهم مواطنين من الدرجة الثانية، مع احترام تقاليدهم و معتقداتهم الدينية و المحافظة على امتيازات نبلائهم. و في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بدأت أطماع السلطات الروسية تتجه نحو الأقاليم المأهولة من قبل الجوزة الكبرى (la Grande Horde) و التي ظلّت خاضعة للنفوذ الصيني لمدة طويلة. و في سنة 1891 تم وضع كل الأقاليم الكازاخية (الجوزات الثلاثة مجتمعة) في كيان إداري واحد و هو المحافظة العامة للسهوب (gouvernement générale des Steppes).<sup>2</sup>

عرفت أراضي الكازاخ موجات متلاحقة من توطين الروس، ابتداءً من المزارعين الذين قدموا إلى المنطقة هربا من قبضة السلطات المركزية مستغلين تقدم المقاتلين القوزاق نحو الشرق و الجنوب طوال القرن الثامن عشر إلى غاية منتصف القرن التاسع عشر، و كان التواجد الروسي مرتكزا على القوزاق. لكن النصف الثاني من القرن التاسع عشر شهد قدوم تجمعات بشرية سلافية كبيرة لا تقتصر على الروس (فلاحين أوكرانيون و بيلوروسيون و مهجرون بولونيون) و استقرارها في المدن المتاخمة لبلاد الكازاخ (الألتاي شرقا و الأورال غربا) و ربطها بشبكة من الحصون يحرسها القوزاق.<sup>3</sup>

شهد الثلث الأخير من القرن التاسع عشر تكثيف الوجود السلافي في المنطقة، بحيث أصبح السلاف سنة 1870 يمثلون أكثر من 8% من مجمل سكان السهوب الكازاخية و تعدت نسبتهم ربع السكّان في بعض المدن (أورالسك و أكمولنسك). و مما ساعد على زيادة الهجرة السلافية إلغاء الرق سنة 1861 و إصدار القوانين المشجعة للهجرة سنة 1881 و 1889 بحيث قدرت الإحصاءات المعدة سنة 1897 عدد

<sup>1</sup>Marlène Laruelle, Sébastien Peyrouse, *Les Russes du Kazakhstan: Identités nationales et nouveaux Etats dans l'espace post-soviétique*, Paris: Maisonneuve et Larose, 2006, p.22.

<sup>2</sup>Catherine Poujol, "Introduction: Penser la steppe", *Cahier d'Asie centrale*, n.23, 2014, p.34.

<sup>3</sup>Marlène Laruelle, "Aperçu de la colonisation russe des steppes kazakhs (XVIIIe siècle-debut du XXe siècle)", *Cahier de l'Asie centrale*, n.23, p.164.

السكان الروس المستوطنين في الضفة اليمنى لبحيرة ارتش (Irtych) بأكثر من 544.000 أي 12.8% من إجمالي عدد السكان.

ساهمت سياسة الإصلاح الزراعي التي أعدها الوزير الأول (Piotr Stolypine) سنة 1905 في تشجيع و دعم هجرة الفلاحين الروس و الأوكران و البيلوروس و حتى الألمان إلى المنطقة، بحيث بلغت أعدادهم ما بين 1897 و 1916 أكثر من مليون مزارع، و شكل الروس لوحدهم ما مقداره 57% من الكل. و تزامن ذلك مع إثبات القيصريّة لسيطرتها عسكريا و إداريا و تكثيف طرق المواصلات و السكة الحديدية تمهيدا لبداية التصنيع و استغلال المناجم المتواجدة في شمال و وسط بلاد الكازاخ.<sup>1</sup>

و أمّا في الفترة السوفييتية فلقد اتخذت سياسة التهجير و التوطين منحى كارثيا في كثير من محطاتها، فمنطقة السهوب شهدت أعنف أطوار الحرب الأهلية الروسية بين الجيش الأحمر و الأبيض و أدى انقطاع خطوط النقل و المواصلات إلى تفشي المجاعة في جنوب البلاد ابتداء من سنة 1917 و انتشارها لتشمل البلاد كلها سنتي 1920 و 1921. و لتعرف المنطقة كارثة المجاعة مجددا عام 1929 و في الفترة الممتدة من 1931 الى 1933 نتيجة سياسة التحضير (sédentarisation) و تثبيت البدو الرحل في تعاونيات زراعية (collectivisation) بطريقة قسرية و عنيفة و تحطيم قاعدتهم الإنتاجية المتمثلة في تربية المواشي.

و بينت المؤشرات الديمغرافية كارثية المرحلة بالنسبة للكازاخ حيث انخفض تعداد الكازاخ بمعدل الثلث في فترة لا تتجاوز ثلاث عشرة سنة إذ أصبح عددهم 2.3 مليون نسمة في إحصاء سنة 1939 بعدما كان 3.7 مليون نسمة في إحصاء سنة 1926 ، دون احتساب مئات الآلاف الذين ماتوا بسبب الحرب الأهلية. و في الوقت الذي فقدت فيه المنطقة مئات الآلاف من سكانها الأصليين (الكازاخ) قام ستالين بحملة تهجير قسري (déportation) مست مئات الآلاف من صغار المزارعين الروس و الأوكرانيين (الكولاك koulaks) بحيث عرفت سنة 1930 -1931 وحدها تهجير 50.000 أسرة روسية إلى سهوب كازاخستان.

كل هذه العوامل ساهمت في تقليص نسبة السكان الأصليين من مجموع السكان بينما ساهمت في ارتفاع نسبة الروس ، فبين سنتي 1926 و 1939 انخفضت نسبة السكان الكازاخ من 58% الى 37% بينما ارتفعت في الفترة نفسها نسبة الروس من 20% الى 40%.<sup>2</sup>

<sup>1</sup>Ibid., p.180.

<sup>2</sup>Isabelle Ohayon, "La famine kazakhe: à l'origine de la sédentarisation", Online Encyclopedia of Mass Violence, www.massviolence.org/la-famine-kazakh-a-lorigine-de.

أدت الحرب العالمية الثانية إلى استمرار مسار ترويس السهوب الكازاخية، فالخوف من تدمير الجيوش النازية للقاعدة الصناعية السوفييتية، جعل ستالين يقوم بتسريع عملية تهجير المصانع إلى الجهة الشرقية من الاتحاد لتستقبل هذه المنطقة مئات من المصانع الجديدة ، صاحبها عشرات الآلاف من المهندسين و التقنيين و العمال ، في نفس الوقت الذي هجرت فيه العديد من المجموعات العرقية المغضوب عليها أو المشكوك في أمرها إلى سيبيريا و كازاخستان من بينها ألمان الفولجا و تاتار القرم و شعوب القوقاز ( الشيشان على وجه الخصوص ) و الكوريون و الإغريق <sup>1</sup>.

و في سنة 1954 أطلق خروتشيف مشروعاً عملاقاً لاستصلاح الأراضي العذراء في كازاخستان تعدت مساحته 38 مليون هكتار أدى إلى قدوم مليوني شخص و نزوح الكثير من الكازاخ من مواطنهم الأصلية ، فكان من نتائجه تشييد مستثمرات تعاونية عملاقة سيطر عليها الروس القادمون من روسيا الوسطى و سيبيريا الغربية <sup>2</sup>.

زادت الكثافة السكانية لكازاخستان ما بين 1939 و 1959 بصفة ملحوظة، لكنّ هذه الزيادة مسّت المجموعة السلافية، بحيث كان نمو عدد السكان ذوي الأصول الروسية ضعفين و نصف مقارنة بنمو السكان الأصليين، بحيث أصبحت نسبتهم لا تتجاوز 30% من التعداد الكلي، بل إنّ بعض المناطق في شمال كازاخستان تجاوزت نسبة الروس فيها 80 % <sup>3</sup>.

لقد عرفت الستينيات محاولة من قبل السلطات المركزية لترضية الجمهوريات الجمهورية من خلال منح المناصب السياسية لأفراد ينتمون إلى السكّان الأصليين ( autochtonisation أو Korenizacia باللغة الروسية) صاحبها انخفاض لمستوى الهجرة من الشمال إلى الجنوب بسبب توقف المشاريع التنموية الكبرى ممّا أدّى إلى انخفاض في نسبة النمو الديمغرافي و هو ما نلاحظه من خلال المؤشرات الآتية: ارتفعت نسبة الزيادة السكانية ب 40 % في الفترة الممتدة من 1959 الى 1970 و انخفضت في الفترة الممتدة من 1970 الى 1979 لتصل إلى 12.9% و وصلت الى 12.1% في الفترة الممتدة من 1979 الى 1989 <sup>4</sup>.

في العقود الثلاثة الأخيرة من التجربة السوفييتية حدث تحول ديمقراطي أساسي تمثّل في انخفاض معدل الوفيات و استقرار في معدل الولادات، و هو القاسم المشترك بين جميع جمهوريات آسيا الوسطى مع تباطؤ لمعدلات النمو الخاصة بالمجموعة العرقية الروسية فيها، فبينما زاد عدد الروس في كازاخستان

<sup>1</sup>Isabelle Ohayon, "La déportation des peuples vers l'Asie centrale", in Pietro Causarano et Autres (dir), *Le XX<sup>e</sup> siècle des guerres*, Paris: Ed de l'Atelier, 2004, p.174.

<sup>2</sup>Marlène Laruelle et Sébastien Peyrouse, *Les Russes du Kazakhstan, op.cit.*, p.28.

<sup>3</sup> *Ibid.*, p.30.

<sup>4</sup>Sébastien Peyrouse, "Les flux migratoire des Russes entre Asie centrale et Russie", *Espace Population Sociétés*, n.1,2007, p.52.

بمليون نسمة في عقد الستينيات، زاد العدد فقط بنحو 400.000 في عقد السبعينيات، و أصبح الديمغرافيون يتحدثون عن حدوث قطيعة ديمغرافية في عقد الثمانينيات، و هو ما بينته أرقام الإحصاء السوفييتي الأخير (1989) و الذي أظهر ارتفاع نسبة الكازاخ لتصل الى 46% و انخفاض نسبة الروس التي وصلت إلى 34.7% بعد عقود طويلة من الارتفاع المطرد ، و هو المنحى الذي سيتواصل بشكل أسرع في العقود التي تلت انهيار الاتحاد السوفييتي و استقلال كازاخستان.<sup>1</sup>

### المطلب الثاني: القومية الكازاخية كرد فعل على سياسة الاستيطان.

أحدثت السياسات الروسية المتلاحقة تحولات جذرية في البنى الاقتصادية و الاجتماعية و حتى الثقافية في كل جمهوريات آسيا الوسطى، و لا يمكننا إلا أن نقر بأن كازاخستان هي الدولة التي عرفت التحول الأكبر، بالرغم من أنها كانت الأكثر انغماسا في التقاليد القبلية الرعوية، و عليه فوقع الصدمة الاستعمارية (le choc colonial) كان عليها أكبر بكثير من كل المناطق الأخرى المشكلة للقيصرية الروسية و الفضاء السوفييتي فيما بعد.

و الأرقام التي عرضناها في المطلب السابق تدل على حجم الكارثة، من مجاعات متلاحقة سواء كانت متعمدة للقضاء على النمط البدوي و إجبار الكازاخ على الاستقرار ( sédentarisation et dékoulakisation) أو كانت نتيجة للتصادم المحتوم بين البلاشفة و القوى المحافظة ( الحرب الأهلية) لكن الأمر الذي لا توضحه المؤشرات الديمغرافية هو حجم المسخ الثقافي الذي تعرض له الكازاخ طوال قرن و نصف من التجارب التعسفية.

و أمام هذه الهجمة الروسية كان لا بد و أن تظهر ردود فعل مجابهة لصدّها أو التخفيف من آثارها و بالخصوص في تلك المرحلة التي شهدت بروز الحركات القومية و الدينية الإحيائية و التجديدية في الشرق الأوسط و انتشارها في مناطق أخرى من العالم الإسلامي على غرار تركستان. و كانت الحركة الجديدة هي مترزمة الحركة الإصلاحية في الإمبراطورية الروسية بقيادة الزعيم التنري إسماعيل غازبرينسكي، و هي حركة أرادت أن تستفيد من الوضع الجديد و انتشار الاستعمار الروسي في الأقاليم التركستانية ( البلاد الناطقة باللغة التركية) لصياغة إستراتيجية قومية تسعى للشم جميع الشعوب التركية ، معتمدة على العامل القومي بدلا عن العامل الديني، و مركزة على إصلاح التعليم و عصرنته و إحياء اللغة القومية التركية.

<sup>1</sup>Ibid., p.55.

عملت السلطات القيصريّة، هي كذلك، على إنشاء شبكة من المدارس الحديثة لنشر اللغة و الثقافة الروسية لتعويض التعليم التقليدي ( الديني)، و كانت تنتظر منها إبعاد الكازاخ عن انتمائهم الديني و بذلك تصبح الأمور ممهّدة للسياسة التوسعية الروسية، لأنّ الإدارة الروسية كانت تخشى من سلطة رجال الدين و الطرق الصوفية و قدرتهم على تعبئة الشعب، خاصة و أنّ هذه الفترة قد تزامنت مع خروج روسيا القيصريّة من حرب عنيفة في القوقاز الشمالي ضد الشيشان و الداغستانيين بقيادة شيوخ الطرق الصوفية كالشيخ شامل الداغستاني، فظنّ الروس أنّ حداثة عهد الكازاخ و الكيرخيز بالإسلام ستمكّنهم من إدماجهم في الإمبراطورية الروسية و إحلال الثقافة الروسية بدلا عن الثقافة الإسلامية، بل إنّ بعض مخططي السياسة الاستعمارية كانوا يعتقدون بإمكانية إحلال الأرثوذكسية مكان الإسلام.<sup>1</sup>

و بالتالي فقد كانت الأهداف المتوخاة من علمنة التعليم عند الروس، تتلخّص في تحقيق المصالح الاستعمارية، لكنّها تفاجأت بعد عقد أو عقدين من الزمن بأن هذا التعليم كان نواة لبروز نخب جديدة واعية بحقيقة الاستعمار و بطبيعته الاستغلالية، فلقد كانت طلائع هذه النخب المثقفة في كازاخستان يتقاسمها شعور بالانبهار من تفوق الحضارة الروسية و شعور بالغضب و العداء للاستعمار الروسي، وهو شعور طبيعي و حتمي يجمع كل النخب المثقفة في البلاد المستعمرة، و كان التعليم وسيلة هذه الشعوب لمناهضة المحتل، و بالفعل فلقد شهد الثلث الأخير من القرن التاسع عشر ظهور عدد من المثقفين الكازاخ على غرار الكاتب و عالم الأجناس شوقان والي خانوف (1835-1865) ( Tchokan Valikhanov) و رجل القانون Ibrai Altynsaryn (1841-1889) و الشاعر Abai Kunanbaev (1845-1904) حاولوا وضع اللبنة الأولى للغة الكازاخية الجديدة.<sup>2</sup>

و إن لم يؤسس المثقفون الأوائل منظمات سياسية قومية، إلّا أنّهم زرعوا من خلال انتقاداتهم للظلم و القهر الممارس على شعبهم بذور الحراك القومي مستقبلا، و هو ما تم بفعل ازدياد عدد المتعلمين في المدارس الحديثة، كانوا أكثر نزوعا للعمل السياسي بسبب انتقال التوسع الروسي إلى مرحلة الاستيطان الموسع و ما تبعه من تحطيم لنمط الإنتاج الرعوي و تكسير المؤسسات القبلية، فتحوّل الصراع بين المزارعين الروس و الرعاة الكازاخ إلى صراع عرقي حقيقي.<sup>3</sup>

انقسمت النخبة الكازاخية المناهضة للاستعمار الروسي إلى قسمين ، الأول: يتكون من مجموعة من الكتاب و الشعراء المنضوين في جمعية " زمن الفتن أو الاضطرابات Zar Zaman " منهم مراد أولي (Murat Uli 1843-1906) و أبو بكر قارديري (Abubakir Kerderi 1858-1903). و

<sup>1</sup>Sébastien Peyrouse, "Existe-t-il un ancrage spatiale des minorités chrétiennes en Asie centrale ? le poids du passé russo-soviétique", *Revue des mondes musulmans et de la méditerranée*, N.107-110, Sep. 2005, p.462.

<sup>2</sup>Panpi Etcheverry, "Le nationalisme et les nationalistes Kazakhs avant le Kazakhstan", [www.novastan.org/articles/le-nationalisme-et-les-nationalistes-kazakhs-avant-le-kazakhstan](http://www.novastan.org/articles/le-nationalisme-et-les-nationalistes-kazakhs-avant-le-kazakhstan). (consulté le 15/8/2014)

<sup>3</sup>Martha Brill Olcott, *The Kazakhs*, op.cit., p.101.

ما يميز أفراد هذه الجمعية هي تأكيدها على المرجعية الدينية الإسلامية ( بمقابل الأرثوذكسية الروسية) و اعتزازها بحياة البداوة ( بمقابل حياة الاستقرار عند المستوطنين الروس) و كانوا رافضين لكل أشكال النفوذ الروسي في السهوب الكازاخية و نادوا باحترام التقاليد الإسلامية المحلية أو ما يسمّيه خبراء الشؤون السوفييتية الإسلام الشعبي (l'Islam populaire). و هذا الفريق كان أقرب إلى فئات الشعب البسيطة ذات الثقافة الشفوية أما الفريق الثاني: فضّم العناصر المنادية بالعصرية و الاستفادة من الثقافة الأوروبية و توظيفها للحفاظ على مصالح الشعب الكازاخي، و كما قاوم أنصار هذا التوجه الاستعمار فإنّهم نادوا بالقطيعة مع التيارات المحافظة، فبالنسبة لهم لم يكن من الممكن مقاومة الاستعمار الروسي دون القضاء على القوى المعيقة للتقدّم و التي هي سبب العطالة و الخمول الذي يعاني منه مجتمعهم. و كان من بين ممثلي هذا الفريق البارزين علي خان بوكايفانوف (1869-1932 A.Kh.Boukeykhanov) و أحمد باي تورسون (1873-1937 A.B.Tursun) و مير يعقوب دولتوف (1885-1937 M.Y.Dulatov).<sup>1</sup>

منحت الثورة الروسية سنة 1905 لهذه التيارات هامشا كبيرا للحركة مقارنة مع الفترة السابقة التي كان التسلّط سمتها السياسية البارزة ، و عرفت المقاومة الثقافية للاستعمار الروسي ديناميكية كبيرة، استغلها التيار الحداثي في توسيع دائرة نشاطه مرتكزا على محاور أساسية هي: ترقية التعليم الخاص بالكازاخ ، إعادة تنظيم المجتمع القبلي الكازاخي و تحريره من تسلّط الإدارة الاستعمارية و تقليص نفوذ الطبقة الإرسنقراطية الكازاخية، و أضاف بعض أعضاء هذا التيار محورا خاصا بتحرير المرأة. و هنا يبدو تأثير حركة "الاتحاد و الترقى" التركية التي قامت بثورة ضد السلطان عبد الحميد الثاني سنة 1908، إذ لا تختلف مطالبها عن مطالب الحركة التركية.<sup>2</sup>

لكنّ نخبة التيار الحداثي و احتقاره للموروث الثقافي و التقاليد أفقده القدرة على التأثير على عموم الشعب، فكانت كل أشكال المقاومة الفعلية في تلك الفترة ذات صبغة دينية حافظ فيها رجال الدين على دورهم القيادي في تحريك الحراك الرافض للسياسات الروسية، و لهذا كان معظم النواب الكازاخ في مجلس الدوما الحديث النشأة ينتمون إلى حركة " اتفاق المسلمين " و هو ما دعا التيار الحداثي إلى تأسيس حركة سياسية تكون بديلة عن تيار الاتفاق تحت مسمى ( آلاش أوردأ Alach Orda) التي صادقت على برنامج سياسي " البرنامج الدستوري الديمقراطي"، شكّل نقطة الانطلاق الفعلية للقومية الكازاخية المنفصلة عن التيارات الجامعة سواء كانت إسلامية أو باننوركية.<sup>3</sup>

<sup>1</sup>Steven Sabol, *Russian Colonization and the Genesis of Kasak Consciousness*, New York: Palgrave Mcmillan, 2003, p.70.

<sup>2</sup>*Ibid.*, p.140.

<sup>3</sup>Martha Brill Olcott, *The Kasakhs*, *op.cit.*, p.118.

لقد عرفت الفترة الممتدة من 1908 إلى 1916 تكثيفا للنشاط السياسي و الثقافي و ظهور صحافة قومية، معبرة عن الخصوصيات الكازاخية و رافضة للروسنة التي يقودها الروس من جهة، و التتار بطريقة غير مباشرة من جهة أخرى، فالتتار يتميزون عن غيرهم من الشعوب التركية بدرجة عالية من التعليم الحديث، وقيادتهم لمختلف الحركات السياسية الإسلامية أو القومية الجامعة، لكنهم في نفس الوقت كانوا المطية التي استغلتها الإدارة الروسية لنشر اللغة و الثقافة الروسية. كما أنهم كانوا ينظرون إلى الثقافات المحلية لشعوب آسيا الوسطى بنظرة دونية. و هو ما يفسر سيطرتهم على جميع المناصب القيادية في مجلس الدوما.<sup>1</sup>

كانت النقاشات التي فتحتها النخب الجديدة العلمانية تدور حول سياسات التثبيت ( la sédentarisation) و تأثيراتها على السكان البدو و اللغة الكازاخية و ضرورة تمييزها عن اللغات التركية الأخرى، و عن دور الإسلام و الأعراف المحلية، و ضرورة تطوير مناهج التعليم، بينما كانت التيارات المحافظة و التي يقودها حزب الجوزات الثلاثة ( les trois Hordes Utch Juz)، و الذي أنشئ في منطقة سير داريا الواقعة في جنوب كازاخستان و القريبة من تأثيرات الحواضر الإسلامية المحافظة ( سمرقند وبخارى) تحاول بلورة سياسة مناهضة للروس من جهة و لأفكار حركة آلاش أوردا من جهة أخرى.<sup>2</sup>

لكن الفترة التي عرفت فيها المنطقة حراكا سياسيا و اجتماعيا شاملا و مؤسسا حقيقيا لفكرة الاستقلال القومي، كانت الفترة التي أعقبت ثورة فيفري 1917، و التي هيأت مناخا مثاليا للنضال كانت إحدى ثمراته توسيع العمل السياسي ليشمل فئات جديدة، و تأسيس عدد كبير من الأحزاب الجديدة التي تبنت خيارات استقلالية. فتحوّلت حركة آلاش أوردا إلى حزب حقيقي يتبنى مطالب راديكالية، كان أخطرها الدعوة إلى طرد جميع المعمرين الروس و استرجاع الأراضي و جعل اللغة الكازاخية، اللغة الوحيدة للتعليم، و فصل الكنيسة عن الدولة، في الوقت الذي رفضت فيه الحكومة الروسية المؤقتة بقيادة Kerenski فتح القضايا الشائكة حتى انعقاد المجلس التأسيسي، و هو ما لم يحدث، إذ تم إسقاط هذه الحكومة في أكتوبر 1917 و فتح بذلك عهد جديد.<sup>3</sup>

و في خضم ثورة أكتوبر أعلن مجموعة من القوميين الكازاخ تأسيس جمهورية آلاش أوردا (برئاسة علي خان بوكايكانوف) تشكلت في وقت حرج للغاية حيث تزامنت مع الظروف القاهرة التي ميزت الحرب الأهلية الروسية بين الجيش الأحمر و الأبيض حيث لم تستمر أكثر من عامين و نصف ( 13

<sup>1</sup>Ibid., p.105.

<sup>2</sup>Panpi Etcheverry, "Le nationalisme et les nationalistes Kazakhs avant le Kazakhstan", [www.novastan.org/articles/le-nationalisme-et-les-nationalistes-kazakhs-avant-le-kazakhstan](http://www.novastan.org/articles/le-nationalisme-et-les-nationalistes-kazakhs-avant-le-kazakhstan). (consulté le 19/8/2014)

<sup>3</sup>Martha Brill Olcott, *op.cit.*, p.136.

ديسمبر 1917/ 26 أوت 1920)، و هو ما دعا زعماءها إلى التسليم بالواقع الجديد أي صعود البلاشفة إلى السلطة، حيث اضطروا بعد ما عرفته البلاد من مجاعة و حروب إلى التفاوض مع القيادة الجديدة، توج بعقد اتفاق بين أحمد بايتورسون من جهة و لينين وستالين (بوصفه محافظ القوميات) في مارس 1919، و بعد سلسلة التطمينات التي أرسلها لينين شخصيا إلى شعوب المنطقة و وصفه روسيا القيصرية بـ "سجن الشعوب" و انتقاده للشوفينية الروسية، و إعلانه مبدأ الحق في تقرير المصير.<sup>1</sup>

حاولت القيادات الكازاخية، لعب الورقة البلشفية، فانظم زعماءها إلى المجالس الجديدة لتكون منابر سياسية جديدة لتحقيق أكبر قدر ممكن من المطالب، مستغلين طبيعة النظام الجديد العلمانية المنادية بالمساواة بين شعوب الإمبراطورية الروسية. لكن الذي لم يكن يعتقده الكازاخ بصفة عامة و قيادات آلاش أوردا بصفة خاصة، هو أن تكون الفترة الجديدة أسوأ و أعقد من الفترة السابقة، لأنها ستجعل من كازاخستان على وجه الخصوص أهم محطة في تطبيق السياسة الاستعمارية الجديدة. ففي الوقت الذي كان الكازاخ يحاولون استرجاع بعض حقوقهم التي حرّمهم منها القياصرة، أخضع ستالين بلاد الكازاخ الى سياسة استيطانية (توطين الروس و السلاف و الألمان..الخ) و تحويلها إلى منفى قسري للمعارضة و الشعوب المنبوذة، و استمر مسار القضاء على نمط الإنتاج الرعوي و فرض المعاش الحضري.<sup>2</sup>

و بدأت حملة القمع سنة 1923 ضد إدارات حركة آلاش أوردا، الذين استمروا في مطالبهم الخاصة باسترجاع الأراضي التي منحتها السلطات القيصرية للمستوطنين الروس و كانت أخطرها حملة التطهير (purges) التي أطلقها ستالين ضد النخبة السياسية في أواخر الثلاثينيات، بدعوى تصاعد النزعة القومية المتطرفة، بنفس الطريقة التي مورست على النخب في جمهوريات آسيا الوسطى الأخرى. و هي الحملة التي قضت على كل الأصوات المطالبة بالمساواة و التحرر، و بالخصوص زعماء حركة آلاش أوردا<sup>3</sup>

و ابتداء من الستينيات أدخل الزعماء الجدد ( خروتشيف و بريجنيف) جمهورية كازاخستان السوفييتية في مسار متوافق مع السياسة القديمة من حيث المبدأ و مختلف عنه من حيث الوسائل و هو الترويس المرن (russification souple) أي جعل الكازاخ يتقبلون هذا المسار كسبيل وحيد لتحقيق قدر من الرخاء الاقتصادي و الواجهة الاجتماعية، و في هذه الفترة أصبح الترويس معيارا للحدثة و التقدّم و أصبحت اللغة الروسية ضرورية للحصول على الموارد و المناصب ( المناصب السياسية، العلمية، الوظيف العمومي ، الاتصالات، الجيش..الخ) و حققت هذه السياسة نتائج مبهرة إلى درجة أصبح فيها

<sup>1</sup>Panpi Etcheverry, "Le nationalisme et les nationalistes Kazakhs avant le Kazakhstan", [www.novastan.org/articles/le-nationalisme-et-les-nationalistes-kazakhs-avant-le-kazakhstan](http://www.novastan.org/articles/le-nationalisme-et-les-nationalistes-kazakhs-avant-le-kazakhstan). (consulté le 22/8/2014)

<sup>2</sup>Isabelle Ohayon, *La Sédentarisation des Kazakhs dans l'URSS de Staline*, Paris: Maisonneuve et Larose, 2006, p.56.

<sup>3</sup>Olivier Roy, *La nouvelle Asie centrale*, op.cit., p.164.

القادة السوفييت ينظرون إلى كازاخستان (التي أصبح الروس يمثلون فيها العرق الأكبر عددا) كأفضل نموذج للترويس و لنجاح السياسة العرقية في صهر القوميات المختلفة في البوتقة السوفييتية، أو الروسية بتعبير أدق. و هو ما جعلهم يتفاجؤون بعد خروج المظاهرات سنة 1986 للمطالبة بعودة الأمين العام الجمهوري للحزب الشيوعي دين محمد كونايف و طرد الأمين العام الجديد الروسي Guennadi Kolbin.

و هذا يدل على جهل القادة السوفييت لبعض الحقائق أو تجاهلهم لها، و هو ما بينه أحمد وهبان في تناوله لنتائج السياسة السوفييتية في كازاخستان:

" لقد انطلقت أحداث 1986 في وقت كان الزعماء السوفييت فيه يعتبرون كازاخستان المكان المثالي لتطوير التصور الأممي السوفييتي ، لا سيما و أن الكازاخ كانوا إلى جانب الليتوانيين - أكثر الجماعات العرقية السوفييتية غير الروسية إتقانا للغة الأخ الأكبر (روسيا) غير أن ملاحظة الحياة الاجتماعية و السياسية في كازاخستان تؤكد أن إقبال الكازاخ على تعلم اللغة الروسية لم يكن وليد رغبة في التقارب مع الروس، و إنما كان نابعا من حكم الضرورة ، إذ أنهم كانوا يعيشون في دولة فرضت فيها ضخامة عدد الروس من ناحية، وسياسات الترويس التي انتهجتها موسكو إزاءها من ناحية أخرى أن تكون الروسية هي اللغة الوحيدة المستخدمة في الحياة العامة، و ذلك بالرغم من أن اللغة الكازاخية كانت -نظريا- تعتبر متساوية من حيث المعاملة مع اللغة الروسية<sup>1</sup>

و يذهب محمد عبد القادر أحمد إلى أبعد من ذلك، فقراءة تاريخهم حسب، تشير إلى أن الكازاخ قد ظلوا قابضين على هويتهم بشتى مقوماتها، مقاومين لأي إجراء من شأنه أن يهدد تلك الهوية، و لعل من أبرز حركات التمرد تلك الحركة الواسعة النطاق التي شهدتها كازاخستان عام 1938، إلا أن تدخل الفرقة الحادية و العشرين من الجيش الروسي قامت بقمعها بكل عنف، و في إطار مقاومة ما يتهدد هوية جمهوريتهم تظاهر الشباب الكازخي و انتفض - سنة 1979 - بعدانتشار إشاعات مفادها تحويل تسيلينوجراد إلى إقليم يأوي ألمان الفولجا الذين هجرهم ستالين من أرضهم إبان الحرب العالمية الثانية كإجراء وقائي، و لكن المقاومة لم تكن في معظم الوقت عنيفة و مباشرة بل كانت تتبلور في الفضاء الخاص أكثر مما هي عليه في الفضاء العام.

<sup>1</sup> أحمد وهبان، الصراعات العرقية واستقرار العالم المعاصر: دراسة في الأقليات و الجماعات و الحركات العرقية، الاسكندرية: أليكس للطباعة و النشر، 2007، ص.422.

### المطلب الثالث: الحراك القومي في مرحلة البريسترويكا.

يعتقد معظم الباحثين في الشؤون السوفييتية أن أحداث 1986 التي عرفت عاصمة جمهورية كازاخستان السوفييتية السابقة ألما أتا ، كانت صافرة البداية لعملية تفكيك الاتحاد السوفييتي لأن كازاخستان كانت تمثل مخبرا حيا لسياسة التعايش ( أو الصداقة بين الشعوب بحسب الأدبيات السوفييتية و المختصرة في المصطلح المشهور آنذاك Drujba ).<sup>1</sup>

و جاءت هذه الأحداث بعد مدة قصيرة من تولي ميخائيل غورباتشيف الأمانة العامة للحزب الشيوعي السوفييتي بعد عقدين من الانسداد السياسي و الركود الاقتصادي، الذي فسره البعض بتخوف الأمناء العامين السابقين من أن تؤدي الإصلاحات الفعلية إلى نتائج عكسية، بالرغم من أن هناك الكثير من المؤشرات التي كانت تدل على فقدان النظام لقدراته التنافسية و مواصلة مقارنته للولايات المتحدة، و هذا منذ منتصف الستينيات ، و هو ما سمّاه بريزنسكي بمشكلة " حيوية النظام السوفييتي" و عدم قدرته على التكيف مع المتغيرات الدولية الطارئة حيث يشرح المأزق الذي وصل إليه النظام السوفييتي بطريقة جيدة:

" بصفة عامة ، ليس من المتوقع أن تنجح أي محاولة للإبداع بوجود دوغمائية إيديولوجية ، حتى و لو استندت إلى نزعة قومية و مؤسسة عسكرية قوية ، بل إن أي محاولة من هذا القبيل ستكون نتائجها الأكثر توقعا هي بروز التناقضات الداخلية و الصراع بين السياسيين (idéologues) و التقوقراط . و هو ما يظهر جليا في مسألة المركزية الاقتصادية ، فالأقتصاديون مدركون لضرورة التخلص منها و لكن السياسيين يتخوفون من تبعاتها، و عليه فستكون النتيجة إعداد التسويات و تأجيل الحلول ، تماما كما تفعله حكومة بريجنيف ، أو تتحمل عواقب التغيرات السياسية المؤلمة و التوترات التي ستعمق الهوة الموجودة بين النظام و المجتمع . ففي الوقت الذي سيبدو فيه النظام غير قادر على حل مشاكله الداخلية ستعاظم الضغوط عليه لاجراء مراجعات جوهرية للعلاقة بين الايديولوجية و ما وصل اليه عالمنا اليوم من تقدّم و مراجعة لمؤسساته"<sup>2</sup> .

تولي كتب التاريخ الرسمية لجمهورية كازاخستان المستقلة أهمية قصوى لأحداث 1986 و تعتبرها محطة أساسية في تطور الحراك القومي الكازاخستاني و تحقيق الاستقلال، بالرغم من أن النخبة السياسية الحالية تنتمي للحقبة السوفييتية ، التي كانت مرتاحة لدرجة كبيرة بالتسوية الحاصلة مع السلطات المركزية، و لم تكن هذه النخب معنية من قريب أو من بعيد بالعمل السياسي المقاوم للسياسات السوفييتية، فأحداث ألما أتا نظمها طلبة الجامعة و العمال، بدليل أن الملاحظات لم تطل سوى هذه الفئة،

<sup>1</sup>Hélène Carrère d'Encauss, L'Empire d'Eurasie, *op.cit.*, p.408.

<sup>2</sup>Zbigniew Brzezinski, *La révolution technotronic*, (Trad : Jean Viennet), Paris: Calman-Lévy, 1971, pp.213-214.

إذ تمّ اعتقال أكثر من 8000 شخص كلهم كانوا طلبة أو عمالا، حملوا لأول مرة منذ عقود طويلة لافقات كتب عليها " كازاخستان للكازاخيين". و عليه فالبحث عن أسباب هذه الظاهرة ، بعد عام فقط من صعود غورباتشيف لسدة الحكم، يقودنا للاستفسار عن خصائص الحياة السياسية في كازاخستان في الفترة التي سبقت قدومه و سبب المعارضة الجديدة لقراراته.

تكلّمنا في الفصل الثالث عن طبيعة العلاقة التي تربط المركز بالنخب المحليّة في جمهوريات آسيا الوسطى، و وجدنا أن بريجنيف اعتمد على مبدأ ضمان الاستقرار حتى و لو كان لذلك تبعات خطيرة في المستقبل كما وضحه بريزنسكي، و كان القصد من اعتماده الكلّي على النخب المحليّة هو تحقيق هذا الاستقرار بعد سلسلة من عمليات التطهير التي عرفتھا المرحلة الستالينية، لكنّ هذه النخب استطاعت أن تحوّل هذه السياسة لصالحها ، فتحوّل الأمناء العامون في هذه المنطقة إلى مرزبانان حقيقية ( satrapes) كناية عن هامش السلطة الكبير الذي كان يتوفّر لحكّام الأقاليم في الإمبراطورية الفارسية.

و وفق هذا المنطق يمكننا فهم أحداث 1986، ففي كازاخستان احتفظ دين محمد كوناييف على منصبه كأمين عام للحزب الشيوعي الكازاخستاني لأكثر من ربع قرن ( إذ تمّ تنصيبه سنة 1959) إلى غاية تاريخ إقالته أو تعويضه بالروسي غينادي كولبين، و جاء تعويضه- بالذات - في السنة التي تفوقت المجموعة العرقية الكازاخية على المجموعة الروسية من حيث التعداد البشري، فلقد أصبح تعداد الكازاخ في بلدهم 6.5 مليون نسمة ، بينما أصبح تعداد الروس 6.2 مليون نسمة و هو مؤشر له دلالات قوية على المستوى النفسي و السياسي لأنّه إعلان رسمي لبداية عهد جديد و مسار مختلف، اعتبره الكازاخ نصرا مبينا على الظلم التاريخي الذي لحق بهم بفعل قرن و نصف من المجاعات و الحروب و التهجير القسري و فرض الثقافة و اللغة الروسية. الأمر الذي جعل خبير الدراسات السوفييتية Taras Kuzio يعتبر أحداث 1986 ليس فقط إيذانا بانتفاضة القوميات كما تصوّرت كارير دانكوس بل إعلانا عن وفاة أو فشل سياسة القومية السوفييتية كليا ( حيث استعمل عبارة تحمل دلالات قوية باللغة الانجليزية (Postmortem Nationality Policy)<sup>1</sup>

و لهذا فالطبقة المثقفة و الطلبة و ليس السياسيون المنضوون في الحزب الشيوعي هم من اعترضوا على إقالة دين محمد كوناييف، ليس لشخصه و لكن لانتماءه إلى مجموعتهم العرقية لأنّهم يعلمون تماما أنه بحكم وظيفة الأمين العام و التزامه الحزبي فلن يرتجى منه إنتصار أو دفاع عن مصالح العرق الكازاخي، بل إنّ العكس قد يكون هو الحاصل و هو المنتظر لطبيعة وظيفته. فالأمناء العامون في آسيا الوسطى عرفوا بولائهم للمركز و حرصهم على إخفاء كل ما يدل على تفضيلهم لأبناء عرقهم خوفا من

<sup>1</sup>Taras Kuzio, "Nationalist Riots in Kazakhstan", *Central Asian Survey*, Vol.7,N.4,1988,p.92.

ردود أفعال المركز و الاتهامات الجاهزة التي ستطالهم و هذا منذ حملات التطهير الأولى في المرحلة الستالينية.

كما أنّ أحداث 17 ديسمبر 1986 ماكانت لتكون بتلك الحدة لولا توافر عاملين أساسيين كما يرى تيد روبرت غور Ted Robert Gurr (الخبير في حركات التمرد و الحركات الاجتماعية ) و هما عاملي ارتفاع مستوى التطلّعات و بروز عراقيل تمنع تحقيقها، و هو ما يؤدي عادة الى الإحباط الذي لا يجد له متنفسا إلاّ في العنف و التمرد، فالحالة الكازاخية في تلك الفترة بالذات كانت نسخة طبق الأصل للمعادلة التي صاغها روبرت غور في كتابه الشهير " لماذا يتمرد البشر Why Men Rebel "، و الذي طور فيه مفهوما جديدا لظاهرة الحرمان النسبي/ relative deprivation يشرح الإحباط و الاستياء الذي يدفع الشعب للتصرف بعدوانية حيث يعرف غور الحرمان النسبي بأنه " التناقض بين توقعات الناس و تطلعاتهم فيما يخص المنافع و الأوضاع المعيشية التي يتطلعون إليها من جهة و قيمة قدراتهم من جهة أخرى - أي مدى القدرة التي يعتقدون أنّها تسمح لهم بالحصول على تلك المنافع و الأوضاع"<sup>1</sup>

كما بينت الدراسات حول التحولات التي طرأت على النظام السياسي السوفييتي منذ عام 1985 و بخاصة دراسات Thomas Remington أن التحرير النسبي للنظام السياسي الذي أطلقه جورباتشيف " مكّنت مجموعات منظمة جديدة من تشكيل و حشد دعم لها، و إيجاد قيادة، و قد انبثقت هذه المجموعات من مؤسسات اجتماعية مثل العائلة أو روابط الصداقة و المهن و الحرف، و من التضامن العرقي و الانتساب الديني و المؤسسات الثقافية التي أثبتت قدرتها على الصمود و التكيف المرن ضمن النظام الشيوعي"<sup>2</sup>

و في كازاخستان شكّل الانفتاح السياسي و انعكاسه على حرية الاتصال و التعبير وعيا جمعيا جديدا، حيث أصبح المجتمع مطالعا أكثر على حجم الكوارث التي خلفها التسيير السوفييتي على مجالات كثيرة و من بينها البيئة و المسألة السكانية التي تعتبر القاسم المشترك لجميع الناس، فلقد زاد وعيهم بخطر السياسات التنموية السوفييتية على مصير بحر آرال و قرب جفافه كما أدركوا حجم الكوارث الناتجة عن التجارب النووية و الكيماوية و البكتريولوجية في المناطق التي تسكنها عادة العرقية الكازاخية و ازدياد نسبة الإصابة بالسرطان في مناطقهم.

<sup>1</sup> تيد روبرت غور، لماذا يتمرد البشر، دبي: مركز الخليج للأبحاث، 2004، ص، 13.

<sup>2</sup> جابريل إيه. ألموند (الابن)، السياسة المقارنة في وقتنا الحاضر: نظرة عالمية، (تر: هشام عبد الله)، عمان: الدار الأهلية للنشر و التوزيع، 1998، ص.25.

هذه الأمور كلّها شكّلت مدركات مشتركة جديدة و نمت الشعور بالاختلاف و بالظلم و بالتالي صقلت انتماؤهم العرقي على أساس زيادة حجم الكراهية للعرق الروسي المسؤول حسبهم على جميع المآسي و الكوارث، و لم يعودوا في خضمّ هذه الحالة من الوعي يميّزون بين ما هو روسي و ما هو سوفيتي.

لكن ما منحهم بعضا من الأمل و ضاعف حجم تطلّعاتهم، هو تحرير الحياة السياسية من جهة و بداية تحوّل المنحنى السكاني لصالحهم، فهذين الأمرين استبشر بهما الكازاخ خيرا و اعتبروهما فاتحة لمرحلة جديدة يعاد فيها الاعتبار للفرد و الثقافة الكازاخية. غير أن تنصيب الروسي غينادي كولبين على رأس الأمانة العامة الجمهورية شكّل صدمة مفاجئة تحطّمت على إثرها جميع تطلّعاتهم.

و لم تكن سياسة جورباتشيف الاقتصادية تجاه الأقاليم الجنوبية مختلفة عن توجّهه السياسي الجديد، بل إنّ الإعلام الرسمي شنّ حملة شرسة ضد ما أطلق عليه بمافيا الجنوب و ضرورة التخلّي عن المشاريع المكلفة، و أصبح الكثير من الروس ينظرون إلى منطقة آسيا الوسطى كعبء اقتصادي، و زاد من حدة هذا التوتر توقيف مشروع قناة سيبرال Sibiral لربط بحر آرال بأنهار سيبيريا، بتوصية من مستشار غورباتشيف الأرميني كما ذكرنا سابقا، بالرغم من أن الإدارة المركزية كانت المسؤول المباشر عن الكارثة التي لحقت ببحر آرال<sup>1</sup>.

و انطلاقا من هذه الأحداث أصبح الفرد الكازاخ يتحسّس قضاياها الثقافية و اللغوية و البيئية و الاقتصادية بشكل مفرد، و كانت اللغة هي محور نضالهم و مطالبهم، فما أن أضحوا يمثلون الأغلبية في وطنهم حتى صار أبرز أهدافهم تدعيم وضع لغتهم، بحيث تصبح اللغة الرسمية للجمهورية الكازاخية، فتحقّق لهم ما أرادوا- بالفعل- في سبتمبر 1989، عندما أقرّ مجلس السوفييت الأعلى قانونا لغويا جديدا، أصبحت بمقتضاه الكازاخية هي اللغة الرسمية للجمهورية، في حين ظلّت اللغة الروسية لغة التواصل بين الأعراق<sup>2</sup>.

و في خضمّ هذه التحولات، أصبح الكازاخ شديدي الاعتداد بهويتهم العرقية، بحيث أصبح من شأن أي حدث يمسّ تلك الهوية أن يستثيرهم كما يرى أحمد وهبان، و قد ظهر ذلك بجلاء من خلال الاضطرابات العرقية واسعة النطاق التي شهدتها الجمهورية الكازاخية في صيف عام 1989 و هي الاضطرابات التي انطلقت من مدينة نوفي أوزون Novi Uzen في 16 جوان بعد مشاجرات محدودة بين بعض الشباب الكازاخ و الداغستاني ( القوقازي) أثناء حفل للرقص الشعبي ضمّ شبابا من الطرفين، و على إثرها اشتدّ النزاع و توسّع، حيث بدأ الكازاخ في مهاجمة كل ما له صلة بالقوقازيين من مساكن

<sup>1</sup>Philippe Micklin, "The Fate of "Sibiral": Soviet Water Politics in the Gorbachev Era", *Central Asian Survey*, vol.6, Issue2,1987, p. 72.

<sup>2</sup>Jacques Leclerc, *KazaKhstan*, [www.axl-cefan.ulaval.ca/asia/kazakhstan.htm](http://www.axl-cefan.ulaval.ca/asia/kazakhstan.htm).

ومحال تجارية، بل وصل بهم الحد إلى مهاجمة البنايات العامة و مراكز الشرطة للاستحواذ على الأسلحة.<sup>1</sup>

و تفاقم الوضع نتيجة إغلاق المؤسسات و شلّ السكك الحديدية و خروج المظاهرات التي أصبحت تشارك فيها كل فئات المجتمع ( بمن فيهم النساء و الأطفال)، و لم تقف قوات مكافحة الشغب في لجم المتظاهرين بل وصلت المظاهرات في وقت قياسي لتشمل مدن جديدة في أقصى الغرب ( على ضفاف بحر قزوين) حيث تزدهر الصناعة النفطية، واصطدموا بالمهجرين الأرمن و تواصلت هذه المظاهرات لتصل بعدها العاصمة ألما أتا الواقعة شرق البلد، و قد كانت النتائج الأولية لهذه المظاهرات سقوط العشرات من القتلى و الجرحى و فرار الآلاف من القوقازيين إلى الجمهوريات المجاورة.<sup>2</sup>

و أمام تنامي الأحقاد العرقية و مظاهر العنف و التوتر، ارتأت السلطات المركزية استبدال الأمين العام ذي الأصول الروسية بآخر ينتمي للأصول الكازاخية وهو نور سلطان ناظرباييف لتهدئة الوضع و ترضية الكازاخ.

و لكنه لا بد أن نشير الى أن بروز نزعة عرقية عارمة و جارفة لم تتمخض عنها حركة قومية منظمة لأن المظاهرات كانت تعبيرا عفويا و متنفسا وحيدا أمام الإحباط الذي أصاب الفرد الكازاخي، فالحراك الذي شهدته كازاخستان في تلك الفترة كان يفقد إلى التنظيم و التأطير الحزبي و تميّز بالنشّات و محدودية النطاق، وقد يكون ذلك ناتجا عن ظروف المرحلة من جهة و شساعة الاقليم (2.700.000 كم مربع ) كما أن المطالب لم تكن استقلالية صرفة، بل كانت تقتصر على منح الكازاخ وضعاً و دوراً يتناسب مع حقهم التاريخي كأبناء البلد الأصليين و كأكبر جماعة عرقية فيه.<sup>3</sup>

و عليه فمرحلة الاستقلال في كازاخستان شكّلت بالنسبة للنخب الحاكمة و بخاصة الرئيس الجديد ناظر باييف، مرحلة حرجة جدا و مخاوف و محاذير لا نجد لها مثيلا في كل جمهوريات تالاتحاد السوفييتي.

---

<sup>1</sup> أحمد وهبان، مرجع سبق ذكره، ص.424.

<sup>2</sup> المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

<sup>3</sup> المرجع نفسه، ص.426.

## المبحث الثاني: روس الشتات في السياسة الخارجية الروسية.

سمح الانفتاح السياسي الذي عرفه الاتحاد السوفييتي بفضل البريسترويكا و الجلاسنوست بظهور حراك قومي عارم لم يستثني أي جمهورية من جمهورياته -بما في ذلك روسيا- و بدأت المطالب تتبلور في شكل منظمات و أحزاب تتبنى خطابات عرقية ناقمة على التجربة السوفييتية، و تدعوا الى الانكفاء على الذات و الهوية، لكن هذه الجمهوريات تختلف عن بعضها البعض في مسألتين أساسيتين ، فالمسألة الأولى هي امتلاك هوية قومية و تجربة دولية سابقة و هنا تتمايز الجمهوريات السوفييتية عن بعضها البعض ، فمعظم الجمهوريات الأوروبية - و خاصة دول البلطيق- كانت لها هوية قومية سابقة للتجربة السوفييتية كجمهوريتي أرمينيا و جورجيا و كانت منتظمة في كيانات سياسية واضحة الحدود نسبيا، بينما كانت الجمهوريات الآسيوية نتاجا خالصا للهندسة السياسية الستالينية، و لم تعرف إلا الممالك السلافية التي كانت تحكم مجتمعات مختلفة عن بعضها البعض عرقيا و دينيا .

أما المسألة الثانية فتتمثل في درجة التجانس العرقي ، وهنا نجد جمهوريات حافظ العرق السائد فيها على أكثرية مريحة مع وجود أقليات متنوعة أو أقاليم حبيسة لإبقاء المركز موسكو كحكم يعود إليه الكل للفصل في خلافاتهم ، بينما تعتبر كازاخستان الجمهورية الوحيدة على الإطلاق التي لم تصل نسبة العرق الأصيل ( أي الكازاخ ) فيها غداة استقلالها إلى 50% و إن كانوا يمثلون أكبر مجموعة عرقية، و هو أمر نادر و خطير سياسيا، خاصة عندما يرتبط غياب هذا التجانس بتركيز جغرافي للعرقيات في مناطق محدّدة، إذ أن تموقع الكازاخ بتركيز كبير في الجنوب و تمركز الروس في الأقاليم الشمالية المحاذية لروسيا يجعل كازاخستان نظريا الدولة التي تستدعي فيها عملية بناء الأمة أكبر قدر من الحيلة و الحذر و الذكاء.

و لفهم المعضلة العرقية التي تعيشها كازاخستان يتوجب علينا فهم التحولات التي طرأت على تسيير مسألة الأقليات الروسية المتواجدة في الفضاء السوفييتي من قبل الحكومات الروسية المتلاحقة.

### المطلب الأول: معالجة الحكومات الروسية لمسألة "الأقلية الروسية" في عهد بورييس التسين.

انطلقت عملية إعادة صياغة " الهوية القومية" الروسية (ما بعد السوفييتية) في النصف الأول من عقد التسعينيات ، لكنّها عرفت صعوبات كثيرة ، بعضها هيكلي و الآخر مرحلي، و هذه الصعوبة تندرج أساسا في طبيعة الأمة الروسية المعقّدة و في شساعة كيانها السياسي الضخم و المتنوّع، فروسيا و إن كانت هي الوريث الشرعي للاتحاد السوفييتي، إلا أنها أرادت أن تصوغ تصورا جديدا لهويتها القومية يحقّق لها انفتاحا سياسيا و اقتصاديا، يقطع مع الانسداد و التكلّس الذي أصابها في العقود الأخيرة من عمر الاتحاد السوفييتي.

و عجز روسيا الفيدرالية في صياغة مفهوم جديد للهوية الروسية، يعود أساسا لارتباك الساسة و فقدانهم للقدرة على تحمّل أعباء المرحلة الانتقالية، أو بالأحرى استسلامهم للحلول السهلة، لكسب تأييد الغرب و تعاونه، و هو أمر مفهوم بالنظر إلى الانهيار الاقتصادي و القيمي الذي خلّفه انهيار مشروع سياسي شمل مختلف جوانب الحياة، أي المشروع السوفييتي.

فضمن هذا الإطار يمكننا إسقاط علاقة روسيا بالفضاء السوفييتي و بأقلياتها القومية القاطنة في هذا الفضاء، و بعدها يمكننا فهم سياستها تجاه الملايين من الروس الذين استوطنوا جمهورية كازاخستان منذ عقود طويلة.

### أولاً: البحث عن مفهوم جديد للهوية الروسية (البحث عن الذات)

دخلت فيدرالية روسيا مرحلة جديدة مغايرة لجميع المراحل التي شهدتها خلال القرون الثلاثة الماضية، اتسمت بتحوّلات أعمق و أخطر من الثورة البلشفية، فإذا كانت التجربة السوفييتية قد عرفت تحولات جذرية على المستويين الاقتصادي و المؤسّساتي وحتى الإيديولوجي للإمبراطورية، إلّا أنّها كانت من النّاحية الجيوسياسية استمراراً للسياسة التوسعية التي طبعت المرحلة القيصرية، بينما عكست المرحلة الجديدة الأمر ممّا جعل الروس يتساعلون عن هوية الدولة الجديدة و حدودها و الدور الجديد الذي يتعيّن عليها تأديته على المستوى المحلي، الإقليمي و الدولي. و هل بإمكانها التملّص من تراثها القديم ، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار الخصوصيات الروسية مقارنة مع الدول الكبرى الأخرى، فروسيا دولة متعددة الأعراق وهي متصلة جغرافياً بالجمهوريات السوفييتية السابقة عكس المستعمرات الأوروبية السابقة التي تتواجد في ماوراء البحار، واحتفاظها بمعظم مساحة الاتحاد السوفييتي و أكثر من نصف عدد سكّانه.

و عليه فمسألة الهوية القومية عند الروس لا تنفصل بتاتا عن النقاش الجيوسياسي القديم و المتجدّد دائماً، الأمر الذي جعل مارك فيرو و الذي يعدّ واحداً من أكثر العارفين بتاريخ روسيا يؤكّد أن " الروس هم الشعب الوحيد في العالم الذي يعتبر أن الاستعمار و التوسّع يكوّن جوهر تاريخه"<sup>1</sup> و هو الأمر كذلك بالنسبة لمحمد رضا جليلي الذي يعتقد أنه " لا يمكننا فصل مسألة القومية الروسية عن مسألة التوسّع الاستعماري الروسي"<sup>2</sup>.

و يتوسّع بريزنسكي في هذه المسألة، مؤكداً ارتباط مسائل الهوية القومية بمختلف المقاربات الجيوسياسية المتضاربة في روسيا حيث يقول: "إنّ هذه الطروحات ليست مسائل مجردة و مهما كانت طبيعتها، فالإجابة عنها ستكشف بأنّ للروس تساؤلات جيوسياسية متعددة، من ضمنها، هل دولة

<sup>1</sup>Marc Ferro, "Colonisation russe-soviétique et colonialismes occidentaux", *op.cit.*, p.79.

<sup>2</sup>Mohammad-Reza Djalili, *Géopolitique de la nouvelle Asie centrale*, *op.cit.*, p.45.

روسيا دولة قومية تأسست وفق الهوية العرقية الروسية أو تأسست على الأنموذج البريطاني، الذي لا يمكننا تقليصه إلى انجلترا أو أنها تكشف عن فهم أكثر اتساعا يأخذ بعين الاعتبار بعد روسيا الإمبريالي<sup>1</sup>

لقد عرفت روسيا بعد تفكك الاتحاد السوفييتي، بروز اتجاهات سياسية تعكس في كثير من الأحيان تنوع الخيارات الجيوسياسية المطروحة في الفترة القيصريّة و ستؤدي ترجمتها الواقع الواقع إلى اختلاف كبير في تحديد المصالح و الأدوار التي يتوجب على روسيا تبنيها، و بخاصة في محيطها القريب.

- **المقاربة التغريبية (occidentaliste):** و يمثلها التيار السياسي الذي سيطر على دواليب صناعة القرار في روسيا، في السنوات الأولى التي تلت انهيار الاتحاد السوفييتي و هو تيار يرى أن تكثيف العلاقات مع الدول الغربية أي أوروبا و الولايات المتحدة الأمريكية و التخلّص من النزعة التوسعية سيمكّن روسيا من تطبيع علاقاتها و يمنحها مصداقية أكثر على الساحة الدولية، و هو المسعى الذي اجتهد (Andrei Kozyrev 1990-1996) في تحقيقه إذ يرى أنّه من الضروري تغيير الأساليب السوفييتية و التخلّص من تبعاتها، لأنّها فشلت في تحقيق المصالح الروسية، و يرى أنصار هذا الاتجاه أن زيادة الارتباط مع الفضاء السوفييتي، و الدول الوسط-آسيوية بالدرجة الأولى يشكّل تهديدا لتجربة الديمقراطية الفتية في روسيا، و ليس بغريب أنّ أنصار هذا الاتجاه هم أول من أسّس التيار الليبرالي و تبنّى الإصلاحات الاقتصادية الراديكالية، فهم كانوا يعتقدون أن مسائل الهوية لا بد أن تندرج ضمن منطق أضيق، و هو منطق العقلانية، التي لا تتخذ حسبهم ، أي سياسات دون حساب حجم التكاليف و الأرباح. و تزامن هذا الطرح مع الضغوطات الغربية المتواصلة على روسيا و التأكيد على ضرورة أن تتحوّل روسيا إلى دولة عادية أو طبيعية (Etat normal) أي دولة جديدة منزوعة التطلعات و الطموحات حسب خصوم هذا التيار، و تلخّصت هذه الرؤية في خطاب للرئيس إلّتين سنة 1991 الذي أكّد فيه أنّ " المرحلة الإمبريالية في التاريخ الروسي قد انتهت. لن يكون هناك بعد اليوم عنف أو سيطرة".<sup>2</sup> بل إنّ الكثير من شعوب فيدرالية روسيا و أقاليمها الطرفية قد فهمت من تصريحات إلّتين بأنّها دعوة رسمية للتحرّر و الاستقلال، فبدأت مطالب الاستقلال تتسارع في الشيشان و تتارستان تماما كما فهمت هذه الشعوب خطابات لينين حول حقها في

<sup>1</sup>Zbigniew Brzezinski, *Le Grand échiquier*, op.cit., p.131.

<sup>2</sup>Marlène Laruelle " La question des Russes du proche-étranger en Russie", Cahiers du Ceri n.126 [www.sciencespo.fr/ceri/files/etudes/126pdf](http://www.sciencespo.fr/ceri/files/etudes/126pdf). consulté le 05/01/2015.

تقرير مصيرها<sup>1</sup>، و كان من الطبيعي وفق هذا المنظور أن تتخلى روسيا عن مسؤولياتها " التاريخية" تجاه الملايين من روس الشتات.

**أسباب فشل هذه السياسة:** إنّ الفوضى التي عمّت روسيا، بعد تفكّك الاتحاد السوفييتي و غياب رؤية واضحة و متجانسة للدور الذي يتوجب على روسيا الاضطلاع به في محيطها القريب (أو كما يسمّيه الروس بالغريب المجاور l'étranger proche) ، لا يمكن تفسيره دون الرجوع إلى بعض العوامل التي أدّت في الأخير إلى فشل المشروع الاندماجي الخاص بالفضاء السوفييتي و هو رابطة الدول المستقلة، و هي عوامل بعضها داخلي و الآخر خارجي.

ففيما يخص العوامل الداخلية، فإنّ أهم سبب يعود الى عجز روسيا عن التحكّم في أقاليمها الطرفية، و هنا لا بد و أن ندرك أنّ الكثير من الروس قد لا يفرقون بين طبيعة الأقاليم الروسية التي تقطنها أعراق غير سلافية كالشيشان وداغستان و بقية الجمهوريات الإسلامية، و ممّا زاد من صعوبة الفهم خطابات إلّتسين التي شجّعت الجمهوريات المستقلة ذاتيا على إعلان استقلالها (تتارستان و جمهورية الشيشان) و هو ما جعل المركز يلجأ مستقبلا إلى تفاهات حول منح مزيد من الاستقلالية و الصلاحيات للجمهوريات المستقلة ذاتيا و هو ما قبلته جمهورية تتارستان الغنية بالنفط و الواقعة في قلب روسيا، بينما رفضته جمهورية الشيشان التي دخلت في حرب مدمّرة ، جعلت روسيا تفقد هيبتها و قدرتها على فرض تصوراتها على دول مستقلة أصلا.

و من الضروري التأكيد على نقطة أساسية وهي أنّ روسيا لم تكن في السنوات الأولى تفضّل الاستخدام المفرط للقوة تماشيا مع متطلبات المقاربة التغريبية التي أرادت أن تقع الغرب أنها جادة في انتهاج سياسة القطيعة مع الأساليب السوفييتية و تبني الخيار الديمقراطي، و هي وضعية تشبه إلى حد كبير المرحلة التي تبعت ثورة 1917، بفعل الوعود التي أطلقها لينين و طرحه لمبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها.

أما الأسباب الخارجية فإنّها تتّصل بظهور سياسات قومية لدى الجمهوريات المستقلة التي تطمح إلى الابتعاد عن المركز ( mouvements centrifuges ) و هي اتجاهات طبيعية بالنسبة لدول فتية تريد تثبيت سيادتها و تأكيد استقلالها، لكنّها اكتست في بعض الأحيان طابعا معارضا لكل توجّه اندماجي يسعى إلى إعادة تفعيل الارتباطات و الاعتماد المتبادل بين دول الاتحاد سابقا، فحول الفضاء السوفييتي أو ما يسمّيه الروس " الغريب المجاور " انقسمت إلى أربع مجموعات متمايضة، انتهجت كل واحدة منها مسارا مختلفا تجاه فيدرالية روسيا و مشاريعها الاندماجية : فالمجموعة الأولى ، و تتكون من دول البلطيق

<sup>1</sup>V. Lénine, "Thèses et additions sur les questions nationales et coloniales", ([www.marxists.org/francais/inter.com/1920/ic2\\_19200700.htm](http://www.marxists.org/francais/inter.com/1920/ic2_19200700.htm)) consulté le 15/02/2014.

الثلاثة رفضت منذ البداية أي شكل من أشكال التقارب مع روسيا، وقد تمّ لها ذلك باندماجها في المنظومة الاقتصادية و الأمنية الغربية ، أمّا المجموعة الثانية، فتكونت من أربع دول شكّلت ما يسمى مجموعة GUAM ( و هي الأحرف الابتدائية باللغة الانجليزية لجورجيا، أوكرانيا، أذربيجان و مولدافيا) و قد يضاف إليها جمهورية أوزبكستان لتصبح GUUAM و جمهورية تركمنستان التي التزمت الحياد و هذه الدول لا ترغب في الدخول في مشاريع اندماجية مع روسيا، و تفضّل العلاقات الثنائية العادية، أمّا المجموعة الثالثة، فتتكون من كازاخستان، كيرغيزستان ، طاجاكستان و أرمينيا و هي الدول التي انخرطت في جميع المشاريع الاندماجية الروسية، أمّا المجموعة الرابعة فتتكون من دولة واحدة هي روسيا البيضاء التي سعت الى اندماج أكبر مع روسيا، بالنظر الى تبعيتها الاقتصادية و طبيعة نظامها بالدرجة الأولى. (أنظر الشكل رقم 15 ).

الشكل رقم 15: خريطة تبين تمايز المشاريع الاندماجية لدى روسيا ودول " الغريب المجاور



Sophie Tournon, "Retour sur le concept d'un étranger proche", *Regards sur l'Est* 15/12/2010.

المصدر:

و انطلاقاً من المعطيات السابقة يمكن القول بأنّ كلاً من وضع روسيا الداخلي من فوضى و تفكّك في جميع النواحي ( سياسيا، اقتصاديا و اجتماعيا) و ترنّع التيار التغريبي على مقاليد الحكم كانا سببين أساسيين في عجز السلطات في تبني سياسة خارجية واضحة المعالم تجاه روس الشتات، و هو ما ترك هذه الأخيرة ، تعيش في عزلة و تضيق على حقوقها السياسية و الثقافية ، بفعل تنامي القومية-العرقية في دول الغريب المجاور، و بخاصة في الدول التي تقطنها أقليات عرقية روسية كبيرة على غرار أوكرانيا و كازاخستان، و عليه يمكننا اختصار السياسة الروسية تجاه روس الشتات (diaspora russe)

بالتجاهل (l'ignorance) في أحسن الأحوال و باعتبارهم عبئاً يضاف لمجمل الأعباء الداخلية المعقّدة، لكنّ الانحطاط الذي وصلت إليه السياسة القومية الروسية ، ما كان ليستمر أكثر من ذلك ، و هو ما حصل بالفعل مع بروز تيارات سياسية و جيوسياسية مناوئة للتيار التغريبي.

- **المقاربة الأورو-آسيوية:** و يمكننا تلخيص هذه المقاربة من خلال مقولة معبّرة طرحها Evgeni Primakov خلال عرضه لحصيلة عمله السنوية على رأس وزارة الخارجية الروسية في جانفي سنة 1997 " إنّ قوة كروسيا ، مع كل ما تمتلكه من مصالح ضخمة في آسيا و الشرق الأدنى، لا يمكنها أن ترضى أو تقتنع بالسير بقدّم واحدة، أي القدم الغربية، و لكن يتوجّب عليها اليوم، أن تسير بقدّمها الاثنتين: الأوروبية و الآسيوية"<sup>1</sup> و هذا التيار ليس تياراً جديداً بل تعود جذوره إلى عالم الجيوسياسية الروسي Piotr Savitsky (1895 – 1968 ) الذي تأثر بأعمال رواد الاتجاه السلافي (slavophiles) الذين كانوا يدعون إلى انتهاز خط خاص لتطوير روسيا يختلف مبدئياً مع خط التيار التغريبي (occidentaliste) فهم يدعون إلى العودة إلى التقاليد الروسية وتمجيد الحياة الفلاحية و الأفكار الدينية الأرثوذكسية.<sup>2</sup> و تتمركز فكرة سافيتسكي الأساسية حول خاصية " التوسط" التي تميّز روسيا حيث يقول: "لروسيا عدد من الأسباب يفوق بكثير ما لدى الصين من الأسباب التي تسمح بتسميتها "دولة متوسطة"<sup>3</sup>، و عليه فلا بد أن تفهم روسيا -لا كدولة قومية- بل كنمط خاص من الحضارة التي تشكلت على أساس مكونات عدة: الثقافة الآرية، السلافية، التقاليد الأرثوذكسية، و هذا بمجموعه يشكل تكويناً "توسطياً" فريداً يمثّل تركيبة التاريخ العالمي.<sup>4</sup> و لهذا السبب فإنّه يمكن اعتبار ترأس بريماكوف لوزارة الخارجية الروسية تصحيحاً للوضع المرتبك الذي عرفته في عهد الحكومات الموالية للغرب ، و جعلت روسيا غير قادرة على مواجهة التحدّيات المتلاحقة في فضاءها الجيوسياسي القريب و البعيد، إذ إنّ بداية النقاشات الجادة حول دور و "رسالة" روسيا كدولة محورية لم تعرف انطلاقتها الحقيقية الا بعد صعود بريماكوف لدوائر صنع القرار الروسي.

<sup>1</sup>Jean-Christophe Romer, *Géopolitique de la Russie*, Paris: Economica, 1999, p.56

<sup>2</sup>الكسندر دوغين، *أسس الجيوبولتيكا: مستقبل روسيا الجيوبولتيكي*، (تر: عماد حاتم)، بيروت: دارالكتاب الجديد المتحدة، 2004، ص.127.

<sup>3</sup>المرجع نفسه، ص.128.

<sup>4</sup>نفس المرجع، نفس الصفحة.

## المطلب الثاني : العقيدة القومية الجديدة.

عادة ما ينسب الفضل في التوجهات الجديدة للسياسة الروسية و القائمة على مبدأ حماية الأقليات الروسية المتواجدة في جمهوريات الاتحاد السوفييتي سابقا، إلى شخص فلاديمير بوتين، دون سواه ، و هذا الاعتقاد و إن كان صحيحا إلى حد بعيد ، إلا أنه لا يمكننا من إدراك حقيقة هذه السياسة ، مسبباتها و تبعاتها، و لا يسمح لنا بفهم تفاعل الواقع الروسي ( الداخلي) مع البيئة السياسية و الأمنية الآخذة في التشكل، نتيجة لعجز السياسات السابقة أو " تقريط" النخب المتغربة في "أبناء البلد" الذين يعيشون خارج روسيا الفيدرالية.

لقد أسهمت الكثير من الأحزاب السياسية و جمعيات المجتمع المدني في عودة الاهتمام بمسائل القومية و الهوية " المفقودة" بفعل انهيار الاتحاد السوفييتي أولا و تبني النخبة الحاكمة لخطاب يتغافل عن خصائص روسيا و دورها ثانيا. و كانت هذه الأحزاب تتضوي ضمن تيارات متباينة سياسيا و إيديولوجيا، و لكنّها كانت تتقاطع في نقطة أساسية، و هي إعادة الاعتبار للدولة الروسية و للأمة الروسية ، ما دفعها إلى تجديد النقاش حول مسائل ، كان البعض يظنّها من مخلفات القرن التاسع عشر، و أنه ليس من الوجهة إعادة طرحها في الحاضر، و هو الدعوة إلى إعادة تعريف طبيعة الانتماء إلى روسيا أو كما يسميه الروس " الفكرة الروسية l'idée russe" و لأول مرة و منذ عقود ظهرت الأطروحات المحتدمة حول ضرورة تحديد من هو الروسي ، فهل هو ذلك الفرد الذي يقطن إقليم الدولة (Rusien) ، أو ذلك الذي ينتمي إلى العرق الروسي (Ruskii) أو ذلك الذي اندمج مع الثقافة الروسية و تمثلها.<sup>1</sup>

دور الأحزاب و الجمعيات في الدفاع عن قضايا الأقليات الروسية: بينت الانتخابات الرئاسية لعام 1996 عودة التيارات المحافظة بمختلف توجهاتها ( الشيوعية متمثلة في زعيم الحزب الشيوعي لروسيا الفيدرالية Guennadi Ziouganov (PCFR) و الذي حصل على 32% من أصوات الناخبين في الدور الأول ، و الأحزاب القومية متمثلة في مؤتمر القوميات الروسية (CCR) بقيادة قائد الحرب الشيشانية الجنرال Alexandre Lebed و الذي حصل على 14.55% ، و القومية المتطرفة ممثلة في زعيم الحزب الديمقراطي الليبرالي الروسي Vladimir Jirinovsky (LDPR) الذي حصل على 5.7% من أصوات الناخبين). فقد استطاعت هذه التيارات من كسب دعم شعبي متزايد بتوظيفها الجيد لسلبيات السياسة المنتهجة من قبل إلتسين، و بالخصوص في مسائل الهوية الروسية و دور الدولة الجديد تجاه دول الغريب المجاور.<sup>2</sup>

<sup>1</sup>Marlène Laruelle "La question des Russes du Proche-étranger en Russie", les cahiers du CERI, [www.sciencespo.fr/ceri/files/etude126pdf.consulté](http://www.sciencespo.fr/ceri/files/etude126pdf.consulté) le 15/01/2014.

<sup>2</sup>Ibidem.

لقد اعترضت هذه الأحزاب على موقف الجناح التغريبي الذي كان ينظر إلى الروس المتواجدين في الجمهوريات السوفييتية كعبء أو كقضية لا يريد أن يضيفها لجملة القضايا المستعصية الحل. و لهذا فقد استغلت هذه التيارات الفراغ الذي تركته لها سياسات بوريس إلتسين الخاصة بالمسألة القومية، موظفة بذلك كبير عوامل الهوية و الثقافة و الانتماء، مستعملة مفاهيم متقلبة بالارتباطات العاطفية و الوشائعية على غرار " التقاليد الروسية" ، "المجد الضائع" ، " عظمة الأمة الروسية" و معتبرة أن الدولة قد فرطت في ما يسميهم هذا التيار " أبناء البلد les compatriotes " مذكرة السلطات بواقعهم المتدهور بفعل انفصالهم عن وطنهم الأم روسيا، بل إن فلاديمير جيرينوفسكي قد دعا إلى عودة الأقاليم الشمالية لكازاخستان إلى السيادة الروسية بدعوى وجود أغلبية روسية في تلك الأقاليم، مردداً الطرح الذي قدمه سابقا المنشق سولجنيتسين.<sup>1</sup>

أما الحركة الجموعية المدافعة عن الأقليات الروسية، فكانت أكثر نشاطا و اتساعا من الأحزاب السياسية، لأنها لم تكن مربوطة بمواعيد و وعود انتخابية، بل كان نضالها متواصلا و مستمرا، حتى و إن كان بعض أعضائها ينتمون أصلا إلى الأحزاب السالفة الذكر، فاقترن نجاح هذه الجمعيات في تشكيل وعي جمعي مهتم بقضايا روس الشتات لأنها أحسنت استغلال بعض المخاوف و الهواجس، و قد اعتمدت على النقاط التالية:

- تمكين الأمة الروسية من قوى حية ، يمكن توظيفها في الجيش و الاقتصاد، تكون بديلة عن اليد العاملة القادمة من دول القوقاز و آسيا الوسطى.
- انتماء روس الشتات إلى طبقات اجتماعية أعلى من المعدل العام الروسي، لأنهم استقدموا إلى الجمهوريات السوفييتية في السابق لشغل المناصب العلمية و الإدارية و التقنية التي تتطلب تكويننا راقيا.
- إمكانية توجيه نسبة كبيرة منهم لشغل الفراغ الحاصل في سيبيريا و مناطق أقصى الشمال.
- عودة روس الشتات أو أبناء البلد (compatriotes) من شأنها تعويض الخسارة الديمغرافية و ترجيح كفة العرق الروسي في مقابل الأعراق غير الروسية ( و بخاصة التتار و الشيشان و الانغوش و الداغستانيون) و هو ما يؤدي إلى مجانسة عرقية تقلص من حجم التنوع و تعقيداته.
- و هذه النقاط بالذات كانت محركا للسياسة القومية الروسية و توظيفاتها في المجالات الأمنية و العلاقات مع دول الجوار في عهد بوتين.

<sup>1</sup>Ibidem.

**تحولات السياسة القومية بعد مجيء بوتين:** عرف تعامل الدولة الروسية مع ملف أقلياتها العرقية المتواجدة في دول الجوار منعرجا حاسما مع صعود بوتين إلى سدة الحكم و شكّل لكثير من التيارات السياسية و لجل الشعب الروسي ردّا للاعتبار و درءا "للعار" الذي لحق بروسيا بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، و لفهم هذه التحولات العميقة في تعامل السلطات مع هذا الملف لا بد و أن نرجع إلى هذه الفترة بالذات و التمعّن في تأثير الكثير من التطورات الحاصلة عليها:

- الأزمة الاقتصادية لسنة 1998 شكّلت ضربة قاصمة للتيار الليبرالي ( التغريبي) لأنها بيّنت أنّ جميع التنازلات الاقتصادية و الأمنية و جميع التضحيات التي بدّلها الروس لاستعادة النمو، لم تكن مجدية ، و لهذا فإنّ السياسات الاقتصادية التي تلتها، كانت متعارضة مع مطالب صندوق النقد الدولي.<sup>1</sup>

- التدخل العسكري الموجّه ضد صربيا ( السلافية) في أزمة كوسوفو، اعتبرته روسيا انتهاكا لسيادة دولة مستقلة و لكنّه منحها دافعا للتدخل مستقبلا، في قضايا مماثلة.

- حرب الشيشان الثانية (أوت 1999- فيفري 2000 ) هي أول موقف صارم من قبل الحكومة الجديدة ، و هي صورة لسلوك الدولة العنيف و الحاسم ضد مطالب أقلياتها العرقية.

- تفجيرات الحادي عشر من سبتمبر: منحت روسيا دورا جديدا في مكافحة الإرهاب، كما سنحت لها تأويل مصادر الخطر و التهديد وفق مصالحها الخاصة، و هي بذلك ستجعل من الأقليات ( و الأقليات الإسلامية بالخصوص) جماعات إرهابية ، في حالة طالبت بحقوقها المشروعة. كما أنها مكّنتها من استعادة دورها في آسيا الوسطى بدعوى الحرب على الإرهاب، مستغلة انكشاف الأنظمة الأمني و طبيعتها التسلطية.<sup>2</sup>

و بالتالي فقد ساعدت هذه العوامل الظرفية مجتمعة، صانع القرار الجديد في روسيا لأنها كانت فرصا حقيقية لتفعيل تصور بوتين لدور روسيا الجديد و علاقاتها بدول الجوار، و كذا رؤيته الخاصة لطبيعة السياسة التي يجب على روسيا اتخاذها تجاه الروس القاطنين في دول الغريب المجاور. و يبدو من التصريحات النادرة التي كانت تصدر من بوتين ، في الفترة التي كان الليبراليون يقودون السياسة الخارجية الروسية أن بوتين كان رافضا لهذه السياسة، جملة و تفصيلا، ففي اجتماع مع بعض المسؤولين الألمان سنة 1994 و كان يومها نائبا لرئيس بلدية موسكو، صرّح بوتين بما يلي:

<sup>1</sup>Yves Zlotowski, "L'économie et la société russe après le choc d'aout 1998", Les études du CERI? N.51, Mars 1999, [www.sciencespo.fr/ceri/sites/sciencespo.fr/ceri/files/etudes51.pdf](http://www.sciencespo.fr/ceri/sites/sciencespo.fr/ceri/files/etudes51.pdf) (02/01/2015).

<sup>2</sup>Marlène Laruelle, "Asie centrale: Le retour de la Russie", [www.politiqueinternationale.com/revue/read2.php?revue.\(08/12/2014](http://www.politiqueinternationale.com/revue/read2.php?revue.(08/12/2014)

" بالنسبة لمشاكل السكّان الناطقين بالروسية، في الفضاء السوفييتي سابقا، أريد أن أوضح أنّهم ليسوا من احتل جمهوريات الاتحاد السوفييتي، و لكن السلطات السوفييتية هي التي احتلتها، بما معناه أنّ الروس هم كذلك ضحية للقوة السوفييتية، مثل جميع شعوب الاتحاد. لا تنسوا أنّ روسيا و من أجل دعم الأمن و السلم في أوروبا قد تخلّت عن أقاليم شاسعة من أراضيها لفائدة الجمهوريات السوفييتية سابقا، و هو ما ينطبق على أراض كانت تابعة تاريخيا لروسيا، و هنا لا أتكلّم فقط عن القرم أو شمال كازاخستان بل منطقة كالينينجراد كذلك. فالنتيجة هي أن 25 مليون روسي وجدوا أنفسهم ، بين عشية و ضحاها، أجنب في هذه الدول الجديدة . وروسيا لا تستطيع أن تتخلّى عنهم ببساطة و تتركهم هكذا لحالهم".<sup>1</sup>

### المطلب الثالث: توظيف مسألة الأقليات في ظوء الأزمّتين الجورجية و الأوكرانية.

و لقد بينت الأزمة الجورجية التي وقعت في شهر أوت من سنة 2008 ( أو ما يسمّى حرب الخمسة أيام ) و تدخل الروس عسكريا لمساعدة الأوسيت و الأبخاز في الانفصال عن جورجيا، التحوّل الذي عرفته السياسة الأمنية الجديدة، و كيفية استغلالها للصراعات العرقية القديمة لتحقيق المصالح الروسية و التجاوب مع التحدّيات التي فشل نظام التسين في تسييرها.<sup>2</sup>

لقد كانت مجموعة GUAM المتكونة من جورجيا، أوكرانيا ، أذربيجان و مولدافيا هي الدول التي أرادت أن تبني منظومة سياسية و أمنية مستقلة عن التوجهات الروسية ( دول البلطيق استطاعت منذ البداية أن تدخل في مسار أورو-أطلنطي و تبتعد عن القطب الروسي بانضمامها في الاتحاد الأوروبي و الحلف الأطلسي) و أرادت فيما بعد الانخراط في المنظومة الدفاعية الأطلسية و المنظومة الاقتصادية الأوروبية<sup>3</sup> ، و لهذا فليس من باب المصادفة أن تكون هذه الدول هي التي تعرف نزاعات انفصالية خطيرة، فجورجيا فقدت إقليمي أبخازيا و أوسيتيا و أوكرانيا فقدت شبه جزيرة القرم و الدونباس و أذربيجان فقدت إقليم ناغورنو كاراباخ بينما فقدت مولدوفيا إقليم ترانزنيسترا.

و تبدو أوكرانيا اليوم كنموذج حي لسياسة توظيف الأقليات الروسية في توسيع النفوذ الروسي و هي الأزمة التي يعتبرها البعض أعقد نزاع عرفته القارة الأوروبية بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، إلّا أنّ هذه السياسة قد تدخل الفضاء السوفييتي في حلقة مفرغة من الفوضى و الدمار، لأن الكثير من مظاهرها تشبه السياسة الهتلرية الى حد بعيد ، و هو ما حذر منه الكاتب Yves Plasseraud الذي

<sup>1</sup>Daniel Vernet, "La Crimée, obsession de Vladimir Poutine depuis vingt ans", [www.slate.fr/story/91997/crimée-obsession-poutine](http://www.slate.fr/story/91997/crimée-obsession-poutine).( 02/01/2015).

<sup>2</sup>Jeffrey Mankoff, *Russian Foreign Policy: The return of Great Power Politics*, Maryland: Rowman and Littlefield Publishers, 2012, p.230.

<sup>3</sup>Taras Kuzio, "GUAM as an Regional and Security Organization", [www.taraskuzio.net/conferences\\_files/guam\\_azerbaijan.pdf](http://www.taraskuzio.net/conferences_files/guam_azerbaijan.pdf)(12/12/2014-).

استخلص الكثير من أوجه الشبه بين السياسة القومية الهتلرية و نزعة الهيمنة التي تبدوا جلياً في ممارسات الدولة الروسية منذ مجيء بوتلين، أهمها:

- كلاهما ينطلق من ضرورة مسح العار الذي لحق بأمتيهما ، أو ما يسميه عقدة فرساي بالنسبة لهتلر و عقدة انهيار الاتحاد السوفييتي، الذي اعتبره بوتلين في إحدى خطبه أكبر كارثة جيوسياسية حدثت في القرن العشرين فبوتلين لم يكن راضيا على السياسة التي انتهجها كل من غورباتشيف و إلتسين و كان أقرب إلى التصور الذي تبناه Andropov الذي يعتبر الأب الروحي لبوتلين باعتباره كان المسؤول الأول عن جهاز المخابرات السوفييتي ، و هذا التصور (تصور أندروبوف) يقوم على إصلاح شامل للاتحاد السوفييتي ليتحول إلى كيان أكثر مرونة يمنح أعضائه قدرا أكبر من الاستقلالية مع المحافظة على سياسة خارجية و دفاعية موحدة، و طبعاً لم يكتب لهذا المشروع النجاح لأن الاتحاد بلغ مرحلة متقدمة من الاهتراء و التكلّس.<sup>1</sup>

- كلاهما يعتبر بلده محاصراً ( syndrome de l'Etat assiégé ) الأول من قبل الديمقراطيات الغربية و الثاني من قبل الحلف الأطلسي. فبوتلين تحدّث في معظم خطبه عن وجود مؤامرة غربية تستهدف روسيا، بل إنّ هذا الشعور أصبح يشكّل هوساً لديه حيث عبّر عن استيائه الكبير من سياسة الغرب الذي يريد حشر روسيا في الزاوية و أنّ هذه السياسة هي استمرار لإستراتيجية الاحتواء الذي مارسها الغرب ضد روسيا القيصرية في القرن الثامن عشر و التاسع عشر و ضد الاتحاد السوفييتي في القرن العشرين و لقد ظهر ذلك في الخطاب الذي ألقاه بمناسبة إعلان استقلال شبه جزيرة القرم " اريد أن أوجّه ندائي إلى الشعب الأوكراني : إنّ من يريد عودة أوكرانيا الكبرى La Grande Ukraine يريد عودة للفوضى و الخراب، لا نريد تقسيم أوكرانيا و لكن فيما يخصّ القرم فهي أرض روسية تماماً كما هي أوكرانيا بل حتى تترية و هي أرض كل من يعيش داخلها و لكنّها لن تكون أرضاً لأتباع بانديرا ( les fidèles de Bandera )<sup>2</sup> فالقرم هي إرث مشترك ، و هي إلى جانب ذلك إقليم إستراتيجي جداً و لهذا فلا بد أن تخضع لقوة عظمى: و هذه لا يمكن أن تكون سوى روسيا"<sup>3</sup>

<sup>1</sup>Jean Sylvestre Mongrenier" 10point cles sur l'Ukraine et la menace russe", [www.institut-thomas-more.org/fr/actualite/10-points-cles-sur-lukraine-et-la-menace-russe.html](http://www.institut-thomas-more.org/fr/actualite/10-points-cles-sur-lukraine-et-la-menace-russe.html) consulté le 28/02/2015.

<sup>2</sup>يقصد بوتلين بأتباع بونديرا جميع القوميين المتطرفين الأوكرانيين، فستيفان بونديرا (1909 - 1959) يعتبر من رموز الحركة القومية الأوكرانية في الفترة السوفييتية، إذ يعتبر مؤسس الجيش الثوري الأوكراني و رئيس منظمة القوميين الأوكران، حارب إلى جانب الجيش النازي ضد الروس و البولونيين و تمّ اغتياله من قبل الاستخبارات الروسية سنة 1959.

<sup>3</sup>Thomas gras" Vladimir Poutine s'exprime sur le sort de la Crimée", [www.courrierderussie.com/2014/03/direct-poutine-crimée/](http://www.courrierderussie.com/2014/03/direct-poutine-crimée/) consulté le 12/1/2015.

- كلا الزعيمين كان يسعيان إلى جمع شعبيهما المشتتين، ففي تصريح لبوتين زعم فيه أن الروس هم الشعب الأكثر تشتتاً في العالم. (le peuple le plus dispersé)

- كلاهما استغل مسألة حماية أبناء البلد (compatriotes) للبدء في سياسة توسعية خطيرة.

و بالفعل فلقد كانت البداية بالنسبة لهتلر من خلال ضم ما كانت الدعاية النازية تسميهم Volksdeutsche ( الشعب الروسي ) ، فكان من نتائجها ضم النمسا ( Anschluss ) و بعدها إقليمي بوهيميا و مورافيا الواقعين غرب تشيكوسلوفاكيا و الذين يسكنهما السوديت ( Sudètes ) و هم شعب يتكلم اللغة الجرمانية، و لقد برّر هتلر هذا الضم بسوء المعاملة التي يلقاها السوديت في تشيكوسلوفاكيا، و هو ادعاء مبالغ فيه، لأنّ السوديت كانوا على العموم يعيشون أوضاعاً أحسن من تلك التي تعيشها الأقليات العرقية القاطنة في ألمانيا، على غرار الغجر، اليهود و السورابييين ( وهم قومية سلافية كانت تعيش في ألمانيا في تلك الفترة).

و عندما نعود إلى عصرنا الحالي نجد أن الدعاية الروسية ساهمت في تعكير صفو العلاقات السائدة بين الأوكران و الروس، إذ أن أنه لم يحصل أن حدثت صراعات عرقية خطيرة بين القوميتين، طوال الفترة التي تلت انهيار الاتحاد السوفييتي.<sup>1</sup>

و لكنّ أوجه التقارب بين الزعيمين و إن كانت وجهته إلى حدّ بعيد إلا أنّه تتوجّب علينا التفريق بين المرحلتين و بين التجريبتين في بعض النواحي، فالتشابه في الشكل لا يعني بالضرورة تطابقاً في الخلفيات الإيديولوجية و الرهانات الجيوسياسية. فروسيا كانت دائماً قوة استقطاب و استيعاب بينما كانت التجربة النازية تجربة عنصرية إقصائية، ففي الفترة القيصريّة كانت روسيا تريد أن تعوّض القسطنطينية و تكون بديلاً للدولة البيزنطية المنهارة أي أنّها كانت تهدف إلى أن تكون عاصمة أو مركزاً جديداً للمسيحية الأرثوذكسية، و في الفترة السوفييتية تبنت مشروعاً أممياً (internationaliste) و استطاعت أن تستوعب و لو بالقوة مجموعات قومية وعرقية مختلفة، و لم يتجه الخطاب السوفييتي نحو القومية المتطرفة. و إن سعت الحكومات المتعاقبة إلى ترويس كل شعوب الاتحاد، فذلك مبرّر لضرورة وجود لغة واحدة للتواصل. لكنّ المتفحص للتحوّلات الجديدة في السياسة الخارجية الروسية و اتجاهها نحو التدخل العسكري، لا بدّ و أن يبتعد عن التبسيطات المخلة، و أن ينظر إلى هذه السياسة من زاوية أوسع أي الدور الجديد لروسيا و طموحاتها. و بالتالي فالتحليل الجيوسياسي هو الوحيد القادر على تفسيرها.

<sup>1</sup>Yves Plasseraud, "Ukraine-Russie:une instrumentalisation des minorités", [www.blog.mediapart.fr/edition/les-langues-bien-commun-de-l-humanite/article/140314/ukrazine-russie-une-instrumentalisation-des-minorites](http://www.blog.mediapart.fr/edition/les-langues-bien-commun-de-l-humanite/article/140314/ukrazine-russie-une-instrumentalisation-des-minorites).(15/11/2014).

قراءة جيوسياسية لسياسة التدخل من أجل حماية مصالح الأقليات الروسية: و يعتمد تحليلنا هنا، على عنصرين، و هما التحولات الكبرى الحاصلة في السياسة الدولية و المذهب الجديد للسياسة الخارجية و الذي أعدته الدوائر السياسية و الأمنية الروسية ، المعنون : الرؤية الجديدة للسياسة الخارجية الروسية و الذي أعلن عنه في فيفري 2013 ، و هو بذلك يعتبر آخر وثيقة إستراتيجية رسمية و شاملة سبقت الحرب الدائرة في أوكرانيا.

و تتطلق الرؤية الجديدة من مسلمتين: (1) عدم رضا القيادة الروسية عن المنظومة الدولية التي تلت انهيار الاتحاد السوفيتي. (2) اعتقاد روسيا بأنها تجاوزت المرحلة الانتقالية و وصلت إلى مرحلة سياسية و اقتصادية تتميز بالقوة و الاستقرار، و هو ما يؤهلها إلى لعب دور جديد و تحدّي خصومها الغربيين و المطالبة بصياغة نظام عالمي أكثر تعددية، يضمن المصالح العليا لروسيا.

و من خلال هاتين المسلمتين فروسيا أصبحت ترى أنّه يتعيّن عليها أولاً) : القطيعة مع السياسات القديمة التي تتوّدّد للغرب (أو تتدنّل بتعبير أدق) و اعتبار مسار توسعة الحلف الأطلسي " الخطر الاستراتيجي الأكبر" و التهديد الأعظم للمصالح الروسية، ثانياً) :الاتجاه شرقاً و البحث عن حلفاء جدد ( دول البريكس كخيار أمثل).

فلقد خلص التقرير إلى أنّ الغرب لم يعد يمتلك التفوّق الذي ميّزه طوال العقدين الأخيرين و الشواهد كثيرة منها فشله في حربي العراق و أفغانستان ( البعد العسكري و السياسي) و دخول منظومته الاقتصادية في أزمة معقّدة سنة 2008، كما أنّ ما يميّز الفترة الحالية هو بروز آسيا كقوة فاعلة و مؤثرة.

هذه العوامل مجتمعة سمحت لروسيا و لأول مرة منذ انهيار الاتحاد السوفيتي أن تصوغ سياسة خارجية مفتوحة أكثر على الطرف الآسيوي، و هو ما جعلها تعتمد على تصور جيوسياسي جديد يميل إلى المقاربة الأوراسية الجديدة عوضاً عن المقاربة الغربية التي كانت تعلّق آمالاً كبيرة على بعث الشراكة الروسية-الغربية.

تناسبت هذه الرؤية مع المشروع الجديد الذي أرادت روسيا من خلاله زيادة حجم الارتباطات الأمنية و الاقتصادية مع دول " الغرب المجاور" و هو "الاتحاد الأوراسي Union Eurasienne" كمنافس و بديل عن الاتحاد الأوروبي.

و كانت روسيا تعتبر انضمام أوكرانيا إلى هذا الاتحاد ضرورياً لنجاحه و لضمان عودتها كقوة أورواسيوية من جديد، و هذا الاعتقاد ينطبق مع ما قاله بريزنسكي قبل حوالي عقدين:

" إنَّ استقلال أوكرانيا سيغيّر من طبيعة الدولة الروسية، فبدون أوكرانيا لن تبقى روسيا إمبراطورية أورواسيوية سينتقل مركز الثقل نحو الشرق، لتصبح هذه الإمبراطورية بالأساس قوة آسيوية، و ستدخل روسيا في صراعات مع جيرانها في آسيا الوسطى الذين سيسعون إلى تعزيز علاقاتهم مع دول الجنوب الإسلامية.... و التحكّم في أوكرانيا سيمنح لروسيا القدرة على استعادة دورها كدولة إمبراطورية قويّة تمتد في أوروبا و آسيا"<sup>1</sup>.

و بالطبع فروسيا لا تسعى إلى خلق اتحاد سوفياتي جديد لأنّ جميع الكيانات السياسية المنبثقة سترفضه بالضرورة، و حتّى بوتين صرّح في كثير من المرات أنّه: " لا بدّ أن تكون بلا قلب " **heartless** كي لا تتحرّس على انهيار الاتحاد السوفياتي و لكن لا بدّ أن تكون بلا عقل " **brainless** كي تسعى لعودته"<sup>2</sup>

و ممّا سبق يمكننا القول أنّ المشروع الجديد الذي تبناه بوتين و عمل على تحقيقه أي الاتحاد الأوراسي ليس نسخة جديدة للاتحاد و لكنّها في المقابل ترتيب جديد يمكّن روسيا من استعادة دورها المحوري في العلاقات الأورو-آسيوية، و هي ترتيبات تتبع من رؤية عقلانية و براغماتية عكس ما تصوّره الأدبيات الغربية ، و هذا ما حذى بالمفكر الجيوسياسي الروسي Andrei Gratchev إلى تسمية هذا التوجّه بـ "الأوراسية البراغماتية Eurasianisme Pragmatique"<sup>3</sup>

و في الوقت الذي كانت روسيا تسعى لإقناع الغرب أنّ الاتحاد الأورواسيوي لن يكون نسخة جديدة للاتحاد السوفياتي، حاولت الولايات المتحدة تعبئة كل حلفائها ضد هذا المشروع من خلال بعث المخاوف المتجدّدة حول النوايا الروسية، و ظهر ذلك في أوضح صورة في تصريح لوزيرة الشؤون الخارجية الأمريكية السابقة هيلاري كلينتون في شهر ديسمبر من سنة 2012 و الذي جاء فيه: " نحن نعلم أنّ الاتحاد الجديد ( تقصد الاتحاد الأورواسيوي) لن يحمل اسم الاتحاد السوفياتي، و لربّما سيحمل أسماء أخرى: إتحاد جمركي، إتحاد اقتصادي، إلخ.. و لكننا في الأخير لا يجب أن ننخدع لأننا نعلم حقيقة الأهداف و الرهانات الروسية و سنحاول جاهدين أن نوخّر، بل أن نمنع تحقيقه قدر المستطاع"<sup>4</sup>

و من خلال ما سبق نستنتج أنّ مسألة الأقليات بالنسبة لروسيا وسيلة لاسترجاع دورها التقليدي و نفوذها في الفضاء السوفياتي، و لو كان ذلك على حساب مصالح الروس القاطنين في دول الجوار منذ

<sup>1</sup> Zbigniew Brzezinski, *Le grand échiquier*, op.cit., p.75.

<sup>2</sup> Andrew Nagorski, "America's New Friend's" [www.newsweek.com/americas-new-friends-149553](http://www.newsweek.com/americas-new-friends-149553) consulté le 14/11/2001.

<sup>3</sup> Andrei Gratchev, "*Pivot Eurasien*" de Vladimir Poutine: objectifs, ambitions et moyens", [www.Chairstratégique.fr/IMG/pdf/pivot-eurasien-de-vladimir-poutine-objectifs-ambitions-moyens-pdf](http://www.Chairstratégique.fr/IMG/pdf/pivot-eurasien-de-vladimir-poutine-objectifs-ambitions-moyens-pdf) consulté le 23/02/2015.

<sup>4</sup> Maira Hayrumyan, "*Failed reset?: United States decries 'Sovietisation' of Former USSR States*", [www.armenianow.com/commentary/analysis/41807/usa-against-ussr-clinton-armenia-relation-russia](http://www.armenianow.com/commentary/analysis/41807/usa-against-ussr-clinton-armenia-relation-russia) consulté le 15/01/2015.

عقود طويلة، و تصبح هنا الأقليات العرقية الروسية موردا من الموارد يمكن تعبئته لتحقيق أهداف معينة، تماما كما صورتها المقاربة التعبوية (أنظر النظريات المفسرة للظاهرة العرقية في الفصل الأول) ، و يمكننا القول أن روسيا أصبحت توظف أقلياتها بالطريقة نفسها التي توظف مواردها الطبيعية من نفط و غاز للتأثير على قرارات بعض الدول المجاورة على غرار دول البلطيق و مولدافيا و أوكرانيا. و التاريخ الروسي يذكرنا بأمثلة سابقة وظفت فيها روسيا مسألة الأقليات لتحقيق أهدافها الخاصة، و بوتين لا يختلف عن أباطرة روسيا في القرن الثامن عشر الذين احتلوا شبه جزيرة القرم بدعوى حماية الأقليات المسيحية المضطهدة في الإمبراطورية العثمانية، في حين كانت شعوب روسيا القيصريّة- بما فيهم الروس- تعاني من قهر نظام القنانة الاستعبادي.

### المبحث الثالث: العامل الروسي في السياسة الداخلية و الخارجية لكازاخستان.

شهد الفضاء السوفييتي (مجموعة الدول المستقلة) في السنوات الأخيرة بروز نزاعات عرقية عنيفة خلّفتها التجربة السوفييتية، و أغلبها جمعت روسيا الفيدرالية بجيرانها. حيث بدأت بالنزاع المسلّح في جورجيا سنة 2008 و الذي وجدت فيه روسيا الفرصة المناسبة لفصل جمهوريتي أبخازيا و أوسيتيا عن جورجيا فصلا نهائيا تمهيدا لضمّهما إلى الأراضي الروسية، وصولا إلى الأزمة الأوكرانية، التي يمكن اعتبارها الأزمة الأخطر بين روسيا و الغرب منذ نهاية الحرب الباردة، بل إنّها إعلان لحرب باردة جديدة يستعمل فيها كلّ طرف جميع ما لديه من إمكانيات لإضعاف الطرف الآخر.

إلا أنّ ما يهمّنا في هذه الأزمات، هو ارتباطها بموضوع التوظيف السياسي للأقليات العرقية الروسية المتواجدة في هذه الجمهوريات، إذ أنّها أصبحت تمثّل نماذج و أمثلة حيّة لفهم الخلفيات و الرهانات التي عجلت بتحوّل الخلافات الكامنة بين روسيا و جيرانها إلى نزاعات عنيفة، و هنا تظهر أهميّة السياسات المتخذة من قبل كازاخستان بناء على فهمها وإدراكها لحساسية المعضلة العرقية كقضية داخلية (تسيير التعدّد و التنوّع) و إدراكها لطبيعة السياسات الخارجية الروسية الجديدة.

و منه بات من الواضح أنّ السياسة المنتهجة من قبل كازاخستان لا بدّ أن تأخذ بعين الاعتبار العامل الروسي و أن لا تتجاوزته، حفاظا على أمنها و وحدتها الترابية.

### المطلب الأول: الاستقطاب العرقي كمهدّد للاستقرار.

لم تنتظر النخبة السياسية في كازاخستان انهيار الاتحاد السوفييتي، لتدرك خطورة المرحلة وتداعياتها الممكنة ، فلقد كانت منصة لأصوات كرّرت دعوات فك الارتباط مع الجنوب المتخلف و المشكّل للعبء الأكبر على الاقتصاد الروسي (و ان كانت التجربة تدل عكس ذلك إذ أنّ المركز، و ابتداءً من وفاة بريجنيف كان قد تخلّى فعليا عن كل المشاريع التنموية الكبرى في دول الجنوب).

لكن ما كان يخيف السلطات في كازاخستان هو انتقال هذه المطالب إلى مستوى أخطر و هو فصل شمالها الأوروبي أو السلافي عن جنوبها الآسيوي ( الكازخي أو التركي)، و لقت هذه الدعوى رواجاً أكبر بعدما طرحها ألكسندر سولجنستين Alexandre Soljenitsyne سنة 1990 و الذي يعتبر أشهر معارض سياسي روسي للحكم الشيوعي ( منشق dissident) و أحد أكبر دعاة العودة إلى التقاليد

السلافية و الأرثوذكسية في مقاله الشهير " كيف نعيد تهيئة بلدنا روسيا Comment réaménager notre Russie" و أعاد طرحها بعدها بسنوات في كتابه " المشكلة الروسية في نهاية القرن العشرين".<sup>1</sup>

و تتلخص فكرة سولجنستين - الذي يعرف أكثر من غيره الواقع الكازاخي كونه عاش في كازاخستان التي نفي إليها في فيفري 1953 قبل وفاة ستالين بأسابيع - في ضرورة إحداث تغييرات إقليمية كبيرة لتحقيق وحدة الشعب الروسي ، حيث وقف في الدوما منددا بتخلي روسيا عن أكثر 25 مليون روسي ، تركوا لحالهم يعيشون في غربة مستحدثة و تهميش بعدما كانوا مواطنين من الدرجة الأولى نتيجة تمجيد الحكومات السابقة للشعب الروسي و لغته، ليصبحوا بعد انهيار الاتحاد السوفييتي مواطنين من الدرجة الثانية أو غرباء في بلدان ولدوا و ترعرعوا فيها. فتحول الحدود الداخلية إلى خارجية و الإدارية الى سياسية معترف بها دوليا تمّ حسب سولجنستين على حساب وحدة الشعب والدولة الروسية.<sup>2</sup>

فجمهوريات آسيا الوسطى مجتمعة كانت تحتوي على أكثر من 10 ملايين روسي أي 37% من مجمل الشتات الروسي (diaspora russe) و تستقطب جمهورية كازاخستان لوحدها أكثر من 6 ملايين روسي حسب آخر احصاء سوفييتي رسمي أجري سنة 1989، أي أنها الثانية بعد أوكرانيا التي تستقطب أكثر من 11 مليون روسي ، بينما تحتل كازاخستان المرتبة الأولى من حيث نسبة السكّان الروس، فهم يمثلون 37 % من مجمل سكّان البلد بينما لا تتجاوز نسبتهم في جمهورية أوكرانيا 13% ( أما النسب في جمهوريات آسيا الوسطى الأخرى فهي 21% في كيرخيزستان و 7.5% في طاجاكستان و 8.4% في أزيكستان و 9.5% في تركمنستان ).<sup>3</sup> و بالرغم من انخفاض نسبة المجموعة العرقية الروسية في الجمهوريات السوفييتية السابقة بعد عقد واحد من انهيار الاتحاد ، إلا أنها ظلّت مرتفعة نسبيا و بالخصوص في جمهورية كازاخستان (أنظر الجدول رقم 6 ).

<sup>1</sup>Alexandre Soljénitsyne, *Le Problème russe à la fin du XXe siècle*, (Trad., du russe par: Geneviève Johannet), Paris: Fayard, 1994. p.36.

<sup>2</sup>*Ibid.*, p.41.

<sup>3</sup> Denis Eckert " Les Russes dans "l'étranger proche" au seuil du XXIe Siècle" ,www.mappemonde.mgm.fr/num4/lieux/lieux04401.html.( consulté le 18/2/2015)

الجدول رقم 6: أعداد و نسب الروس القاطنين في دول الغريب المجاور حسب آخر إحصاء سوفيتي و بعده بعشر سنوات

| Pays         | Nombre de russes en 1989 | % dans la population totale | Nombre de russes vers 2000 | % dans la population totale |
|--------------|--------------------------|-----------------------------|----------------------------|-----------------------------|
| Arménie      | 51 555                   | 1,6                         | 14 660                     | 0,5                         |
| Turkménistan | 333 890                  | 9,5                         | 288 000                    | 6,7                         |
| Géorgie      | 341 172                  | 6,3                         | 67 671                     | 1,5                         |
| Lituanie     | 344 455                  | 9,4                         | 219 800                    | 6,3                         |
| Tadjikistan  | 388 481                  | 7,6                         | 68 156                     | 1,1                         |
| Azerbaïdjan  | 392 300                  | 5,6                         | 141 700                    | 1,8                         |
| Estonie      | 474 834                  | 30,3                        | 351 178                    | 25,6                        |
| Moldavie     | 562 069                  | 13,0                        | 576 000                    | 13,0                        |
| Lettonie     | 905 515                  | 34,0                        | 703 200                    | 29,6                        |
| Kirghizie    | 916 558                  | 21,5                        | 603 201                    | 12,5                        |
| Biélorussie  | 1 342 099                | 13,2                        | 1 145 130                  | 11,4                        |
| Ouzbékistan  | 1 653 478                | 8,3                         | 1 369 500                  | 5,5                         |
| Kazakhstan   | 6 100 000                | 37,4                        | 4 500 000                  | 30,0                        |
| Ukraine      | 11 355 582               | 22,1                        | 8 334 100                  | 17,3                        |
| <b>Total</b> | <b>25 161 988</b>        |                             | <b>18 382 296</b>          |                             |

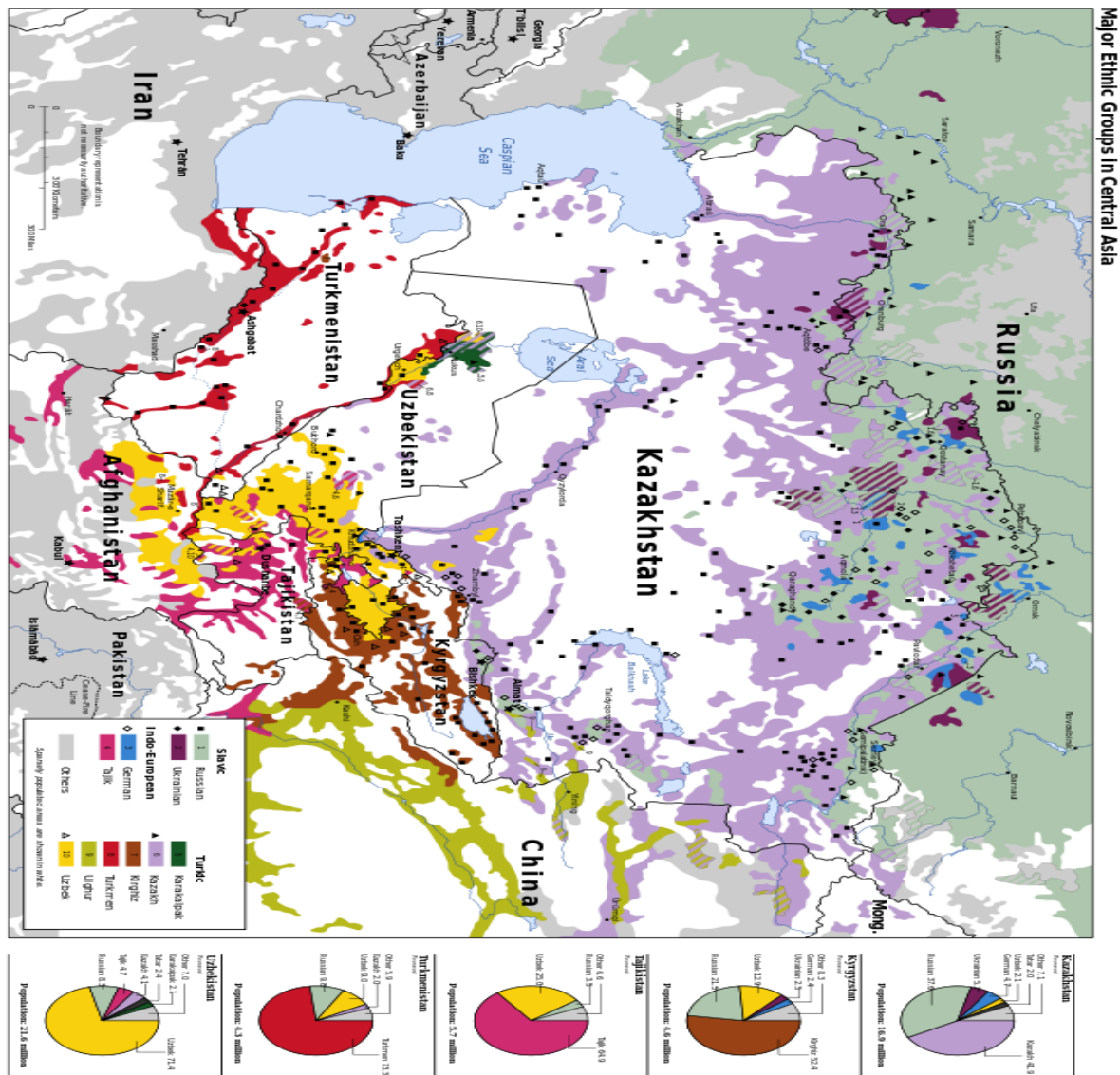
Library Of Congress, " *Major Ethnic Group in Central Asia*",

المصدر:

[www.log.gov/resource/g7211e.ct/000722/](http://www.log.gov/resource/g7211e.ct/000722/) consulté le 12/1/2014.

و لكن المشكلة بالنسبة لكازاخستان لا تتعلق بالأرقام و النسب فقط بل بمكان تواجدهم ، فهم يقطنون ، عموما، الأقاليم الشمالية المتاخمة للأراضي الروسية ، إذ تمثل المجموعة العرقية الروسية ما بين 70% الى 80% من سكّان الأقاليم الشمالية ( و بخاصة Akmolinsk ، Karaganda ، Pavlodar ، Koustanaï ، Koktchetau و شمال- كازاخستان و شرق- كازاخستان) و هذه الوضعية تخلق استقطابا عرقيا (polarisation ethnique) حقيقيا يختلف عن الحالات التي تكون فيها مختلف الأعراق متداخلة (imbrication ethnique). (أنظر الشكل رقم 16 )

الشكل رقم 16: التوزيع الجغرافي للعرقيات في كازاخستان و باقي جمهوريات آسيا الوسطى.



المصدر:

[www.relifweb.int/major-rthnic-groups-central-asia](http://www.relifweb.int/major-rthnic-groups-central-asia). consulté le 12/1/2013.

و بالتالي أصبح الرهان الأكبر لدى كازاخستان هو العمل على منع حدوث السيناريو الذي تمنّاه القوميون الروس، أي ضمّ الأقاليم الشمالية لكازاخستان بفيدرالية روسيا، و بالتالي فالسلطات الكازاخستانية، أدركت منذ الوهلة الأولى أن أكبر مهمة تنتظرها هو التخفيف من وطأة الاستقطاب العرقي عدديا و جغرافيا أي تحقيق تجانس داخلي و تعايش بين مختلف المجموعات العرقية.

غير أن السلطة السياسية الجديدة بقيادة نور سلطان ناظرباييف كانت منذ البداية أن هذه المهمة ليست بالسهلة ، لأن الأمر الذي كان صعبا تحقيقه في زمن الاتحاد السوفييتي رغم إمكانياته المادية الكبيرة و إيديولوجيته الأممية ( الشيوعية) المتجاوزة للانتماءات العرقية سيكون تحقيقه بالضرورة أصعب بالنسبة لجمهورية فتية تريد ترسيخ استقلالها و سيادتها من خلال التأكيد على الهوية و التميز القومي.

و لكي نفهم حجم المعضلة العرقية و تهديد العامل الروسي على مدركات الشعب الكازاخي حديث الاستقلال، يكفي أن نستطلع مخاوف الطبقة المثقفة الكازاخية من تأثيرات التنوّع العرق على سيادة الدولة و استقلال قرارها السياسي عن روسيا الفيدرالية، إذ اعتقد الكثير من القوميين الكازاخ أن استقلال البلاد الحقيقي لن يتمّ دون تقليص أعداد الروس القاطنين في كازاخستان، إلى الحدّ الذي جعل المؤرخ الكازاخي Z.Kinaiatouly يقترح على الحكومة أن تسعى جاهدة لكي تصبح نسبة الكازاخ أكبر من 60 % من مجمل سكّان البلاد، بينما رأى الديمغرافي الكازاخي و عضو الإدارة الرئاسية الأسبق M.K.Tatimov أنّ حل المعضلة العرقية يتمثّل في تقليص عدد الروس حيث صرّح سنة 1996 أن: "الحلّ الأمثل بالنسبة للروس القاطنين في كازاخستان هو أن تقترب أعدادهم من واحد مليون نسمة، بحيث يصبحون غير قادرين على تشكيل ضغط ديمغرافي أو فرض لغتهم القومية و تدمير ثقافتنا الكازاخية كما فعلوها سابقا"<sup>1</sup>

و يعتقد الكثير من الخبراء في الشؤون السوفييتية أنّه لا يمكن فصل أي سياسة عرقية في كازاخستان عن ما يحدث في الجهة المقابلة لأقاليمها الشمالية أي فيدرالية روسيا، فتنامي النزعة العرقية أو ضعفها مرتبط بدرجة كبيرة بطبيعة التوجهات الجيوسياسية و الخطاب القومي الروسي، حيث يرى بريزنسكي أنّ : " ان أي سياسة روسية تجاه روس الشتات diaspora russe القاطنين في الأقاليم الشمالية لكازاخستان ، يستشعر فيها الكازاخ رغبة روسية في تقسيم البلد، سيكون من نتائجها خلق ديناميكية معادية للروس و تعزيز للقومية الكازاخية ، تماما كما يحدث بالنسبة لأوكرانيا و بيلوروسيا"<sup>2</sup>.

<sup>1</sup>Marlène Laruelle et Sébastien Peyrouse, *Les Russes du Kazakhstan, op.cit.*, p.135.

<sup>2</sup>Zbigniew Brzezinski, *Le grand échiquier, op.cit.*, p.152.

## المطلب الثاني: تأثير المعضلة العرقية على السياسة الداخلية في كازاخستان.

تعتبر كازاخستان واحدة من أكثر الدول السوفييتية التي حافظت على علاقات طيبة و ودية مع "المستعمر السابق" روسيا، و هذا بالرغم من تبنيها لإيديولوجية قومية-عرقية قائمة على التمييز بين الأعراق و القوميات التي تتشكل منها، و هي بذلك لا تختلف عن بقية الجمهوريات الوسط آسيوية. و لكنّ هذا التمييز العرقي لم يبلغ المستويات التي وصل إليها في جمهوريتي تركمنستان و أوزبكستان، بل كان تمييزا نسبيا ارتبط بطبيعة النظام السياسي التسلطي.

كانت كازاخستان آخر جمهورية سوفييتية تعلن استقلالها في ديسمبر 1992 لأنها كانت تخشى من التقسيم و التجزأة أكثر من غيرها، فحدودها الشمالية مع روسيا تتجاوز 6000 كم ( و هي أطول حدود برية تجمع دولتين) و مدنها الشمالية تقطنها أغلبية روسية واضحة، و لهذا فانهار الاتحاد السوفييتي شكّل لها مفاجأة صادمة عكس الجمهوريات الأخرى، كما أن هذا الاستقلال تمّ في مرحلة اتسمت بالاضطراب<sup>1</sup> حسب Jack Rosenau ، فاستقلال جمهوريات الاتحاد السوفييتي لم يكن نتيجة لحرب تحريرية بل كان نتيجة لتخلي المركز عن أقاليمه الطرفية. و المنتبّع لواقع العلاقات بين روسيا و جمهوريات آسيا الوسطى -كما بيّنّا ذلك في الفصل الثالث- سيكتشف حجم الاحتقار الذي كان الروس يحملونه تجاه شعوب آسيا الوسطى و بخاصة في مرحلة البريسترويكا، و لهذا فإن المزاج العام الذي كان يميّز الطبقة السياسية الروسية نحو هذه المنطقة كان سلبيا فحسب محمد رضا جليلي " لم يكن مستغربا في ظل هذا المناخ أن تنأى روسيا بنفسها عن هذه المنطقة التي أصبحت تعتبرها محافظة، شبه إقطاعية و فاسدة، بينما كانت جمهوريات آسيا الوسطى المذهولة من انهيار الاتحاد تسعى للحفاظ على الوضع السابق أي الإبقاء على ارتباطاتها مع المركز و كان هذا الموقف أوضح بالنسبة لكازاخستان التي كان رئيسها نور سلطان نازباييف الذي تتواجد في بلده أقلية روسية كبيرة أكثر القادة تشبها بالاتحاد و من بعد ذلك برابطة الدول المستقلة"<sup>2</sup>

فوجود أقلية روسية كبيرة في كازاخستان، فرض على الرئيس نازرباييف ( الذي لا يزال إلى غاية اليوم رئيسا لكازاخستان ) تبني سياسة خارجية يميّزها الحذر الشديد، و تفهم متطلبات الأمن الروسي، ممّا جعل الرئيس الروسي فلاديمير بوتين يثني عليه و يعتبره " الزعيم الأكثر حكمة و حذرا في كلّ الفضاء السوفييتي" و بوتين يريد من خلال هذا الثناء تمرير رسالة قوية مفادها أنّ روسيا لن تتسامح مع الدول التي تريد الانخراط في توجّهات مناوئة للمصالح الروسية.

<sup>1</sup>Jack Rosenau , *Turbulence in world politics: a theory of change and continuity*, New York: Harvester Weatsheaf, 1990.

<sup>2</sup>Mohammad-Reza Djalili, Thierry Kellner, *Géopolitique de la nouvelle Asie centrale*, op.cit., p.75.

و لهذه الأسباب فلقد كان محور السياسات التي تبناها نور سلطان نازرباييف يقوم على تكريس استقلال كازاخستان أولا و لكن دون أن يتحدّى المصالح الروسية. فتحليل مختلف القرارات و السياسات المتخذة من قبل القيادة الكازاخستانية يظهر لنا حجم المخاوف التي تميّز بها صنّاع القرار.

- **انتهاج النموذج الوحدوي و إنشاء عاصمة جديدة :** فلقد استشرع الرئيس الكازاخستاني الخطر الذي يهدّد كازاخستان، و هو خطر التقسيم و فصل شمال البلاد المتروّس عن جنوبها الآسيوي و بداية حركة قوزاقية تطالب بإلحاق الأقاليم الشمالية بروسيا، و كرد فعل استباقي لتعاضد هذه المطالب صاغت السلطات في كازاخستان دستورا جديدا يؤكّد على وحدوية الدولة وفقا للنموذج الفرنسي اليعقوبي القائم على مركزية الدولة و تقليص صلاحيات حكام الأقاليم. و كان تحويل عاصمة البلاد من ألما أتا ( Almaty ou Alma Atta ) الواقعة في الجنوب الشرقي لكازاخستان إلى أستانة (Astana) الواقعة في شمال البلاد في ديسمبر 1997 كأهم قرار احترازي بالغ الذكاء، فبالرغم من حالة الاقتصاد المتردّي نتيجة الاختلالات الهيكلية التي أصابت اقتصاد كازاخستان بفعل الانهيار المفاجئ للاتحاد السوفييتي لم يتردّد نور سلطان نازرباييف في تسريع وتيرة بناء العاصمة الجديدة ، و التي كان الغرض منها تعديل التفاوت بين العرق الروسي و الكازاخي. فالعاصمة الجديدة استدعت بالضرورة انتقال عشرات الآلاف من الكازاخ نحو الشمال لتحجيم القوة الديمغرافية الروسية.<sup>1</sup>

- **التأكيد على المواطنة الكازاخستانية:** و بما أنّ الرئيس الكازاخستاني كان يدرك أهميّة العنصر الروسي و عدم قدرة البلاد على تعويض النزيف الديمغرافي الذي تضاعف بعد استقلال كازاخستان فلقد جعل الانتماء إلى الوطن يتجاوز الانتماء إلى العرق. ففي السابق كان الروس القاطنون في كازاخستان لا يشعرون بالتمهيش و الغربة لأنّهم كانوا قبل كلّ شيء مواطنين سوفييت و ينتمون إلى العرق السائد و هو " العنصر الروسي " ، و زاد من اعتزازهم بهذا الانتماء شعورهم بالتفوّق و التميّز السياسي و اللغوي و الثقافي بفضل عقود من سياسات الترويس المستمرة. و لكنّ هذا التميّز انهار بين عشية وضحاها بعد استقلال جمهورية كازاخستان و انتهاجها لإيديولوجية قومية-عرقية و التي تظهر أوّل ما تظهر في السياسة اللغوية ( أنظر المطلب الخاص بحصيلة السياسات اللغوية)، و بالتالي فلقد أصبح معيار الانتماء إلى البلد ( الجنسية و المواطنة *nationalité et citoyenneté*) متجاوزا الانتماء إلى العرق و الثقافة فكلّ من يقطن أرض كازاخستان و يعتبر نفسه مواطنا فيها يعتبر كازاخستانيا (kasakhstanais) في الوقت الذي يعتبر كازاخي (Kasakh) كاذ من ينتمي للعرق و الثقافة

<sup>1</sup>Adrien Fauve, "Astana, nouvelle capitale du Kazakhstan: entre mythe et réalités", [www.regards-est.com/home/breve-contenu.php?id=783](http://www.regards-est.com/home/breve-contenu.php?id=783). Consulté le 15/12/2014.

الكازاخية ، بل إنّ السلطات في كازاخستان تريد استبدال تسمية "كازاخستان" التي تترجم حرفيا من التركية و الفارسية إلى العربية ببلاد الكازاخ (pays des Kasakhs) و هو ما يتنافى مع تنوع الدولة القومي و الديني. و لكنّ هذا لا يمنع الدولة في كازاخستان من التأكيد على دور و مكانة " السكّان الأصليين" أي الكازاخ الذين كانوا الوعاء الذي لمّ شمل 130 مجموعة عرقية و التأكيد على دور الثقافة الكازاخية " المعتدلة و المتسامحة" مع العناصر الوافدة. و ضمن هذا التوجّه يمكننا فهم الترتيبات المتلاحقة المعدّة من قبل السلطات الكازاخستانية ، كتشكيل مجلس شعوب كازاخستان برئاسة نور سلطان نازرباييف و يعنى بقضايا التعايش بين القوميات المشكّلة لكازاخستان.<sup>1</sup>

- **التأكيد على مبدأ الحوار بين الديانات و الثقافات:** كما سنّت السلطات تقاليد جديدة للتعايش الديني من خلال هيئات رسمية تجتمع ثلاثة مرّات في السنة تناقش فيها المشاكل العالقة، و ضمن هذا الإطار كذلك استضافت كازاخستان في جويلية 2009 مؤتمر الديانات العالمية و التقليدية و التي أراد نور سلطان نازرباييف من خلاله أن يصوّر كازاخستان كوريثة للتقاليد التركو-منغولية المشجّعة للتعايش بين الديانات و القدرة على استيعاب و استقطاب الثقافات المختلفة. و كازاخستان هنا تستدعي تجارب سابقة سمحت بالحرية الدينية و تعايش أبناء الديانات المختلفة في وطن واحد على غرار تجربة جنكيز خان مؤسس الإمبراطورية المغولية في القرن الثالث عشر و السلطان أكبر أشهر ملوك الدولة المنغولية في الهند في القرن السادس عشر. و يرجع اهتمام نازرباييف بالعامل الديني إلى تخوّفه من أن يصبح عاملا مؤجّبا للصراع بين القوميتين الأساسيتين في كازاخستان و هما الكازاخ و الروس، فإلى جانب بروز العامل العرقي نتيجة فشل المشروع الأممي المتجاوز للأعراق، فإنّ انهيار الاتحاد السوفييتي السوفييتي القائم على الإلحاد الرسمي أو "إلحاد الدولة athéisme d'Etat" عزّز حركة الإحياء الديني لدى مسلمي كازاخستان و هم ينتمون إلى العرق التركي و مسيحييها الذين ينتمون إلى العرق الروسي أساسا، ممّا خلق استقطابا دينيا غدّته الهوية العرقية.<sup>2</sup>

حاول الخطاب السياسي الرسمي طمأنة المواطنين ذوي الأصول الروسية، لكنّ الواقع يختلف عن الخطاب، لأنّ مخاوف الروس القاطنين في كازاخستان كانت كبيرة و ساهمت السياسات التفضيلية للعرق الكازاخي في تأجيحها، و من هذه السياسات فرض اللغة الكازاخية كشرط للتوظيف و الترقية و منع المدارس الروسية (الخاصة بالمواطنين الكازاخ من أصول روسية) و التي تقدّم الدروس فيها باللغة

<sup>1</sup>Sanat Kuskumbaev, "L'identité ethnique et la politique d'intégration sociale au Kazakhstan", *Cahiers d'Asie centrale*, n.19-20, 2011, p.465

<sup>2</sup>Eurasian Council, "Tolérance religieuse et intégration: Un modèle pour les Etats multiethnique?", [www.eurasiancouncilforeignaffairs.eu/fr/2014/08/19/20-08-2014/tolerance-religieuse-ethnique.consulté](http://www.eurasiancouncilforeignaffairs.eu/fr/2014/08/19/20-08-2014/tolerance-religieuse-ethnique.consulté) le 16/11/2014.

الروسية استخدام المقررات و المناهج الروسية و فرض الكازاخية، و هو ما أثار استياء الروس لأنّ المقررات و إن كانت باللغة الروسية إلّا أنّها حاولت فرض تصوّر للثقافة و التاريخ يمجدّ العرق الكازاخي و يُظهر الفترتين القيصرية و السوفييتية بمظهر استعماري مقيت، و يمتد إلى طبيعة القومية الكازاخستانية و يعتبرها تعبيراً عن الثقافة المحليّة للعرق الكازاخستاني، مع التأكيد طبعاً على مميّزات العرق الكازاخي المتسامح و المتقبّل للغير و ثقافته، أي التأكيد على قدرته على استيعاب الأعراق الأخرى و دمجها في بوتقة صاهرة.<sup>1</sup>

و لكنّ تحجيم التهديد الروسي لا يمكن تحقيقه من خلال تحسين أوضاع الروس القاطنين في كازاخستان سواء تعلّق ذلك بأوضاعهم المادية أو الثقافية و لكن ذلك يمتد إلى طبيعة السياسة الخارجية المنتهجة من الكازاخ و طبيعة توجهاتهم الجيوسياسية الجديدة.

### المطلب الثالث: السياسة الخارجية كأداة للاندماج الداخلي و تحجيم للتهديد الروسي.

لم تقتصر السلطات الكازاخستانية في تسييرها للمعضلة العرقية على أدوات السياسة الداخلية لأنّها لن تكون كافية لتجنّب انقسام البلد و انفصال إقليمه الشمالي الذي تقطنه أغلبية عرقية روسية. فكازاخستان توجّب عليها بعد استقلالها مراعاة مواقف الدولة الروسية و متطلباتها الأمنية و الاقتصادية بنفس الدرجة (أو أكثر) من مراعاتها لأوضاع أقلّيتها الروسية. و هو ما يؤكّده الخبراء الروس و على رأسهم منظر الأوراسية الجديدة ألكسندر دوغين في ردّه حول مخاوف البعض من احتمال غزو الجيوش الروسية لشمال كازاخستان كما فعلت في أوكرانيا و جورجيا:

" إنني أعرف جيداً كازاخستان و لهذا يمكنني القول و بكل تأكيد أنّه لن يندلع أي نزاع بين البلدين، فالرئيس نور سلطان ناظرباييف استشعر (avait pressenti) الحالة التي آلت إليها الأوضاع في كلّ من أوكرانيا و جورجيا، فكان الرئيس الأول الذي فهم جيداً المنطق أو القانون الأساسي الذي يتحكّم في دول الاتحاد السوفييتي سابقاً، و هو أنّ السلامة الإقليمية و الوحدة الترابية لكلّ دولة مرتبط أساساً بنوعية علاقاتها مع روسيا الفيدرالية ، فإذا كانت هذه العلاقات مقبولة ( من قبل روسيا بالطبع) ، فهذا يعني أنّ وحدتها الترابية مضمونة و لا خوف عليها من التقسيم"<sup>2</sup>

فامتنت كازاخستان قدر الإمكان و أكثر من أيّ جمهورية سوفييتية سابقة- عن اتخاذ مواقف و سياسات متعارضة مع المصالح الروسية، لإدراكها المسبق لردود أفعال روسيا الاتحادية. و يمكننا إجمالاً تفسير هذه السياسات في عنصرين أساسيين: أولاً: "فهم" لطبيعة الدولة الروسية من عوامل محدّدة و

<sup>1</sup>Marlène Laruelle et sébastien Peyrouse, *Les Russes du Kazakhstan*, op.cit., p.129.

<sup>2</sup> Alexandre Douguine " Nous avons besoin d'une Europe indépendante des Etats-Unis", [www.blogelements.com/Typepad.fr/blog/2014/03/alexandre-douguine-nous-avons-besoin-dune-europe-sans-les-etats-unis.html](http://www.blogelements.com/Typepad.fr/blog/2014/03/alexandre-douguine-nous-avons-besoin-dune-europe-sans-les-etats-unis.html). consulté le 12/08/2014.

فواعل مؤثرة و لخصوصية الثقافة السياسية الروسية المعقّدة، و ثانياً): "تفهّم" لمكانة روسيا و دورها المحوري في المنطقة خصوصاً و في الفضاء السوفييتي عموماً.

و يُبرز النزاع الحاصل في أوكرانيا و ضمّ روسيا الفيدرالية لشبه جزيرة القرم الحذر الذي تتسمّ به السياسة الخارجية الكازاخستانية، فبالرغم من أنّ روسيا اتخذت إجراءات متطرّفة و لم ترع مخاوف الجمهوريات المستقلة، و بخاصة الدول التي تعيش فيها أقلّية روسية كبيرة ككازاخستان، إلّا أنّ هذه الأخيرة امتنعت عن شجب القرارات التوسّعية الروسية. و فضّلت أن تلعب دور الوسيط المقرب لوجهات النظر و تشارك في المؤتمرات الدولية الساعية لحلّ هذه الأزمة. و لعلّ الأزمة الأوكرانية التي أفردنا لها مطلباً هي الأزمة الكاشفة لطبيعة المشاريع الأمنية و الجيوسياسية الروسية، التي لا تريد روسيا من أي جمهورية سوفييتية سابقة أن تعترض عليها أو تتخربط في سياسات مناوئة.<sup>1</sup>

و من خلال دراسة طبيعة العلاقات التي كانت تربط دول الاتحاد بعضها ببعض و علاقاتها مع روسيا بالتحديد يمكننا القول أنّ كازاخستان هي الدولة التي سعت أكثر من غيرها من الدول قصد الإبقاء على حدّ أدنى من التعاون و الاندماج بين دول الاتحاد منذ استقلالها.

#### - التوجّه الأوراسي: الرهانات و النتائج.

راهن الرئيس الكازاخستاني على سياسة اندماجية نشطة و أن تكون كازاخستان السبّاقة لأي مبادرة تعاونية في الفضاء السوفييتي، و لهذا اعتبر ناظربرايف قمة منسك التي جمعت رؤساء كلّ من روسيا، أوكرانيا و روسيا البيضاء في الثامن من ديسمبر 1991 و التي تمّ فيها تأسيس رابطة الدول المستقلة (CEI) " إهانة للعزة القومية للجمهوريات الآسيوية " لأنّها تمّت دون حضور رؤساء الجمهوريات المستقلة الأخرى. فهو الذي أقنع رؤساء الجمهوريات الآسيوية الأخرى بالالتحاق بقمة منسك في الثاني عشر و الثالث عشر من ديسمبر 1991 و طالب الدول السلافية الثلاثة أن تعتبر الجمهوريات الآسيوية كأعضاء مؤسسين للرابطة و متساوين من الناحية القانونية مع غيرهم من الجمهوريات، و لينجح في عقد قمة أخرى في الواحد و العشرين من ديسمبر (أي بعدها بأقل من عشرة أيّام) ضمّت كلّ جمهوريات الاتحاد ماعدا دول البلطيق و جورجيا التي دخلت في حرب أهلية انفصالية (أوسيتيا و أبخازيا). و تسمح لنا المسارات التي عرفتتها هذه الرابطة بفهم مختلف التوجّهات الخاصة بدول آسيا الوسطى و بكازاخستان على وجه التحديد، ففي الوقت الذي سارت كلّ من تركمنستان و أوزبكستان في اتجاهات بعيدة عن النفوذ الروسي ، سواءً أكان بانتهاج سياسة العزلة و الحياد كما فعلت تركمنستان أو سياسة دفاعية مستقلة كما فعلت أوزبكستان رأت كازاخستان أنّ ظروفها و موقعها لا يسمحان لها بتاتا أن تعتمد على سياسة مخالفة للتوجّهات الروسية، ففي المجال الدفاعي قامت كازاخستان بإعادة كل ترسانتها النووية

لروسيا، كما سمحت لها بالاحتفاظ بمحطة إطلاق الصواريخ في بايكونور و قاعدة الصواريخ الدفاعية في ساري شاجان الاستراتيجية. و في الخامس عشر من ماي 1992 تمت المصادقة على اتفاقية طشقند للأمن المشترك (TSC).

كما أنّ كازاخستان هي أول من اقترح على الدول الأخرى تأسيس اتحاد أورآسيوي سنة 1994 يجمع دول آسيا الوسطى بروسيا ، أي قبل أن يتم طرحه من قبل فلاديمير بوتين بأكثر من عقد من الزمن، و الذي رأى ناظرباييف فيه بديلا عن رابطة الدول المستقلة التي فشلت في تحقيق أهدافها الأولية. و كانت الغاية من هذا الاتحاد تشكيل منطقة للتبادل الحر على شاكلة النموذج الأوروبي. لكنّ روسيا رفضت هذا المقترح لأنّها كانت تريد اتحادا آخر يجمعها بأوكرانيا، روسيا البيضاء و كازاخستان، و في هذا الإطار لم تكن كازاخستان تريد من هذه المشاريع الاندماجية أن تبرز كقوة إقليمية تستجمع فيها أدوات نفوذها بل رأى فيها عاملا للتوحيد يمنع الفوضى و يزيل مخاوف الانقسام، و هو ما تؤكّده Wanda Dressler في تحليلها للتوجّهات الأورآسيوية المبكرة للرئيس ناظرباييف:

" لم يكن ناظرباييف ينظر إلى أوراسيا كتصوّر جيوسياسي محض و لكن اعتبره كإسمنت مشترك كان بإمكانه حماية جمهوريات آسيا الوسطى من الوقوع في الفوضى ، و إطارا يسمح بإدامة الوفاق صعب التحقيق بين الأعراق القاطنة في كازاخستان في مرحلة انتقالية تشجّع على انتشار التطرف، فأوراسيا تبدوا و كأنّها و هم أو يوتوبيا أمنية و لكنّها في حقيقة الأمر هي سياسة معقولة للتكيف مع الظروف الطارئة التي تشكّلت بفعل انهيار الاتحاد السوفيتي"<sup>1</sup>

و في سنة 2000 كانت كازاخستان من الدول الموقعة على إنشاء الرابطة الاقتصادية الأورآسيوية (Communauté économique eurasiatique أو Eurasec) و هي منظمة جمعت أغلب جمهوريات الاتحاد سابقا و اتخذت من موسكو مقرا لها بالرغم من إلحاح كازاخستان على أن تكون هي دولة المقرّ و كان الغرض منها دفع هذه الدول إلى تعزيز السياسات الجمركية المشتركة و الدفع بالدول إلى التحضير إلى مسارات أكثر إندماجا أي توحيد السياسات الاقتصادية، و في سنة 2002 و بالنظر إلى انتشار الحركات الإسلامية الراديكالية و انخراط معظم الجمهوريات المستقلة في الحرب على الإرهاب استغلّت روسيا هذا الظرف لتعزيز اتفاقية طشقند للأمن المشترك و تحويلها إلى منظمة دفاعية مقرّها موسكو أطلق عليها منظمة اتفاقية الأمن المشترك (OTSC) و ضمتّ هذه المنظمة حين تأسيسها ستة دول هي: روسيا، كازاخستان، روسيا البيضاء، أرمينيا، كيرخيزستان و طاجاكستان ، و أوكلت إليها مهام متعدّدة كان من أهمّها ترقية الاندماج العسكري و التعاون التقني بين الدول الأعضاء و إطارا للرد على التهديدات المشتركة و بخاصة الحركات الانفصالية، الارهاب و تجارة المخدرات و بالفعل فلقد

<sup>1</sup> Wanda Dressler, "L'identité eurasiennne kazakhstanaise" , in Wanda Dressler (dir.), Eurasie: Espace mythique ou réalité en construction, Bruxelles, Emile Bruylant, 2009, p.266.

استتدت رئاسة كيرخيزستان في جوان 2010 إلى هذه الاتفاقية لطلب المساعدة و إنهاء النزاع العرقي  
الحاصل في منطقة أوش بين الأزيك و الكيرخيز.

و في هذه المرحلة بالذات تبلورت ملامح التوجّه الأوراسي لدى روسيا و الذي يمكننا أن نؤرّخ لها في  
العهد الثانية لفلاديمير بوتين (2004 – 2008) و تعزّزت أكثر في فترة رئاسته للحكومة الروسية  
(2009-2012) و هنا بدأ التوجه الأوراسي الروسي يتقاطع مع مثيله في كازاخستان بحيث أصبحت  
الدولتين تسيران تماما في نفس المسار و لكن بأهداف و رهانات مختلفة و هو ما يظهر من خلال  
تأسيس الاتحاد الجمركي (l'Union Douanière) في الفاتح من جانفي 2010 و الذي ضمّ كلّ من  
روسيا، كازاخستان و روسيا البيضاء. و لأن هذا الاتحاد تمّ تجسيد بنوده على الأرض و ظهرت نتائجه  
فعليا، فيمكننا من خلاله فهم أهداف كازاخستان من الانضمام إليه و طرح التساؤل التالي : هل كان  
الانضمام إلى هذا الإتحاد مبرّر من الناحية الاقتصادية أو أنّ له مبررات أخرى؟

بالرغم من معارضة الاقتصاديين الكازاخستانيين و قسم كبير من الشعب لهذا المسار إلّا أنّ الرئيس  
الكازاخستاني كان مصرّا على المضي في تجسيده قداما، فلقد بيّنت استطلاعات للرأي العام أعدت في هذا  
السياق أنّ 56 % من المستجوبين كانوا رافضين لهذا الاتحاد، و لم يدم الوضع طويلا لتظهر أولى  
النتائج السلبية لهذا الاتحاد على إقتصاد البلد و المواطن الكازاخستاني، و السبب يعود إلى بنود هذه  
الاتفاقية التي أوصت برفع التعريف الجمركية على السلع و البضائع القادمة من دول غير الدول الأعضاء  
في الاتحاد ممّا أدى إلى زيادة أسعارها إلى مستويات قياسية في كازاخستان، حيث بلغ معدّل التضخّم 7  
% في 2011 و 6% في 2012 و ارتفعت أسعار بعض السلع الأساسية كالسكر و الزيوت النباتية و  
الألبان و اللحوم إلى ضعف ما كانت عليه قبل البدء في تطبيق هذه الاتفاقية.<sup>1</sup>

كما أنّ الذين اعترضوا على الاتحاد الأوراسي استندوا إلى اعتبارات أخرى تتعلّق بحجم المبادلات  
التجارية لكازاخستان مع بقية الدول الأعضاء، فهي حسبهم ضعيفة و لا تبرّر كلّ الدعم و التسويق الذي  
لاقتّه من قبل السلطات الكازاخستانية، و هم محقون إذا أخذنا الأمر من زاوية إقتصادية بحتة، فجّل  
مبادلات كازاخستان تتم مع دول لا تنتمي أصلا للفضاء السوفييتي (أنظر الجدول رقم 7).

---

<sup>1</sup> Hélène Rousselot, " Le Kazakhstan et l'Union eurasiatique: Quels sont les enjeux de l'adhésion"  
,www.diploweb.com/le-kazakhstan-et-l-union-eurasiatique.html. consulté le 14/02/2015.

الجدول رقم 7: مبادلات كازاخستان التجارية مع الدول الموقعة على الاتحاد الجمركي و مع بقية الدول

|               | الصادرات مقدرة بملايين الدولارات |                  | التغيرات % | الواردات مقدرة بملايين الدولارات |                  | التغيرات % |
|---------------|----------------------------------|------------------|------------|----------------------------------|------------------|------------|
|               | جانفي - أوت 2013                 | جانفي - أوت 2014 |            | جانفي - أوت 2013                 | جانفي - أوت 2014 |            |
| روسيا البيضاء | 45.5                             | 20.3             | - 55.4 %   | 397.1                            | 398.3            | 0.3 %      |
| روسيا         | 4072.5                           | 3302.5           | - 18.9 %   | 11127.3                          | 8713.9           | - 21.6 %   |
| خارج CEI      | 49986.8                          | 47797.3          | - 4.3 %    | 16938.9                          | 15405.9          | - 9 %      |

المصدر: H  l  ne Rousselot, " Le Kazakhstan et l'Union eurasiatique: Quels sont les enjeux de l'adh  sion", [www.diploweb.com/le-kazakhstan-et-l-union-eurasiatique.html](http://www.diploweb.com/le-kazakhstan-et-l-union-eurasiatique.html). consult   le 14/02/2015.

فالاتحاد الأوراسي يختلف عن جميع المنظمات الاقتصادية الاندماجية ، لأنّ التجارب الناجحة هي تلك التي تتمثل فيها المبادلات ما بين أعضائها قسما معتبرا من مجمل مبادلاتها الخارجية، و أحسن مثال هو الاتحاد الأوروبي الذي بلغ مستوى التجارة البينية لأعضائه (التجارة الداخلية) ما يقارب 60% من مجمل مبادلاته ، و بلغت النسبة في منظمة ( ALENA ) ما يقارب 43% من مجمل مبادلاتها.(أنظر الشكل رقم 17).

الشكل رقم 17: مستوى المبادلات الداخلية في أهم المنظمات الاندماجية مقارنة بالاتحاد الأوراسي.



المصدر: Hélène Rousselot, " Le Kazakhstan et l'Union eurasiatique: Quels sont les enjeux de l'adhésion" ,[www.diploweb.com/le-kazakhstan-et-l-union-eurasiatique.html](http://www.diploweb.com/le-kazakhstan-et-l-union-eurasiatique.html). consulté le 14/02/2015.

و تقدّم لنا كلّ هذه البيانات دليلاً على انتفاء المبرر الإقتصادي، و لهذا فالتوجّه الأوراسي الذي تبناه نور سلطان ناظرباييف، هو توجّه جيوسياسي أمني محض، يسعى للحفاظ على التوازن الداخلي من خلال الحفاظ على علاقات متينة مع روسيا الفيدرالية، و هو الخيار الذي يتلاءم أكثر مع الحالة الكازاخستانية فهو ينطلق من فهم لطبيعة السياسة الخارجية الروسية التي أصبحت أكثر عدوانية تجاه الدول المنخرطة في المسارات المناوئة لتوجهاتها و طموحاتها. و هذه السياسة هي نتويج للمبدأ الذي سارت فيه كازاخستان منذ استقلالها و هو الحذر و عدم التورّط في تحالفات جديدة لا تدرك مخاطرها.

## استنتاجات الفصل الخامس.

يعتبر الاستقطاب العرقي بين الكازاخ الذين يمثلون القومية الأصلية و الروس أبناء المعمرين الوافدين على المنطقة، أخطر تحدّ واجه جمهورية كازاخستان المستقلة ، فاضطرت السلطات إلى التعامل معه بطريقة حذرة كما بينت نتائج الدراسة:

- تعدّ كازاخستان الجمهورية الأكثر تنوعاً من الناحية العرقية مقارنة بالجمهوريات السوفييتية الأخرى.

- ترجع أسباب هذا التنوع إلى طبيعة الأقاليم الكازاخية و رغبة الاستعمار الروسي القيصري في استغلال المساحات الشاسعة من الأراضي الزراعية و الرعوية.

- كما يعود إلى رغبة الساسة السوفييت في تحويل كازاخستان إلى مخبر حقيقي لصهر مختلف الأعراق و صهرها في بوتقة واحدة هي البوتقة السوفييتية أو الإنسان السوفييتي.

- أدّت هذه السياسات إلى جعل السكّان الأصليين أقلّية في بلدهم بفعل حملات الإبادة و التهجير الإجباري.

- و بعد عقود طويلة من الترويس اعتقد السوفييت أنّ مشروعهم قد نجح، إلّا أنّ أحداث ديسمبر 1986 و بروز المطالب العرقية أظهرت فشل هذا المشروع و بداية التحوّل في العلاقة بين الجمهوريات الطرفية و المركز موسكو.

- كازاخستان هي آخر جمهورية سوفييتية أعلنت استقلالها لأنها كانت تخشى أن تؤدي الظروف الجديدة إلى انفصال الأقاليم الشمالية و انضمامها إلى روسيا، خاصة أنّ هذه الفرضية كانت مطروحة من قبل القوميين الروس قبل انهيار الاتحاد السوفييتي.

- تبنّت النخبة السياسية الحاكمة- و التي هي نتاج للتجربة السياسية السوفييتية- أيديولوجية قومية-عرقية أي تمييز القومية الأصلية عن باقي القوميات، و هو ما جعل الروس القاطنين في كازاخستان يشعرون بالتهميش و الإقصاء و دفع العديد منهم يعودون إلى موطنهم الأصلي روسيا الفيدرالية.

- و نتيجة لعودة المطالب الانفصالية و بروز التيارات الاستقلالية في كازاخستان و روسيا اضطرت السلطات الكازاخستانية إلى التخفيف من حدة السياسات التأميمية ( تأميم اللغة، تأميم التاريخ) حتى تتجنّب ردود الأفعال المناوئة.

- و من بين الحلول التي تبنتها السلطات الكازاخستانية تحويل عاصمة الدولة من الجنوب ( ألما أتا) إلى الأقاليم الشمالية ( أستانا) لتخفيف درجة الاستقطاب العرقي ديمغرافيا و لمنح الإدارة المركزية قدرات أكبر على مراقبة الأقاليم الشمالية المتروّسة و التحكم فيها.
- لكنّ أهمّ تحدّد بالنسبة لصانع القرار في كازاخستان هو التكيّف مع توجهات السياسة الخارجية الروسية التي أصبحت أكثر ميلا إلى توظيف الأقليات الروسية ( روس الشتات) للضغط على الجمهوريات السوفييتية و فرض مشاريعها الاندماجية عليها.
- و من خلال التمعّن في طبيعة النزاعات العرقية التي شهدتها الفضاء السوفييتي و بخاصة في الجمهوريات التي تقطنها أقليات روسية كبيرة يمكننا استخلاص أنّ كازاخستان استطاعت أن تصوغ سياسة خارجية أكثر حذر و تعقّل من مثيلاتها في أوكرانيا، جورجيا و مولدافيا التي استطاع الروس اقتطاع أجزاء واسعة من أقاليمها مستغلّين مبدأ الحق في تقرير مصير السكّان الروس القاطنين في تلك الدول.
- و للحفاظ على استقرار كازاخستان و وحدتها الترابية اعتمد الرئيس الكازاخستاني على سياسة الانخراط في جميع الترتيبات الجيوسياسية التي أعدتها روسيا الفيدرالية.
- و لقد بيّنت الدراسة أنّ مختلف المنظمات الاندماجية التي انخرطت فيها كازاخستان لم تكن تخضع لمنطق العقلانية الاقتصادية بل كانت استجابة لمخاوف سياسية و أمنية.
- و بالتالي فالنموذج الكازاخستاني هو النموذج الأكثر ملاءمة لفهم دور المسائل العرقية و طرق تسييرها.

## الخاتمة.

تمثّل دراسة العامل العرقي و دوره في استقرار الدول الهدف الأول لهذه الدراسة، و لفهم هذا الدور و تأثيره كان لا بد لهذه الدراسة أن تجيب عن جملة من الأسئلة الموضوعية لفهم طبيعة العلاقة الجدلية بين الانتماء العرقي و التنافس السياسي.

فكان من الضروري جرد جميع المقاربات النظرية المفسّرة للظاهرة العرقية سواء كانت مقاربات طبيعية و بيولوجية على غرار المدرسة البريموردالية أو مقاربات أخرى تنظر للمجموعة العرقية كبناء اجتماعي، و تبيّن من الدراسة حدّة التباين الموجود بين هذه المدارس، إلّا أنّ محاولة التوفيق بين هذه النظريات في اعتقادنا و الاستفادة من محتواها العلمي في تفسير الظاهرة العرقية كفيل بالإحاطة الأمثل بحقيقة الظاهرة العرقية كانتماء يجمع بين الفطري الطبيعي من جهة و الاجتماعي المكتسب من جهة أخرى. و لهذا فدراستنا للظاهرة العرقية أرادت أن توضّح الآليات التي يتّـم من خلالها تحويل الانتماءات ذات المنشأ الطبيعي إلى أدوات تستثمر في تحقيق أهداف سياسية.

و لقد استفادت هذه الدراسة من الأدبيات الاجتماعية الأساسية في تناولها للدراسات العرقية، و بخاصة المقاربات الخلدونية و الفيبيرية، التي ركّزت على طبيعة هذه الانتماءات و إمكانية توظيفها في التنافس السياسي، و هو الاتجاه الذي تبنّته الكثير من المقاربات الحديثة التي أصبحت تتكلّم عن تسييس العرقية أو عرقنة السياسة.

و بما أنّنا انطلقنا من وجود تأثير واضح للسياسي على العرقي، فإنّه أصبح من الضروري أن نبرهن على دور سياسات الدول في صياغة الانتماءات العرقية و توجيهها، و ليس هناك أفضل من التجارب الاستعمارية لفهم هذه المسألة. و لقد كان اختيارنا للفضاء الوسط آسيوي دون سواه لأنّه يحقّق لنا المرجو من الدراسة فهذا الإقليم شهد سياسات عرقية استعمارية لفترات متلاحقة ، فمورست عليه شتى أشكال التقسيم و التجزئة و مختلف أنواع الدمج و الترويس.

و مهما كانت كفاءة الاستعمار الروسي القيصري في تسيير التنوّع و الاختلاف العرقي و القومي من خلال البحث عن عوامل الفرقة و الانقسام بين شعوب المنطقة، فإنّه يبدو بسيطا جدّا إذا قارناه بالتجربة السوفييتية التي استندت على منظومة إيديولوجية قويّة و شاملة. فكانت السياسات السوفييتية نموذجا و مخبرا حيّا لبناء الهويّات و الأمم و منحها طابعا عرقيا و إقليميا، بعدما كانت آسيا الوسطى فضاء للتعايش بين العديد من الأعراق و القوميات أصبحت منطقة تنقاسمها خمس جمهوريات سوفييتية متباينة و متمايضة.

و لتحقيق هذا التمايز و التباين، اعتمدت السلطات السوفييتية على أدوات عديدة، لكن الدراسة ركزت على أهمها و هي: اصطناع الحدود، صياغة لغات عرقية جديدة و تشكيل ولاءات سياسية جهوية ومحلية.

فبالنسبة لعامل الحدود فهو قضية شغلت صانع القرار السوفييتي منذ السنوات الأولى التي تلت الثورة البلشفية، و استطاع ستالين بفضل تحكّمه في المسألة القومية أن يصوغ الإطار النظري و التطبيقي لمشروع التقسيم السوفييتي، فلقد رأى ستالين أنّ تقسيم آسيا الوسطى إلى جمهوريات متميزة و متباينة بمنح كلّ جمهورية صفة قانونية و إدارية متميزة عن الجمهوريات الأخرى و ربطها بالمجموعة العرقية السائدة، كفيل بتعزيز الشعور بالاختلاف و التميّز، خاصة إذا تمّ ربط هذه الجمهوريات بالمركز (موسكو) و تمّ تكسير الارتباطات التاريخية بينها، و لم يتوقّف مشروع التقسيم في خطّ الحدود بين الجمهوريات بل تعدّاه إلى إنشاء مناطق حبيسة داخل كل جمهورية و منحها وضعاً مستقلاً لجعل عملية التقسيم و التمايز يمتد إلى داخل الجمهوريات.

أمّا السياسات اللغوية فلقد كانت مشروعاً ممتداً لعقود طويلة و ساهمت مختلف الإدارات السوفييتية في تجسيد أهدافه جيلاً بعد جيل، فكانت هذه السياسات تهدف إلى جعل شعوب كلّ جمهورية غير قادرة على فهم لغات الجمهوريات الأخرى، فيعجز الأوزكي عن التخاطب مع الكازاخي كما يعجز الكيرخيزي عن فهم التركماني، بالرغم من أنّ جميع لغات شعوب آسيا الوسطى ( ما عدا الطاجيك ) تنتمي إلى لغة مشتركة هي اللغة التركية، بينما منحت السياسات اللغوية السوفييتية وضعاً متميزاً للغة الروسية التي أصبحت لغة التخاطب الوحيدة بين مختلف الشعوب و الأعراق، و تعزّز هذا الوضع بفضل سياسة تعليمية و اقتصادية و إدارية تجعل من اتقان الروسية أهم شرط لتحقيق الرقي الاجتماعي و المهني.

أمّا الولاءات الجهوية و المحلية فهي استراتيجية مدروسة قامت لتكسير الولاءات فوق العرقية السابقة أي تكسير الولاءات القومية التركية الطورانية و الولاءات الدينية الجامعة ( الجامعة الإسلامية )، بل إنّها امتدت إلى العلاقات التي تربط أبناء الجمهورية الواحدة و حاولت تعزيز جماعات التضامن المحلية و شبكات العلاقات الجهوية، بحيث يمتد التفكيت و التجزئة حدود الجمهوريات ليستوطن أقاليمها الداخلية.

بالإضافة إلى هذه الأدوات تعمّدت الإدارات السوفييتية تعزيز التبعية الاقتصادية لجمهوريات آسيا الوسطى نحو موسكو، و منعت حصول علاقات تكاملية بينها بحيث تنفرد روسيا بدور المتحكّم في اقتصاديات آسيا الوسطى و هو ما ظهر جلياً من خلال توجيهها نحو الزراعات الكثيفة ( زراعة القطن ) التي أرهقت كاهلها وجعلتها مرتبطة بالسوق الروسي ارتباطاً مطلقاً، إلى درجة جعلت الكثير من الخبراء يعتقدون أنّ نمط الإنتاج الوسط آسيوي هو نمط استعماري محض لا يختلف عن ما هو موجود في

تجارب استعمارية أخرى و أنّ ضعف التنمية في هذه الجمهوريات هو الذي شكّل أحد أهم أسباب بروز المشاعر القومية المناوئة للإدارة السوفييتية.

شكّلت نتائج السياسة العرقية السوفييتية بالنسبة لجمهوريات آسيا الوسطى المستقلة تركة ثقيلة و معقّدة و بما أنّ هذه الكيانات كانت وليدة للتجربة السوفييتية، فلم تكن قادرة على تخطّي الأسس التي أنشأتها، فكان اعتمادها على القومية-العرقية ملجأها الوحيد في غياب نخب جديدة غير سوفييتية و في غياب دعائم نظام أكثر انفتاحا و ديمقراطية.

و في غياب روح التعاون و الاندماج بين هذه الدول و محاولة كلّ واحدة منها الحفاظ على مكتسبات الفترة السوفييتية برزت الخلافات و المشاكل التي كانت في السابق كامنة، و أدى المركز الذي كان يحكمها بين الجمهوريات إلى عجزها على تسيير التنوع العرقي و المسائل المرتبطة بالحدود المصطنعة.

و امتدت هذه الخلافات إلى عوامل أخرى كالتنمية، فتمسّك جمهوريات آسيا الوسطى بالحدود السابقة و تعزيزها للانتماءات العرقية الضيقة لم يشجّع على إيجاد حلول جذرية للمعضلة المائية في آسيا الوسطى، كما شملت تفكيك شبكات الطرق و التجارة السابقة بسبب إجراءات تعسّفية كخلق الحدود و تلغيمها بشكل قلّص المبادلات التجارية و منع التواصل بين أبناء المنطقة.

و شجّعت سياسة " فرّق تسد" التي اعتمدتها الإدارة السوفييتية السابقة من خلال تشكيل العصب الجهوية إلى تجميع كلّ العناصر الموجّبة للحرب الأهلية في طاجكستان التي دامت خمس سنوات كاملة و أدّت إلى تدميرها و إفقارها أكثر فأكثر.

كما شكّل النزاع العرقي في أوّش واحدا من نماذج الصراع الذي يمكن أن يتكرّر في مناطق أخرى بسبب السياسة العرقية السوفييتية المطبّقة في منطقة فرغانة التي تحوّلت أخطر بؤرة للحركات الراديكالية و الانفصالية بعدما كانت منطقة للتعايش بين مختلف مكونات آسيا الوسطى العرقية.

و من خلال دراستنا لهذه الأمثلة أردنا أن نبين مسألة أساسية وهي ارتباط هذه النزاعات التي كانت كامنة و متحكّم فيها في الفترة السوفييتية بالصراعات السياسية و الرهانات و التي تبنّتها النخب الحاكمة التي استثمرت في النعرات العرقية و وظفتها بطريقة انتهازية للحفاظ على امتيازات الفترة السابقة. فالنخب الحاكمة التي تعتبر امتدادا للفترة السوفييتية حافظت على نفس المنطق في التعامل مع التنوع و الاختلاف أي تعزيز الانقسام و إضعاف الاندماج الداخلي للاحتفاظ بالسلطة و لو كان ذلك على حساب المصالح العليا للدولة.

و لم يكن اختيار النموذج الكازاخستاني لفهم تعقيدات المسألة العرقية في آسيا الوسطى اعتباطيا بل كان وليد اعتبارات كثيرة، أهمّها البعد الدولي لمعضلة كازاخستان العرقية ، فهي ليست معضلة داخلية مرتبطة بتسيير التنوع و التعدّد العرقي فحسب بل معضلة لها انعكاسات مباشرة على علاقاتها الخارجية و بروسيا الفيدرالية على وجه الخصوص، و هو ما يضيف لأزمته العرقية تعقيدات خطيرة.

و بما أنّ روسيا كانت في الفترة السوفييتية هي مركز الاتحاد و المخطّط و المتحكّم في مختلف السياسات، فلقد تمّ التركيز عليها بصفقتها قوة كبرى تريد إعادة بسط نفوذها في المنطقة، و لهذا فلقد أتاح لنا دراسة توجّهات السياسة الخارجية و الأمنية الروسية في الجمهوريات التي تقطنها أقليات قومية روسية إدراك طبيعة هذه التوجّهات و رهاناتها و إدراك آليات توظيف الورقة العرقية للضغط عليها، فمن خلال نموذجي أوكرانيا و جورجيا تمّ استنتاج مبررات و طرق التدخّل في هذه الدول.

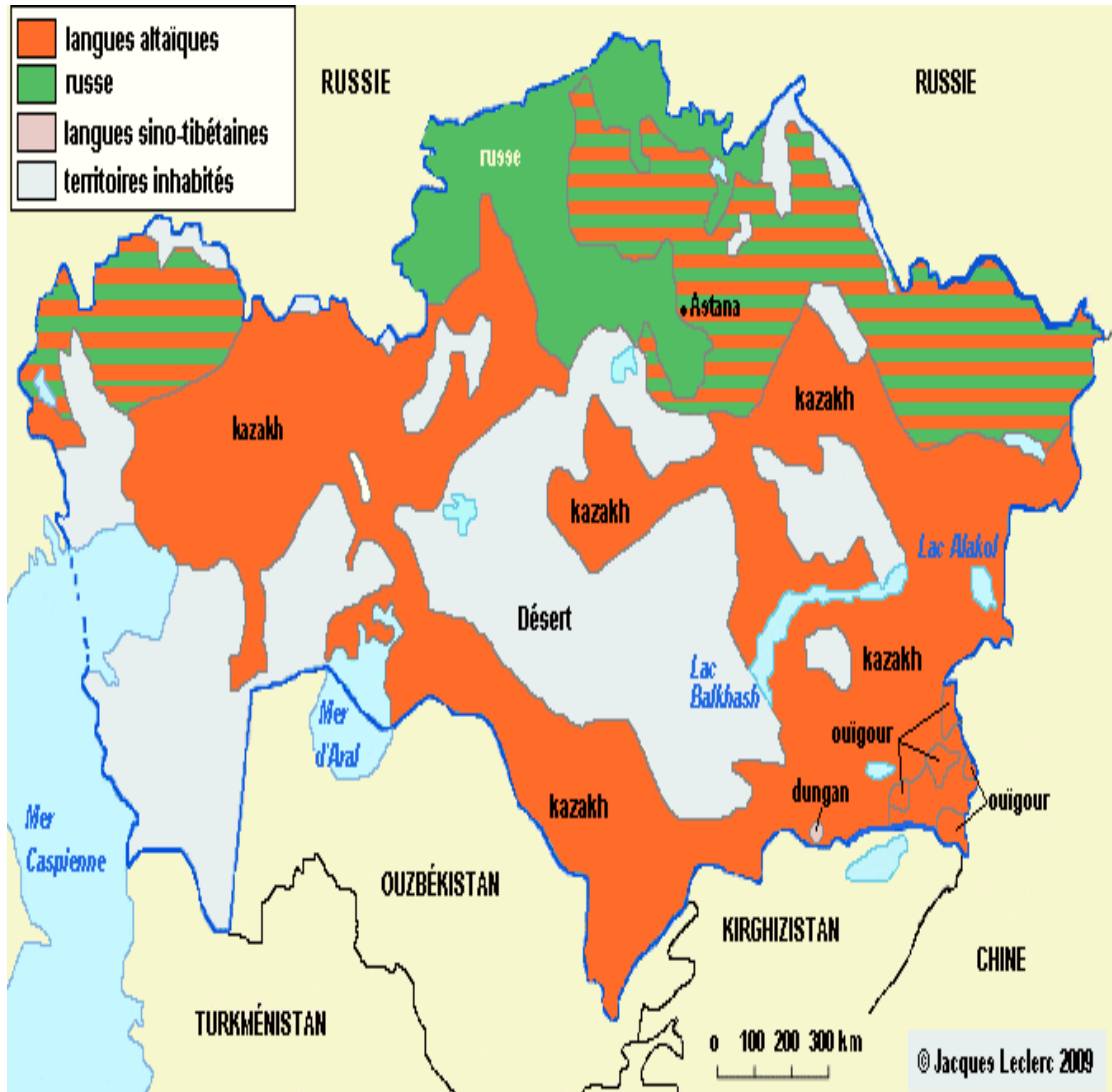
و جاء ذلك كلّه كخطوة ضرورية لفهم التحدّيات التي تواجهها كازاخستان بسبب الاستقطاب العرقي الواضح بين الكازاخ و الروس و من تمّ تقييم أنماط الاستجابة من خلال السياسات التي صاغتها السلطات الكازاخستانية على المستوى الداخلي و الخارجي.

فعلى المستوى الداخلي رأينا كيف حاول الرئيس الكازاخستاني نور سلطان نازرباييف التخفيف من حدّة الانقسامات الداخلية بمجموعة من القرارات و القوانين كان أهمّها بناء عاصمة جديدة بدل القديمة لمنع تطلّعات القومية الروسية في الانفصال و الانضمام إلى روسيا الفيدرالية.

أمّا على مستوى السياسة الخارجية فلقد توضّح لدينا ثقل المعضلة العرقية و استحضارها من قبل صانع القرار في كلّ قراراته الخارجية، و وصلنا إلى نتيجة أساسية هي ارتباط كلّ المشاريع الاندماجية التي انخرطت فيها كازاخستان بعامل الخوف و الحذر من التقسيم ، بحيث كانت جميعها ناتجة عن قراءة ذكيّة لاحتمالات ردود الفعل الروسي. بحيث يمكننا الجزم أنّ كازاخستان -و على عكس أوكرانيا و جورجيا- استطاعت أن تحقّق بفضل فهمها لتعقيدات المعضلة العرقية الداخلية من جهة و للبيئة الأمنية الإقليمية و الدولية أن تحافظ على أهمّ أولوياتها سياستها الداخلية و الخارجية و هو الحفاظ على استقرارها ووحدتها الترابية بالرغم من أنّها و لاعتبارات عديدة كانت الدولة الأكثر تهديدا و هشاشة من حيث الاندماج الداخلي في مجمل الفضاء السوفييتي.

و في الأخير يمكننا القول أنّ السياسات العرقية هي المسؤولة عن الأزمات الأمنية المتتالية التي تشهدها آسيا الوسطى ، سواء كان ذلك نتيجة عجزها في تسيير التركة السوفييتية أو نتيجة لتوظيف نخبتها الحاكمة للتمييزات و الانقسامات العرقية وسيلة للحفاظ على السلطة و امتيازاتها.

الملحق رقم 1 : الخريطة الاثنو-لغوية لجمهورية كازاخستان



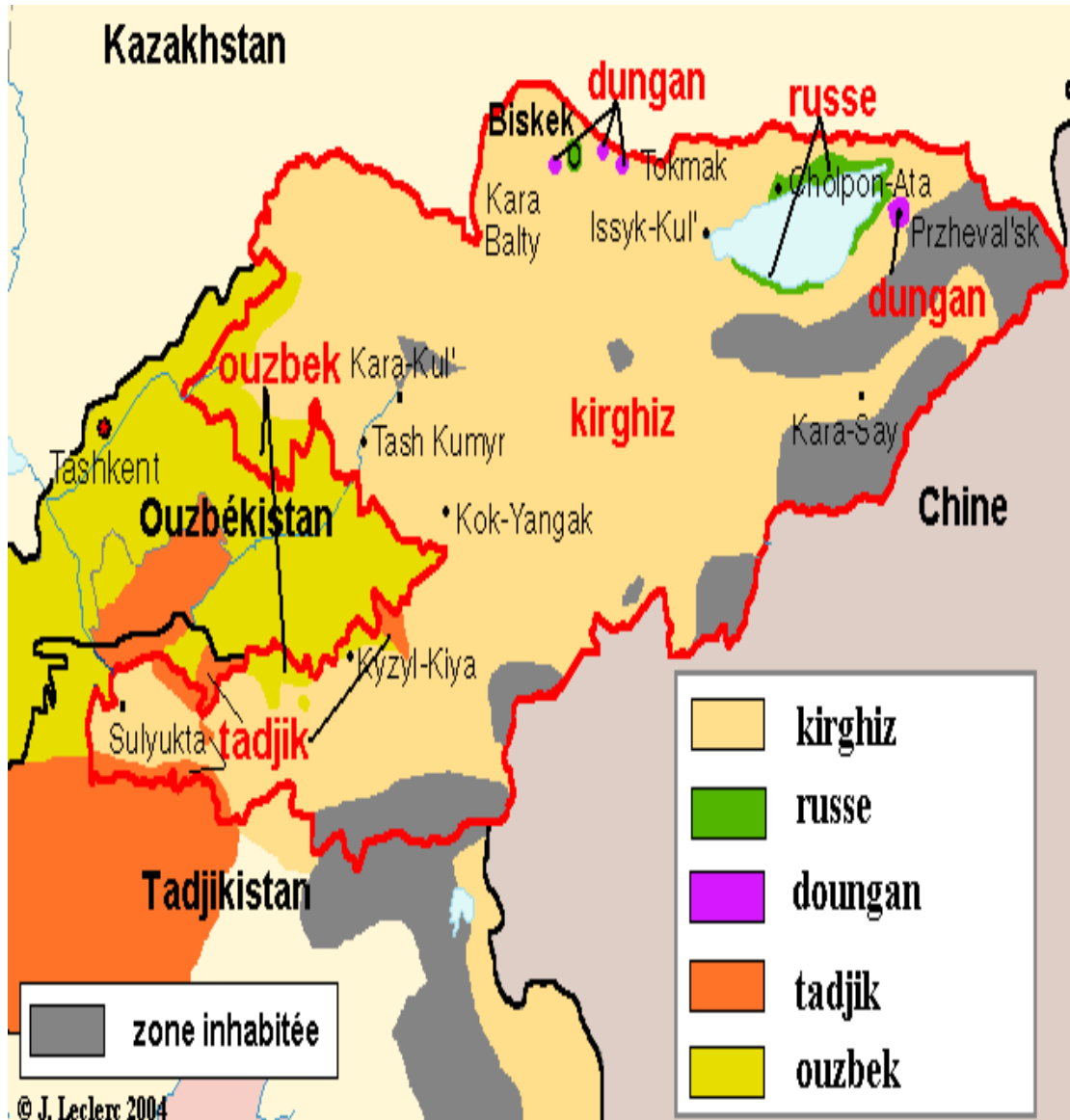
المصدر: Jacques Leclerc, "Politiques linguistiques",  
[www.axl.cefanelaval.ca/kazakhstan.htm](http://www.axl.cefanelaval.ca/kazakhstan.htm).

الملحق رقم 2: الخريطة الاثنوعرقية لجمهورية أوزبكستان.



المصدر: Jacques Leclerc, "Politiques linguistiques",  
[www.axl.cefanelaval.ca/Uzbekistan.htm](http://www.axl.cefanelaval.ca/Uzbekistan.htm).

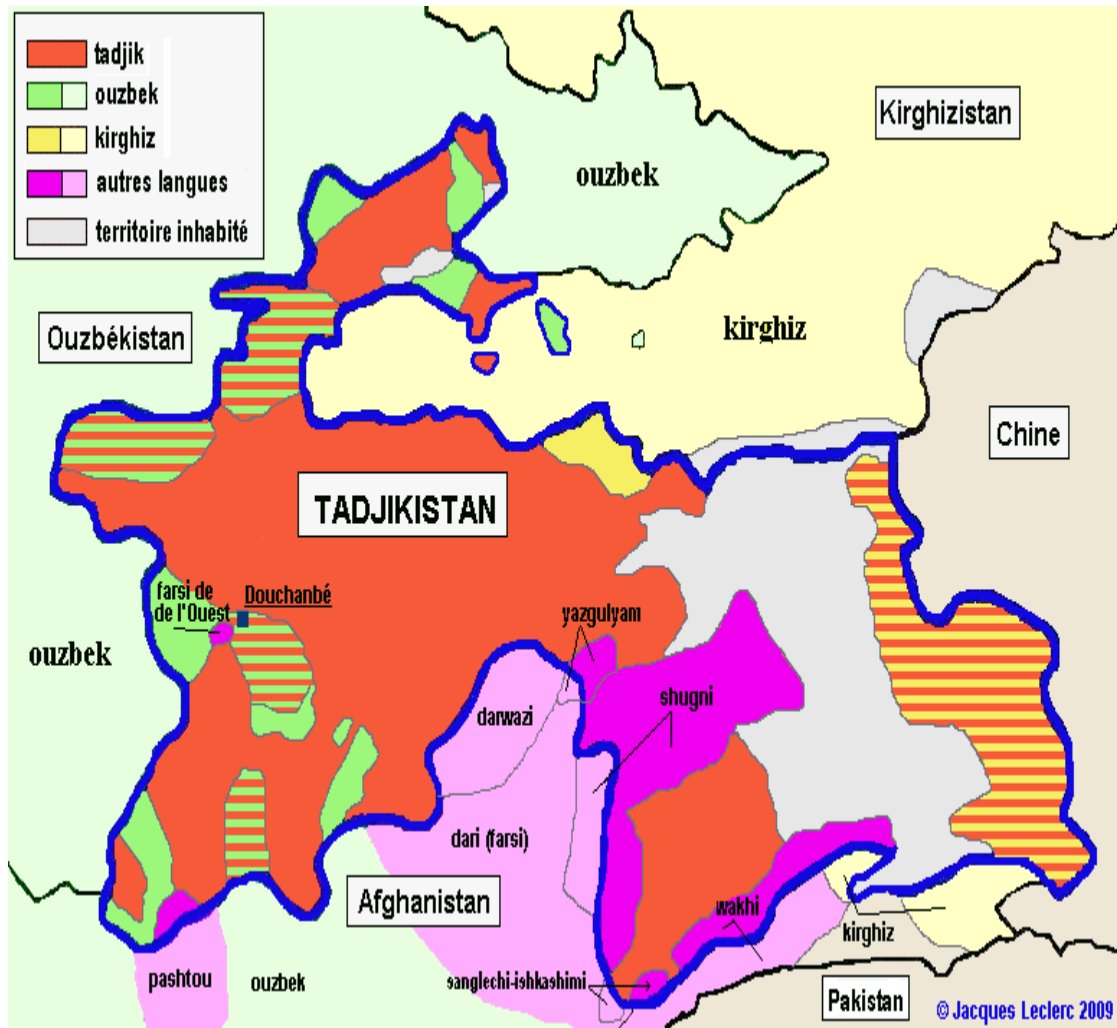
الملحق رقم 3: الخريطة الاثنو-لغوية لجمهورية كيرخيزستان



المصدر:

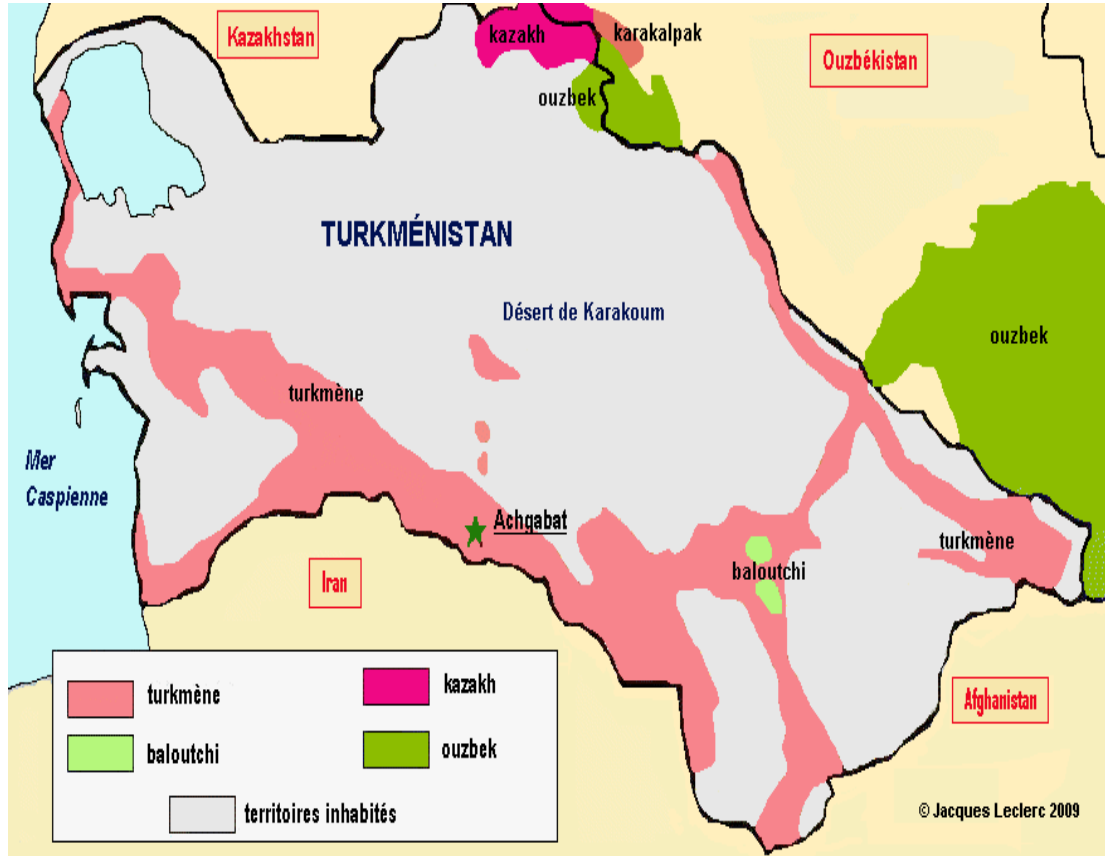
Jacques Leclerc, "Politiques linguistiques",  
[www.axl.cefanelaval.ca/kyrgyzistan.htm](http://www.axl.cefanelaval.ca/kyrgyzistan.htm).

الملحق رقم 4 : الخريطة الاثنولغوية لجمهورية طاجيكستان



المصدر: Jacques Leclerc, "Politiques linguistiques",  
[www.axl.cefan.ulaval.ca/tadjikistan.htm](http://www.axl.cefan.ulaval.ca/tadjikistan.htm).

الملحق رقم 5: الخريطة الاثنو-لغوية لجمهورية تركمنستان



المصدر: Jacques Leclerc, "Politiques linguistiques",  
[www.axl.cefanelaval.ca/turkministan.htm](http://www.axl.cefanelaval.ca/turkministan.htm).

أولاً: فهرس الجداول.

الجدول رقم 1: مقارنة معدّل الحياة في دول آسيا الوسطى، روسيا

و دول الجوار الإسلامي.....179

الجدول رقم 2 : مقارنة مستويات التمدّن دول آسيا الوسطى

و عموم الاتحاد السوفييتي.....180

الجدول رقم 3: نسبة العمالة في قطاعي الصناعة و الزراعة

.....180

الجدول رقم 4: التركيز المفرط على زراعة

.....181 القطن.....

الجدول رقم 5: مقارنة الدخل الفردي السنوي بين جمهوريات

آسيا الوسطى و روسيا ( سنة 1989).....182

الجدول رقم 6: أعداد و نسب الروس القاطنين في دول الغريب المجاور

حسب آخر إحصاء سوفييتي و بعده بعشر سنوات.....263

الجدول رقم 7: مبادلات كازاخستان التجارية مع الدول الموقعة

على الاتحاد الجمركي و مع بقية الدول.....275

ثانياً: فهرس الأشكال.

الشكل رقم 1: خريطة توضح مواقع الخانيات و الكونفيدراليات القبلية

في آسيا الوسطى قبل التوسع الروسي.....78

الشكل رقم 2: التقسيم الاستعماري لأقاليم آسيا

.....84.....الوسطى.....

الشكل رقم 3: خريطة توضح الكيان السياسي الجامع لشعوب آسيا الوسطى

.....(جاليف).....122.....(كما تصوّرها سلطان

الشكل رقم 4 : خريطة توضح الكيانات المشكّلة لآسيا الوسطى سنة

.....130.....1923.....

الشكل رقم 5: خريطة الكيانات المكوّنة لآسيا الوسطى سنة

.....131.....1924.....

الشكل رقم 6 : التعديلات الأخيرة الطارئة على خارطة

.....132.....آسيا الوسطى سنة 1953 ....

الشكل رقم 7: الموقع الاستراتيجي المتميّز لإقليم جورنو

.....170.....بدخشان.....

الشكل رقم 8: خريطة تبين التنوع العرقي في منطقة آسيا

.....198.....الوسطى.....

الشكل رقم 9: خريطة تبين حجم تبعثر العرقيات في آسيا

الوسطى.....199.....

الشكل رقم 10: المناطق الحبيسة و المكتنفة في منطقة

فرغانة.....208.....

الشكل رقم 11: بؤر التوتر الحدودية في منطقة

فرغانة.....210.....

الشكل رقم 12: خريطة تبين انخفاض منسوب بحر آرال و تقلص حجمه

214.....(خلال ربع قرن )

الشكل رقم 13 : مشروع قناة سيبرال لإعادة ملأ بحر

216.....آرال

الشكل رقم 14: السدود و خزانات المياه و بؤر النزاعات

220.....حول الماء في منطقة فرغانة

الشكل رقم 15: خريطة تبين تمايز المشاريع الاندماجية

250.....لدى روسيا ودول " الغريب المجاور

الشكل رقم 16: التوزيع الجغرافي للعرقيات في كازاخستان

265.....و باقي جمهوريات آسيا الوسطى

الشكل رقم 17: مستوى المبادلات الداخلية في أهم المنظمات

276.....الاندماجية مقارنة بالاتحاد الأوراسي

## 1. المراجع باللغة العربية:

### أ. الكتب:

1. ابن خلدون، عبد الرحمان، مقدمة بن خلدون، القاهرة: دار ابن الجوزي، 2009.
2. إبراهيم، سعد الدين، تأملات في مسألة الأقليات. القاهرة - الكويت: دار الصباح، 1992.
3. ألموند، جابرييل (الابن) السياسة المقارنة في وقتنا الحاضر: نظرة علمية. (ترجمة: هشام، عبد الله)، عمان: الدار الأهلية للنشر و التوزيع، 1998.
4. أوغلو، أحمد داود، العمق الاستراتيجي، (ترجمة: محمد جابر تلجي و طارق عبد الجليل)، ط.2، بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون، مركز الجزيرة للدراسات، 2011 .
5. المسيري، عبد الوهاب، العلمانية الجزئية و العلمانية الشاملة. ط2، القاهرة: دار الشروق، 2005.
6. الغدامي، عبد الله، القبيلة و القبائلية أو هويات ما بعد الحداثة. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2009.
7. العبودي، محمد بن ناصر، يوميات آسيا الوسطى، الرياض، مطابع الفرزدق التجارية، 1995.
8. الخفاق، عبد الله، آسيا الوسطى الإسلامية، عمان، دار عمار للنشر و التوزيع، 1995.
9. إسماعيل، مصطفى فاروق، العلاقات الاجتماعية بين الجماعات العرقية، الدوحة، دار قطري للنشر و التوزيع، 1986.
10. بيخو، باروخ، إعادة النظر في التعددية الثقافية: التنوع الثقافي والنظرية السياسية. (ترجمة: الإمام، مجاب)، دمشق: منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، 2007.
11. بشارة، عزمي، المجتمع المدني: دراسة نقدية. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1998.
12. بوجنال، محمد، الفلسفة السياسية للحداثة و ما بعد الحداثة: شرط فهم صراعات الألفية الثالثة، بيروت، التنوير للطباعة و النشر، 2010.
13. باري، بريان، الثقافة و المساواة: نقد مساواتي للتعددية الثقافية، ( ترجمة: كمال المصري)، الكويت، عالم المعرفة، 2011.
14. بواربييه، جان، تاريخ العرقية، ط3، ( ترجمة: نسيم نصر)، بيروت، منشورات عويدات، 1983.
15. ديمتري، حبيب، نفي العقل: جذور العرقية و أسطورة الجنس المتفوق، دمشق، دار كنعان للدراسات و النشر، 2006.
16. دوغين، ألكسندر، أسس الجيوبوليتيكا، (ترجمة: عماد حاتم)، بيروت، دار الكتاب الجديد المتحدة، 2004.

17. وهبان، أحمد، الصراعات العرقية واستقرار العالم المعاصر: دراسة في الأقليات و الجماعات والحركات العرقية. الاسكندرية: أليكس للطباعة و النشر، 2007.
18. حداد، مهنا، الفكر العنصري العربي. من المنطلق الديني إلى مفاهيم العرق و الأقليات. بيروت: دار الانتشار العربي، 2008.
19. حرب، محمد، الإسلام في آسيا الوسطى و البلقان، بيروت، دار البشائر الإسلامية، 1995.
20. حبيب، غانم، حرب الألفية الثالثة: نفط قوزين... و مآرب أخرى، دار المنهل اللبناني للطباعة و النشر، 2001.
21. ياكوب، جوزيف، ما بعد الأقليات: بديل عن تكاثر الدول. (ترجمة: عمر، حسين)، بيروت: المركز الثقافي العربي، 2004.
22. كيمليكا، ويل، أوديسا التعددية الثقافية: سبر السياسات الدولية الجديدة في التنوع، (ترجمة: إمام عبد الفتاح، إمام) الكويت، عالم المعرفة، 2011.
23. مجيد، حسام الدين علي، اشكالية التعددية الثقافية في الفكر السياسي المعاصر: جدلية الاندماج و التنوع. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2010.
24. ميثم الجناي، الإسلام السياسي في جمهوريات وسط آسيا الإسلامية، الرياض، مركز الملك فيصل لبحوث الإسلامية، 2002.
25. متولي، أحمد فؤاد و فهمي محمد هويدا، الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى و القوقاز، القاهرة، مركز الدراسات الشرقية، 2000.
26. ستار، فريدريك، البيئة الأمنية في آسيا الوسطى، سلسلة محاضرات الإمارات-38- أبو ضبي، مركز الإمارات للدراسات و البحوث الاستراتيجية، 1999.
27. فيلاند، كارستن، الدولة القومية خلافا لإرادتها: تسييس الانتنيات و أتننة السياسة (البوسنة، الهند، باكستان). (ترجمة: جديد، محمد)، دمشق: دار المدى للثقافة و النشر، 2007.
28. تركماني، أسامة أحمد، جولة سريعة في تاريخ الترك و التركمان: ما قبل الإسلام و بعده. دمشق: دار الإرشاد للنشر، 2007.
29. غور، تيد روبرت، لماذا يتمرد البشر؟. دبي: مركز الخليج للأبحاث، 2004.

#### ب. الدوريات:

1. حمدي، عبد الرحمن حسن، "الصراعات العرقية و السياسية في إفريقيا: الأسباب و الأنماط وآفاق المستقبل"، في: قراءات افريقية، العدد الأول، أكتوبر 2004.

2. الدسوقي، إبراهيم، " أحداث القرم و الحرب الباردة الجديدة"، السياسة الدولية، العدد 196، أبريل 2014.
3. إبراهيم ، عرفات، " آسيا الوسطى: التنافس الدولي في منطقة مغلقة"، السياسة الدولية، العدد 167، يناير 2007.
4. إينا، ميخائيلوفا، " قيرغيزيا بين الحرب الأهلية و صراعات القوى الكبرى"، البيان الإماراتية، (20 يونيو 2010).
5. إسماعيل، عصام، " هيمنة الشركات الأمريكية في حوض قزوين"، شؤون الأوسط، العدد 109، شتاء 2003.
6. الشيخ، نورهان، " القيادة المحسوبة: كيف استعاد بوتين المكانة العالمية لروسيا"، السياسة الدولية، العدد 195، يناير 2014.
7. باسم، راشد، " تهديد جيواستراتيجي: حسابات القطب الروسي في الأزمة الأوكرانية"، السياسة الدولية، العدد 196، أبريل 2014.
8. دياب، أحمد، " التحديات أمام مكانة روسيا في الإستراتيجية العالمية"، السياسة الدولية، العدد 195، يناير 2014.
9. عبير، ياسين، " منظمة التعاون الاقتصادي (الإيكو) " سلسلة أوراق آسيوية، العدد 40، أكتوبر 2001.

#### ج. مواقع الإنترنت:

1. الزوبعي، أحمد، " النفط و الماء بين العراق و تركيا، و امكانيات التبادل". عن الموقع: [www.faceiraq.com/inews.php?id=113466](http://www.faceiraq.com/inews.php?id=113466) . (تاريخ التصفح: 2013/5/20)
2. عبد الحميد، عاطف محمد، " انقلابات آسيا الوسطى...إرادة الشعوب و إرادة واشنطن" عن الموقع: [www.aljazeera.net/knowledgegate/opinion/2005/4/20](http://www.aljazeera.net/knowledgegate/opinion/2005/4/20) ( تاريخ التصفح : 2014/2/5)
3. نيوف، نوفل، " جمال الدين الأفغاني في روسيا (1887- 1889)", عن الموقع: [www.alawan.org/article1678.html](http://www.alawan.org/article1678.html) ( تاريخ التصفح: 2013/8/25).
4. عرييد، مسعد، " روزا لوكسمبورغ: قراءة متجددة في سياق العولمة "، الحوار المتمدن. عن الموقع: [www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=103827](http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=103827) (تاريخ التصفح: 2013/5/32).

#### 2. المراجع باللغة الفرنسية:

1. AMSELLE, Jean-Loup et M'BOKOLO, Elokia.(sous la dir.de) *Au cœur de l'ethnie. Ethnie, tribalisme et Etat en Afrique*. La Découverte. 1985.
2. APPLEBAUM, Anne, *Goulag: Une Histoire*, Paris: éditions Bernard Grasset, 2005.
3. BARBIER, Maurice, *La pensée politique de Karl Marx*. Paris: L'Harmattan, 1992.
4. BARTH, Fredrik, *Les groupes ethniques et leurs frontières*. la traduction du texte introductif de l'ouvrage collectif paru en 1969 sous la direction de F.BARTH et publié comme une deuxième partie du livre de F. POUTIGNAT et J. STREIFF-FENART.
5. BAUER, Otto, *La question des nationalités et la sociale démocratie*. Traduit par: WEILL, Claudie, Paris: Edi, 1987.
6. BAYART, Jean-François, *La réinvention du capitalisme*. Paris: Karthala, 1994.
7. BENMERTNAIA, Olga, " Le "panislamisme" existait-il? La controverse entre l'Etat et les réformistes musulmans de Russie (autour de la commission spéciale) de 1910", In : LUIZARD, Pierre-Jean, *Le choc colonial et l'islam*, Paris: La Découverte, 2006.
8. BENNIGSEN, Alexandre, LEMERCIER-QUELQUEJAY Chantal et GALIEV Sultan. *Le père de la révolution tiers-mondiste*. Paris: Fayard, 1986.
9. BERELOWITCH, Alexis et RADVANYI Jean, *Les 100 portes de la Russie: de l'URSS à la CEI, les convulsions d'un géant*, Paris: les Editions de l'atelier, 1999.
- 10.BRETON, Roland, *Les ethnies*. Paris: PUF, 199
11. BRZEZINSKI, Zbigniew *Le Grand échiquier: l'Amérique et le reste de monde*. Paris: Hachette, 1997.
- 12.BRZEZINSKI, Zbigniew, *La révolution technétronique*, Traduit par: VIENNET, Jean, Paris: Calmann-Lévy, 1971.
- 13.BOURDIEU, Pierre, *Le sens pratique*. Paris: édition Minuit, 1980.
- 14.BOURGEOT, André, " Les peuples heureux n'ont pas d'ethnie!", in: *Pays du Sahel, du Tchad au Sénégal, du Mali au Niger*, Série Monde, n° 72, Paris: Autrement, 1994.
- 15.CAHEN, Michel, *Ethnicité politique. Pour une lecture réaliste de l'ethnicité*. Paris: l'Harmattan, 1994.
- 16.CARRÈRE D'ENCAUSSE, Hélène, *L'empire éclaté*. Paris: Flammarion, 1978.
- 17.CARRERE D'ENCAUSSE, Hélène, *L'Empire d'Eurasie: Une Histoire de l'Empire russe de 1552 à nos jours*. Paris, Fayard, 2005.

- 18.CARRERE D'ENCAUSS, Hélène, *La gloire des nations ou la fin de l'empire soviétique*. Paris: Fayard, 1990.
- 19.CHUVIN, Pierre, "L'Asie centrale, du passage de Nadir Shah à La prise de Tachkent (1740-1865) " in: *Histoire de l'Asie Centrale contemporaine*. Sous la Direction de CHUVIN Pierre, Paris: Fayard, 2008.
- 20.CHUVIN, Pierre, " L'Asie centrale jusqu'à la Révolution d'Octobre: La colonisation et l'administration tsariste ( 1865 -1917)", In: CHUVIN P., LETOLLE, R. et PEYROUSE, S., *Histoire de l'Asie centrale contemporaine*.
- 21.COULON, Alain, *L'Ecole de Chicago*. Paris: PUF," Que sais-je?", 1990.
- 22.DENIS, Pierre, *Les derniers nomades*. Paris: l'Harmattan, 1989.
- 23.DIECKOFF, Alain, *La Nation dans tous ses états: Les identités nationales en mouvement*. Paris: Flammarion, 2000.
- 24.DJALILI, Mohammad-Reza et KELLNER, Thierry, *Géopolitique de la nouvelle Asie Centrale*. Paris: Puf, 2006.
- 25.DURKHEIM, Emile, *De la division du travail social*, Paris: PUF, 10<sup>ème</sup> éd., 1978.
- 26.FERRO, Marc, *Le choc de l'Islam : XVIII- XXI siècle*. Paris: Odile Jacob, 2003.
- 27.GROUSSET, René , *L'empire des steppes*. 4<sup>e</sup> ed., Paris: Payot, 2001.
- 28.GORSHENINA, Svetlana, *Asie centrale: L'invention des frontières et l'héritage russo-soviétique*. Paris: CNRS éditions, 2012.
- 29.HAUPT, Georges, LOWY, Michael et WEILL, Claudie, *Les marxistes et la question nationale (1848-1914)*. Paris: L'Harmattan, 1997.
- 30.HOBSBAWM, Eric et RANGER, Terence, *L'invention de la tradition*. Traduit par: VIVIER Christine, Editions Amsterdam, 2006.
- 31.HOBSBAWM, Eric, *Nation et Nationalisme depuis 1780*. Paris: Gallimard, 1992.
- 32.LARUELLE, Marlène, PEYROUSE, Sébastien, *Asie centrale, la dérive autoritaire: Cinq républiques entre héritage soviétique, dictature et islam*. Paris: Autrement, 2006.
- 33.LARUELLE, Marlene, *Islam et politique en ex URSS (Russie, Europe et Asie centrale)*. Paris: l'Harmattan, 2004.
- 34.LARUELLE, Marlène et PEYROUSE, Sébastien, *Les Russes du Kazakhstan: Identités nationales et nouveaux Etats dans l'espace postsoviétique*, Paris: Maisonneuve et Larose, 2006.
- 35.LÉNINE, Vladimir, *Œuvres choisies de Lénine*. Moscou: Les Editions du Progrès, 1968, vol3.
- 36.LÉNINE, Vladimir, "Notes critiques sur la question nationale", In: *Œuvres complets*, 5<sup>e</sup> éd., 1969, vol.25.
- 37.LÉNINE, Vladimir, *Du droit des nations à disposer d'elles-mêmes*. Moscou: Éditions du Progrès, 1981.

- 38.LETOLLE, René, PEYROUSE, Sébastien, " La démographie: vers des Etats mono-ethnique?", In: CHUVIN, Pierre et LETOLLE, René (ed), *Histoire de l'Asie centrale contemporaine*. Paris: Fayard, 2008.
- 39.LEWIN, Moshe, *Le dernier combat de Lénine*. Paris: Editions de Minuit, 1967.
- 40.LUXEMBOURG, Rosa, *La crise de la social-démocratie*. Bruxelles: La Taupe, 1970.
- 41.LUXEMBOURG, Rosa, *Œuvres*. T2, Paris: Maspero, 1978.
- 42.MARTINELLO, Marco., *L'ethnicité dans les sciences sociales*, Paris: PUF , 1995.
- 43.MOUSSET, Albert, *Histoire De Russie*. Paris: SEFI, 1945.
- 44.OHAYON, Isabelle, *La Sédentarisation des Kazakhs dans l'URSS de Staline*, Paris: Maisonneuve et Larose, 2006.
- 45.OHAYON, Isabelle, " La déportation des peuples vers l'Asie centrale " In: CAUSARANO, Pietro et GALIMI, Valeria, (dir.), *Le XX siècle des guerres*. Paris: Editions de l'Atelier, 2004.
- 46.ORANSKY, Iosif, *Les Langues iraniennes*. traduit par: KLINCKSIECK, Paris: 1977.
- 47.PANOFF, Michel et PERRIN, Michel, *Dictionnaire de l'ethnologie*. Paris: Payot, 1973.
- 48.PETRIC, Boris-Mathieu, *Pouvoir, Don et réseaux en Ouzbékistan postsoviétique*. Paris: PUF, 2002.
- 49.PETRIC, Boris-Mathieu, *On a mangé nos moutons: Le Kirghisistan, du berger au Biznesman*. Paris: Belin, 2013.
- 50.PEYROUSE, Sébastien," De la mort de Staline à la Perestroïka" in: *Histoire de l'Asie centrale contemporaine*, sous la direction de: CHUVIN, Pierre et LÉTOLLE, René, Paris: Fayard, 2008.
- 51.POUJOL, Catherine, "Quelques réflexions sue l'implication russe dans le conflit tadjik", In: REZA-DJALILI, Mohammad et GRARE, Frédéric (ed.), *Le Tadjikistan à l'épreuve de l'indépendance*. Graduate Institute Publication, 1995.
- 52.POUTIGNAT, Philippe et STREIFF-FENART, Jocelyne, *Théorie de l'ethnicité*. Paris: PUF, 1995.
- 53.REYNAUD-PALIGOT, Carole, *De l'Identité Nationale: Science, race et politique en Europe et aux Etats-Unis XIX-XX siecle*. Paris: PUF, 2011.
- 54.RODINSON, Maxime, *Marxisme et monde musulman*. Paris: Seuil, 1972.
- 55.ROMER, Jean-Christophe, *Géopolitique de la Russie*. Paris: Economica, 1999.
- 56.ROUX, Jean-Paul, *Histoire des Turcs: Deux mille ans, du Pacifique à la Méditerranée*. Paris: Fayard, 2000.
- 57.ROY, Olivier, *La nouvelle Asie centrale ou la fabrication des nations*. Paris: Seuil, 1997.

58. ROY, Olivier, "Groupes de solidarité, territoires, réseaux et Etat dans le Moyen Orient et l'Asie Centrale", In: HOSHAM, Dawood, *Tribus et Pouvoirs en terre d'Islam*. Armand Colin, Paris, 2004.
59. SÉRIOT, Patrick, "L'un et le multiple: objet-langue dans la politique linguistiques soviétique", In: Max-Peter GUERNAIS (ed.), *Etats de langue: Peut-on penser une politique linguistique?*. Paris: Fayard, 1986.
60. SCHNAPPER, Dominique, *La communauté des citoyens, sur l'idée moderne de Nation*. Paris: Gallimard, 1994.
61. SOLJENITSYNE, Alexandre, *Le Problème russe à la fin du XXe siècle*. Traduit du russe par: JOHANNET, Geneviève, Paris: Fayard, 1994.
62. SPITAEELS, Guy, *La triple insurrection islamiste*. Paris: Fayard, 2005.
63. STALINE, Joseph, *Le Marxisme et la question nationale et coloniale*. Paris: Editions Sociales, 1953.
64. STEPANOFF Charles, FERRET Carole, THOREZ Julien, *Nomadisme d'Asie centrale et septentrionale*. Paris: Armand Colin, 2013.
65. TEURTRIE, David, *Géopolitique de la Russie: Intégration régionale, enjeux énergétiques, influence culturelle*. Paris: L'Harmattan, 2010.
66. WEBER, Max, *Economie et Société*. Paris: Plon, 1971.
67. WYNANTS, Bernadette, *L'Orthographe, une norme sociale*. Liège: Mardaga, 1997.

#### ب.الدوريات

1. Abasin, Sergey," Les Sartes ,un peuple d'avenir: L'ethnographie et l'Empire au Turkestan russe", traduit par: BALCI, Vanessa, N° 17/18, 2009.
2. ALLOUCHE, Jérémy, " Continuité et discontinuité dans la politique de l'eau en Asie centrale", In: *Cahier d'Asie centrale*. N° 13/14, 2004.
3. BERTHELEU, Hélène, " Sens et usages de "l'ethnisation".Le regard majoritaire sur les rapports sociaux ethniques", In: *Revue Européenne Des Migrations Internationales*. vol.23, N° 2, 2007.
4. BALCI, Bayram, "Identité nationale et gestion du fait minoritaire en Asie centrale: analyse des affrontements interethniques d'Osh en Juin 2010", In: *Cahier d'Asie Centrale*. N° 19/20, 2011.
5. BERTRAND, Frédéric," Une science sans objet? L'ethnographie soviétique des années 20-30et les enjeux de catégorisation ethnique", In: *Cahier du Monde russe*. vol.44, N°1, (Janvier-Mars 2003).
6. BESANÇON, Alain, " Comment la Russie à penser au peuple", In: *Romantisme*. 1975, vol 5, N° 9.

7. BLUM, Alain et FILIPPOVA, Elena, " Territorialisation de l'ethnicité et ethnicisations du territoire: Le cas du système politique soviétique et russe" *l'Espace géographique*, tome35, vol.4. 2006.
8. BOUCHET, Bertrand, "Tribus d'autrefois, kholkhozes d'aujourd'hui", In: *Revue du Monde Musulman et de la Méditerranée*. vol.59.N° 59-60.
9. BUTTINO, Marco, " Turkestan 1917. La révolution des Russes ", in: *Cahiers du monde russe et soviétique*. Tome 32.
- 10.CADIOT, Juliette, " Le recensement de 1897, les limites du contrôle et la représentation des nationalités", In: *Varia*, année 2004, vol.3-4, N°45
- 11.CAHEN, Michel, " Vrai débat pour fausse conscience: Pour une approche marxiste de l'ethnicité", In: *Revue internationale de la politique comparée*. vol.4 .N°1, Avril 1997.
- 12.CARRERE D'ENCAUSS, Hélène, " Communisme et nationalisme", In: *Revue française de science politique*. 1995, vol.15, N° 3.
- 13.CHEMELEV, Gelli, " Réforme de la propriété foncière en Russie", in: *Economie rurale*, 1993, vol.214, N°.214-215.
- 14.DJALILI, Mohammad-Reza, "Républiques méridionales de l'ex-URSS: Nouveaux Etats du Sud", In: *Nouveaux Cahiers de l'IUED*. N° 12, 2001.
- 15.DUMONT, Paul, La fascination du bolchevisme: Enver Pasha et le parti des soviets populaires (1919-1922), *Cahiers du monde russe et soviétique*. Année 1975, vol.16, N° 16-2.
- 16.FENDJONGUE, Houli, " La construction et la politisation de l'ethnicité "Kirdi" au nord du Cameroun", in : *Polis*, vol.13, numéro 1-2, 2006.
- 17.FÉRRO, Marc, "Colonialisme russo-soviétique et colonialismes occidentaux", In: *Revue d'études comparatives Est-Ouest*. Vol.26, N° 4, Décembre 1995.
- 18.GURGEN, Emine, "Asie centrale: progrès et perspectives", In: *Finances et développement*, Septembre 2000.
- 19.KHALID, Adeeb, "l'Islam et l'Etat postsoviétique en Asie centrale", In: *Revue Internationale et Stratégique*. Vol.4, N° 64, 2006.
- 20.LARAN, Michel, " Nobles et paysans en Russie: De "L'Age d'Or" du servage à son abolition, (1762-1861)", *Annales, Économie, Sociétés, Civilisation*. 1966, Vol.21, N°1.
- 21.LARUELLE, Marlène, "Aperçu de la colonisation russe des steppes kazakhs (XVIIIe siècle- début du XXe siècle)",In: *Cahier de l'Asie centrale*. N° 23.
- 22.PETRIC, Boris-Mathieu," Pogroms contre les Ouzbeks à Osh .Des dangers de la manipulation politique du nationalisme ethnique", In: *Hérodote*, vol.3, N° 138, 3<sup>ème</sup> trimestre 2010.
- 23.PEYROUSE, Sébastien, "Les flux migratoire des Russes entre Asie centrale et Russie", In: *Espace Population Sociétés*. N° 1, 2007.
- 24.PEYROUSE, Sébastien, "Existe-t-il un ancrage spatiale des minorités chrétiennes en Asie centrale? le poids du passé russo-soviétique", In:

- Revue des mondes musulmans et de la méditerranée*. N° 107-110, Septembre. 2005.
25. POUJOL, Catherine, "Introduction: Penser la steppe", In: *Cahier d'Asie centrale*. N° 23, 2014.
  26. RACHED, Antonius, "Entre la mosaïque et la vague: L'ethnicité instrumentalisée dans le Machrek arabe", in: *Cahier de Recherche Sociologique*. Montréal: N° 20, 1993.
  27. ROY, Olivier, "Groupes de solidarité au Moyen-Orient et en Asie centrale. Etats, Territoires et Réseaux", IN: *Les cahiers du CERI*, N°16, 1996.
  28. ROY, Olivier, "Structure d'un conflit", In: *Cahiers d'Etudes sur la Méditerranée et le monde Turco-iranien*. N° 19, 1995.
  29. SIGABDINOV, Rinat, " De la question du socialisme islamique au Turkestan: Le parcours d'Arif KLEVLEEVE (1874-1918), In: *Cahiers d'Asie central*. N° 13/14, 2004.
  30. THORÈZ, Julien "Enclaves et enclavement dans le Ferghana post-soviétique", In: *Cahier d'études sur la Méditerranée orientale et le monde turco-iranien*. N° 35, 2003.
  31. TOURNON, Sophie, " Retour sur le concept d'un étranger proche", Regards sur l'Est, 15/12/2010.
  32. WEILL, Claudie, " Staline, Le marxisme et la question nationale", In: *Matériaux pour l'histoire de notre temps*. Année 1996, vol.41, N° 41-42.

### ج. مواقع الانترنت:

1. ABDUGANIEV, Sardor, " L'Afghanistan vers une reprise en main régionale". [www.novastan.org/articles / lafghanistan-vers-une-reprise-en-main-régionale](http://www.novastan.org/articles/lafghanistan-vers-une-reprise-en-main-regionale).
2. BRONNIKOVA, Olga et RENAULT, Mathieu, "Communisme et nationalisme: une lettre inédite de Mirsaid Sultan Galiev". [www.revue-periode-communisme-et-nationalisme-une-lettre-inedite-de-mirsaid-sultan-galiev/](http://www.revue-periode-communisme-et-nationalisme-une-lettre-inedite-de-mirsaid-sultan-galiev/).
3. BERTRAND, Frédéric, "Critique de l'ethnos: Crise identitaire et/ou révolution paradigmatique". [www.institut-est-ouest-ens-lyon.fr/spip.php?article 152](http://www.institut-est-ouest-ens-lyon.fr/spip.php?article152).
4. DAMIANI, Isabella, "Ferghana: Les étapes d'une matérialisation frontalière, entre intention et réalité". [www.espacepolitique.revue.org/2651](http://www.espacepolitique.revue.org/2651).
5. DE MEAUX, Lorraine, "Crimée, une guerre de religion à l'âge industriel". [www.laviedesidees.fr/Crimée-une-guerre-de-religion-à-l.html](http://www.laviedesidees.fr/Crimée-une-guerre-de-religion-à-l.html).

6. De TOCQUEVILLE, Alexis, *Deuxième lettre sur l'Algérie*. 1837, ([www.uqac.ugubec.ca/zone30/classique-des-sciences-sociales/index.html](http://www.uqac.ugubec.ca/zone30/classique-des-sciences-sociales/index.html)).
7. DORRONSORO, Gilles, "La transition des sociétés en Asie centrale turco-iranienne". [www.CEMOTi.revues.org/1713](http://www.CEMOTi.revues.org/1713).
8. ECKERT, Denis, "Les Russes dans "l'étranger proche" au seuil du XXI<sup>e</sup> Siècle". [www.mappemonde.mgm.fr/num4/lieux/lieux04401.html](http://www.mappemonde.mgm.fr/num4/lieux/lieux04401.html).
9. ETCHEVERRY, Panpi, "Le nationalisme et les nationalistes Kazakhs avant le Kazakhstan". [www.novastan.org/articles/le-nationalisme-et-les-nationalistes-kazakhs-avant-le-kazakhstan](http://www.novastan.org/articles/le-nationalisme-et-les-nationalistes-kazakhs-avant-le-kazakhstan).
10. GATELIER, Karine, "Le processus de paix tadjik: des origines du conflit au processus de paix". [www.irenees.net/bdf\\_fiche-experience-746\\_fr.html](http://www.irenees.net/bdf_fiche-experience-746_fr.html).
11. GAUZÈRE, David, "La dérive populiste en Asie centrale postsoviétique". [www.novastan.org/articles/la-derive-populiste-dans-lasie-centrale-postsovietique](http://www.novastan.org/articles/la-derive-populiste-dans-lasie-centrale-postsovietique).
12. GAUZÈRE, David, "La Laïcité et aussi une valeur orientale". [www.blog.Mediapart.fr/blog/david-gauzere/041112/la-laicite-est-aussi-une-valeur-orientale](http://www.blog.Mediapart.fr/blog/david-gauzere/041112/la-laicite-est-aussi-une-valeur-orientale).
13. GEISSER, Vincent, "Ethnicité républicaine versus République ethnique". [www.cairn.info/revue-mouvement-2005-2-page-19-htm](http://www.cairn.info/revue-mouvement-2005-2-page-19-htm).
14. GENTÉ, Régis, "Election au pays du sultan de la lumière". [www.blog.mondediplo.net/2011-04-03-election-au-pays-du-sultan-de-la-lumiere?archives=toutes](http://www.blog.mondediplo.net/2011-04-03-election-au-pays-du-sultan-de-la-lumiere?archives=toutes).
15. KHYLYA HEMOUR, Andréa, "La politique linguistique de l'URSS (1917-1991)". [www.dumas-ccsd-cnrs.fr/dumas](http://www.dumas-ccsd-cnrs.fr/dumas).
16. LECLERC, Jacques, "Kirghizstan". [www.axl-cefan.ulaval.ca/asia/kirghisistan.htm](http://www.axl-cefan.ulaval.ca/asia/kirghisistan.htm).
17. LECLERC, Jacques, "Kazakhstan". [www.axl-cefan.ulaval.ca/asia/kazakhstan.htm](http://www.axl-cefan.ulaval.ca/asia/kazakhstan.htm).
18. LECLERC, Jacques, "Ouzbékistan". [www.axl.cefan.ulaval.ca/asia/ouzbékistan.htm](http://www.axl.cefan.ulaval.ca/asia/ouzbékistan.htm).
19. LECLERC, Jacques, "Tadjikistan". [www.axl.cefan.ulaval.ca/asia/Tadjikistan.htm](http://www.axl.cefan.ulaval.ca/asia/Tadjikistan.htm).
20. LECLERC, Jacques, "Turkménistan". [www.axl.cefan.ulaval.ca/asia/turkménistan.htm](http://www.axl.cefan.ulaval.ca/asia/turkménistan.htm).
21. LENINE, Vladimir, "La révolution socialiste et le droit des nations à disposer d'elles-mêmes". ([www.marxists.org/francais/works/1916/19160100.htm](http://www.marxists.org/francais/works/1916/19160100.htm)).
22. LENINE, Vladimir, "Thèses et additions sur les questions nationales et coloniales". ([www.marxists.org/francais/inter.com/1920/ic2\\_19200700.htm](http://www.marxists.org/francais/inter.com/1920/ic2_19200700.htm)).

- 23.LIMONIER, Kevin, "*La flotte russe de mer Noire à Sébastopol: une forteresse impériale au sud*".  
[www.herodote.org/IMG/pdf/limonier138.pdf](http://www.herodote.org/IMG/pdf/limonier138.pdf).
- 24.LONSDALE, John, "*Ethnicité morale et tribalisme politique*".  
([www.politique-africaine.com/numero/PDF/061098.pdf](http://www.politique-africaine.com/numero/PDF/061098.pdf)).
- 25.LOWY, Michael, "*La révolution d'Octobre et la question nationale: Lénine contre Staline*". [www.europe-solidaire.org/spip.php?article2507](http://www.europe-solidaire.org/spip.php?article2507).
- 26.MARTIN, Xavier, "*Cours sur les espaces turcophones*".
- 27.[www.xaviermartin.fr/index.php?post/2010/05/09/cours-sur-les-espaces-turcophones](http://www.xaviermartin.fr/index.php?post/2010/05/09/cours-sur-les-espaces-turcophones).
- 28.MARX, Karl et ENGELS, Friedrich, "*Le manifeste du parti communiste*".  
([www.marxists.org/francais/marx/works/1847/00/kmfe18470000b.htm](http://www.marxists.org/francais/marx/works/1847/00/kmfe18470000b.htm)).
- 29.MENDRAS, Marie, "*Vie et mort du dernier empire russe*". l'Express, pub, 02/01/1992, ([www.lexpress.fr/actualite/monde/vie-et-mort-du-dernier-empire-russe\\_591529.html](http://www.lexpress.fr/actualite/monde/vie-et-mort-du-dernier-empire-russe_591529.html)).
- 30.OHAYON, Isabelle, "*La famine kazakhe: à l'origine de la sédentarisation*", *Online Encyclopédie of Mass Violence*.  
[www.massviolence.org/la-famine-kazakh-a-lorigine-de](http://www.massviolence.org/la-famine-kazakh-a-lorigine-de).
- 31.PALA, Christopher, "*Un combat pour sauver la mer d'Aral*".  
[www.fr.rbth.com/articles/2011/10/27/un\\_combat\\_pour\\_sauver\\_la\\_mer\\_daral/12895.html](http://www.fr.rbth.com/articles/2011/10/27/un_combat_pour_sauver_la_mer_daral/12895.html).
- 32.RABALLAND, Gaël, "*La question de l'enclavement en Asie centrale*".  
[www.cemoti.revue.org/759](http://www.cemoti.revue.org/759).
- 33.RENAUD, François, "*Asie centrale: La bataille de l'eau*".  
[www.esic.org/publication/analyses/asie-centrale-la-bataille-de-l'eau](http://www.esic.org/publication/analyses/asie-centrale-la-bataille-de-l'eau).
- 34.RENOUVIN, Bertrand, "*La conception ismaélienne du développement: L'exemple du Pamir*". [www.bertrand-renouvin.fr/la-conception-ismaelienne-du-developpement-lexemple-du-pamir/](http://www.bertrand-renouvin.fr/la-conception-ismaelienne-du-developpement-lexemple-du-pamir/).
- 35.Roy, Olivier, "*Groupes de solidarités au Moyen-Orient et en Asie centrale*".  
[www.academia.edu/1453533/Groupes\\_de\\_solidarité\\_en Moyen-Orient et en Asie centrale](http://www.academia.edu/1453533/Groupes_de_solidarite_en_Moyen-Orient_et_en_Asie_centrale).
- 36.SLODZIAN, Monique, "*Actualité de Marr ou permanence de l'utopie*".  
[www.revue-texto.net/inedit/slodzian\\_marr.html](http://www.revue-texto.net/inedit/slodzian_marr.html).
- 37.THOREZ, Julien, "*Les nouvelles frontières de l'Asie centrale: Etat, nations et régions en recomposition*". [www.cybergeog.revue.org/23707](http://www.cybergeog.revue.org/23707).
- 38.WHETLEY, Jonathan, "*Le nationalisme Civic et ethnique revisité: la conceptualisation de l'Etat, de la nation et du citoyen dans l'Ex-Union soviétique*". [www.Afriit.org/IMg/pdf/11\\_wheatley.pdf](http://www.Afriit.org/IMg/pdf/11_wheatley.pdf).
- 39.YARLYKAPOV, Akhmet, "*La Russie musulmane*", publié le 28 juin 2005, ([www.voltarnet.org/article/17372.html](http://www.voltarnet.org/article/17372.html)).
- 40.[www.monindependancefinanciere.com/lenciclopedie/section-d/demographie-de-louzbekistan.php](http://www.monindependancefinanciere.com/lenciclopedie/section-d/demographie-de-louzbekistan.php).

1. ABNER, Cohen, (ed), *Urban ethnicity*, London:Travistock,1974.
2. AGER, Dennis, *Motivation in language planning and language policy* . Clevedon Uk: Multilingual Matters, 2001.
3. ALLWORTH, Edward, *The Modern Uzbeks, From the Fourteenth Century to the Present*. Stanford, California: Hoover Institution Press, 1990.
4. BRASS, Paul, Elite Groups, Symbol Manipulation and Ethnic Identity among the Muslim of South Asia, In: D. TAYLOR et M. YAPP (eds), *Political Identity of South Asia*. London: Curzon Press, 19792.
5. BRASS, Paul, *Ethnicity and Nationalism: Theory and Comparison*. London: Sage Publication, 1991.
6. BLISS, Frank, Social and Economic Change in the Pamirs (Gorno-Badakhshan, Tadjikistan). London and New York: Routeledge, 2006.
7. BRILL OLCOTT, Martha, *The Kazakhs*. California: Hoover Institution Press, Seconde Edition, 1995.
8. COLLINS, Kathleen, *Clan Politics and Regime Transition in Central Asia*. New York: Cambridge University Press, 2006.
9. CONNOR, Walker, "A nation is a nation, is a state, is an ethnic group", in: HUTCHINSON, John and SMITH Anthony D., *Nationalism*. Oxford University Press, 1994.
- 10.Deutsch, Karl, *Nationalism and Social Communication*, 2ed, Cambridge: Mass, MIT Press, 1966.
- 11.DJALILI, Mohammad-Reza, *Shirin Akiner, Tajikistan: the Traial of Independence*. New York: Routledge, 1998.
- 12.ERIKSEN, Thomas, *Ethnicity and Nationalism*. London: Pluto Press, 2002.
- 13.GEERTZ, Clifford, *The Interpretation of Cultures*. New York : Basic Books, 1973.
- 14.GELLNER, Ernest, *Nation and Nationalism*, Oxford: Basil Blackwell, 1983.
- 15.HECHTER, Michael, " Ethnicity and industrialisation: on the proliferation of the cultural division of labor, *Ethnicity*,3, 1976.
- 16.HUGH, Séton Watson, *The New Imperialism*. London: The Bodley Head, 1961.
- 17.KREINDLER, Isabelle," Soviet language planning since 1953", In: M. KIRKWOOD (ed.) *Language Planning in the Soviet Union*. London: McMillan Press, 1989.

18. MILTON, Gordon, *Assimilation in American life*. New York: Oxford University Press, 1964.
19. RICHMOND, Anthony, "Ethnic Nationalism and Post-Industrialism", In: Hutchinson and Smith, eds., *Nationalism*, Oxford: Oxford University Press, 1994.
20. SABOL, Steven, *Russian Colonization and the Genesis of Kazak Consciousness*. New York: Palgrave McMillan, 2003.
21. SMITH, Anthony, *Theories of Nationalism*. London: Duckworth, 1971.
22. SMITH, Graham, "The Soviet state and the nationalities policies", In: Smith Graham (ed.), *The Nationalities Questions in The Post-Soviet States*. Harlow, Essex: Longman, 1996.
23. SMITH, Graham, *Nation-Building in the Post-Soviet Borderlands: The Politics of National Identities*. Cambridge: Cambridge University Press.
24. SNYDER, Jack, "Nationalism and the Crisis of the Post-soviet State" in Michael E. BROWN (ed), *Ethnic Conflict and International Security*. Preston: Preston University Press, 1993.
25. VAN DER BERGH, Pierre, *Man in Society: a Biosocial View*. New York: Elsevier, 1975.
26. WELSH, David, "Domestic Politics and Ethnic Conflict", In: Michael Brown (ed), *Ethnic Conflict and International Security*. Preston: Preston University Press, 1993.

#### ب.الدوريات:

1. Anderson, Kevin, "On The Dialectics of Race and Class: Marx's Civil War Writing's, 150 Years Later", In: *The International Marxist-Humanist*. (October 21, 2011).
2. COLLINS, Kathleen, "Clans, pacts, and politics in Central Asia", In: *Journal of Democracy*. vol.13, N°3, July 2002.
3. FRIEDGUT, Theodor, "The Unity of Language and the Language of Unity", In: *International Journal of the Sociology of Language*. N° 33, 1982.
4. HIRSH, Francine, "Toward an Empire of Nation, border making and the formation of Soviet national identities", In: *The Russian Review*. vol., 59, N° 2, April 2000 .
5. HYMAN, Anthony, "Turkestan and Panturkism Visited", In: *Central Asian Survey*. 1997, N° 16.
6. JOAN, Vincent, *The structuring of ethnicity*. Human organization, vol.33, N°4, 1974.
7. KUZIO, Taras, "Nationalist Riots in Kazakhstan", In: *Central Asian Survey*, Vol.,7, N° 4, 1988.

8. MADI, Maral, "The TULIP Revolution Develops In Kyrgyzstan", In: *Central Asia-Caucasus Analyst*, Vol., 6, N° 6, 23 March 2005.
9. MARAT, Erica, " Kyrgyzstan Troubled Path To a Parliamentary System", In: *Central Asia-Caucasus Analyst*. Vol.,12, N° 12,23 June 2010.
- 10.MICKLIN, Philipe, "The Fate of Sibaral, Soviet Water Politics in the GORBATCHEV Era", In: *Central Asian Survey*. vol., 6, Issue 2, 1987.
- 11.MULLER, Jerry Z., "Us and Them", In: *Foreign Affairs, Council On Foreign Relations*. Mar.-Apr., 2008.
- 12.O'KEARNEY, Donna, "Enver Pasha and the Basmashi Rebellion", In: *Crossroad an interdisciplinary journal for the study of history, philosophy, religions and classics*. Vol. 3, Issue 1, 2008.
- 13.OSMONOV, Joldosh, "Kyrgyzstan Faces Interethnic Conflict and Humanitarian Catastrophe", In: *Central Asia-Caucasus Analyst*, Vol.12,N° 12, 23 June 2010.
- 14.RADNITZ, Scott, "The Unraveling of Southern Kyrgyzstan", In: *Central Asia-Caucasus Analyst*. vol., 12, N° 12, 23 June2010.
- 15.SABOL, Steven, " The Creation of Soviet Central Asian: The 1924 National Delimitation", In: *Central Asian Survey*. Vol., 14, Issue 2, 1995.
- 16.SCHLYTER, Birgit, "New Language Laws in Uzbekistan", In: *Language Problems and Language Planning*. vol.22,N° 2, Feb.,1998.
- 17.THOMSON, John, The plural society approach to class and ethnic mobilization, IN: *Ethnic and Racial Studies*. vol.6, N° 2, 1983.
- 18.VALLIN, Jacques, "A New Estimate of Ukrainian Population Losses during The Crise of the 1930s and 1940s", In: *Population Studies*, Vol.56m N° 3, Nov., 2002.

ج. مواقع الانترنت:

#### 1. المواقع الرسمية:

1. Library Of Congress, "Major Ethnic Group in Central Asia". [www.loc.gov/resource/g7211e.ct/000722/](http://www.loc.gov/resource/g7211e.ct/000722/).
2. UN NEWS Centre, "UN Seminar Explores Water Management in Central Asia". [www.Un.org/apps/news/story.asp?News\\_ID=30522](http://www.Un.org/apps/news/story.asp?News_ID=30522).

#### 2. المواقع غير الرسمية:

3. BENTLEY, Carter, "Ethnicity and Practice". <http://www.jstor.org/stable/178779>.
4. DICKENS, Marc, "Soviet language policy in Central Asia". [www.oxuscom/long-policy.htm](http://www.oxuscom/long-policy.htm).
5. ERIKSEN, Thomas Hylland, "ethnicity and Nationalism: Anthropological Perspectives". ([www.Folk.vio.no/geither/ethnicity.html](http://www.Folk.vio.no/geither/ethnicity.html)).

6. Hashimova, Umida, "Fire Over Water in Central Asia".  
[www.old.cacianalyst.org/?q=node/5079](http://www.old.cacianalyst.org/?q=node/5079).
7. KALLEN, Horace, "Democracy versus melting pot The Nation",  
[www.legacy.matrix.msu.edu/expo98/people/kallen.htm](http://www.legacy.matrix.msu.edu/expo98/people/kallen.htm).
8. Linn, Johannes, "The Compound Water-ENergy-Food Crisis Risks", In:  
*Central Asia: "Update on an International Response"*  
[www.brooking.edu/research/opinion/2008/08/12-central-asia-linn](http://www.brooking.edu/research/opinion/2008/08/12-central-asia-linn).
9. PAVLENKO, Aneta, "*Multilingualism in Post-Soviet Countries: Language Revival, Language Removal and Sociolinguistic Theory*".  
[www.Astro.temple.edu/apavlenko/pdf/pavlenko\\_ijbeb\\_2008.pdf](http://www.Astro.temple.edu/apavlenko/pdf/pavlenko_ijbeb_2008.pdf).
10. SHARIPZHAN, Merhat, "*In Central Asia, Water Could Lead To Fire*".  
[www.rferl.org/commentary\\_water\\_crisis\\_central\\_asia/1185586.html](http://www.rferl.org/commentary_water_crisis_central_asia/1185586.html)
11. SIEGELBAUM, Lewis, "*Making Central Asia Soviet*".  
[www.soviethistory.mcalester.edu/index.php.?page=subject](http://www.soviethistory.mcalester.edu/index.php.?page=subject).
12. *Humanitarian News and Analysis (IRIN)*.  
[www.irinnews.org/printreport.aspx? Reportd=89544](http://www.irinnews.org/printreport.aspx?Reportd=89544)
13. [www.en.wikipedia.org/wiki/Gorno-Badakhshan\\_Autonomous\\_Region](http://www.en.wikipedia.org/wiki/Gorno-Badakhshan_Autonomous_Region).

شكر و تقدير

إهداء

|          |                                                         |
|----------|---------------------------------------------------------|
| 1.....   | مقدمة                                                   |
| 11.....  | الفصل الأول: الإطار المفاهيمي و النظري للظاهرة العرقية  |
| 11.....  | المبحث الأول: صياغة مصطلح العرق و تعريفه                |
| 12.....  | المطلب الأول: حول مصطلح العرق                           |
| 15.....  | المطلب الثاني: تمييز العرق عن المفاهيم الأخرى           |
| 20.....  | المطلب الثالث: تعريف العرق                              |
| 23 ..... | المبحث الثاني: النظريات المفسرة للظاهرة العرقية         |
| 24.....  | المطلب الأول: التفسير الحدائي للظاهرة العرقية           |
| 28.....  | المطلب الثاني: الاتجاه الطبيعي في تفسير الظاهرة العرقية |
| 33.....  | المطلب الثالث: الظاهرة العرقية كظاهرة ثقافية            |
| 37 ..... | المطلب الرابع: الظاهرة العرقية كظاهرة اجتماعية و سياسية |
| 44.....  | المبحث الثالث: الظاهرة العرقية واستقرار الدول           |
| 44.....  | المطلب الأول: جدلية الدولة و العرق                      |
| 50.....  | المطلب الثاني: التوظيف السياسي للعرق                    |
| 56.....  | المطلب الثالث: القومية العرقية أو البعد العرقي للقومية  |

|          |                                                                             |
|----------|-----------------------------------------------------------------------------|
| 62.....  | استنتاجات الفصل الأول.....                                                  |
| 65.....  | الفصل الثاني: الاستعمار الروسي و المسألة القومية و العرقية.....             |
| 66.....  | المبحث الأول: التوسع الروسي في منطقة آسيا الوسطى.....                       |
| 66.....  | المطلب الأول: خصائص التجربة الاستعمارية الروسية.....                        |
| 72.....  | المطلب الثاني: الاستعمار الروسي للأقاليم الإسلامية.....                     |
| 76.....  | المطلب الثالث: احتلال آسيا الوسطى.....                                      |
| 81.....  | المطلب الرابع: السياسة العرقية الروسية في الفترة القيصريّة.....             |
| 87.....  | المبحث الثاني: المقاربة البلشفية للمسألة القومية ( جذورها و تطورها).....    |
| 87.....  | المطلب الأول: الإرث الماركسي(ماركس و انجلز).....                            |
| 92.....  | المطلب الثاني: أهم النقاشات الماركسية حول المسألة القومية ( بعد ماركس)..... |
| 98.....  | المطلب الثالث: الماركسية الروسية و المسألة القومية ( قبل ثورة 1917).....    |
| 105..... | المبحث الثالث: الثورة البلشفية و تحديات المسألة القومية.....                |
| 106..... | المطلب الأول: الحركات القومية في آسيا الوسطى قبيل الثورة البلشفية.....      |
| 112..... | المطلب الثاني: موقف القوميات المسلمة من الثورة البلشفية.....                |
| 116..... | المطلب الثالث: حركات التحرر القومية في المنطقة.....                         |
| 123..... | استنتاجات الفصل الثاني.....                                                 |
| 125..... | الفصل الثالث: السياسة العرقية السوفييتية ( محدّداتها و نتائجها).....        |
| 126..... | المبحث الأول: التأسيس للقوميات في الفترة السوفييتية.....                    |

|                                                                                       |     |
|---------------------------------------------------------------------------------------|-----|
| المطلب الأول: عملية التقسيم القومي.....                                               | 126 |
| المطلب الثاني: الاثنوغرافيا السوفيتية ، محدد/ مبرر للسياسة العرقية.....               | 133 |
| المطلب الثالث: التصنيف التراتبي للقوميات و العرقيات.....                              | 136 |
| المطلب الرابع: المحددات الأمنية و السياسية للتقسيم.....                               | 139 |
| المبحث الثاني : تكريس التمايز و الانقسام.....                                         | 144 |
| المطلب الأول: السياسة اللغوية كأداة للتقسيم و التجزئة.....                            | 145 |
| المطلب الثاني : تطور السياسات اللغوية من وفاة ستالين إلى نهاية التجربة السوفيتية..... | 151 |
| المطلب الثالث: حصيلة السياسات اللغوية في دول آسيا الوسطى.....                         | 156 |
| المبحث الثالث: تعزيز النزعات الجهوية و المحلية.....                                   | 160 |
| المطلب الأول: الانتماء إلى الكولخوز.....                                              | 160 |
| المطلب الثاني: تشكيل العصب الجهوية و دورها في الحياة السياسية.....                    | 164 |
| المطلب الثالث: بروز النزعات و المطالب العرقية.....                                    | 172 |
| المطلب الرابع: ضعف التنمية كمهد للصراعات العرقية.....                                 | 177 |
| استنتاجات الفصل الثالث.....                                                           | 183 |
| الفصل الرابع: الاستقلال و تسيير التركة السوفيتية.....                                 | 185 |
| المبحث الأول: القومية العرقية و تكريس التمايز العرقي.....                             | 186 |
| المطلب الأول: القومية العرقية كأيديولوجية جديدة للدولة.....                           | 187 |

|                                                                         |     |
|-------------------------------------------------------------------------|-----|
| المطلب الثاني: سياسات الهوية و تأميم التاريخ.....                       | 190 |
| .....المطلب الثالث: اللغة كعامل مكرّس للتمايز العرقي                    | 192 |
| المبحث الثاني: تعقيدات المسألة العرقية و تبعاتها الأمنية.....           | 197 |
| المطلب الأول: الخريطة العرقية لدول آسيا الوسطى.....                     | 197 |
| المطلب الثاني: الحرب الأهلية في طاجاكستان.....                          | 202 |
| المبحث الثالث: الحدود و الأقليات كمعضلة أمنية ( وادي فرغانة مثالا)..... | 206 |
| المطلب الأول: تعقيدات المسألة الحدودية.....                             | 207 |
| المطلب الثاني: النزاعات الحدودية و تنمية المنطقة.....                   | 213 |
| المطلب الثالث: النزاع العرقي في منطقة أوش نموذجاً.....                  | 221 |
| استنتاجات الفصل الرابع.....                                             | 226 |
| الفصل الخامس: المعضلة العرقية في كازاخستان نموذجاً.....                 | 228 |
| المبحث الأول: التنوع العرقي في كازاخستان ( أسبابه و تبعاته ).....       | 229 |
| المطلب الأول: البحث في جذور المشكلة.....                                | 230 |
| المطلب الثاني: القومية الكازاخية كرد فعل على سياسة الاستيطان.....       | 234 |
| المطلب الثالث: الحراك القومي في مرحلة البريسترويكا.....                 | 240 |
| المبحث الثاني: روس الشتات في السياسة الخارجية الروسية.....              | 245 |
| المطلب الأول: معالجة الحكومات الروسية لمسألة "الأقلية الروسية" في عهد   |     |
| بوريس التسين.....                                                       | 246 |
| المطلب الثاني: العقيدة القومية الجديدة.....                             | 252 |

المطلب الثالث: توظيف مسألة الأقليات في ضوء الأزميتين

الجورجية و الأوكرانية.....255

المبحث الثالث: العامل الروسي في السياسة الداخلية و الخارجية لكازاخستان.....261

المطلب الأول: الاستقطاب العرقي كمهدد للاستقرار.....261

المطلب الثاني: تأثير المعضلة العرقية على السياسة الداخلية في كازاخستان.....267

المطلب الثالث: السياسة الخارجية كأداة للاندماج الداخلي و تحجيم

للتهديد الروسي.....270

استنتاجات الفصل الخامس.....277

الخاتمة.....280

الملاحق.....285

قائمة المراجع.....290

فهرس الجداول و الأشكال.....305

الفهرس.....308

الملخص.....313

## Abstract

Ethnic factor and its role in the stability of States study represents the first objective of this study, and to understand the role and the influence, it was necessary for this study to answer a series of questions designed to understand the nature of the dialectical relationship between ethnicity and political competition.

This study attempted to inventory all approaches the theoretical unexplained ethnic phenomenon, whether natural approaches and biological, were along the lines of the primordialism school or other approaches that consider the ethnic group such as social building, the study found unity of the discrepancy between these schools, but the attempt to reconcile these theories in our belief and take advantage of the scientific content in the interpretation of the phenomenon of ethnic sponsor briefing optimized the fact ethnic phenomenon combines natural and mildew on the one hand and social acquired on the other hand. For this our study on ethnic phenomenon wanted to clarify the mechanisms by which the conversion affiliations of natural origin to invest in the tools to achieve political goals.

This study has benefited from the basic social literature in the handling of the studies, ethnic, and in particular approaches of Ibn khaldoon and Weber, which focused on the nature of these affiliations and the possibility of employment in political competition, and is a trend adopted by many of the modern approaches that have become speak of ethnic politicization or a policy of ethnism.